د. غينادى غوريا تشكين

روسيا ومصر

فى ضوء الأرشيفات الروسية

(أواسط القرن الـ ١٩ - بداية القرن الـ ٢٠)

sharif mahmoud

د. غينادى غورياتشكين

روسيا ومصر في ضوء الأرشيفات الروسية

أواسط القرن الـ ١٩ - بداية القرن الـ ٢٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى : **صبرى عبد الواحد**

التنفـيـذ الفنى : **عصام محمد المرسى**

تـعريـف

كتـاب «نشـوء الطبـقـة العـاملة المصـرية (١٨٤١ ـ ١٩١٤)» للمـسـتـشـرق الروسى، الاخـتـصـاصى فى التـاريخ المصرى الحديث والأسـتاذ المساعد فى جـامـعـة مـوسكو، الدكـتـور جيـنادى جـورياتشكين يتـنـاول مـسـائل التطور الاجـتـمـاعى والاقـتـصـادى المصرى من سنة ١٨٤١ وحتى سنة ١٩١٤، تغيرات التركيبـة الاجتماعية فى المجتمع المصرى، تكوّن الفئات الأولى للعمال المأجورين ذوات النمط الرأسمالى ووضعهم الاقتصادى وتركيبتهم القومية وخصائصهم الاجتماعية والثقافية والنفسية ونشوء حـركـة الاحـتـجـاج الاجـتـمـاعـى للعـمـال المأجـورين من الأشكال الدنيـا كالعصيان والتمرد وحتى الأشكال العليا كالإعتصامات والإضرابات، وتحول قسم من الجـمـعـيـات الخيـرية المتـعـددة روابط التعـاون المشـتـرك إلى الاشكال الأولى للنقابات العمالية، فى المقدمة تعطى مميزات عمال المانيفاتورة فى عهد محمد على.

هذا الكتـاب يتـتـبـع تأثيـر الحركات القـومـيـة التـحـررية، والشخصيات المصرية الكريزمية، ونشاط العمال الأثنيين. اليونان والأرمن والإيطاليين والمسيحيين السوريين وغيرهم، ونشاط اللاجئين السياسيين الأوروبيين مؤسسى الجامعة الشعبية الحرة، على نشوء الطبقة العاملة والحركة العمالية.

لقـد استـعـمل المؤلف وصـاغ العـديد من المصـادر الفـريدة: المصـرية والروسـيـة والصحافة الغربية وأراشيف القاهرة وأوديسا وموسكو وسانكت بطرس بورج،

كذلك دراسات المؤرخين المصريين: عبدالرحمن الرافعى، وأمين عزالدين، سليمان النخيلى، رؤوف عباس، ورفعت السعيد، لطيفة محمد سالم، على بركات، طارق بشرى، عبدالعظيم رمضان وغيرهم، كذلك أعمال المؤلفين الروسيين والأوربيين والأمريكيين.

لقد تم تعارف القارئ العربى مع هذا الكتاب، اذ أن أحد فصوله ثورة العرابى باشا والبراعم الأولى للحركة العمالية المصرية فى سنة ١٨٨٢ (مع استعمال المراجع الروسية) قد طبع فى مجلة «نحن والعرب» فى العدد الثالث سنة ١٩٩٠.

يحوى الكتاب ٢٠ ملزمة. (والآن أقل. ١٦ ملزمة تقريبًا).

هذا الكتاب بدأ ترجمته خيرى (طارق) فى «دار التقدم» سنة ١٩٩٣(أبريل).

العراقى الأصل

مقدمة

الكتاب مكرس للذكرى الخمسين لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتي ومصر

يتناول هذا الكتاب موضوعًا هامًا، وآنيا لم يصبح حتى الآن، مع الأسف، موضع دراسة معمقة ومن كافة الجوانب. وتشكل استثناء نادرًا، ابحاث قليلة ضيقة النطاق بقلم مؤلفين سوفييت فى الأساس - بونداريفسكى، دانتسيغ، فيرسيسوف، بيرمينوف، وغيرهم. ومن بين أعمال الباحثين المذكورين نشير، بالدرجة الأولى، إلى المؤلف الأساسى لنيرسيسوف «التاريخ الدبلوماسى للأزمة المصرية عامى ١٨٨١ - ١٨٨٢ (فى ضوء مواد الأرشيف الروسية». موسكو، دار «ناؤوكا» ١٩٧٩، إن هذا البحث يعتبر فريدا فى نوعه من حيث الحجم، وبخاصة من حيث مدى اشتماله على مواد من الأرشيفات الروسية (وارشيفات بلدان أخرى أيضا) التى دخل الكثير منها لأول مرة حيز التداول العلمى، ويستحق الاهتمام التقرير المنشور للاخصائى الكبير فى ميدان العلاقات الدولية فى الشرقين الأدنى والأوسط بوندا ريفسكى «العلاقات الروسية المصرية فى اواخر القرن التاسع عشر (حسب معطيات الأرشيف). موسكو، ١٩٦٠.

وفى العصر الحديث أعار المستشرق السوفييتى دانتسيغ فى مقالاته (راجع، مثلا، دانتسيغ. الشرق الأدنى. موسكو، «ناؤوكا»، ١٩٧٦) اهتمامًا كبيرًا للرحلات إلى مصر التى قام بها كتاب وشعراء روس ولمؤلفاتهم المكرسة لهذا البلد. يتناول بيرمينوف ناحية هامة جدا للروابط الروسية المصرية بنشره مواد عن معاينات ووصف مصر من جانب الحجاج الروس فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة فى شبه جزيرة سيناء (راجع: «الحجاج الروس فى سيناء»). حولية «نحن والعرب». موسكو، دار التقدم، ١٩٩٠ باللغة العربية».

ومعروفة لدينا بعض الأعمال (ونأمل بان لا تكون كلها) لمؤلفين مصريين تمس عدة مواضيع من تاريخ العلاقات الروسية المصرية، من عداد ذلك، الدراسة المسهبة التى وضعها المؤرخ والشخصية الاجتماعية المصرى المشهور رفعت السعيد بصدد عدد من أوجه نشاط الثوريين الروس على أراضى مصر (راجع، مثلا، «تاريخ الحركة الشيوعية المصرية خلال أعوام ١٩٠٠ ـ ١٩٤٠» المجلد الأول، القاهرة، شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ص ١٨٧ ـ ٢٠٣، باللغة العربية). كما ننوه ببحث غير كبير بقلم فؤاد حسن حافظ عن ثورة أحمد عرابى، موضوع استناداً إلى معطيات من الأرشيف نشرها نيرسيسوف بهذا الصدد. (المستشار فؤاد حسن حافظ. ثورة عرابى. ثلاث وثائق. القاهرة، دار الغاية المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٢، ص ٢٥ ـ ٦٤، باللغة العربية).

بديهى أن هذه النواحى لا تكفى على الإطلاق لدراسة المسائل المتعلقة بالتفاعل بين الثقافتين الروسية والمصرية (العربية) على امتداد زمن طويل.

وفى رأينا أن الروابط العلمية الروسية المصرية قد حالفها الحظ بوجه خاص، فلعل القارئ يعلم أن كثيرين من المصريين العاملين فى حقل العلم ومعلمى مؤسسات التعليم العالى، ولا سيما العلماء فى اللغة الروسية وأدبها، اسدوا بقسط كبير فى معالجة القضايا المتعلقة بإبداع بوشكين، وغوغول، ودوستوفيسكى، وتشيخوف، وليف تولستوى، وغيرهم من أعيان الأدب الروسى، وبتأثيرهم على الأدب المصرى. فضلا عن أنه توجد ثمة أيضا مطبوعات تمس مباشرة هدف واختصاص كتابنا هذا، عنينا بذلك انتقاء مواد من الأرشيف فى

مجلة «الأرشيف التاريخى» عن العلاقات التجارية والعلمية الثقافية بين روسيا ومصر فى مطلع القرن العشرين. (راجع الملاحظتين رقم ٣٧، و٤٧ فى نهاية هذا الكتاب). يمكن، على الأرجح، مواصلة سرد هذه القائمة، ولكن الواقع يبقى واقعًا وهو أنه ليست جميع نواحى الروابط المتعددة الأوجه بين بلدينا، على الإطلاق، وجدت انعكاسا لها على صفحات المطبوعات. فكثير منها لم يجر بعد استقصاؤه، بل وهى غير معروفة على العموم حتى للاخصائيين - المؤرخين، علماء اللغة والأدب وغيرهم - ناهيك عن الجمهور الواسع من القراء، بالطبع، الذين يثير اهتمامهم الشديد كل واقع مكتشف من تاريخ علاقاتنا.

وإننى، إذ لا أدّعى بالإحاطة التامة لوثائق الأرشيف، التى تعكس تطور الروابط الروسية المصرية من كافة النواحى ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين، أتجرأ على القول أن هذا الكتاب يشكل محاولة للقيام، فى آن واحد وبدرجة هامة، كما نأمل، بدراسة مترابطة لعدد من نواحى الموضوع المطروح - فى الميدان السياسى، والتجارى والاقتصادى، والعسكرى، والسياحى الترفيهى ،الثقافى، والعلمى، والفلسفى الروحى، وما شابه من ميادين الوجود البشرى فى انعكاسها على العلاقات المتبادلة بين الثقافتين الروسية والمصرية.

إن جامع هذا الكتاب يعتبر أمرًا ضروريا أيضا الإشارة إلى أن ذلك هو أول محاولة هادفة لاطلاع الأوساط الاجتماعية المصرية على مواد الأرشيف المحفوظة فى الاتحاد السوفييتى والمرتبطة أوثق الارتباط بالأقطار العربية، بما فى ذلك جمهورية مصر العربية، فالقارئ المصرى (العربى) قليل الاطلاع على أبحاث تستخدم فيها ارشيفات، ناهيك عن منشورات لمواد الارشيف الحية. وفيما يخص الحقبة التى نحن فى صددها فهى تشكل مرحلة الاتصالات الأكثر كثافة بين روسيا ومصر فى العصر الحديث، إن هذه الحقبة التاريخية المديدة توفر امكانية تناول المسائل التى تهمنا لا فى ترابطها وحسب بل وفى زخمها أيضا، مما يتيح للقارئ إجراء موازنات ومقارنات معينة واستخلاص الاستنتاجات المطابقة.

الكتاب عبارة عن انتقاء لمواد ارشيف اصلية مزودة بتعليقات وملاحظات مناسبة ومنشورة بشكلها الكامل قدر الامكان. ويود جامع الكتاب بهذه المناسبة أن يلفت انتباه القارئ، خاصة، إلى أنه اضطر، فى حالات محددة، للجوء إلى اختصار بعض المقاطع لابسبب الاحداث والظروف والوقائع «الحادة» «غير الملائمة» بالنسبة لروسيا بل بسبب الحجم المحدود للكتاب، والمقدار الهائل حقا للموادالفعلية. وهو يرى أن تمليس «الزوايا الحادة» يفضى إلى تزوير تاريخ العلاقات المتبادلة وإلى ازدياد عدد البقع «البيضاء» أو «السوداء» فى هذه العلاقات فى حين أن زيادة عدد أمثال هذه الوقائع المكتوبة تتناقص مع هدف هذا الكتاب ـ معرفة احدنا الأخر بصورة أفضل وتعميق معارفنا عن بعضنا البعض ـ تؤدى إلى نتيجة عكسية تماما: إلى زيادة عدم الثقة تجاه بعضنا البعض.

لذا، وانطلاقا من الهدف المذكور أعلاه، وضع جامع الكتاب نصب عينيه مهمة اطلاع جمهور واسع من القراء المصريين على أكبر عدد ممكن من وثائق الأرشيف خلال الحقبة المعنية، دون أن يفرض لدى ذلك، فى التعليقات والملاحظات، وجهة نظره، تاركا للقارئ نفسه إمعان النظر فى ما يجرى، ونشير هنا بالذات إلى أن تحقيق هذه الأهداف والمهام بات امرًا ممكنا بفضل البيريسترويكا التى بنتيجتها أصبح بإمكان المرء فى ظل العلنية الاعراب بحرية عن رأيه الخاص وعن رؤيته الخاصة للأحداث، هذا أولاً، وثانيًا، باتت جميع مواد الأرشيف عمليا، المتعلقة بالحقبة المذكورة، فى متناول الباحثين، وثالثًا، تسهلت وتبسطت كثيرا عملية دراسة هذه المواد.

استخدمت فى الكتاب ملفات وثائقية من الأرشيفات الروسية الأساسية التالية: أرشيف الدولة التاريخى المركزى (لينينغراد)، أرشيف سياسة روسيا الخارجية (موسكو)، أرشيف الدولة لمقاطعة أوديسا (أوديسا)، أرشيف الدولة المركزى للتاريخ العسكرى (موسكو)، أرشيف الدولة المركزى لثورة أكتوبر (موسكو)، الأرشيف الحزبى المركزى (موسكو). فى أرشيف سياسة روسيا الخارجية استخدمت الملفات التالية «تقارير وزارة الخارجية»، «ديوان وزارة الخارجية»، «الأرشيف السياسى»، «السفارة فى القسطنطينية»، «القنصلية العامة

فى مصر». «المكتب التركى» «سانت بطرسبورغ. الأرشيف الرئيسى». وفى أرشيف الدولة التاريخى المركزى استخدم أساسا ملف «الشركة الروسية للملاحة والتجارة».

طبقا لوثائق الأرشيف المتوفرة تسنى إيجاد وانتقاء وتجميع ووضع المواد المتعلقة بالاتجاهات الأساسية للسياسة الخارجية للحكومة القيصرية، خلال أعوام ١٨٥٩ ـ ١٩٠٦، وذلك بتركيز هذه السياسة فى شكل تقارير سنوية من وزارة الخارجية إلى الامبراطور الروسى، ورسم جهودها الأساسية لعامى ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ مع استخدام مواد من أرشيف سياسة روسيا الخارجية وأرشيف الدولة المركزى للتاريخ العسكرى، وأتاحت وثائق أرشيف سياسة روسيا الخارجية القاء الضوء بصورة كافية من الاتساع على المسائل الهامة المتصلة بنشاط المهاجرين السياسيين الروس فى مصر. والبلاغات السياسية للقناصل العامين الروس ووكلاء القناصل الروس فى مصر ساعدت على توسيع التصور عن منشأ طبقة العمال الاجراء وأشكال احتجاجهم الاجتماعى فى تخوم القرنين ال ١٩ وال ٢٠ . وانعكست بشكل واسع فى مختلف الارشيفات الروسية حالة التجارة بين البلدين.وتشير مصادر أرشيف سياسية روسيا الخارجية الى التنوع الشديد للروابط العلمية الثقافية بين روسيا و مصر على امتداد كل الحقبة المعنية . وأخيرا،استخدم جامع الكتاب مواد إضافية (يوميات سفر، رسائل، قصائد) من أجل اظهار العلاقات غير الرسمية بين مواطنى روسيا والمصريين، لأن الوزن النوعى للتخالط غير الرسمى بينهم كان كبيرا جدا. وبالتالى جرت المحاولات الأولية الأولى ذات الطابع العام فى تقدير القيم الروحية النفسية والتقارب الممكن بين أبناء شعبينا.

فى الموضوع الآنف الذكر سنكتفى بالتنويه بملاحظتين ضروريتين اثنتين من جانبنا. كانت سياسية روسيا الخارجية فى المسألة المصرية ناشطة جدا.

ويمكن تحديدها بأنها كانت بمثابة مجابهة دبلوماسية نشيطة للمخططات الإنجليزية الفرنسية (ومن ثم الإنجليزية) حيال مصر، لأن هذه المخططات كانت تتناقض مع مصالح روسيا فى الشرق الأدنى، وبخاصة فى منطقة قناة السويس.

بديهى أن الفوارق فى سياسة روسيا القيصرية وسياسات سائر الدول الأوروبية العظمى لم يكن مردها إلى وجود موقف مختلف من الاستعمار أو من حركات التحرر الوطنى، فقد كان هذا الموقف ماثلا.

إن جوهر القضية يكمن فى شىء آخر - فى أنه كانت توجد لدى روسيا تلك المصالح فى مصر، فى منطقة قناة السويس على الغالب، التى حملت روسيا على مواجهة استيلاء الدول الغربية، وخاصة إنجلترا، على وادى النيل. بعد الاحتلال البريطانى كانت مهمة السياسة الخارجية للحكومة الإمبراطورية الروسية تنحصر فى المطالبة بمراعاة جميع المعاهدات والاتفاقيات المتعلقة بمصر بوصفها جزءا ذا حكم ذاتى من الإمبراطورية العثمانية، وفى الإصرار على جلاء قوات الاحتلال الانجليزية عن مصر، وكانت الأوساط الحاكمة لروسية بإصرارها على عدم تقسيم الامبراطورية العثمانية تجيب بالرفض على اقتراح انجلترا بالحصول على مضائق مقابل الموافقة على ضم إنجلترا لمصر.

كما كانوا يعترضون فى روسيا بشكل حاد على التلاعبات البريطانية التى تنتهك حياد قناة السويس . وبالإجمال كان موقف روسيا يؤثر على آمال المسألة المصرية، ويشكل واحدًا من الأسباب الرئيسية التى أجبرت حكومة لندن على الإحجام عن ضم مصر ضما مباشرا، وحتى الحرب العالمية الأولى حافظ هذا البلد بصورة شكلية على وضع بلد ذى حكم ذاتى ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية.

على هذه الأرضية كانت تترسخ وتتطور العلاقات الروسية - المصرية.

وفى حين كات الحكومة الروسية تصر على جلاء القوات البريطانية من مصر لاعتبارات سياسية ودبلوماسية بالدرجة الأولى، فقد كانت الأوساط - الاجتماعية التقدمية - فى روسيا تطالب بذلك انطلاقا من تعاطفها مع الشعب المصرى المكافح والمحب للحرية، ومن احترامها العميق لحضارته العريقة والإسلامية الرائعة.

وحسبنا التنويه بموقف فلاديمير سولوفيوف وفيودور مشاليابين وليسيا أوكرانيكا، الذين وردت أسماؤهم فى كتاب لييف تولستوى، بل وإن الحماس الذى تتحلى به الوثائق الروسية الرسمية يشهد أيضا بذلك.

إن أحد أبواب الكتاب الأكثر إثارة للاهتمام هو، فى رأينا، ذلك الجزء الذى يدور فيه الحديث عن وصول المهاجرين السياسيين الروس إلى مصر. فالوطنيون الثوريون الروس، الذين كانوا مضطرين للاختباء عن عيون رجال المباحث القيصرين على أرض مصر المعطاء، وإذ كانوا يتمتعون بحرية نسبية وبتأييد مهاجرين سياسيين من فرنسا والنمسا - المجر وإيطاليا الخ

والأوساط الاجتماعية المصرية، قاموا بعمل تنويرى وتحريضى دعائى ناجح وسط رعاية روسيا، وكانوا يرسلون إلى الوطن مواد بهذا الخصوص فعملوا بذلك على تعجيل هزيمة الحكم الفردى الاستبدادى القيصرى والمستغلين.

الكتاب موجه، على الغالب، إلى أفراد الأوساط الاجتماعية المصرية والعربية الذين يهتمون ببلادنا، بحاضرها وماضيها، وكذلك بتاريخ بلادهم.

ويأمل جامع الكتاب بأن أمثال هؤلاء ليسوا قلائل فى مصر وسائر الاقطار العربية، وهو يدرج فى عدادهم التلامذة والطلاب، والمدرّسين ورجال الأعمال ورجالات الأدب والفن، والمهندسين، إلخ،

كما يأمل بأن يستلفت الكتاب أهتمام النظريين والتطبيقيين، على السواء، الذين لهم صلة بالعلاقات الدولية ومهنة الصحافة والميادين الاجتماعية التاريخية والتجارية الاقتصادية.

ومن المحتمل تماما أن يثير كذلك اهتمام مئات وآلاف كثيرة من المصريين وأبناء سائر العالم العربى الذين تلقوا تعليمهم فى الاتحاد السوفييتى أو يتهيئون للقيام بذلك.

وعلى كل حال فإن جامع الكتاب، الذى يتعاطى الأبحاث الأرشيفية منذ حوالى خمسةعشر عاما، بذل جهده فى انتقاء مواد الأرشيف وكتابة المقدمة ووضع التعليقات والملاحظات مع الأخذ فى الحسبان اهتمامات أفراد العدد الأقصى من الشرائح والفئات الاجتماعية لسكان البلد الذى تسنت له زيارته أربع مرات خلال ربع قرن.

كما أنه يأمل بأن القارئ سيطلع باهتمام حيوى على وثائق أرشيفية يعود تاريخها إلى أكثر من مائة سنة مضت وستزوده بشحنة عاطفية كبيرة تقبع فى بلاغات الدبلوماسيين والوكلاء إلخ..

من دواعى الأسف أن كثيرا من المواضيع المثيرة للاهتمام فى العلاقات الروسية المصرية لم تدخل هذا الكتاب بسبب حجمه المحدود.

نظرا لذلك، ونظرا للاهتمام الزائد الذى أولاه بعض أفراد الأوساط العلمية السوفيتية والمصرية لإعلانات جامع الكتاب الأولى عن ظهور هذه المطبوعة، فهو يأمل بأن هذا الموضوع سيحظى بتطور ومعالجة لاحقين وسط العلماء السوفييت والمصريين وغيرهم من العلماء العرب،

وقد تظهر مؤلفات مشتركة بصدد قضايا العلاقات الروسية المصرية والروسية العربية وبصدد التفاعل والتداخل والإثراء المتبادل لثقافتى الشعبين الروسى والمصرى (والشعوب العربية).

يتقدم جامع هذا الكتاب بعبارات الشكر الجزيل إلى العلماء والأخصائيين السوفييت الذين قدموا له مساعدة كبيرة فى إنجاز هذا العمل، وإلى الزملاء المصريين الدكتور رفعت السعيد، وعميد آداب الإسكندرية الدكتور عمر عبدالعزيزو والأستاذ فى جامعة القاهرة الدكتور رؤوف عباس، وكثير من العلماء المصريين الذين ساعدوا بنصائحهم الثمينة على صدور هذا الكتاب.

إن جامع الكتاب سيكون ممتناً من تلك الملاحظات والرغبات التى ستصدر بصدد هذا الكتاب.

موسكو. فبراير (شباط) ١٩٩١

الدكتور غينادى غورياتشكين

تقارير إلى صاحب الجلالة عن أعوام ١٨٥٩ ـ ١٩٠٦
أرشيف سياسة روسيا الخارجية
تقرير إلى صاحب الجلالة
من وزير الخارجية عن عام ١٨٥٩

صاحب الجلالة الكلّى الرحمة

يسعدنى أن أرافع إلى رأيكم الإمبراطورى الأسمى

مصر

وضع الأمور فى مصر لم يتغير أبدا فى العام المنصرم. إدارة سعيد باشا تستنزف كما فى السابق موارد المنطقة الغنية المعهودة اليه.

إن سعيد باشا، الذى تخلو طبيعته من القساوة والتعصب الدينى الملازم للمسلمين ولكنه السريع التأثر والأرعن جدا، فقد بين أنه عاجز عن منح مصر ذلك التطور الذى تدعو إليه جميع الظروف المحلية هذا القطر إلى القيام به، وقد أدى التبذير الطائش إلى اثارة الاختلال فى المالية المصرية. والطلبيات والمشتريات، التى يجرونها فى أوروبا بدون أية حاجة إلى ذلك، تقدم فقط خدمة إلى تشجيع الدسائس المغرضة التى غالبا جدا ما تحظى بحماية الوكلاء الدبلوماسيين فى الاسكندرية.

الجيش تارة يزيدون عدده وتارة يخفضونه بدون أسباب مقنعة، ويجرى إنهاكه بدون حاجة إلى ذلك، إذ أنه يصاحب الباشا فى الرحلات الخاصة التى يقوم بها بدون هدف. وغالبا ما يكون من أجل التهرب من مضايقات أحد القناصل، ليس إلا. وسرعة تصديق سعيد تصل به إلى أنه كان يكفيه سماع تكهنات منجّم ما كى يقنعه بالقيام برحلة بحرية تعطى ذريعة لمختلف الأقاويل حول المكنونات السياسية لنواياه.

إن عدم ثبات النظام الحكومى والتشويش فى الأمور يزدادان بفعل الحسد المتبادل بين أخلاف محمد على.

العنصر التركى لدى سكان مصر المسلمين، الذى ساد زمنا طويلاً، أخذ الآن يتنحى أكثر فأكثر عن المناصب العليا. يسعى الباشا جهده لترجيح كفة العرب، ويختار منهم على الغالب ضباطًا لجيشه وهو لا يخفى احتقاره للنزعة الإسماعيلية، وأسفر نمط الأعمال غير الحذر هذا عن مؤامرة تم كشفها عندما بدأت تتخذ نطاقات خطرة.

فى ظل شبه التبعية هذه للباب العالى، التى وضعت فيها مصر بعد عام ١٨٤٠، ومن المفهوم أن سعيد باشا يحاول، من جهة، بلوغ وضع أكثر أصالة، وأن الباب العالى من جهة أخرى، يستغل جميع المحاولات لكى يحافظ على نفوذه على هذا البلد الأكثر غنى بجميع مصادر الثروة بما لا يقاس من سائر مناطق الإمبراطورية العثمانية.

هذه الحالة تفتح مجالاً رحبا أمام دسائس الوكالات الأوروبية، البريطانية والفرنسية على الغالب، التى تتغلب بالتناوب على بعضها البعض فى الصراع بينها.

إن القنصل العام الإمبراطورى الروسى، الذى لم يسمح لنفسه فى يوم من الأيام بالتدخل غير المناسب فى الشؤون الإدارية الداخلية للقطر والذى لم يشارك بتاتا فى شؤون الاحتكارات التجارية، يحظى باحترام غالب لدى سعيد. والباب العالى نفسه وجد من الضرورى الإيحاء لوزيره المصرى بان يسترشد فى ظل غموض الوضع الحالى للأمور فى أوروبا، بتعليمات روسيا وإنجلترا. وتبنى سعيد باشا ذلك الجزء فقط من النصائح الذى كان يتعلق بروسيا.

فى الآونة الأخيرة تواصلت دون ما عائق الأعمال التحضيرية لحفر برزخ السويس، وزيد عدد العاملين. لم يتقدم القنصل العام البريطانى باعتراض، بانتظار المفاوضات النهائية الجارية فى القسطنطينية حول هذا الموضوع الملحّ جدا بالنسبة لمصر.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٢

مصر

فى عام ١٨٦١ المنصرم كانت مصر تمثل منظرا كئيبًا لحكومة أوصلتها أخطاؤها إلى حالة حرجة استتبعها تشوش فى الشؤون المالية والادارة. فى ظل الظروف العادية للبلاد ينبغى أيضا إرجاع السبب الرئيسى لوضع مصر هذا، الذى لا يُحسد عليه، إلى تقلبات طبع سعيد باشا الذى ينساق تارة إلى التبذير المفرط ويلجأ تارة أخرى فى وقت غير مناسب إلى اجراءات توفير فى غير محله اطلاقا.

الرحلة إلى مكة للسجود أمام قبر النبى محمد ﷺ، التى نوى سعيد باشا عام ١٨٦٠ القيام بها، قام بها فى مطلع العام الماضى. ولكنها لم تحدث ذلك التأثير الذى كان الباشا المصرى يتوقع ممارسته على الشعب بهذا الإعلان المهيب، ولكنه المتأخر، عن تعلقه بدينه، وبقيت بلا جدوى المظاهر الطموح التى أثارها مدللو سعيد باشا فى نفسه سرا: السعى إلى ضم سوريا عن طريق التعاطف الشعبى للمسلمين. النتيجة المحسومة الوحيدة لسفرته إلى مكة كانت إنفاق ١٢٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

أكثر ما كان يقلق بال الحكومة هو مسألة المالية. يستفاد من معطيات موثوق بها أن واردات الخزينة المصرية بلغت ٩٤٨٠٠٠,٠٠٠ فرنك، ووصلت الديون إلى ٢٠٥٠٠٠,٠٠٠ فرنك.

إن عدم التناسب هذا بين الواردات والنفقات استوجب اتخاذ اجراءات رشيدة عاجلة لإعادة الميزان المالى إلى وضعه الطبيعى. على الرغم من أنه كان يمكن، فى ظل خصوبة الأرض المعلومة وسائر مصادر الثروة فى مصر، بلوغ هذا الهدف بوسائل التوفير والاقتصاد والزيادة التدريجية للتسليف الاجتماعى، إلا أن هذا النوع من التصرفات ليس من طبع سعيد باشا.

من بين الديون التى يبلغ الاشتراك به فى أسهم شركة شق قناة السويس ٨٧.٥ مليون فرنك، فى غضون ذلك تسير هذه القضية ببطء شديد وتوقع باشا مصر فى شتى أنواع المصاعب، فاعمال القناة تسير بخمول. والقائمون بها أنفسهم يعترفون سرا بأن الرمال المتحركة فى الرحاب الرملية تردم باستمرار مجرى القناة الجارى حفره.، إضافة إلى أن النقص فى العمال الأحرار يوقف العمل أيضا.

قام ديليسيبس، بعد أن استنفذ جميع الوسائل لإيجاد عمال بالأجرة، بإقناع سعيد باشا بتوجيه أمر سرى إلى مداراء المحافظات لإرسال حتى ٣٠٠٠ قروى إلى العمل. ورغم سرية هذا الأمر فهو لم يخف عن حدة نظر القنصل العام البريطانى، فأثار احتجاجه وتوضيحا متبادلا غير مستحب إطلاقا مع سعيد باشا.

من جهة أخرى - وفى الوقت عينه - وجهت الوزارة الفرنسية إلى وكلاء الباشا، الذين كانوا يجهدون فى باريس للحصول على قرض، ملاحظة صارمة بصدد اختلال وضع المالية المصرية.

وأثرت هذه الحالة تأثيرًا شديدًا فى نفس سعيد باشا فاندفع فجأة، بفضل تقلبات طباعه الفطرية، إلى التطرف المعاكس الذى لا يتناسب مع مقتضيات البلاد، فسرّح القوات، وأبقى فقط على ١٢٠٠ نفر من المشاة وفوج من الزنوج و٤٠٠ نفر من الخيالة، وعدد من رجال المدفعية، وأمر بأن تباع فى المزاد العلنى الأراضى الأميرية وأحصنة الخيالة ومركبات الشخصية، وحتى أثاث قصوره؛ كما كان الباشا ينوى سكب فضته وبيع مجوهراته وأقيل كثيرون من الموظفين، وقلصت بعض الدوائر وأغلقت هذه الإجراءات حسنت مالية مصر بعض الشىء

ولكنها أخلت بنظام الآلة الادارية باسرها لدرجة أن حتى أمن سكان العاصمة لم يكن مضمونا بسبب النقص فى عدد رجال البوليس.

وزادت فى كشف أضرار هذه الأوامر النكبة الاجتماعية التى حلت بمصر، الا وهى الفيضان الشديد لنهر النيل، فقد غطت مياهه الحقول وجرفت أكواخ الفلاحين المصنوعة من الطين وتعطبت مواصلات السكة الحديد والبرق والخسائر كانت فضيحة لا تحصى.

ولو أنه اتخذت مسبقا تدابير حيطة لكانت عواقب الفيضان المهلكة أقل بكثير، ولكن المهندسين، الذين كانوا يراقبون سير مياه النهر، تم تسريحهم، وجميع المواد المعدة لبناء السدود بيعت بأسعار بخسة لاجل التوفير، وأخذ الشعب، الذى فقد كل شىء واضطر للمعاناة من الجوع، يتذمر ويتهم سعيد باشا بأنه المذنب فى الكارثة الاجتماعية.

المخرج الوحيد من هذه الحالة البائسة كان الاستقراض، وعقدت الحكومة المصرية تقريبا قرضا بشروط جائرة للغاية، ولكن الباب العالى أبدى مقاومة حازمة فى إقرار القرض، عندها لجأ سعيد باشا، متحاشيا نفوذ فرنسا والباب العالى، إلى بنك ساكسن ماينينغهم الذى عقد معه قرضًا نهائيا.

وعندما استاءت الحكومة الفرنسية من ذلك طلبت من الباشا التزاما خطيا بتنفيذ التعهد التالى: عدم استلام قرض من أى مكان آخر سوى فرنسا.

والقنصل العام الروسى وجه بدوره، دفاعا عن مصالح البنك الألمانى، احتجاجا شديد اللهجة على ادعاء الفرنسيين هذا غير المألوف؛ وبغية الخروج من هذا الموقف الحرج قام باشا مصر بنفسه برفع هذه القضايا إلى الباب العالى للبت فيها.

وفى البدء رفضت الحكومة التركية التصديق على العقود، ولكنها عمدت فيما بعد، بغية استغلال تشويش المالية المصرية وتقييد استقلال الباشا بالتدخل فى شؤونه الإدارية، إلى اذهاله بنبأ غير متوقع، وهو أنه عقدت بنفسها قرضا مع بنك ساكسن = ماين معهم لصالح سعيد باشا، وفى الحال اجاب هذا بأنه يرفض القرض رفضا قاطعا ونزح إلى الصعيد. فى غضون ذلك احتج بيت لافيت

المصرفى ومكتب الحسابات فى باريس على عدم دفع الدين المصرى السابق، وطالبا بتسديده عن طريق جرد الممتلكات المنقولة وغير المنقولة العائدة لسعيد باشا شخصيا.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٣

مصر والحبشة

مصر

بعد وفاة سعيد باشا قام حزب المسلمين المتعصبين، الذين كانوا يأملون فى الحصول على رجحان حازم فى مصر، ببعض المظاهرات المعادية للأوروبيين، ولكن الاجراءآت الصارمة لنائب السلطان * الجديد وضعت حدًا لأعمال الشغب هذه، وعلى العموم تتميز إدارة إسماعيل باشا حتى الآن بالاعتدال والتعقل، أما جميل عطفة على اخواننا فى الدين، والذى تجلى حتى فى تقديم تبرع كبير لصالح الكنيسة الجارى بناؤه، فقد استتبعه حسن التفات من جانب جلالتكم بمنح نائب السلطان وسام النسر الابيض.

ومنح رمز الامتياز نفسه إلى البيه التونسى الذى أهدى الجمعية الأرثوذكسية فى تونس قطعة أرض للمقبرة وبرهن على إيلاء اهتمام خاص بإخواننا فى الدين.

التنازلات الكثيرة، التى منحها سعيد باشا لشركة قناة السويس، كانت ثقيلة الوطأة للغاية على مصر، ومن جراء ذلك يحاول إسماعيل باشا، المدعوم من قبل

(*) المقصود هنا وفيما بعد خديوى (باشا) مصر الذى كان يحكم مصر نيابة عن سلطان الإمبراطورية العثمانية بوصفها ولاية من ولاياتها . المترجم

الباب العالى، تغيير بعض الشروط؛ تنظر فى هذه القضية محكمة مدنية فى فرنسا، وعلى الرغم من أنها لم تنته بعد تماما فإنها ستجد من امتيازات الشركة الى حد كبير على الأرجح. وبريطانيا ـ ذات الاهتمام البالغ بشق قناة السويس ـ كانت تستولى على بضع جزر فى البحر الاحمر تعود لمصر ولم تنسحب منها إلا بعد الاحتجاج الشديد من جانب السلطان وسبق لإسماعيل باشا فى حينه أن شرع فى التحضير لإرسال بعثة عسكرية ضد الحبشة ولكنه أرجأ هذه الخطط العسكرية إلى وقت ملائم أكثر لأنه كان منشغلا بقضايا مصر الداخلية التى اختلت للغاية على عهد حكم سَلَفه.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٤

مصر

قضية شق قناة السويس، والاضطرابات التي حدثت في تونس، لا تمس مصالحنا مباشرة، ولذا فإن مفوضيتنا التمثيلية في القسطنطينية لم تشترك اشتراكا مباشرا في المفاوضات حول هذه القضايا، وتابعت فقط باهتمام سير هذه المفاوضات.

يواصل نائب السلطان المصري، إدراكا منه للنزاهة التامة لقنصليتنا العامة، محضها احتراما وثقة خاصين.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٦

مصر

بموجب نظام وراثة العرش، الذى أقر عام ١٨٤١ بالنسبة لمصر، أسند حق إدارة هذا القطر إلى أسرة محمد على، ولكن اختيار أحد أفراد هذه الأسرة واعتماده فى منصب نائب السلطان كانا يعودان للسلطان ذاته.

وكان هذا النظام غير ملائم من ناحية أن كل نائب للسلطان، بكونه غير واثق من نقل الحكم إلى نجله، كان يهتم باستدرار مختلف المنافع لصالح ملكيته الخاصة أكثر من اهتمامه برفاهية البلد. وجميع نواب السلطان رغبة منهم فى تأمين وراثة مصر لذريتهم، سعوا غير مرة لاقرار الوراثة ابنا عن أب، حسب حق النَسب، لم يوافق الباب العالى على هذه المطامع خشية زيادة شأن لقب نائب السلطان أكثر من اللزوم ولكن فى ربيع العام المنصرم أفلح إسماعيل باشا، باستغلاله الوضع المالى الحرج للباب العالى فى بلوغ الغاية المنشودة منذ زمن بعيد لقاء زيادة الإتاوة السنوية التى تدفعها مصر وإعطاء وعد بضمان قرض الباب العالى، وذلك على الرغم من ان النبأ الأولى بخصوص هذا التغير فى نظام وراثة العرش لم يحظ بارتياح كبير من جانب السكان المحليين، الذين كانوا يخافون من الزيادة القادمة للضرائب لاجل دفع اتاوة أكبر، إلا أنه من الممكن، ورغم هذه التضحيات، توقع نتائج مفيدة بالنسبة لمصر من جراء النظام الجديد، لأن لنواب السلطان أنفسهم مصلحة فى تطوير رفاهية البلد.

يتعين على الحكومة الإمبراطورية * الإعراب عن رأيها بصدد تغير النظام الذى أقرته اتفاقية عام ١٨٤١.

يكون من المناسب لجلالتكم الإمبراطورية، نظرا للفائدة المحتملة للنظام الجديد بالنسبة لمصر والحفاظ على العلاقات الطيبة مع نائب السلطان، وإصدار أمر بالإعراب عن موافقة الحكومة الإمبراطورية على هذا التغيير فى اتفاقية عام ١٨٤١.

إلا أن مطامع إسماعيل باشا لم تكن تقتصر على هذا الموضوع وحده، فثمة مسوغات للافتراض بأنه يأمل، وقد تشجع بتأكيدات السفير الفرنسى له، فى ضم جزيرة كانديا إلى مصر.

وبهذا الأمل يفسر اشتراك الحكومة المصرية النشيط فى قمع أنتفاضة كانديا، لقد كلف إشتراك القوات المصرية خزينة اسماعيل باشا لا أرواح عدد كبير من الناس وحسب، بل وتضحيات مالية كبيرة أيضا، وعندما أوضحت الظروف كل بطلان الأحلام بضم كانديا إلى مصر، عند ذلك عزم إسماعيل باشا على استغلال الوضع الصعب للباب العالى كى يكافئ نفسه لقاء الخسائر والتضحيات التى تكبدها.

وقد كلف المبعوث المصرى فى القسطنطينية نوبار باشا بأن يعلن لوزراء السلطان عن مطامع اسماعيل باشا بالحصول على بعض الحقوق الجديدة: لقب عزيز المصر، زيادة تعداد القوات.، الحق فى توزيع الأوسمة والترقية الى الرتب العليا وعقد اتفاقيات تجارية مع الدول الأجنبية، وبالقدر نفسه إصدار قوانين خاصة بالحكم الداخلى بدون اجراء اتفاق مسبق مع الباب العالى.

بدأ وزراء السلطان بالرفض الحازم إلا أنهم، وقد رأوا تصميم اسماعيل باشا على الإصرار على مطالبة، قاموا ببعض التنازلات التى لانعرفها بعد بالتفصيل.

إن وضع مصر المالى ليس على ما يرام تماما، ومما يزيد فى مصاعبه بشكل خاص الالتزام بدفع مبالغ كبيرة إلى شركة قناة السويس. الأعمال بخصوص هذا

(*) هنا وفيما بعد تقصد بذلك، فى نصوص التقارير السنوية وسواها من الوثائق الرسمية المرسلة إلى روسيا أو دوائر الدول الروسية الحكومة الإمبراطورية الروسية.

المشروع تتقدم قليلا - أصبحت الآن متوفرة إمكانية التنقل بين مدينتى بورسعيد والسويس - ولكن ينبغى تعميق القناة كثيرا جدا وتوسيعها كى تطابق الهدف؛ وسيتطلب الأمر ما لا يقل عن ثلاث سنوات لاجل إنجاز هذه الأعمال، هذا فى حال عدم حصول توقف فى الأحوال؛ يلزم لاجل إنجاز أعمال القناة ما لا يقل عن ١٠٠ مليون فرنك.

إما الشركة فلا يوجد لديها، بالاضافة إلى ما ينبغى آن تتلقاه من نائب السلطان سوى ٧٥ مليون فرنك.

قدم إسماعيل باشا إلى الشعب شيئا ما شبيها بالدستور، وذلك رغبة منه فى دعوة السكان إلى بعض المشاركة فى إدارة البلاد والمساهمة، بالتالى، فى تحسين الادارة فى المحافظات وتعديل الوضع المالى. فى ١٥ نوفمبر (تشرين الثانى) جرى فى القاهرة افتتاح احتفالى لأول اجتماع للشيوخ - ممثلى البلاد - وينبغى لجلسة الاجتماع - حسب نظامه الداخلى - أن تدوم شهرين. وتداول الاجتماع فى أهم القضايا المتعلقة بالقضاء، نهائيا على العمل الإجبارى، وإقامة مدارس شعبية واستخدام مداخيل الأوقاف وعقد قرض.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٧

مصر

سبق لإسماعيل باشا عام ١٨٦٦، تحدوه الرغبة فى استغلال الوضع الصعب للباب العالى، أن اعلن فى القسطنطينية عن مطالب شتى تجنح إلى توسيع نطاق سلطته، وحتى أنه لم يكن بعيدًا عن تحقيق آماله بالسيطرة على سوريا وجزيرة العرب.

غير أن طبعه غير الحازم ووضع مصر المالى أوقفاه عن الإقدام على ذلك، وعلى الرغم من ذلك فإن المفاوضات مع الباب العالى، التى بدأت عام ١٨٦٧، حول منح مصر تلك الحقوق نفسها التى كانت تتمتع بها فى الآونة الأخيرة امارات منطقة نهر الدانوب، تواصلت بوساطة نوبار باشا الذى أفلح فى الحصول على بعض التنازلات. فى شهر مايو (إيار) أعقب ذلك فرمان سلطانى موجه إلى نائب السلطان بمنحه لقب خديوى مصر وحق عقد بعض الاتفاقيات الدولية باسمه بدون معرفة الباب العالى، بينها: اتفاقيات جمركية وبريدية وغيرها.

إضافة إلى ذلك كان إسماعيل باشا، فى الوقت ذاته، يسعى لاستمالة الدول الأوروبية إلى الغاء الامتيازات القنصلية فى مصر واعدًا بان يُقيم عوضا عنها محاكم مختلطة جديدة، من شأن تركيبها أن يضمن حقوق الأجانب ولا يخرق نشاطها فى الوقت نفسه وحدة السلطة فى البلاد.

كما قدم نائب السلطان التماسا إلى الحكومة الامبراطورية بتقديم تأييد له فى هذه القضية، وقد وعُد بهذا التأييد فقط فى حال سحب الفيلق المصرى المساعد من كانديا دون ابطاء. وبناء على إلحاح سفيرنا فى القسطنطينية سُحب هذا الفيلق فقط فى سبتمبر (إيلول) العام الماضى، وعندها فقط أعربت حكومتنا عن موافقتها على النظر فى مشروع القضاء الجديد بخصوص مصر.

فى هذا المشروع، الذى وضعه نوبار باشا، ورد بينه أمور أخرى: إن الامتيازات، التى كانت تجرى على أساسها محاكمة الرعايا الأجانب، قدباتت باطلة؛ لأنه لا يجرى البتة تقريبًا الإسترشاد بها فى الوقت الحاضر لدى النظر فى قضايا الرعايا الأجانب، لذا فإن ادعاءات الحكومة المصرية بتشكيل محاكم جديدة مختلطة، مع السماح بأن يكون نصف أعضائها تقريبا من الأوربيين، إنما هى ادعاءات لاتخلو من المسوغات.. إلا أن إلغاء الامتيازات فى مصر قد يدفع الباب العالى أيضا إلى تقديم مطالب مماثلة، الأمر الذى لا يجوز فى الوقت الحاضر التسليم به.

نظرا لهذه الحالة أعربت بعض الحكومات الأجنبية عن رأى مفاده: أنه قد يكون من الأفضل ـ لا إلغاء الامتيازات كليا بل الإبقاء عليها، ولدى إنشاء محاكم جديدة فى مصر القيام بتعيين أعمالها بصورة أكثر دقة، والقضاء على ما اعتراها، مع مرور الزمن من استهتارات وتعسفات من جانب القناصل الأجانب.

فى أكتوبر (تشرين الأول) بدأت الاستعدادات لإرسال حملة بريطانية إلى الحبشة، وذلك على الرغم من أن الحكومة البريطانية قدمت لنائب السلطان أشد التأكيدات الإيجابية، على أنه ليس فى نيتها تثبيت أقدامها على شواطئ البحر الأحمر، فى مساواة.

وعلى الرغم من ان إسماعيل باشا اعترف بضرورة إرسال قوات إلى حدود الحبشة؛ وفى الوقت نفسه تنوى الحكومة الفرنسية، وهى تراقب تحركات فيلق التجريدة البريطانى، تأسيس محطة فى خليج الحبشة.

لم تنجح شركة قناة السويس فى الحصول على قرض. ويتوقع الرأسماليون الإنجليز بداية تصفية شؤون هذه الشركة بغية الاحتفاظ بهذه المؤسسة لأنفسهم.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٨

مصر

كانت الأعمال المتعلقة بشق قناة السويس تشكل قضية ذات أهمية أولى بالنسبة لمصر، وخريف العام الحالى ينبغى تدشين القناة اذا لن يسبب النقص فى المبالغ النقدية لدى الشركة أى تباطؤ غير متوقع.

نظرا للاستعجال فى توجيه سلع التجارة إلى قناة السويس مع الهند والصين، وعلى العموم جميع النقليات البحرية مع بحر الهند والمحيط الهادئ. اقترحت شركة دليسيبس على أكبر شركات للملاحة التابعة لمختلف الأمم، وكذلك على حكومات الدول البحرية، أن تشترى منها فى مدينتى السويس وبورسعيد أماكن لإنشاء مكاتب وترسانات وما شابه، استفادت الشركة الروسية للملاحة والتجارة من هذا الاقتراح، بينما لم تعتبر وزارة البحرية الروسية أمرا ضروريا إنفاق اموال يصاحب شراء مكان كهذا.

يعرب نائب السلطان المصرى دائما فى علاقات مع وكلائنا. وكذلك فى مختلف الشؤون التى تمس الرعايا الروس، عن الرغبة فى كسب رضى الحكومة الإمبراطورية. وبإذن من جلالتكم الإمبراطورية فإن وزارة الخارجية الروسية ايضا مستعدة دائما لتقديم عون للخديوى، وفقط بسبب انتفاضة كانديا ووجود قوات مصرية فيها أعرب سفيرنا فى القسطنطينية عن عدم رضاه تجاه

إسماعيل باشا الذى نزل عند رغباتنا مع ذلك وسحب قواته عام ١٨٦٧ من كانديا.

إن مطامع اسماعيل باشا بالاعتراف بنجله وريثا فى لقب نائب سلطان مصرى حظيت بتأييدنا. وفى الآونة الأخيرة أنعمت جلالتكم الإمبراطورية عليه بعنايتكم الكلية الرحمة بمنحه وسام القديسة آنّا من الدرجة الأولى.

ان اعتراف الباب العالى بالوضع شبه المستقل لنائب السلطان المصرى، الذى منح ليس فقط الحرية التامة فى شؤون الإدارة الداخلية بل أيضا الحق فى عقد بعض الاتفاقيات الدولية، بدون معرفة الباب العالى، مع الدول الأجنبية: اتفاقيات جمركية وبريدية وغيرها، إن ذلك دفع وزارة الخارجية الروسية إلى السعى لمنح قنصلنا العام فى مصر لقب وكيل دبلوماسى، الامر الذى تبعه اذن بذلك من جانب جلالتكم الإمبراطورية الكلية الرحمة.

بصدد مسألة دائرة اختصاص القناصل أذنت جلالتكم بالسماح لوكيلنا فى مصر بالاشتراك فى مناقشة هذه القضية فى اللجنة الدولية، فى حال انعقادها فى الإسكندرية، رغبة الحكومة الفرنسية بأن تعقد فى باريس تشكل حتى الآن عقبة فى طريق تأليف اللجنة.

إن البلبلة فى أوساط بطريركية الإسكندرية وأخوية جبل سيناء، التى استمرت حوالى عامين وسط أسف العام الأرثوذكسى، انتهت أخيرا. فبمساعدة سفارتنا ووكلائنا عقدت اتفاقية بين صاحب الغبطة نيكانور والطائفة الأرثوذكسية فى الإسكندرية بشأن انتخاب بطريرك الإسكندرية نائبا لرئيس الأبرشية، رئيس الأساقفة الجديد لجبل سيناء الذى انتخب، وسيم بطريركا كونيا، اعترفت به فى الآونة الأخيرة الحكومة المصرية وسائر البطاركة، على السواء، رغم التراجع عن بعض الأعراف والقواعد المتبعة لدى الانتخاب والوسامة.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٦٩

مصر

أعمال شق قناة السويس:

رغم أنه لم يتم بعد إيصالها إلى مرحلتها النهائية، قد تقدمت كثيرًا إلى الأمام بحيث أصبح بالإمكان، خريف العام المنصرم، تدشين القناة.

قرر الخديوى، رغبة منه فى إضفاء أكبر قدر ممكن من المهابة على هذا الحدث، أن يقوم شخصيًا بدعوة الشخصيات الحاكمة العليا فى أوروبا إلى الاحتفالات التى من المزمع القيام بها بهذه المناسبة.

الرحلة التى قام بها الخديوى إلى أوربا لهذه الغاية أحدثت انطباعا غير طيب البتة فى القسطنطينية، وطلبت الحكومة التركية التى رأت فى رحلة الخديوى بدون موافقة السلطان رغبة خفية فى فسخ علاقات التبعية القائمة التى تربط مصر بالباب العالى، أصبحت تطلب من إسماعيل باشا أن يحضر على الفور إلى القسطنطينية لتقديم تقرير عن أفعاله.

ولما لم يتجاسر الخديوى على إبداء مقاومة مكشوفة أرسل إلى الوزير الأعظم جوابا مراوغا حاول فيه تبديد شكوك تركيا؛ وخوفا من ألا يستغل الباب العالى غيابه لتدبير شىء ما ضده امتنع عن مواصلة رحلته وسارع فى العودة إلى مصر.

فى غضون ذلك حل الموعد المقرر للاحتفال بتدشين قناة السويس، وأخذ يصل إلى الإسكندرية ممثلو جميع الدول، ومن أصحاب التيجان الذين دعاهم الخديوى، وصلت إلى مصر الإمبراطورة أوچين والإمبراطور فرانتس جوزيف.
وقرر الباب العالى المستاء من الجواب المراوغ لاسماعيل باشا، وإذ لم يكن يرغب فى الاصرار على مطالبة اثناء وجود الامبراطورة أوچين والإمبراطور النمساوى فى الإسكندرية قرر التريث حتى يسافرا لكى يرسل إلى الخديوى إنذارا طالب فيه:

١ ـ بأن يخفض تعداد قواته إلى ٣٠ ألفًا،

٢ ـ بأن يسلم الحكومة التركية البنادق الجديدة والسفن المدرعة التى طلبها منها

٣ ـ بان لا يقيم علاقات دولية مع دول أجنبية، وبان لا يعقد قروضا بدون موافقة الباب العالى.

بعد تردد طويل وافق الخديوى، وقد فقد الأمل فى إيجاد تأييد له من طرف الدول الأوروبية فى هذه القضية، على جميع مطالب الباب العالى ووعد بالسفر قريبا إلى القسطنطينية لأجل إعلان خضوعه للسلطان.

ان المضايقات المقرونة بنظام سير المحاكمات، القائم على أساس الاتفاقيات والأعراف، قد انعكست بصورة غير مفيدة على التطور الصناعى والتجارى للبلاد؛ من جراء ذلك كان نائب السلطان يحرص كثيرا على نيل موافقة الحكومات الأوروبية على تحقيق بعض التحويلات بحيث لا يجرى تخفيض الضمانات المقدمة إلى الامتيازات الأوروبية، بإذن من جلالتكم الإمبراطورية وكلفت وكالتنا الدبلوماسية فى مصر بالاشتراك فى اللجنة الدولية التى كان هدفها البحث بصورة مفصلة وشاملة فى المشروع الذى وضعته الحكومة المصرية، وقد أنهت هذه اللجنة حاليا أعمالها.

يقضى مشروع الخديوى بأنه يجب على المحاكم، المؤلفة من أوروبيين وأشخاص محليين، أن تستبدل بالحق الامتيازى الممنوح وذلك بأن يجرى النظر فى دعاوى الأوروبيين بحضور مفوض عن القنصلية؛ يمكن اعتبار هذا النظام

مقبولا لو أنه كان يوجد إدراك للقوانين المدنية وقواعد للمرافعة ناجزة الصياغة؛ تعكف الحكومة المصرية حاليا على وضع مسودات لهذه الاحكام، بيد أنه لا يجوز لدى ذلك عدم الإشارة إلى أن مشروع الخديوى ينتهك، فى بعض أجزائه، الامتيازات؛ من ذلك. مثلا: الدعاوى بين الأوروبيين ـ قيام السلطات المصرية فى الحال بتنفيذ احكام المحاكم المختلطة بحق الأجانب، هذا، على الرغم من انه كان بالإمكان ـ نظرًا للفوائد التى تمس جميع الجهات المعنية على السواء، وبالموافقة العامة من جانب الدول الأوروبية الإقدام على بعض التنازلات والتراجعات عن الامتيازات، الا أنه لا ينبغى لدى ذلك أن يغيب عن البال أن الباب العالى لن يلبث أن يطمع بتطبيق مثل هذا النظام فى سائر ممتلكاته أيضا.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٠

مصر

مارست الحرب الفرنسية البروسية ونجاحات السلاح البروسى تأثيرًا شديدًا على نمط أعمال الحكومة المصرية. وصار الخديوى، وهو الذى كان فى السابق يسعى بشتى الوسائل لاستمالة عطف الحكومة الفرنسية، يعرب عن ازدرائه بكل ما يصدر عن فرنسا، بل وحتى أنه أخذ يقف منها موقفًا معاديا. فبناء على أمر صادر عنه جرى إبعاد الضباط الفرنسيين، الذين قدموا لتدريب القوات المصرية، واستبدالهم بضباط أميركان. وعندما وجهت إليه الحكومة الفرنسية المؤقته طلبا بتسليم السلاح لم يكتف نائب السلطان برفض هذا الطلب بل وابلغ الباب العالى بذلك أيضا.

وفى الوقت نفسه استدعى من باريس نوبار باشا الذى أرسل إلى هناك بهدف الحصول على موافقة فرنسا على مشروع الإصلاح القضائى الذى يغير بعض الشىء دائرة اختصاص القناصل فى مصر، ووضعته الحكومة المصرية استنادا إلى أسس صاغتها اللجنة الدولية. ومن ثم أوقف الخديوى المباحثات اللاحقة بخصوص هذا الموضوع محتفظا لنفسه بحق العودة إليه فى ظروف أكثر ملاءمة.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧١

مصر

بدأ عام ١٨٧١ بالنسبة لمصر بمصاعب مالية.، فقد كان نائب السلطان، وهو فى أمسّ الحاجة إلى النقود ولا يجرؤ على اللجوء إلى عقد قرض خارجى، مضطرا للإقدام على عقد صفقة مع بيت بيتوفهايم المصرفى الذى زود الحكومة المصرية بالمبلغ الضرورى لافتداء الالتزامات التى كانت توجد فى أيدى رأسماليين أجانب بشروط غير ملائمة البتة.

علاقات نائب السلطان بالباب العالى بقيت متوترة للغاية مدة طويلة بسبب الإشاعات التى وصلت إلى الحكومة التركية عن تسليح القوات المصرية وعن تحصين شواطئ البحرين الأبيض المتوسط والأحمر. ومن جراء هذا أيضا كان لإسماعيل باشا أعداء شخصيون كثيرون فى القسطنطينية حاولوا تصوير جميع افعاله للسلطان بأسوأ الصور.

بناء على أمر السلطان أرسل نورس باشا إلى مصر للحصول على إيضاحات من نائب السلطان حول هدف عمليات التسلح التى يقوم بها، وكذلك لكى يقتنع على الطبيعة بصحة المعلومات عن اعمال التسلح التى وصلت إلى الحكومة التركية.

لم يكن من الصعب على نائب السلطان اقناع رسول جلالة السلطان ببطلان تخوفات الباب العالى، ولدى عودته من مصر بدد نورس باشا كليا شبهات السلطان والوزير الأعظم على باشا الراحل بصدد نمط أفعال الخديوى. فالمعلومات عن التسلح تبدت مبالغا فيها؛ وفيما يتعلق بتحصين الشواطئ أعطى نائب السلطان وعدا لنورس باشا بأنه سيصدر على الفور أمرًا بايقاف الأعمال البادئة، ومن جراء انعطاف الأمور هذا تغيرت مواقف الباب العالى من الخديوى نحو الأفضل.

فى غضون ذلك، استغل الباب العالى، رغبة منه فى شل نفوذ الحكومة المصرية على القبائل شبه المستقلة فى الجزيرة العربية، الانتفاضة التى اندلعت فى اليمن، وذلك لإرسال حملة عسكرية إلى هناك سواء من أجل قمع الانتفاضة أم من أجل تعزيز سلطته فى اليمن. تكللت هذه الحملة بنجاح رائع، وثبت الباب العالى اقدامه نهائيا فى اليمن وشكل من هذه المنطقة ولاية منفصلة عين فيها حاكما عاما وأرسل إليها موظفيه وبهذا حرم الباب العالى نائب السلطان المصرى من أية امكانية لإيجاد تأييد له، فى حال الضرورة، من جانب قبائل الجزيرة العربية التى كانت حتى ذلك الزمن توجد فى وضع شبه مستقل عن الباب العالى.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٢

مصر

إن سوء التفاهم، الذى نشأ فى بداية العام الماضى بين الخديوى والباب العالى من جراء الإشاعات التى وصلت إلى الحكومة التركية حول التسليح الشديد للقوات المصرية والتحصينات التى كان يجرى إنشاؤها على شواطئ البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، قد زال تماما فى الوقت الحاضر مخليا المكان للعلاقات الودية جدا.

فإن رحلة نائب السلطان إلى القسطنطينية والإيضاحات التى قدمها إلى الباب العالى بهذا الصدد، بددت نهائيا شبهات السلطان الذى منح الخديوى، كمربون على عطفه الخاص، فرمانا بمنحه استقلالا تاما فى الإدارة الداخلية والحق فى عقد قروض خارجية بدون طلب إذن لذلك من الحكومة التركية.

وإذ استفاد الخديوى من هذه الظروف المواتية سارع الى استئناف المفاوضات مع الحكومات الأوروبية بشأن القضاء على دائرة اختصاص القناصل فى مصر، وإلى رفع مشروع الإصلاح القضائى إلى الباب العالى للتصديق عليه، هذا المشروع الذى وضع استنادا إلى الأسس التى صاغتها اللجنة الدولية فى القاهرة. بعد الحصول على استحسان الباب العالى بذلت الحكومة المصرية كافة الجهود لأجل استمالة الدول الأجنبية إلى إعطاء موافقتها على وضع المشروع قيد التطبيق، ولكنها صادفت فى هذه الحالة عددا غير قليل من المصاعب.

فالحكومة الفرنسية، التى لها مصالح تجارية هامة فى مصر، وقفت منذ البداية ضد خضوع رعاياها لدائرة الاختصاص القضائى للمحاكم المصرية الجديدة ووافقت على إحالة الدعاوى المدنية وحدها فقط إلى هذه المحاكم.

والحكومة الامبراطورية الروسية، رغم أنها أقل اهتماما بهذه القضية، لأن عدد رعاياها فى مصر قليل للغاية، لم تعتبر أيضا أمرا ممكنا حرمان نفسها من الضمانات التى تمنحها الإمتيازات وكلفت الياور العام اغناتييف (٢) بالتنسيق التام مع تصرفات السفير الفرنسى فى القسطنطينية.

الحكومات الأوروبية الأخرى ميالة أيضا إلى الرأى القائل أنه من غير المناسب منح المحاكم المصرية فى الفقرة الأولى حق النظر فى الدعاوى الجنائية والبت فيها.

بغية حسم هذه القضية جرى فى القسطنطينية تشكيل لجنة دولية خاصة من ممثلى السفارات والبعثات الاجنبية، المشروع الذى تنظر فيه اللجنة ينتظر الآن استحسان الدول الكبرى والمصادقة عليه.

أثارت زيادة شركة قناة السويس رسوم الملاحة، والطريقة الجديدة لجبايتها التى اتخذتها هذه الشركة، الاحتجاج من جانب الحكومة الايطالية التي قدمت بهذا الصدد شكوى إلى الباب العالى تطلب فيها الغاء الإجراءات التضييقية على التجارة، ذلك لأن فرض الرسم الجديد يتعارض مع فرمان الامتياز التجارى الذى أعطته الحكومة التركية.

نظرا لانضمام بعض الحكومات الأخرى إلى هذا الاحتجاج قرر الباب العالى إحالة البت فى هذه المسألة إلى مؤتمر دولى سيعقد فى القسطنطينية وسيتألف من ممثلى جميع الدول الكبرى.

ان الحكومة الإمبراطورية، إذ أخذت فى الحسبان وضع امور الشركة غير المواتى الذى يمكن فى ظله أن تنتقل القناة إلى ايدى الإنجليز، وهو أمر لن يكون مستحبا لنا فى حالى حدوثه، كلفت الياور العام اغناتييف ببذل كافة الجهود لمساندة مصالح الشركة فى المؤتمر القادم.

فى العام الماضى أرسلت الحكومة المصرية حملة عسكرية إلى الحبشة بهدف تأمين برغوس من خطر غزوات الأحباش التى لا تعود لهم فى جنوب مصر والتى ضمت إلى مصر منذ عهد محمد على باشا. ومن جراء شكوى الأمير كاسا وجهت الحكومة البريطانية إلى الخديوى، بضع مرات، طلبات استفسار بصدد هذه الحملة، وحاولت فى الوقت نفسه أن تطرح أمام الباب العالى المظهر السيئ القصد لأفعال الحكومة المصرية، غير أن إلحاح الحكومة البريطانية لم يسفر عن شىء لأنه سبق للخديوى أن ضمن لنفسه موافقة الباب العالى على القيام بهذه الحملة التى كان الغرض منها، بالدرجة الأولى، تأمين السكينة والنظام فى محافظات مصر الجنوبية المحاذية للحبشة.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٣

مصر

فى غضون العام المنصرم كانت مواقف الباب العالى تجاه مصر سانحة جدا، فعندما كان الخديوى موجودا فى القسطنطينية منحه السلطان بفرمان خاص حقوقا جديدة أوسع نطاقا فى إدارة البلاد، فبموجب هذا الفرمان، الذى على اساسه تم التصديق على جميع الفرمانات السابقة، جرى إقرار نظام توارث العرش فى مصر فى أسرة الخديوى وفق حق وراثة الابن للأب، وإلغاء الحد المعين لتعداد الجيش، والسماح لنائب السلطان بامتلاك أسطول حربى بعدد غير محدود من السفن وبدون طلب اذن من السلطان إلا بشأن بناء سفن مدرعة، وعقد اتفاقيات تجارية وبرقية وبريدية وما إلى ذلك مع دول أجنبية باسم نائب السلطان، وإصدار قوانين بصدد الإدارة الداخلية للبلاد، وإذ نال الخديوى، بموجب هذا الفرمان، وضع حاكم مستقل تقريبا وهو ليس مرتبطا مع السلطان سوى بدفع الإتاوة له، فقد حظى باستقبال مفعم بالعطف والحفاوة الكبيرين من جانب السلطان.

فى العام المنصرم أوصلت إلى نهايتها التامة تقريبا واحدة من المسائل ذات الأهمية الكبيرة بالنسبة لمصر، وهى بالتحديد مسألة الإصلاح القضائى. جميع حكومات أوروبا تقريبًا أيدت اتخاذ هذا الإصلاح بذلك الشكل الذى عرض فيه على نظر الحكومة، أى أن تنظر المحاكم فى مهلة خمس سنوات فى حق

الاستفادة من دائرة الاختصاص المدنى الممنوح لها. فيما يتعلق بدائرة الاختصاص الجنائى أرجئ اقراره، بالموافقة العامة لجميع الحكومات، حتى انقضاء مهلة السنوات الخمس الآنفة الذكر. حصل تطبيق الاصلاح القضائى، وفق الأسس المعروضة، حتى الآن على موافقة جميع الحكومات الأوروبية باستثناء فرنسا التى لا تزال تجرى مباحثات حول هذا الموضوع مع الخديوى.

إن حملة صموئيل بيكيو إلى أعالى النيل، التى كانت قد بدأت عام ١٨٧٢، انتهت فى غضون عام ١٨٧٣ بضم مناطق فسيحة إلى مصر مع القضاء على نظام العبودية وتجارة العبيد.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٤

مصر

العام المنصرم تميز بازدياد ممتلكات نائب السلطان المصرى بنتيجة ضم دارفور. فقد سحقت القوات المصرية، التى كلفت بمنع تجارة العبيد التى كانت تجرى بمشاركة أمير دارفور، قوات هذا الأمير الذى هلك فى المعركة. بعد الاستيلاء على الفاشر، العاصمة القديمة لسلاطين دارفور، أعلن رئيس الحملة جميع العبيد أحرارا واقترح على السكان الاعتراف بسلطة نائب السلطان عليهم وافق السكان على هذا الاقتراح باستثناء أسرة الأمير التى أفلحت فى الفرار، وعلى هذا النحو ضمت دارفور إلى مصر.

أثار مآل الحملة هذا قلق الباب العالى الذى يتخوف من أن ينال السلطان لقب سلطان دارفور، ويشغل بالتالى حيال تركيا ذلك الوضع الذى كانت تشغله الدانمرك، فى زمن ما، حيال الاتحاد الألمانى - أى، إذ يبقى فى أحد أجزاء ممتلكاته تابعا للباب العالى يغدو فى جزء آخر دولة مستقلة.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٥

مصر

فى العام المنصرم قام الخديوى بعدد من الحملات العسكرية لاجل توسيع ممتلكاته. فقد دخل، ولما يفلح فى تثبيت اقدامه فى دارفور، فى مفاوضات مع سلطان محافظة ودائى المجاورة عليها، حربيا. وفى الوقت نفسه، ورغبته منه فى تأمين اتصال بالبحر للمحافظة الواقعة فى اعالى النيل، اقدم الخديوى، بناء على نصيحة حاكم هذه المحافظة الانجليزى غوردون، على أرسال حملة ضد قبيلة زنجية فى الصومال تحت ذريعة انها تساند بنشاط الاتجار بالزنوج.

فى نوفمبر (تشرين الثانى) من العام الماضى احتلت القوات المصرية، بقيادة الانجليزى ماك كيلوب، جميع اراضى المحافظة التى تسكنها هذه القبيلة، وتم ضمها إلى ممتلكات الخديوى.

إضافة إلى ذلك أرسل الخديوى فصيلة كبيرة، بقيادة الدانمركى أرندروب، ضد نيفوس الحبشى الذى بدأ يحشد قواته على مقربة من الحدود المصرية. لقد كان الخديوى منذ زمن بعيد يضمر خططا ضد الحبشة، ولهذه الغاية التمس من السلطان ان يتخلى له عن ميناء زولا الواقع على الشاطئ الافريقى لدى الخروج من مضيق باب المندب، وافق الساطان على التخلى عن هذا الميناء لمصر بشرط آن تدفع سنويا للباب العالى ١٥ الف جنيه استرلينى.

إن توسيع حدود مصر وضم أراضى فسيحة إليها يقطنها عدد كبير من السكان الزنوج أوحيا للخديوى، بطبيعة الحال، بفكرة انشاء دولة افريقية كبرى ونقل مركز سلطته إلى الجزيرة العربية حيث من شأن السيطرة على المدن المقدسة بالنسبة للمسلمين أن توفر له امكانية اعلان نفسه خليفة. والضعف التام الذى اصاب تركيا قوى فى نفسه هذه المآرب الطموحة التى سرعان ما كان ينبغى لها أن تتحطم أمام الواقع، فمن جهة صرعه نبأ الابادة التامة تقريبا لفصيلته التى أرسلها ضد الاحباش، ومن جهة آخرى فإن تخفيض الحكومة التركية لمدفوعات الفوائد المئوية على القروض حتى النصف انعكس بصورة غير نافعة للغاية على المالية المصرية ايضا.

فتعرضت الأرصدة المصرية للتدنى، بينما هبط استقراض الخديوى لدرجة ان اصحاب البنوك وافقوا على اعطائه نقودا لأقصر مهلة وبفوائد مرتفعة، سارع الانجليز إلى استغلال مصاعب الخديوى المالية واقترحوا عليه أن يبيع للحكومة الريطانية اسهم قناة السويس، والموجودة فى حوزته، لقاء مبلغ ٤ ملايين جنيه استرلينى، ونظرا لوضعه المرزى وافق الخديوى على هذا الاقتراح.

أثارت هذه الصفقة بعض الامتعاض لدى الباب العالى، ولكن السفير البريطانى فى القسطنطينية أكد للسلطان انه لن يطرأ أى تغير على وضع قناة السويس من جراء ذلك. وفيما يخص دليسيبس فهو لم يكتف بعدم ابداء استياء من نمط افعال الحكومة البريطانية بل حتى انه أعلن على أصحاب الاسهم أن مشاركة بريطانيا فى المشروع يشكل، فى رأيه، اوثق ضمانة لازدهاره.

بعد شراء الأسهم مباشرة أخذت الحكومة البريطانية على عاتقا حل المسألة المتعلقة، بالتعرفة على السفن التى تعبر قناة السويس. رغم ان هذه المسألة قد حُلت نهائيا من جانب اللجنة الدولية فى القسطنطينية عام ١٨٧٣؛ فإن المضايقات الناجمة عن التعرفة بالنسبة للشركة دفعت دليسيبس فى ابريل (نيسان) ١٨٧٥ إلى رفع التماس إلى حكام الدول فى القسطنطينية بشأن أدخال بعض التعديل على التعرفة المقدرة، بعد إقتنائها الأسهم أخذت الحكومة

البريطانية على عاتقها المشاغل المتعلقة باقرار هذه التعرفة على تلك الأسس نفسها التى كانت ترفضها حتى ذلك الحين.

بشراء أسهم القناة اتخذ نفوذ بريطانيا فى مصر طابع الحماية، وتحت ذريعة اعطاء الخديوى نصائح لتنظيم المالية المصرية أوفدت الحكومة البريطانية إلى مصر لجنة حاشدة كان يرأسها كايف كبير امناء خزينة بريطانيا، وذلك بهدف الإطلاع عن كثب على الوضع المالى للبلاد.

إضافة إلى ذلك وضعت بريطانيا سلطان زنجبار تحت حمايتها واجبرت الخديوى على استدعاء قواته من محافظة الصومال ونوايا الخديوى الاستيلائية تجاه الحبشة شلها ايضا النفوذ البريطانى، ونتيجة لذلك تلقت الفصيلة المصرية، التى كانت تعمل ضد الاحباش، أمرا بالاقتصار على الأعمال الدفاعية.

فى الأول من شهر يناير (كانون الثانى) بالتقويم الجديد للعام الجارى افتتحت بصورة احتفالية المحاكم المصرية الجديدة. الحكومة الفرنسية،و التى ظلت مدة طويلة تمانع فى الانضمام إلى الاتفاقية المعقودة بين سائر الحكومات الأوروبية بشأن هذه المحاكم، قررت إخضاع رعاياها القاطنين فى مصر لعمل هذه المحاكم، أول عمل قامت به هذه المحاكم لدى افتتاحها، كان تشكيل لجنة خاصة لانجاز الأمور المتعلقة باعتراضات الرعايا الاجانب على الحكومة المصرية.

علاقات الخديوى بالسلطان اصبحت فاترة جدا، ويتضح ذلك من انه أرجأ، بذرائع مختلفة، سفرته العادية إلى القسطنطينية.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٦

مصر

فى العام المنصرم اعار الخديوى اهتماما خاصا لشؤونه المالية بغية التخلص من واجب الدفع الفورى وفق القروض القصيرة الامد وتحويل هذه القروض إلى طويلة الامد بحيث يكون بالإمكان دفع الفوائد المئوية فقط مع حصة غير كبيرة من التسديد. اخذ البنك الانجليزى المصرى على عاتقه اصدار سندات بفائدة ٧٪ تسدد فى غضون ٦٩ عاما، أما السندات التى توجد بصددها التزامات ديون أخرى للحكومة المصرية فكان يتوجب تبديلها بمبلغ ٩١ مليون جنيه استرلينى.

المرسوم بصدد هذا التوحيد للديون المصرية صدر فى ٧ مايو (ايار) واثار استياء فى اوساط المقرضين. ولم يوافق أصحاب الكمبيالات، التى حررتها الدائرة (دائرة الاملاك الخاصة للخديوى)، على التبديل المقترح عليهم ورفعوا إلى المحاكم المصرية الجديدة دعوى على الخديوى، وعملاً بقرار المحكمة اضطر الخديوى لدفع كامل المبلغ حسب الكمبيالات، علما بان المحكمة اقرت بانه لا يمكن للخديوى ان يغير بسلطته مواد مجموعة القوانين التى صادقت عليها الدول، هذه المواد المتعلقة بالدفع حسب التزامات الدين.

لم يوافق الخديوى على الاذعان لقرار المحكمة وارسل إلى جميع الدول احتجاجا ضد صحة القرار المتخذ شارحا ذلك بأنه لا يحق للمحاكم رسم حدود

سلطته التشريعية. ومع أن جميع الحكومات الأوروبية اعربت بالاجماع عن رأى يقول بضرورة الاذعان لقرار المحكمة فان الخديوى يباطئ فى تنفيذه.

رغم وضعه المالى الشاق للغاية اشترك الخديوى اشتراكا نشيطا فى الحرب، التى دارت فى شبه جزيرة البلقان، فبناء على طلب السلطان أرسل بحماس عظيم إلى القسطنطينية قوات مساعدة من ٦ آلاف نفر من المشاة مع عدد كبير جدا من المدفعية ورجالها.

كان الجنود حسنى التسليح ومزودين بذخائر حربية وافرة العدد، وفى وقت لاحق زيد عدد هذه الفصيلة بارسال تعزيزات.

هذا الانفاق الجديد، الطارئ بالنسبة للخديوى، وضعه فى حالة يستحيل معها عليه ان يفى لمقرضيه حتى بتلك التعهدات التى قطعها على نفسه بموجب مرسوم ٧ مايو (ايار). والصندوق الخاص، الذى اقيم لاجل دفع الفوائد المئوية وتسديد الدين، لم يتلق أى شىء تقريبا من ابواب الواردات التى كان المرسوم قد وضعها تحت تصرفه.

احتج المفوضون الاجانب على هذه التصرفات وهددوا الخديوى برفع شكوى عليه إلى دوائر قضائية جديدة. ولكن الخديوى حظى مجددا، بفضل مشاركة ممثلين عن المقرضين الفرنسيين والانجليز للخديوى، أى بالتحديد غوشين وجوبير، على امكانية تهدئة مقرضية لفترة من الزمن، وفقا للشرط الذى وضعه هذان الممثلان قُدم للخديوى مليونا ليرة من سندات سكك الحديد المصرية، ولكن الخديوى وضع تحت اشرافهما، مقابل ذلك، جميع سكك الحديد والعائدات من ميناء الاسكندرية، فى اعقاب هذا الاتفاق اصدر الخديوى فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) من العام الفائت مرسوما جديدا نقل بموجبه إلى الشركة الانجليزية الفرنسية حقوق التصرف بجميع عائدات البلاد فكبل نفسه بالالتزام بعدم عقد ايه ديون جديدة.

على العموم اشتد نفوذ بريطانيا فى العام المنصرم، وكان الخديوى قد حاول ترتيب أموره المالية بمساعدة الرأسماليين الفرنسيين وحدهم، ولكنه لم يفلح

وأذعن على غير إرادة منه للشروط القاسية من جانب الرأسماليين الانجليز الذين انضم اليهم الفرنسيون ايضا .

فى شهر فبراير (شباط) من العام المنصرم اشترت بريطانيا من الحكومة المصرية جزيرة سقطرة التى تقع عند المخرج من البحر الأحمر إلى المحيط الهندى وتتسم بأهمية استراتيچية كبيرة تعززت سلطة الخديوى فى افريقيا الوسطى نهائيا بضم أراضى تقع حول بحيرتى فكتوريا وألبرت،. وعلى نهر سوميرست الذى يربط هاتين البحيرتين بالنيل الأبيض، ينوى الخديوى انشاء محطات خاصة لحماية الملاحة، ويأمل بفتح هذه البلدان البعيدة أمام التجارة المصرية.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٨

مصر

فى شهر سبتمبر (ايلول) من العام الماضى استؤنفت علاقاتنا الدبلوماسية مع مصر التى انقطعت اثناء الحرب الماضية مع تركيا.

فى التعليمات التى اعطتها وزارة الخارجية لمستشار الدولة الفعلى ليكس جرى توجيه انتباه ممثلنا، بالدرجة الأولى، نحو بذل جهوده ما أمكن لاضعاف نفوذ بريطانيا الذى اكتسب رجحانا حازما فى مصر. ولهذه الغاية كلف بتحاشى التدخل المباشر فى شؤون إدارة مصر، ولكن بان يحاول كسب نفوذ شخصى على الخديوى ووزاراته بافهامهم ان الحكومة الامبراطورية، رغم طابع الكراهية الذى اتسمت به افعالهم اثناء الحرب الماضية، سوف تتخذ شأنها فى السابق موقفا مناصرا لمصالح مصر.

صادف وصول وكيلنا الدلوماسى بتنفيذ اصلاح حكومى هام يتعلق بمسؤلية الوزارات وضع الخديوى مشروعه تحت ضغط انجليزى، عشية ذلك كلف نوبار باشا بتأليف الحكومة، وبموجب فحوى الجواب الخطى، الذى وجهه نوبار باشا بهذه المناسبة إلى الخديوى؛ فإن جميع المسائل المتعلقة بادارة البلاد يجب النظر فيها فى مجلس الوزراء برئاسة رئيس الحكومة (الوزير الأول) والبت فيها بأغلبية الاصوات، وكان ينبغى على القرارات، التى تتخذ على هذين الأساسين، وبعد مصادقة الخديوى عليها، ان تكون مرشدا بالنسبة للوزراء.

كان ينبغى لتأليف حكومة مسؤولة كهذه، فى رأى الخديوى ان يساعد على تحقيق مقاصده المتعلقة بتحسين وضع مصر الادارى والمالى، اما فى واقع الأمر فقد كان هذا الاصلاح اول موصل للنفوذ البريطانى إلى الاوساط العليا لادارة الدولة.

أهم حقيبة فى حكومة نوبار باشا، حقيبة وزير المالية، حصل عليها الانجليزى ريفيرس ويلسون الرئيس السابق للجنة المالية فى مصر، حتى ذلك الحين تسنى للإنجليز فى فاصل زمنى قصير نسبيا، وضع مشاريعيهم من التبعة الانجليزية على رأس جميع أهم مجالات الادارة الداخلية، فان سكك الحديد ومراكز البريد، والموانئ والجمارك حراسة الحدود والشرطة فى البحر الأحمر اصبحت فى أيدى الانجليز الذين كانوا يحملون القاب باشاوات وبيكاوات ويديرون شؤون البلاد ويتلقون من الحكومة رواتب ضخمة، بتعيين ويلسون وزيرا للمالية غدت مصر وكأنها مستعمرة بريطانية حيث لم يعد يجوز لتجارة الانجليز أن تصادف منافسة بينما أصبح البت فى المسائل والمصاعب المالية مرهونا بارادة الحكومة البريطانية.

وفرنسا التى كانت تتمتع فى السابق بنفوذ اولوى فى مصر لاحظت غفلتها، ولكن بعد فوات الأوان، واخذت تعمل بكل نشاط على مواجهة نفوذ بريطانيا المتزايد القوة، غير أن جميع مساعى الحكومة الفرنسية لم تسفر فى الحاصل سوى عن بقاء وزارة الاشغال العامة،و الثانوية الشأن، لفرنسا فى شخص بلينيير. وباءت بالفشل جميع جهود فرنسا بصدد وضع اراضى الموانئ وسكك الحديد تحت اشراف بلينيير.

الوزارات الباقية: الداخلية، التعليم العام، الحربية، وزعت بين باشاوات مصريين، احتفظ نوبار باشا لنفسه، بالاضافة إلى رئاسة مجلس الوزراء، بحقيبة وزير الخارجية، وعليه، فقد دخل حكومة نوبار باشا اجنبيان: انجليزى وفرنسى، وكلاهما أوصت بهما حكومتاهما اما ادعاءات ايطاليا بان تمثل فى الحكومة المصرية الجديدة فقد رفضت.

كان ينتظر هذه الحكومة عدد غير قليل من المشاغل، وبالدرجة الأولى فى القضاء على المصاعب المالية للحكومة المصرية فقد كان الدين القصير الأمد غير المحول الى دين طويل الامد، والقسائم الثابتة للدين القصير الامد المحول إلى دين طويل الامد تتطلب التسديد، وكان مقرضو الحكومة يسعون، بواسطة المحاكم المختلطة الدولية، للحصول على مطالبهم؛ واضيفت إلى ذلك طائفة من المطالب المتعلقة بعدم دفع المعاشات والرواتب للموظفين، وكانت موارد البلاد قد نفذت، والمزارعون، وهم المصدر الرئيسى ليسر البلاد، اصيبوا اخيرا بالافلاس بسبب جباية الضراءب منهم قبل الاوان، والفيضان الشديد غير المعتاد لمياه النيل لم يكن يبشرهم بالخير فى المستقبل.

فى هذه الظروف عقدت الحكومة المصرية فى نوفمبر (تشرين الثانى) فى بريطانيا، بمعونة ويلسون ووساط بنك آل روتشيلد، قرضا خارجيا بفائدة ٥٪ ومبلغ اسمى قدره ٨,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى تحت كفالة الاملاك غير المنقولة التى تخلى عنها الخديوى واسرته لصالح الدولة، كان هذا القرض مخصصا لتسديد الديون القصيرة الامد والدفع بموجب قرارات المحاكم المختلطة.

فى غضون ذلك قلما كانت حكومة نوبار باشا، بعد ان استخدمت من أصل ٦ ملايين للمبلغ الفعلى للقرض المعقود مليونين لاجل تسديد قسائم الأول من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٨ للدين طويل الامد، تهتم بتسديد القروض الاخرى للحكومة.

فالأموال المستحصلة بالقرض تبدت لازمة لأجل تغطية العجز الهائل فى الميزانية المصرية لعام ١٨٧٩، وراح الوزراء، وعلى رأسهم الانجليز يروجون على المكشوف لرأى يقول ان الحكومة عاجزة عن دفع ديونها وان هذه الديون يجب تخفيضها بنسبة ٤٠ ـ ٥٠٪ وقد احدث ذلك استياء فى أوساط مقرضى الحكومة الكثيرى العدد، بينما كان خمول الوزراء التام بصدد تحسين الوضع البائس للاقليم يجند السكان المحليين ضدهم.

فقد أخذ السكان الاصليون يعتبرون الانجليز بحق مذنبين فى تزايد فقر البلاد التى أصبحت الآن مضطرة لأن تدفع أكثر من السابق بثلاث مرات على رواتب الموظفين الانجليز الذين لم يعملوا شيئا لخير الاقليم.

فى نهاية العام الماضى قد أمسى من الممكن التكهن بسقوط حكومة نوبار باشا، الذى عجلت فيه احداث الآونة الاخيرة. ففى اعقاب التمرد الذى اندلع فى القاهرة اضطر نوبار باشا لتقديم الاستقالة التى وافق عليها الخديوى، والأزمة الحكومية لا تزال مستمرة حتى الوقت الحاضر لأن لا أحد من الباشاوات يرغب فى ان يأخذ على عاتقه تشكيل حكومة جديدة اذا لم يشارك الخديوى فى ادارة البلاد، ويمكن الامل فى أن ايطاليا، ولا سيما فرنسا، لن تفلتا فرصة استغلال سخط السكان المحليين على الانجليز والفتور السافر من جانب الخديوى نحوهم وذلك بغية اضعاف النفوذ الذى اكتسبته بريطانيا خلال الآونة الاخيرة فى مصر. ولكن ينبغى الاعترف للانجليز بمهارتهم الكبيرة فى استدرار المنافع لانفسهم من المصاعب الشبيهة بتلك القائمة فى مصر؛ ان اكبر مقرضى الحكومة ينتمون إلى القومية الانجليزية، وسيكون من المناسب للانجليز، بصورة أولى، التصرف بحيث يستطيعون دائما، فى الحسابات المالية مع الحكومة، والتعويل على تأييد فرنسا تلك عينها ذات المصلحة المماثلة بالدرجة نفسها لمصلحتهم فى ذلك.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٧٩

مصر

وضع الأمور فى مصر تردى كثيرا فى العام المنصرم. فقد تعقدت الشؤون الداخلية بسبب التدخل المباشر من جانب بريطانيا وفرنسا فى إدارة البلاد؛ وتفاقمت الأزمة المالية واستتبعت، وسط مساندتها بمكائد الممثلين الاجانب، وسقوط اسماعيل باشا الذى ادى إلى الاستتباب النهائى للنفوذ الانجليزى الفرنسى فى البلاد، ومن الخارج كان يهدد البلاد صدام لم تتم تسويته مع الحبشة.

الاسباب التى اثارت انقلابا حكوميا فى مصر مردها إلى المصاعب المالية؛ فان أهمال الخديوى المخلوع وحبه للتبذير، وجشع ورياء الباشاوات الذين كانوا فى عهده يرأسون شؤون الادارة، ولّدت عددا كبيرا من قروض الحكومة، وفرمان السلطان عام ١٨٧٣، الذى منح الخديوى، بين أمور اخرى، وكذلك الحق فى العقد المباشر للقروض الخارجية، كان وكأنه اشارة إلى تدفق شتى انواع المضاربين على مصر، الذين سرعان ما مارس نشاطهم تأثيرا على الازدياد التدريجى لديون الحكومة.

فى عام ١٨٧٦ وصل إلى مصر السيدان غوشين وجوبير بوصفهما ممثلين: الأول عن المقرضين الانجليز، والثانى عن المقرضين الفرنسيين، لاجراء مفاوضات مع حكومة الخديوى حول تسوية المدفوعات بموجب التزامات الدولة،

وتبع ذلك توحيد للدين تحول إلى مرسوم من جانب الخديوى بتاريخ ١٨/ ١٠/ ١٨٧٦ ولم يحل، بالمناسبة، المصاعب القائمة؛ لأن مصالح المقرضين حسب الدين القصير الأمد لم يجر، لدى ذلك، تأمينها بصورة كافية.

اما بالنسبة للدين الطويل الامد فلم تكف مداخيل الدولة لدفع الفوائد المئوية المتفق عليها، عندها تم بالحاح من انجلترا وفرنسا تأسيس لجنة تحقيق عليا على مالية مصر اعطت تحقيقاتها الحكومتين الانجليزية والفرنسية مسوغات للاصرار على تأليف حكومة مسؤولة برئاسة نوبار ومشاركة ويلسون وبلينيير كممثلين عن الحكومتين المذكورتين.

هذا التدخل المباشر، الذى اباحه الخديوى لأول مرة، من جانب انجلترا وفرنسا فى إدارة مصر قلما ساعد على تصحيح اخطاء اسماعيل باشا السابقة، والممتلكات غير المنقولة، التى تخلى عنها هو واسرته لصالح الدولة، كانت فقط بمثابة مسوغات لحكومة نوبار باشا لأجل عقد قرض جديد، بوساطة روتشيلد، بشروط تكبل ايدى الحكومة المصرية حتى ايامنا هذه، بعد دفع جزء من القرض اوقف روتشيلد الحصص التالية بحجة أن الرهون العقارية، التى فرضت سابقا لصالح بعض مقرضى الحكومة، لم يجر حسمها من مبلغ الممتلكات المقدمة لضمان القرض.

والعقد الذى وقعه ويلسون فى فبراير (شباط) ١٨٧٩ منح روتشيلد حق التصرف على هذا النحو اذ حرم الحكومة المصرية من امكانية التصرف، فى حال اعتبار ذلك ضروريا بسبب حاجات الدولة، فى هذه الممتلكات بأى شكل كان، وهى الموارد الوحيدة التى كانت لا تزال حرة قبل توقيع العقد.

فى ظروف كهذه كان يترتب على اسماعيل باشا اللين العزيمة أن يعمل فى الشهرين الاخيرين من حكمه ، واستقالة نوبار باشا واستبداله بتوفيق باشا، الخديوى الحالى، لم يغيرا وضع الامور نحو الاحسن؛ بل على العكس ازداد تعقيدا بتبادل البيانات بين الخديوى والممثلين الدبلوماسيين لانجلترا وفرنسا، هذه البيانات التى يكمن فحواها فى الاقرار للوزيرين الاوروبيين بحق عدم

استبدالهم بدون موافقة حكومتيهما وحق النقض (الفيتو) المطلق تقريبا بصدد جميع شؤون مصر. وهذه البيانات يمكن اعتبارها الاساس الوحيد لادعاءات انجلترا وفرنسا اللاحقة.

المشروع الذى سرعان ما عثر عليه ويسلون، والذى يعلن عجز المالية المصرية، اثار هيجانا وسط الحزب الوطنى الذى أهين قبل ذلك بابعاد اعضائه المتنفذين عن شؤون الادارة.

استغل زعماء هذا الحزب هذه الحادثة لاصدار احتجاج شكلى على تدخل الاجانب فى الشؤون الداخلية لمصر وقدموا مشروعهم المالى المضاد الذى تبناه اسماعيل باشا وكلف شريف باشا فيما بعد بتأليف حكومة جديدة من أعضاء الحزب الوطنى وتلقى ويلسون وبلينيير، اللذان لم يرغبا فى تقديم استقالتهما، اخطارا بانهما لم يدخلا قوام الوزارة الجديدة.

أضفى على الخطة المالية للحزب الوطنى شكل مرسوم حكومى والحكومة الجديدة التى أصدرت هذا المرسوم اكتسبت باعمالها ثقة المقرضين سواء المصريين أو الأجانب القاطنين مصر والذين بدأ جزء كبير منهم فى عقد اتفاقيات بالتراضى مع الحكومة.

من دواعى الاسف أن المرسوم المذكور انتهك لحد ما امتيازات المحاكم الدولية المقامة فى مصر، الامر الذى شكل ذريعة للاحتجاج من جانب الحكومة الالمانية التى ايدتها فيما بعد جميع دول أوروبا ذات المصلحة، بما فيها روسيا ايضا. وسارعت الحكومة المصرية الى الاعتراف بعدم الزامية المرسوم بالنسبة للمقرضين الاجانب؛ ولكن ذلك لم يرض انجلترا وفرنسا اللتين كانتا تتحينان الفرصة لمجازاة الخديوى على ابعاد وزيرهما ويلسون وبلينيير.

قدم الممثلان الدبلوماسيان لهاتين الدولتين من جديد مطالب بالمشاركة المباشرة فى ادارة مصر، وبعد قليل اقترحا على اسماعيل باشا، فى شكل نصيحة، بالتنحى عن السلطة لصالح نجله الاكبر. والاقتراح الذى اعلناه فيما بعد بصورة رسمية وقاطعة حظى بتأييد المانيا والنمسا اللتين انضمت اليهما فى

وقت لاحق ايطاليا ايضا، ولم تلبث الحكومتان: الانجليزية والفرنسية أن وجهتا ايضا بصورة سرية إلى الحكومة الامبراطورية دعوة للانضمام الى المطلب الذى قدمتاه إلى الخديوى.

كان الجواب على هذه الدعوة، وفق المشيئة السامية لجلالتكم الامبراطورية، ان الحكومة الامبراطورية، باعتبارها غير ذات مصلحة كبيرة فى المسائل المالية، لم تر ثمة حاجة لإسداء نصيحة للخديوى بصدد الوقت المناسب لتخليه عن السلطة، الا انها فى الوقت نفسه، اذ تأخذ فى الحسبان فى هذه الحالة، بالاضافة إلى المصالح المالية، المسألة السياسية البحتة التى كانت مستندة إلى الاتفاقيات الدولية السابقة للحكومات الأوروبية وكانت تمس - بخاصة - الحقوق العليا للسلطان، ورأت أنه من الإنصاف ان يجرى أى بت فى شؤون مصر، سواء تناول المسائل المالية ام المسائل السياسية، بصورة مشتركة وفق اتفاق مسبق للدول فيما بينها وبين الباب العالى، وإنه إذا وافقت الدول على إقرار شكل كهذا للإجراءات فإن الحكومة الامبراطورية على استعداد للانضمام إليه بغية المساهمة فى بلوغ التنسيق التام للحقوق والمصالح العامة والخاصة فى مصر.

وبهذا المعنى عينه تم توجيه بلاغ إلى سائر الحكومات والباب العالى؛ ولكن الموقف الذى اتخذناه من هذه المسألة والنداء المباشر من إسماعيل باشا إلى السلطان، سواء بسواء، لم يوفقا دسائس التحالف الإنجليزى، الفرنسى.

إن الحكومة التركية، المثقلة بهموم كثيرة العدد، لم تكن تولى مصر اهتماما. والأزمة الراهنة داهمت الباب العالى وهو غير مهيأ لذلك، وكان همه الوحيد، فى هذه الحالة، الذود عن حقوقه العاليا فى مصر.

أطيح بإسماعيل باشا فى يونيو (حزيران) ١٨٧٩ وحل محله توفيق باشا. ولم تنجح محاولة الباب العالى فى غضون ذلك حرمان الخديوى المصرى من بعض الامتيازات التى منحها اياه سابقا. وبعد مفاوضات مديدة مع انجلترا وفرنسا أصدر السلطان فرمانا رقّى توفيق باشا إلى منصب خديوى مع التأكيد على الأفضليات السابقة المتعلقة بهذا المنصب.

بالمناسبة، تضمن الفرمان شرطا، متناسبا مع توضيحات سفيرنا فى القسطنطينية، يتعلق بعدم أهلية الخديوى فى أن ينقل الى اشخاص آخرين الحقوق والامتيازات التى منحه اياه السلطان.

وكان يتهيأ أن هذا الشرط يجب أن يضع حدا لاى تدخل كان فى شؤون الإدارة الداخلية لمصر، ولكن على الرغم من ذلك طلبت الحكومتان الانجليزية والفرنسية من توفيق باشا، وأحرزتا أخيرا، استحداث منصبى مراقبين عامين لمثليهما مع حق الاشراف على الشؤون المالية والتمتع بصوت استشارى فى مجلس الوزراء المصريين وبحق النقض (الفيتو) غير المحدود فى جميع شؤون الادارة.

جميع هذه التطورات والمستجدات، التى كان يحق للبلاد توقع حدوث تحسينات بفضلها، لم تجلب لمصر مع ذلك إى فائدة كانت. فالحكومات الاربع، التى تعاقبت فى عهد الخديوى الجديد، لم تخفف إطلاقا من وطأة المصاعب المالية. وازداد دين الحكومة تناسبا مع تراكم الفوائد المئوية التى كانت، فضلا عن ذلك، تتضاعف أحيانا، فبموجب قرض روتشيلد كانت الحكومة المصرية تدفع، وملزمة بأن تدفع، فوائد مئوية للمقرضين الذين لم تسو الحساب معهم حتى الآن؛ لأن روتشيلد أوقف تسليم حصص القرض (وهى ملزمة فى الوقت نفسه على أن تدفع بموجب القرض نفسه فوائد مئوية لهذا البنك).

إضافة إلى ذلك حرمت حكومة الخديوى من أية موارد كانت لاجل تلبية أمس حاجات إدارة الدولة ووجدت نفسها كليا فى ايدى انجلترا وفرنسا.

تجلت الأعمال المشتركة للحكومتين" الانجليزية والفرنسية فى اجراء مفاوضات مواظبة جدا مع ألمانيا والنمسا وايطاليا بصدد استحداث لجنة تصفوية خاصة بشؤون مصر المالية، بدأت هذه المفاوضات على اعقاب سقوط اسماعيل باشا، ومؤخرا فقط ادت الى اتفاقية نهائية تقضى بانه:

١ ـ يجب على هذه اللجنة ان تتألف من مندوبين معينين: من جانب انجلترا وفرنسا مندوبان عن كل منهما، ومن جانب سائر الدول الثلاث للاتفاقية مندوب عن كل منها.

٢ ـ يجب على اللجنة أن تتخذ، بمثابة نقطة انطلاق لأعمالها التقرير المنشور للجنة التحقيق السابقة.

٣ ـ يجب على اللجنة، بعد دراسة الوضع، أن تصوغ قرارات تغدو، اثر اضفاء شكل مرسوم خديوى عليها، الزامية بالنسبة للمحاكم الأوربية الدولية.

٤ ـ تتعهد الأطراف المتعاقدة، إضافة إلى ذلك، باستخدام نفوذها لكى يتم الاعتراف بهذه الاتفاقية من جانب الدول الاخرى الموقعة على اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٧٦.

قبل الحصول على معلومات مفصلة عن أسس هذه الاتفاقية قامت وزارة الخارجية الامبراطورية، استنادا إلى بلاغات وكيلنا الدبلوماسى فى مصر عن المفاوضات الجارية بإرسال منشور إلى ممثلينا لدى الحكومات الخمس المذكورة تكلفهم فيه بلفت انتباه هذه الحكومات إلى المصاعب التى قد تنشأ من جراء عدم وجود ممثل عنا فى اللجنة التصفوية التى يمكن لقراراته أن تصادق فى هذه الحالة تباطؤ لا مفر منه فى التصديق عليها من جانب الحكومة الامبراطورية؛ كى تصبح إلزامية بالنسبة لروسيا. نظرا لذلك اقترحت وزارتنا الخارجية، بغية تسهيل مهمة اللجنة تعيين مندوب عنها ايضا فيها، إن ذلك أمر ضرورى، بخاصة، لأنه لوحظ فى نمط افعال انجلترا وفرنسا وكإنهما ازاحة لنا متعمدة عن المشاركة فى شئون مصر، هذا من جهة ومن جهة اخرى تطلب ذلك مصالح رعايانا الذين لهم التزامات دين على الحكومة المصرية بمبلغ ٢٥ مليون فرنك.

لدى التبحر فى القضية بشكل صارم لا يجوز عدم الاعتراف بان جميع صفقات انجلترا وفرنسا السابقة مع مصر: اتفاقية غوشين وجوبير، استحداث لجنة التحقيق والوزارة المختلطة ومنصبى المراقبين العامين تتعارض بشكل سافر مع روح الاصلاح القضائى الدولى الذى يجب أن تكون تحت اشرافه جميع القضايا المتنازع عليها والدعاوى المقاومة ضد الحكومة المصرية، واحتجاج المانيا على مرسوم ٢٢ ابريل (نيسان)، الذى ربما يتجاوب مؤقتا مع نوايا انجلترا وفرنسا ولكنه حظى بتأييد اجامعى من جانب جميع الدول الأوروبية، اعاد إلى

الأذهان فى الوقت نفسه ان امتيازات المحاكم الأوروبية الدولية يجب ان تؤخذ فى الحسبان. بهذا فقط يمكن تفسير مساعى الحكومتين الانجليزية والفرنسية للالتفاف باكبر ما يمكن من التفنن على اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٧٦.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٨٠

مصر

اهم حدث فى حياة مصر الادارية فى العام الماضى كان استحداث اللجنة التصفوية الدولية، دخل هذه اللجنة ممثلو الدول التالية، باستثناء روسيا: انجلترا، فرنسا، المانيا، النمسا، ايطاليا.

بما أن الاصوات، لدى ذلك، وزعت بصورة غير متساوية البتة، اى بالتحديد ٤ أصوات لكل من انجلترا وفرنسا ،٣ اصوات فقط للدول الثلاث الأخرى اجمالا، فانه ـ لأمر مفهوم ـ ان القرار فى جميع القضايا كان يعود حتما للدولتين الاوليين كلتيهما.

ومن جراء ذلك لم يلبث ان ظهر الشقاق وسط اعضاء اللجنة أنفسهم، وأعرب مندوبو الدول الثلاث الاخيرة عن الأسف من مشاركة حكوماتهم فى قضية غير مقدر لها أن تضطلع فيها بأى دور.

فى مطلع شهر يونيو (حزيران) أنهت اللجنة أعمالها. وبموجب المشروع الذى صاغته ينبغى على تخفيض الفوائد المئوية فى جميع انواع الديون مقدار ٤٪ ان يشكل الأساس الرئيسى لنظام التصفية. وبعض الديون اعتبرت ديونا ذات امتياز اى بالتحديد: الدين الجارى والديون بموجب قرارات المحاكم. وتشكل تصفية الحق فى الرهون العقارية الاستثناء الوحيد عن قرارات المحاكم. وتقرر ابقاء

الممتلكات المرهونة ممتلكات حرة أما المقرضون من هذا الصنف فسوف تلبى مطالبهم على قدم المساواة مع المقرضين الآخرين.

فيما يخص الدين المصرى القصير الأمد فان جزءا منه، حسب تقرير اللجنة التصفوية، يتحول إلى دين طويل الأمد عن طريق إصدار سندات بمبلغ ٥٦٠٠,٠٠٠ ليرة، ويتم دفع الجزء الآخر بقطع نقدية بمبلغ ١٤٠٠,٠٠٠ ليرة، وبغية الحصول على هذا المبلغ اقترح التقرير استدانة قرض خاص، لم تتم التصفية التامة الا عند نهاية عام ١٨٨٠، وبقيت لدى مصر الآن ديون اجنبية فقط متداولة فى جميع البورصات الأوروبية الكبرى. وسرعان ما أفضت هذه الاجراءات المالية الى ارتفاع ملحوظ للارصدة المصرية اضافة إلى ذلك سيكون لدى الحكومة المصرية فى العام الجارى، من جراء التصفية، تفوق فى المداخيل على المصروفات قدره ١١٠٥٥١ ليرة، وذلك فوق انه أدخل إلى الميزانية ٥٠٠,٠٠ ليرة مخصصة للنفقات الطارئة.

فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) اجتمعت فى القاهرة لجنة دولية اخرى هدفها حل مسألة استمرار وجود المحاكم المختلطة. بالاضافة إلى اجراء تغيير فى بعض مواد النظام القضائى العضوى وحتى اصدار مجموعة قوانين.

جرى تشكيل هذه اللجنة، برئاسة رياض باشا رئيس مجلس الوزراء، من وزير العدلية وجميع ممثلى الدول التى شاركت فى الاصلاح القضائى المصرى ومندوبين ثانيين عن تلك الحكومات نفسها، لم تنه اللجنة اعمالها بعد، وبتت فقط فى مسألة استمرار عمل المحاكم المختلطة ايجابيا.

فيما يخص علاقات مصر الخارجية كانت فى العام المنصرم ودية على العموم. فى الأول من يناير (كانون الثانى) ١٨٨١ أوفد ملك الحبشة يوحنا إلى القاهرة رسوله ابونا غابرييزى الذى كلف بتقديم الشكر إلى بطريرك الاسكندرية على الهدايا التى أرسلها إلى الملك، فضلا عن ذلك سلم ابونا غابرييزى إلى الخديوى رسالة من الملك يوحنا طلب فيها جلالته السماح للبطريرك بتعيين أسقف فى الحبشة، فان عدم وجود ممثل عن السلطة الروحية كان يقض مضجع

الملك لأنه لم يكن فى وسعه، من جراء ذلك، اجراء مراسم التتويج لنفسه؛ وهذا الامر الاخير كان ضروريا بالنسبة اليه من أجل رفع مكانته وهيبته فى البلاد لأنه لم يكن شخصيا ينتسب إلى سلالة الملوك الأحباش الذين يعود أصلهم الى سليمان، وكان دائما يتخوف من نفوذ منافسة مينيليك خليف السلالة السالفة الذكر.

ونزولا عند رغبة الملك يوحنا عين البطريرك القس فيلوزا اسقفا حبشيا، واذ سر الملك يوحنا بنجاح ابونا غابرييزى قرر إرسال بعثة مهيبة خاصة إلى القاهرة لمرافقة الاسقف المعين حديثا إلى الابرشية المخصصة له، وسمح بالاضافة إلى ذلك لجميع الرعايا المصريين بالرحيل بكل حرية إلى بلاده واستئناف العلاقات التجارية التى قطعتها الحرب الأخيرة، وأصدر الخديوى من جهته ايضا أوامر مماثلة بالنسبة للرعايا الأحباش.

النفوذ الأوروبى يتزايد شدة فى ممتلكات الخديوى، الأمر الذى تساعد عليه كثيرا شخصية الحاكم الحالى لمصر محمد توفيق باشا: انه وجل وغير حازم، وأكثر ما يخافه هو التخاصم مع «حُماته» الجبارين، ونتيجة لذلك لا يصدر أمرًا إداريا واحدًا، حتى ولو كان يمس مالية البلاد من بعيد، دون أذنى الممثلين الانجليزى والفرنسى.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٨١

مصر

الشعور القومى لسكان البلاد العرب، الذى أججه منذ زمن بعيد التفضيل الذى تمنحه الحكومة للاجانب، بدأ يمارس تأثيره بصورة اقوى فأقوى. وكانت القوات العسكرية المعبر عن هذا الشعور.

فاذا كانت هذه القوات مستاءة من وضعها قررت المطالبة بتحسينه من الناحية المادية بالدرجة الأولى.

كان قائد فوج الحرس الأول العقيد أحمد عرابى بيه اهم شخصية فى هذه الحركة، وتجلى استياء القوات العسكرية فى المظاهرة التى نظمتها فى مطلع شهر فبراير (شباط) والتى أسفرت عن إقالة وزير الحربية الذى كانت هذه القوات تكرهه وتعيين محمود باشا محله، وهو من أصل عربى، تباطأت الحكومة مع ذلك فى تلبية مطالب القوات العسكرية، ونتيجة لذلك تقدمت هذه القوات، بتحريض من أحمد عرابى بيه وسائر معاونيه وتحت قيادتهم، بمطالب جديدة إلى الخديوى أكبر شأنا هذه المرة، أى تحديدًا: تغيير الحكومة على الفور مسئولية الحكومة الجديدة امام مجلس النواب، وزيادة تعداد القوات المصرية.

المطلب الأول من هذا المطالب تمت تلبيته، وتلقى شريف باشا تكليفا من الخديوى بتأليف حكومة جديدة. وبهذا استعيد الهدوء والسكينة.

ففى مطلع سبتمبر (ايلول) تم تشكيل حكومة وطنية جديدة برئاسة شريف باشا.

كان أول ما قامت به الحكومة الجديدة هو ان اقترحت على الخديوى دعوة مجلس النواب إلى الانعقاد، وافق الخديوى على هذا الاجراء، وفى مرسوم بتاريخ ٤ أكتوبر (تشرين الأول) تم تعيين يوم ٢٣ ديسمبر (كانون الأول) موعدا لافتتاح جلسة المجلس. بعد ذلك باشرت الحكومة الجديدة بتغيير قسم القضاء فى البلاد، وأصدرت كثير من القوانين المتعلقة ببعض الإتاوات، وإدارة المدريات، وحقوق الموظفين المدنيين فى الخدمة، ومعاشات التقاعد، والصحافة والمساحات المخصصة لبناء العقارات وغيرها، والأشغال العامة، وأخيرًا اصدرت قواعد تتعلق بالخدمة العسكرية وتحسين وضع القوات العسكرية.

فضلا عن ذلك أجرت الحكومة انتخابات الى مجلس النواب قاصدة بذلك، الدرجة الأولى، عدم السماح بوصول العنصر الليبرالى المتطرف إلى المجلس.

بقى الخديوى دائما على الحياد تماما لا يتدخل فى شؤون الادارة، مما ادى إلى تركز كل السلطة فى أيدى قواد الافواج، اذ ان الوزراء كانوا أدوات طيعة لدرجة ما فى ايديهم.

فى ١٤ ديسمبر (كانون الأول) افتتح الخديوى شخصيا دورة مجلس النواب المصرى. فى خطاب العرش، الذى ألقاه بهذه المناسبة،أشار بين أمور أخرى الى ان اهم سبب لتأخر افتتاح المجلس حتى ذلك الوقت كانت الحالة المشوشة لمالية البلاد، التى أوصلت الى الوضع المناسب بمساهمة الدول الصديقة.

فى اليوم التالى لافتتاح دورة المجلس طرح رئيس مجلس الوزراء على بساط المناقشة مشروع صلاحيات المجلس، وقد انحصرت مواده الأساسية فيما يلى:

١ ـ الحرية التامة للنواب فى أداء التزاماتهم.

٢ ـ. ضرورة عقد دورة المجلس سنويا.

٣ ـ مسئولية الوزراء امام المجلس.

٤ ـ منع وضع أى قانون فى حيز التطبيق او استحداث ضريبة جديدة بدون موافقة المجلس.

٥ ـ إبلاغ المجلس عن الميزانية قبل وضعها حيز التنفيذ.

فى الخطاب الجوابى على خطاب الخديوى أعرب المندوبون عن عميق الشكر للمجلس على طرح قانون يضمن أداء واجباته، واكدوا فى الوقت نفسه على إخلاصهم غير المحدود للبلاد، ولأهلها وحاكمها الاعلى السلطان.

فى أواخر ديسبمر (كانون الأول) صادق الخديوى على ميزانية النفقات للسنة المالية القادمة. وتبلغ الميزانية ٩٠٠٣٩٨٨ ليرة مصرية، اى أكثر بـ ١٤٨٣٦٢ ليرة مصرية عن عام ١٨٨١. الباب الرئيسى لزيادة النفقات منح لوزارة الحربية، ونصف مبلغ النفقات خصص لتسديد الدين الطويل الأمد.

فى علاقات مصر الخارجية كان يهيمن فى العام الماضى نفوذ فرنسا وانجلترا.

ففى المفاوضات بصدد المظاهرة العسكرية التى جرت فى بداية شهر فبراير (شباط) كان التنافس بين انجلترا وفرنسا بارزا. دفع هذا التنافس الحكومة الفرنسية، التى كانت تستعد للحملة التونسية الى التنازل لانجلترا واستدعاء ممثلها البارون رينغ الذى كان يبذل الجهد لكى يضفى على فرنسا تلك الجاذبية التى كانت تتمتع بها فى مصر على أيام نابليون الثالث.

لكن فى الآونة الأخيرة وبسقوط وزارة رياض باشا برزت الوحدة التامة فى تصرفات ممثلى الحكومتين الفرنسية والانجليزية.

استقبل المفوضان التركيان: مشير على نظامى باشا وعلى فؤاد بيه، اللذان وصلا إلى الاسكندرية إثر المظاهرة العسكرية، استقبالا حافلا شبيها باستقبال السفراء فوق العادة، بعد تسليم الخديوى رسالة من السلطان أبلغاه أن صاحب الجلالة، رغبة منه فى تكوين تصور واضح عن الأسباب التى أثارت المظاهرة العسكرية وفى وضع حد لقلاقل كهذه، أقرهما بأجراء تحقيق بصدد هذه القضية. فأجاب الخديوى، الذى كان الوكيلان الدبلوماسيان: الفرنسى

والانجليزى قد أفلحا فى إبلاغه التعليمات التى تلقياها من حكومتيهما، أجاب المفوضان بانه لا يستطيع السماح باجراء أى تحقيق رسمى فى قضية قد انتهت، لا سيما إن إجراء التحقيق قد يثير العقول مجددا، بينما وزعت القوات على مدن مختلفة.

لم يصر المفوضان على إجراء التحقيق وسافرا إلى القسطنطينية بعد أن جمعا بعض المعلومات الضرورية. إذن، لم تسفر رحلة المفوضين التركيين عن أية نتيجة؛ لأن الهدوء فى البلاد كان قد استعيد بجهود شريف باشا قبل مجيئهما؛ غير أن استياء العرب من التدخل الاجنبى لايزال موجودا وهو يهدد فى المستقبل بارتباكات داخلية وخارجية.

فى الرسالة الجوابية إلى السلطان شكر الخديوى جلالته على اهتمامه الدائم بمصر ووعد بالمثول شخصيا أمام حضرته فى أول فرصة تسنح لذلك.

فى أواخر مايو (ايار) وصلت إلى القاهرة البعثة المهيبة التى أرسلها الملك الحبشى يوحنا الى البطريرك القبطى.

كانت هذه البعثة مكلفة بالطلب من البطريرك تعيين رئيس أساقفة فى الحبشة ونزولا عند رغبة الملك عين البطريرك القبطى رئيسا للأساقفة وثلاثة أساقفة لأجل الجيشة.

إضافة إلى ذلك كلفت البعثة ايضا باجراء مباحثات مع الحكومة المصرية حول عقد معاهدة صلح مع الحبشة؛ غير أن المعاهدة لم يتم عقدها بسبب أن البعثة لم تكن مزودة بالتفويض الشكلى.

فى اواخر نوفمبر (تشرين الثانى) وجهت الحكومة الانجليزية الى ممثليها فى مصر منشورا كانت ترغب بواسطته، على ما يبدو فى تهدئة شعور الاستياء الذى تأجج وسط السكان العرب والحزب القومى ضد التدخل الأجنبى فى شؤون مصر.

فى هذا المنشور أعلنت الحكومة الانجليزية أنها كانت دائما تتبع حيال مصر سياسة هدفها المساعدة على نجاح البلاد ومساندة الحرية التى منحتها اياها

فرمانات السلطان المتعاقبة. إلا أن هذا المنشور أحدث فى البلاد انطباعا مغايرا تماما للانطباع الذى كانت الحكومة الانجليزية تعول عليه على الأرجح.

وبدأت فرنسا، مستغلة خطأ حكومة غلادستون، بالتفكير فى استعادة نفوذها السابق فى مصر، لكنها واصلت فى واقع الأمر العمل سوية مع الانجليز.

ففى اواخر ديسمبر (كانون الأول) رفع الممثلان الانجليزى والفرنسى فى مصر إلى الخديوى مذكرة مشابهة اعلنا فيها انهما سيسعيان بصورة مشتركة لتهدئة العقول الهائجة فى البلاد، وأعربا لدى ذلك عن رأى مفاده: انه يحق لانجلترا وفرنسا وحدهما التدخل فى شؤون مصر.

اثارت هذه المذكرة سخطا بالغا فى البلاد وكانت أقرب نتيجة لها اتحاد العرب والأتراك والشراكسة للوقوف فى وجه العدو المشترك - الأجانب.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن أعوام ١٨٨٤ ـ ١٨٨٦

مصر

بيّن وضع مصر عند مطلع عام ١٨٨٤ بصورة واضحة ان الانجليز تبدّوا عاجزين عن اداء المهمة التى اتخذوها على عاتقهم، مهمة محو آثار المحن التى عانتها البلاد فى الآونة الأخيرة، واعادة النظام إلى نصابه واحلال السكينة واشاعة اليسر فيها، فان تدخلهم الوقح فى جميع مرافق الادارة الداخلية كان يعمل فقط على زيادة الاخلال بالنظام فيشل السلطة المحلية ويحرمها من أى رصيد وجاذبية، وكانت إعالة الجيش الأجنبى ترسو عبئا ثقيلا على المالية المصرية التى زعزعتها الاحداث الأخيرة. وأخيرا، الانتفاضة الآخذة فى الاتساع فى السودان لم تعمل فقط على إكمال استنفاد خزينة نائب السلطان بزيادة النفقات العسكرية كثيرا، بل كشفت ايضا عن البطلان التام لاعادة تنظيم القوات المصرية التى قام بها الانجليز؛ فتحت قيادة ضباط انجليز، منيت هذه القوات بعدد من الهزائم المخزية امام قبائل شبه بربرية كانت فى زمن ما خاضعة دون عناء لسلاح محمد على باشا، ورغبة منها فى عدم الانجرار مباشرة إلى تكاليف واعباء الحملات الحربية البعيدة المسافة فضلت الحكومة الانجليزية، أخيرا، ان تطلب من نائب السلطان أن يتخلى كليا، بما يلحق ضررا واضحا بمصالح مصر السياسية والتجارية، عن ممتلكاته الأفريقية.

ونظرا لهذا القرار كان يتوجب ليس فقط سحب الحاميات المصرية من الخرطوم ومدن أخرى بل إنقاذ جمهور المستعمرين، الذين جذبتهم المنافع التجارية إلى هذا الاقليم. من غيظ المتعصبين. لقد كانت الحكومة الانجليزية، وهى تدرك الواجب الأخلاقى المترتب عليها فى تخفيف وطأةالجلاء بمساهمتها، تفهم أيضا فضلا عن ذلك خطر ترك السودان فريسة للفوضى التى تهدد بالانتشار إلى مصرنفسها، وكانت تأمل عن طريق تهدئة البلاد؛ بأن تقيم فيها من العناصر المحلية بأى شكل كان سلطة مركزية من شأنها أن تغدو فى المستقبل، بالمناسبة، هيئة للنفوذ الانجليزى أيضا. أسنِد تنفيذ هذه المهمة المعقدة إلى الحاكم العام للسودان غوردون باشا السابق على عهد اسماعيل باشا؛ لكن الثقة بالنفس التى ابداها غوردون باشا لدى توجهه إلى مكان تعيينه، لم تبررها الظروف اطلاقا.

فبعد عدد طويل من الجهود الحثيثة والجديرة بنصيب أفضل التى بذلها من أجل تكتيل العناصر المحلية حوله وتشكيل حصن ضد الانتفاضة المتعاظمة اضطر غوردون للاقتناع باستعصاء أداء هذه المهمة، وهذا الاقتناع كان قد اختمر فى دماغه عندما سد نهائيا فى وجهه المخرج من الوضع العصيب. وبعد أن منى بهزيمة عسكرية على مشارف الخرطوم انحبس غوردون مع حفنة من القوات المصرية الباقية لديه فى هذه المدينة التى حاصرتها فيما بعد جحافل المهدى.

ان هذا المآل لاجراءات غوردون، الناجم عن الهزائم العسكرية التى منى بها الانجليز فى الجزء الشرقى من السودان، اخذ يدفعهم الى البحث عن عون خارجى، فقد اقترحوا على السلطان ان تقوم الحاميات التركية باحتلال موانئ البحر الأسود، ولكنه رفض هذا الاقتراح معلنا لدى ذلك انه قد يفضل احلال قواته الانجليزية فى مصر نفسها. وكانت ثمة محاولة اخرى هدفها استمالة نيغوس الحبشى للاشتراك فى الاحداث السودانية.

وكان الاميرال غيريت قد عقد معاهدة مع ملك الحبشة يوحنا تخلت الحكومة الانجليزية بموجبها باسم الخديوى للحبشة عن المحافظة العائدة لها مع مدن كسلا وكيرين وبروغوس مقابل تعهد الملك بارسال قواته لتطهير هذه المنطقة من

المتمردين. دخلت القوات الحبشية فعلا السودان، ولكن سرعان ما عادت بعدأن اكتفت بنهب السكان المسالمين.

الأحداث الآنفة الذكر تركت انطباعا عميقا فى انجلترا. فقد انهالت على الحكومة من جانب افراد المعارضة اتهامات بانها، اذ ارسلت غوردون إلى هلاك لا مفر منه تقريبا، لم تتخذ اية اجراءات لانقاذه. هذه الاتهامات لم تكن تستند كليا إلى اساس؛ لأن غوردون نفسه، رغم الدعوات التى ارسلت غير مرة اليه من لندن ومن القاهرة على السواء لمغادرة السودان، عاند فى البقاء فى هذا البلد، ولكن الحكومة كانت فى غضون كل ذلك مضطرة، تحت ضغط الرأى العام، للشروع فى تجهيز حملة بمقاييس كبيرة كان يتوجب عليها، ابتداء من مطلع الشتاء التوجه لفك الحصار عن الخرطوم، ومر الصيف وسط استعدادات ضخمة. وجرى تعزيز القوات الانجليزية، فى مصر بوحدات جديدة وصلت من انجلترا؛ وكانت القيادة العليا لفيلق التجريد قد أوكلت إلى اللورد ولسلاى الذى انتصر فى معركة التل الكبير، فى اواسط شهر سبتمبر (ايلول) ١٨٨٤ اتجه اسطول صغير كامل من السفن بالقوات الرئيسية إلى الاعلى باتجاه مجرى النيل، بينما اتجهت المقدمة بقيادة الجنرال ستيوارت عبر الصحراء من كورتى إلى بربر، لدى الوصول إلى هذه الموقع، الذى كانت تحتله قوات معادية كبيرة، فضلت فصيلة المقدمة الانجليزية تجاوزه، وبعد معركتين حاميتين، اصيب الجنرال ستيوارت نفسه فى اخيرتهما بجرح خطير، استقرت فى جابوش على ضفة النيل فى منتصف الطريق بين بربر والخرطوم، لقد وصل نبأ تحرك الانجليز إلى الخرطوم على الفور.

وفضل أتباع المهدى رفع الحصار عن المدينة بغية تركيز قواتهم، وأما غوردون فتشجع من جراء ذلك وتجاسر حتى على الانتقال إلى المهاجمة. الحملة التى قام بها غوردون إلى الاسفل باتجاه مجرى النيل، نحو بربر، منيت بالفشل واصيبت احدى بواخره بكارثة اثناء العودة بالقرب من مراوى، علما بان جميع افراد طاقمها وقعوا فى ايدى المسلمين الذين ابادوهم والبواخر الاربع التى أرسلت عقب ذلك وصلت إلى موقع مرابطة المقدمة الانجليزية، عزم العقيد ويلسون،

الذى حل مكان الجنرال ستيوارت، على استخدام اثنتين من هذه البواخر لمواصلة التحرك نحو الخرطوم، ولكنه جوبه، بعد ان اقترب من هذه المدينة فى ١٦/ ٢٨ يناير (كانون الثانى) ١٨٨٥، بنيران الخصم واضطر للعودة على عجل. وعلموا من الفارين من المدينة ان المهديين استولوا على الخرطوم قبل يومين من هذا التاريخ وان غوردون ايضا لقى مصرعه فى غضون ذلك.

فى أعقاب كارثة الخرطوم اصبحت حملة الانجليز عديمة الجدوى. وكان يترتب على العقيد ويلسون بغية ضمان امن فصيلته غير الكبيرة، الابتعاد عن كورتى، والى هنا ايضا تراجعت الفصيلة الرئيسية للانجليز التى كانت قد افلحت فى غضون ذلك فى الوصول الى ابو حمادة بعد معركة حامية مع المهديين هلك فيها قائد القوات الجنرال إيرل.

الاثر المروع الذى احدثه فى انجلترا مصرع غوردون دفع الحكومة، رغم اقتناعها الشديد بعدم جدوى مواصلة عملياتها الحربية فى السودان، إلى الشروع فى تحضير حملة جديدة ايضا لكى تمسح العار الذى حل بانجلترا.

ثم وضع خطة جديدة كان يترتب على القوات الانجليزية بموجبها، لدى حلول الخريف، بالزحف على بربر من كورتى ومن سواكن فى آن واحد. وطبقا لذلك عززت حامية سواكن بخمسة آلاف من القوات الجديدة المجلوبة من الهند وأستراليا، وكان من المفترض، اثناء تقدمها عبر الصحراء، ضمان مؤخرتها بمد سكة حديد. أسندت قيادة فصيلة سواكن إلى الجنرال غريم.

ولكن هذا الجنرال - شأنه فى العام الماضى - لم يحالفه الحظ فى شرق السودان حيث كان يقود الانتفاضة عثمان دقنه، وهو اقدر انصار المهدى. والغزوتان اللتان قام بهما الانجليز فى ٨ و ١٠ مارس (اذار) من سواكن كلفتهما خسائر فادحة، وفى الغزوة الثانية فقدوا كل وسائل النقل تقريبا وكما كان الحال فى الحملة على الخرطوم تبخرت الفصائل الانجليزية بسرعة، بينما برز الخصم مجددا بقوات جديدة رغم الخسائر التى منى بها، وتبددت فى الصحراء بلا اثر بعد هجمات جريئة اتخذها.

بعد فقدان الثقة نهائيًا فى امكانية احراز اية نتائج من الحملات اخذت حكومة لندن تفتش عن فرصة ملائمة فقط لأجل التخلى عن اية عمليات حربية تالية بأقل ضرر ممكن على رصيدها، وأغاثتها فى ذلك المصاعب التى نشأت حول مسألة رسم الحدود الافغانية التى اثارت انعطافا مفاجئا فى الرأى العام الانجليزى، وفتر دفعة واحدة العطف على مصير غوردون الكئيب؛ والمسألة المصرية نفسها تراجعت الى المقام الثانى وتركز انتباه الانجليز على آسيا الوسطى وحدها التى كان يمكن أن تنطلق منها، حسب الاقتناع السائد، اوجع ضربة على انجلترا.

فالقوات التى وصلت مجددا لتعزيز فيلق الاحتلال الانجليزى تبدت لازمة أكثر فى الهند. ، وإرسالها الى هناك كان يمكن أن يصادف عقبات اقل، لا سيما وان وضع الانجليز فى مصر نفسها لم يكن يهدده اى خطر ؛ واذا تخلى الباب العالى عن الاقتراح الذى عرضته عليه لندن بإرسال قواته إلى مصر ولكن بحيث تكون تحت القيادة الرئيسية للجنرالات الانجليز، فقد كان فى استطاعة الحكومة البريطانية، من جهة اخرى، أن تعوّل على معونة ايطاليا التى سبق لها ان عقدت مع انجلترا اتفاقية سرية، وأرسلت عمارتها الى البحر الاحمر بموجبها وأحتلت بادئ الأمر بيلول؛ ومن ثم مساوة ايضا، استاء الأتراك من عمليتى الاستيلاء هاتين ولكنهم فضلوا من ثم، بعد أن اقتنعوا بلا مبالاة أوروبا، والتسليم بالامر الواقع.

بعد إزالة المصاعب الناشئة بصدد المسألة الافغانية توفرت للحكومة البريطانية امكانية الشروع فى تطبيق البرنامج الذى نضج نهائيا فى أدمغة رجال الدولة الانجليز.

ويتلخص فى ايقاف أى تدخل نشيط فى شؤون السودان، وراحت القوات الإنجليزية تنسحب تدريجيا من المواقع الأمامية التى تحتلها، وتحشد فى وادى حلفا وأسوان. وكان نبأ وفاة المهدى قد أثار فى لندن والقاهرة الأمل فى أن اتحاد القبائل الذى أسسه سيتداعى؛ غير أن هذه التوقعات لم تتحقق، فالمدعو عبد الله حل محل المهدى، واعترف الشيوخ الآخرون بسلطته، وأخذت الحركة تمتد

فى اتجاه حدود مصر. المحاولة المتكررة لدفع الأحباش الى التدخل فى شؤون السودان تبدت عقيمة بقدر عقم المحاولة السابقة؛ فقد عادت قوات نيغوس أدراجها بعد أن اكتفت بنجاح لا يذكر.

نظرا لوضع الأمور ولضرورة حماية سكان مصر العليا من التأثير الخطر الذى كانوا يتعرضون له من جانب قادة الحركة الإسلامية تقرر فى لندن الاستقواء بمكانة المرجع الأعلى للاسلام - السلطان. فقد أرسل إلى القسطنطينية السير دريموند وولف الذى نجح فى استمالة الوزراء الاتراك.

إلى عقد اتفاق وافق الباب العالى بموجبه على إرسال مفوض من جانبه إلى مصر لأجل البحث مع المفوض البريطانى عن تدابير عاجلة لتهدئة الإقليم. ووقع اختيار السلطان على غازى مختار باشا، بينما عُين السير دريموند وولف نفسه مفوضا انجليزيا.

ولكن سرعان ما برزت خلافات حادة بين المفوضين كليهما

فمن أجل ضمان أمن مصر الداخلى والخارجى على السواء كان مختار باشا يرى من الضرورى احتلال دنقله مجددا،وكان ذلك يتطلب فى رأيه زيادة تعداد القوات المصرية حتى ١٦٨٠٠ نفر، على أن تحول الى اعالتهم، بالمناسبة، كذلك الـ ٢٠٠ ألف جنيه استرلينى التى خصصتها الميزانية المصرية لتغطية مصاريف فيلق الاحتلال الانجليزى. كما لم يكن يقل اهمية عن ذلك بالنسبة للمفوض التركى تخفيض عدد الضباط الانجليز العاملين فى القوات المصرية الى اقصى حد واستبدالها بضباط مصريين او اتراك.،

امتعضت الحكومة البريطانية للغاية من هذين الاقتراحين، وكلفت السير دريموند وولف برفضهما رفضا باتا.

وفى رده على مختار باشا أعلن المفوض الانجليزى، بالمناسبة، ان الـ٢٠٠ ألف جنيه استرلينى التى تدفعها مصر للاحتلال الانجليزى، لا تغطى حتى خُمس المصاريف التى تدفعها انجلترا نفسها على ذلك، وأن إلقاء الضباط الانجليز فى صفوف القوات المصرية ليس ضروريا فقط للحفاظ على الصلات بين كلا

الجيشين طالما استمر الاحتلال الانجليزى، بل ويشكل ايضا افضل ضمانة مقبلة لأمن مصر.

هذا الجواب كان دليلا واضحا على نية الحكومة البريطانية الراسخة فى أن تحتفظ إلى الأبد بذلك الوضع الذى خلقته لنفسها فى مصر.

ان نتائج تدخل انجلترا فى شؤون مصر لم تكن أقل وبالأ وعلى الوضع المالى أيضا لهذا البلد، الذى تمت تسويته عام ١٨٨٠ بفضل قانون التصفية الذى وضعته لجنة دولية. والعجز المتزايد عاما اثر عام بسبب النفقات على الحاجات العسكرية اساسًا التى كان يرغم حكومة الخديوى دائما على اللجوء إلى قروض قصيرة الأمد بشروط جائرة وأقحمها أخيرا فى وضع يستحيل معه تنفيذ قانون التصفية.

نظرا لهذا الوضع رأت الحكومة الانجليزية فى ابريل (نيسان) عام ١٨٨٤م من الضرورى الاقتراح على الدول الكبرى عقد مؤتمر للبحث عن تدابير لترتيب وتنظيم أوضاع المالية المصرية.

فضلت الدول، بعد اعلانها من حيث المبدأ موافقتها على هذا الاقتراح، تحويل فرنسا بوصفها الدولة الأكثر مصلحة فى هذه القضية، اجراء مفاوضات تمهيدية مع انجلترا لاستيضاح المسائل التى تنبغى مناقشتها فى هذا المؤتمر. وفى رأى حكومة لندن أنه ينبغى، لأجل الخروج من هذه المصاعب، تمكين حكومة الخديوى من عقد قرض جديد بضمانة من انجلترا وتخفيض الفوائد المئوية، فى الوقت نفسه، على القروض السابقة؛ لكن الحكومة الفرنسية لم توافق على الشروع ببحث هذه المسائل إلا بعد أن يتم تحديد الموعد النهائى للاحتلال الانجليزى، وبعد أن يجرى فى مستقبل قريب وضع مالية مصر بدرجة معينة تحت اشراف اللجنة الخاصة بالديون المصرية التى تتألف من مندوبى انجلترا وفرنسا والنمسا وايطاليا، واضطرت انجلترا، رغم تعلقها الشديد بوضعها الاستثنائى فى مصر، وتحت ضغط الظروف الصعبة، الى الموافقة على الشرطين اللذين طرحتهما فرنسا وأعلنت عن عزمها على الجلاء عن مصر عام ١٨٨٨،؛ وذلك فقط إذا كانت الدول الكبرى نفسها لا تعتبر استمرار وجود القوات الانجليزية فى هذا البلد أمرًا مفيدًا.

فى المؤتمرالذى افتتح فى أعقاب ذلك فى لندن نشأت من جديد بين المندوبين الفرنسى والانجليزى مماحكات حول ما اقترحته حكومة لندن بصدد تخفيض الفوائد المئوية على القروض المصرية السابقة، بالاضافة إلى تقديم اعتراضات على دقة الأرقام التى قدمتها هذه الحكومة.

وفى الوقت ذاته تطرقت لجنة المندوبين الخاصين التى تشكلت فى المؤتمر الى مسألة تعيين لجنة دولية ايضا لاستقصاء شوون المالية المصرية. هذه التصريحات زجت الحكومة الانجليزية فى وضع حرج للغاية.

وبغية الخروج منه فضل الكونت غرينويل إيقاف أعمال المؤتمر فجأة معلنا أن حكومة لندن لا تعتبر أمرا مناسبا مواصلة مناقشة المسائل المطروحة، وانها تأخذ على عاتقها قضية استقصاء شؤون المالية المصرية.

كُلف بالقيام بهذا الاستقصاء اللورد نورسبوك، الذى كان أول عمل قام به لدى وصوله إلى القاهرة، تقديم نصيحة للحكومة المصرية بالتوقف كليا عن دفع حصص تسديد القروض السابقة.

وسرعان ما اخذ وزراء الخديوى بهذه النصيحة، غير أن هذا الأمر جوبه باحتجاج جماعى من جانب ممثلى الدول الكبرى فى القاهرة، وفى غضون ذلك رفعت اللجنة الخاصة بالديون المصرية إلى المحاكم المختلطة دعوى على الوزراء المصريين بمبلغ ٥٠٠ الف جنيه استرلينى يشكل مجموع المدفوعات التى أخروا تسديدها، نظرا لتطور الأحداث.

هذا جرى بعد وقت قصير من الغاء الامر المذكور غير أن هذا الحادث زاد فى كشف ضرورة إعلاء شأن اللجنة الخاصة بالديون المصرية، وكان ذلك يتطلب بين أمور أخرى اكمال عدد أعضائها بمندوبين عن روسيا وألمانيا.

على رغم من أن هذا الإجراء لم يلق التعاطف من جانب انجلترا ولا من جانب ايطاليا العاملة بالتوافق معها؛ فقد كانت الحكومة المصرية مضطرة للموافقة عليه دون ما اعتراض.

بعد أن نفذ اللورد نورسبروك المهمة الموكلة إليه قامت انجلترا، بعد اقتناعها باستحالة ازالة المصاعب بدون مشاركة أوربا، بابلاغ الدول الكبرى فى نوفمبر

(تشرين الثانى) عام ١٨٨٤م عن مشروع مالى جديد، يقضى بمنح الحكومة المصرية حق عقد قرض قيمته خمسة ملايين جنيه استرلينى. بضمانة من انجلترا، وبادخال تعديل على قانون التصفية يضمن لهذه الدولة مجالا واسعا للتأثير فى الشؤون المالية لمصر، بما يلحق الضرر بالحقوق المشروعة للدول الأخرى.

طرحت الحكومات على الحكومة الفرنسية البحث المفصل فى هذه الاقتراحات، بما يتناسب مع الأمثلة السابقة، إلا أن هذه الحكومة سرعان ما قدمت مشروعا مضادا خاصا بها للتنظيم المالى،

وبموجب هذا المشروع المضاد رفع رقم القرض القادم حتى تسعة ملايين جنيه، بحيث يستفيد من هذا المبلغ أيضا الأشخاص الذين تضرروا أثناء قصف الاسكندرية بالقنابل عام ١٨٨٢م؛ واستبدلت الضمانة الانجليزية بضمانة جماعية من ست دول كبرى وسمح بتخفيض الفوائد المئوية لمدة عامين، وأخيرا وسعت صلاحية لجنة الديون المصرية ثم استحسنت الحكومات الأخرى هذه الاقتراحات، وتبنتها من ثم الحكومة الانجليزية، ونتيجة لذلك اعيد افتتاح المؤتمر فى لندن. ونظرا لإبعاد مسألة تقييد مهلة الاحتلال الانجليزى توصل المؤتمر بسرعة الى نتائج ايجابية، تجلت فى اقرار الوثائق الدولية التالية فى تاريخى ١٧ و١٨ مارس (آذار) بالتقويم الجديد من عام ١٨٨٥

١ ـ بيان يتألف من ثلاث نقاط: بشأن إصدار قرض قيمته ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى، وبشأن صياغة وثيقة لأجل تأمين الاستفادة الحرة من قناة السويس، وبشأن إخضاع الأجانب لبعض الضرائب على قدم المساواة مع السكان المحليين؛

٢ ـ اتفاق يتعلق بشروط إصدار قرض بمبلغ ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى بكفالة ست دول كبرى، مع فرض رقابة على انفاق هذاالمبلغ من جانب صندوق الديون المصرية؛

٣ ـ مشروع مرسوم للخديوى يفرض، بين أمور أخرى نسبة ٥٪ من الضريبة على القسائم لمدة عامين، وعند انتهاء هذه المدة وفى حال وجود حاجة لتمديد هذه الضريبة يجب تشكيل لجنة أوروبية لاستقصاء وضع المالية المصرية.

لدى الموافقة على قرارات المؤتمر أعلنت حكومة جلالتكم. أنها تضمن فقط سدس مجموع الدين، وانها تحتفظ لنفسها، فى الوقت ذاته، بحق التخلى كليا عن الضمـانة، إذا أبدت أى واحدة من الدول من طرفهـا الرغبـة فى التنحى عن الاتفاقية الخاصة بهذا الموضوع.

نظرا لأمـانة الضمـانات التى يوفـرها القـرض المصـرى الجـديد ينبـغى الافتراض، أن كفالة الدول الكبرى ستبقى كفالة اسمية تماما، وأن الوفاق الذى نشأ بين الحكومات بصدد شؤون مصر المالية سيقيد، لا محالة، تعسّف الحكومة البريطانية ويقيم بكل حزم مبدأ الاشراف الأوروبى العام على البلد الذى أصبح الانجليز يعتبرونه ملكا لهم، وما عتم ان حظى هذا المبدأ بتطبيق فعلى أيضا؛ لأنه سبق للوزراء المصـريين، العـاملين بايحـاء من الانجليـز أن اضطروا غـيـر مـرة للإذعان لمطالب اللجنة الخاصة بالديون المصرية.

كـانت النتيـجـة الأولى لقـرارات مـؤتمر لندن تشكيل لجنة دوليـة فى باريس، لصياغة مشروع اتفاق بصدد حرية الملاحة فى قناة السويس وطرح على بساط بحث اللجنة مشـروعـان: فـرنسى وانجليـزى؛ وكـلاهـمـا كـانا يتـلاقيـان فى النقـاط المتعلقـة بمنع العـمليـات الحـربية، سـواء فى القناة أم فى الموانئ الداخلية، ومـا يحـازى القناة من اراضى مصـر، ومياهها الاقليمـية، ولكنهـمـا كانا يختلفان تمامـا حول اهم مسألتين:

بشأن فرض رقابة على الاستفادة الحرة من القناة، وبشأن حدود المجال المائى الخاضع للمحايدة. لدى مناقشة هاتين المسألتين انقسم المندوبون الى فئتين؛ ولم ينضم إلى الأنجليز سوى الطليان، بينما انضم مندوبو جميع الدول الأخرى، بما فيها تركيا أيضا، إلى رأى الحكومة الفرنسية التى أصبحت الأكثرية إلى جانبها.، فحسب رأى الأكثرية ينبـغى، لأجل الرقابة على قناة السويس، استحداث لجنة أوروبية، على غرار لجنة نهر الدانوب، وبسط الحياد على كل البحر الأحمر.

فى حـين اقـتـرح المندوبون الانجليـز والطليـان اسناد الرقـابة إلى الحكومـة المصرية نفسهـا بمشـاركة القناصل، وقصر الحيـاد على مسافة ثلاثة أميـال عن

الشاطئ، نظرا لاستحالة إزالة الخلافات، وتم وضع مشروعى اتفاق طُرحا على بساط بحث الحكومات، وفى الجلسة الأخيرة للجنة، التى صادفت تسلم حكومة المركيز سولسبرى مقاليد السلطة، طرح المندوب الانجليزى شرطا يهدف إلى عدم تطبيق القرارات المتعلقة بقناة السويس اذا كانت تتعارض مع الاحتلال البريطانى.

رغم جهود بعض الدول لاتزال عالقة ايضا حتى الآن مسألة إعادة تنظيم مجلس الوقاية الصحية المصرى، الذى يهيمن فيه الآن العنصر المحلى المذعن لانجلترا، التى تعارض دائما - لاغراض شخصية - الاستخدام الرشيد للتدابير الوقائية الصحية بحق السفن الآتية من الهند.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٠

مصر

مصر . ليس ثمة من شك فى أن الحكومة البريطانية تحرز، عامًا إثرعام، نجاحات جديدة فى إخضاع مصر لنفوذها المطلق؛ فالدائرة العسكرية، ودوائر الأشغال العامة والمالية والوقاية الصحية والسجون، توجد منذ زمن بعيد تحت التصرف التام للإنجليز؛ وفى غضون العام المنصرم كانت جهودهم موجهة نحو الاستيلاء على العدلية والإدارة ووزارة التعليم العام؛ وكان يتعين على الإنجليز، لدى بلوغ الهدف المرسوم، أخذ الخديوى فى الحساب بالدرجة الأولى. غير أن توفيق باشا، المتردد والجبان، غير قادر على الاضطلاع بأى دور نشيط. فهو، إذ يتخوف من مشاركة والده إسماعيل باشا، لا يرغب فى المجازفة بمصالحه الشخصية ومصالح أسرته، وهو على ثقة تامة بأن مجازفة كهذه لن تغير وضع الأمور الحالى فى مصر.

الوزير الأول للخديوى، رياض باشا، الذى أحيا تسلّمه السلطة الآمال فى نفوس خصوم إنجلترا، كان فى واقع الأمر ضعيف العزم، شأنه شأن سابقه، فى إبداء مقاومة بوجه خطط الحكومة البريطانية. ويستحيل الحديث عن وجود أية معارضة من جانب السكان المعتادين على الإذعان للسلطة إذعانًا أعمى؛ وعليه فإن الظروف المحلية تكونت لصالح الإنجليز كليًا.

كان يترتب على إنجلترا أن تصادف أخطر المصاعب، فى إخضاع مصر لنفوذها المطلق، من جانب الدول الأوربية الأخرى ولاسيما فرنسا.

بادئ الأمر اتخذ ممثلا ألمانيا والنمسا فى القاهرة موقفًا حياديًا؛ ولكن، ما إن برز بشكل واضح تحالف دول أوروبا الوسطى الثلاث حتى أخذ ممثلا هاتين الدولتين، يقفان بالأحرى موقفًا متعاطفًا من نشاط إنجلترا فى مصر؛ وعليه فان حكومة سانت چيمس، التى تؤيدها أكثر الدول الكبرى، تعتبر من وجهة النظر الدولية أيضًا سيدة مطلقة على مصر.

وفى صندوق الديون المصرية أصبحت الأكثرية المطلقة لصالح جميع عروض الحكومة المصرية الموجهة إلى إنجلترا.

وفيما يخص تركيا فقد مر وقت كان باستطاعتها، باقلاعها عن التأييد الضرورى لمفوضها الأعلى مختار باشا، أن تكتسب مجددًا وضعًا مرموقًا فى مصر. أما الآن وقد أصبحت كل إدارة هذا البلد متمركزة فى أيدى الإنجليز لم تعد حكومة السلطان قادرة على إعاقة تثبيت أقدامهم نهائيًا على ضفاف النيل.

بفضل الجهود المتضافرة للخديوى ورعاياه والجاليات الأجنبية المتعاطفة مع روسيا فإن إقامة نجلى[٥] جلالتكم الجليلين ١٨ يومًا فى ربوع مصر فاقت كل التوقعات من حيث الرونق وحسن الوفادة.

إن ذكرى رحلة الأميرين الأعظمين ستبقى مدة طويلة فى نفوس المجتمع المصرى بل وفى قلوب أفقر طبقة السكان الذين كانت التبرعات السخية من جانب وريث العرش لصالح اللجان الخيرية بمثابة عمل خير ومعونة غير متوقعة.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩١

مصر

مصر خلال العام المنصرم، العام الأخير من إدارة الخديوى الراحل محمد توفيق باشا، لم تطرأ آية تغيرات على الوضع السياسى العام لمصر.

فالمحاولات الضعيفة وغير الحازمة من جانب الحكومة المحلية للذود عن استقلالها لم تستطع بلوغ غايتها، وواصل الإنجليز الاستيلاء على تلك المجالات الإدارية، التى كانت لا تزال تحافظ على بعض ملامح الاستقلالية.

وإذ أدركت قوات الاحتلال البريطانى كليًا نفوذها الراجح فى مصر عمدت فى الآونة الأخيرة دون ما احتشام إلى إصدار أوامر دون معرفة رئيس وزراء الخديوى، بل وغالبًا خلافًا لرغباته ولم يكن فى وسع رياض باشا - المعتز بنفسه - السماح بموقف كهذا منه، وفضل التخلى نهائيًا عن تسيير شؤون الإدارة.

وفى أواخر أبريل (نيسان) قدم التماسًا بالاستقالة.

لم تحدث استقالة رياض باشا، رغم التوقعات، انطباعًا فى البلاد، فالشعبية التى كان يتمتع بها قبل توليه مقاليد الحكم تبخرت تحت تأثير الأخطاء

السياسية الفادحة التى ارتكبها والتى كان الممثل البريطانى فى القاهرة يستغلها بكل مهارة.

أما الخديوى نفسه والمقربون إليه فقد أعربوا فقط. عن الأسف. من أن رياض باشا، الذى تخلى عن السلطة فى أصعب لحظة بالنسبة للحكومة، كان يسترشد لا بمصالح البلاد بل بدوافع صفاته الشخصية.

ولكن، أيًا كان فشل محاولات رياض باشا فى الدفاع عن الحكم الذاتى لمصر فقد كان الإنجليز مع ذلك مضطرين لأن يأخذوا فى الحسبان آراء المستشار الأول للخديوى، ولاسيما فى البداية عندما كانت سمعته فى عز قوتها.

أما مصطفى فهمى باشا، خَلَف رياض باشا، فقد كان يقف من منصبه موقفًا مغايرًا تمامًا، وقد قبل بتكليف الخديوى له بتأليف حكومة جديدة واشترط لتسنم منصب رئيس الوزراء بأن تنفذ الحكومة دون ما اعتراض نصائح وتعليمات بريطانيا العظمى.

ولا غرابة فى أن الإنجليز لم يصادفوا فى ظل ظروف كهذه عقبات فى طريق مواصلة ترسيخ أقدامهم فى وادى النيل.

يعتبر أهم نجاح حققه الإنجليز خلال العام الماضى انتقال دائرة العدلية إلى تحت تصرفهم التام، وساعد على ذلك بالدرجة الأولى تعيين الحقوقى الإنجليزى سكوتّ فى منصب المستشار القضائى للحكومة المصرية.

بالإضافة إلى مرسوم الخديوى المتعلق بهذا التعيين صدر أيضًا قرار وزارى بتشكيل «لجنة خاصة» برئاسة سكوتّ ذلك عينه لأجل مراقبة أعمال محاكم الدرجة الأولى.

رغم احتجاج الممثل الفرنسى فى القاهرة فقد تم تنفيذ هذا الإصلاح على الفور.

لقد كان فى وسع الدول الأجنبية بلا شك . إيجاد مسوغات قانونية للاحتجاج على تعيين مستشار إنجليزى فى وزارة العدلية التى تقع تحت إشرافها المحاكم

الدولية، فالدول الأوروبية، بموافقتها على استبدال دائرة الاختصاص القنصلى بمحاكم مختلطة، إنما كانت تقصد أنه سيكون على رأس دائرة العدلية مصريون. وغَنِىٌّ عن البيان أن استلام شخص إنجليزى لهذه الدائرة، ولهذا المنصب الرفيع جدًا خاصة، قد انتهك سواء الشروط القائمة سابقًا أم تناسب نفوذ جميع الدول الأخرى المشاركة فى الإصلاح القضائى.

وكان فى وسع احتجاج فرنسا، المطروح على هذه الأرضية للعلاقات الدولية، أن يحرز بعض النجاح، ومن دواعى الأسف أن الحكومة الفرنسية أضفت على اعتراضاتها صبغة سياسية بحتة؛ بان تشكّت من الوضع المهيمن لواحدة من الدول الكبرى، الذى خلقه التنازل المفرط من جانب الخديوى؛ وبهذا نسفت نهائيًا أهمية بياناتها.

إن الهدف النهائى، لاهتمامات الإنجليز بإعادة تنظيم دائرة العدلية هو ـ بلا شك ـ إلغاء المحاكم المختلطة التى تضايق حرية تصرفاتهم.

على أثر إصدار مرسوم «اللجنة الخاصة» طُرحت فى الأوساط الحكومية، مسألة إعادة النظر فى القوانين السارية المفعول، وإنشاء محكمة خاصة، على سبيل التجربة، فى منطقة الحدود ويكون على رأسها الحاكم العسكرى لهذه المنطقة العقيد الإنجليزى وود هاوز باشا.

إضافة إلى المحاكم الدولية كانت تشكل عقبة لا تقل شأنًا عن ذلك فى طريق السلطة المطلقة للإنجليز فى مصر الامتيازات، التى كانت لا تزال، سارية المفعول وتستثنى الأجانب من التسيير المباشر للسلطة المحلية.

كانت جميع جهود بريطانيا العظمى، موجهة فى العام الماضى،نحو الإلغاء التدريجى لهذه الامتيازات بالذات.

انتهكت الوفاة المفاجئة للخديوى محمد توفيق باشا، فى نهاية العام، الاستيلاء السلمى والتدريجى من جانب الإنجليز على السلطة فى وادى النيل، مما لاشك فيه، أن هذا الحدث يمثل أهمية خطيرة، بالنسبة لبريطانيا العظمى، وهو قد يغير بدرجة معينة تلك العناصر، التى كان جبروتها فى مصر يستند إليها.

غير أنه من المشكوك فيه من وجهة نظر السياسة العامة، أن يكون للتغير الذى حدث فى مصر، تأثير على الأوضاع السائدة فى البلاد.

أن فتوّة الخديوى الجديد وافتقاره إلى الخبرة، والغموض الذى يعترى كل تغير للسلطة، إن ذلك كله، يشكل بالنسبة للحكومة البريطانية، مسوغات جدية كافية لصد أية محاولة لتغيير الوضع السائد فى مصر.

وليس ثمة من شك، فى أن إنجلترا ستحظى، فى هذه الحالة، بالتأييد من جانب جامعة الدول الثلاث.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٢

مصر

مصر إن تولّى عباس حلمى باشا، البالغ من العمر ١٨ عامًا والعديم الخبرة، مقاليد إدارة مصر، فتح الباب واسعًا، أمام دسائس الإنجليز فى وادى النيل.

وصل الخديوى الشاب إلى الاسكندرية تحت حماية الأسطول الإنجليزى محاطًا بعمارة من السفن البريطانية؛ الأمر الذى نمَّ بشكل جلى عن عزم الحكومة البريطانية على عدم التخلى عن الوضع الاستثنائى الذى كسبته فى مصر.

فى غضون ذلك، عمد الخديوى الجديد، خلافًا لوالده الراحل ـ ومنذ الأيام الأولى لإدارته البلاد ـ إلى المباشرة بتعاطى الأمور بصورة جدية؛ بأن اقترح على وزرائه أن يقدموا له تقارير إلزامية، حول جميع المسائل قيد المناقشة؛ وإذ أولى اهتمامه الرئيسى للقوات العسكرية، طلب الخديوى، بالدرجة الأولى، بأن تُقسِم يمين الولاء له؛ علمًا بأنه أخذ من الإنجليز العاملين فى الخدمة العسكرية المصرية، تعهدات خطية بالتنفيذ الصارم، لواجب الخدمة الملقى عليهم.

وهذا أثار استياء طبيعيًا لدى سلطات الاحتلال، نزوع عباس باشا إلى الاستقلالية بسبب القرار الذى اتخذه فى البدء بالتوجه إلى القسطنطينية، للإعراب عن شعور الولاء لسلطان مصر الأعلى، وكانت جميع مساعى الإنجليز

موجهة - من جهة - نحو تقويض تبعية مصر لتركيا، ومن جهة أخرى، نحو بث الخلاف فى علاقات السلطان الشخصية مع الخديوى الشاب.

فى القاهرة، أخذت تنتشر شائعات تزعم أن السلطان ينوى تعيين شخص آخر حاكمًا لمصر، وأن عباس حلمى باشا يتهدده خطر إبقائه إلى غير رجعة فى القسطنطينية. ومماطلة الباب العالى فى إرسال فرمان التثبيت، أضفت نوعًا من الاحتمال على الإشاعات التى أرجأ عباس باشا تحت تأثيرها سفرته إلى القسطنطينية إلى أجل غير مسمًّى.

أضيفت إلى ذلك - بعد وقت قليل - خلافات جديدة بين تركيا ومصر بصدد مسألة الحدود؛ فإن الباب العالى، إذ كان يتخوف بالدرجة الأولى من دسائس الإنجليز فى شبه الجزيرة العربية، وجه إلى الخديوى طلبًا بإزالة بعض التحصينات المصرية القائمة على طول خليج العقبة، واتخذ فى الوقت نفسه إجراءات لتعزيز القوات المرابطة فى الحجاز واليمن.

على الرغم من أن حدود مصر كانت مرسومة، بمجرد فرمان سلطانى، وأن التغييرات المتكررة لها، لم تصادف - فى يوم من الأيام - اعتراضات من جانب الدول الأوروبية؛ فقد رأت الحكومة التركية من الضرورى فى هذه الحالة، أن تطلب من الحكومة البريطانية، التوسط فى حمل المصريين على إزالة التحصينات المذكورة.

أثار هذا العمل انطباعًا شاقًا، فى نفس الخديوى، وانطلقت فى - أوساط رجال الدولة المخلصين له - شكاو، من الاستحالة التامة للاعتماد على تركيا بشكل جدى، وللبحث لديها عن مساندة ضد أعمال احتلال الإنجليز، حيث إن الباب العالى ذاته، بتوجيهه، طلبًا إلى لندن بصدد الشؤون المصرية، يتصرف بشكل يضفى طابع الشرعية، على هيمنة بريطانيا العظمى فى وادى النيل.

غير أنه سرعان ما تسنى تبديد هذه الخلافات بفضل التداخل الملح،من جانب سفارتنا، والسفارة الفرنسية فى القسطنطينية.

كلف السلطان - بإرادة خاصة - الخديوى بإدارة شبه جزيرة سيناء باستثناء العقبة، التى وُضعت تحت إشراف الحاكم العام للحجاز.

إن مساعى الإنجليز - لربط ذلك - بالبت فى مسألة إصدار فرمان التثبيت لم تبلغ غايتها؛ لأن الفرمان كان قد أرسِل مسبقًا إلى مصر مع بعثة خاصة برئاسة أيوب باشا.

وكان الباب العالى قد أرسل نصَّى الإدارة والفرمان، على السواء، ليس فقط إلى السفير البريطانى، بل - وفى الوقت نفسه - إلى ممثلى الدول الأخرى، ومن جراء ذلك لم تتكلل بالنجاح محاولة إنجلترا الاضطلاع بدور الوسيط الوحيد، بين السلطان ومواليه.

كان ينبغى للإخفاقات التى منى بها الإنجليز أن تزيد، بالطبع، من جاذبية فرنسا فى مصر، وتساهم فى تقوية نفوذ ممثل الجمهورية فى القاهرة، الذى دفع الخديوى إلى البحث عن دعائم لدى السلطان، ضد سياسة إنجلترا التى تبتلع كل شىء.

إن مساعى المركيز ريفيرسو فى هذا الاتجاه، التى يؤيدها وكيلنا الدبلوماسى فى القاهرة، وحظيت بالتعاطف من جانب سكرتير الخديوى السيد روليبه، الذى يمارس عليه تأثيرًا كبيرًا، دفعت نائب السلطان الشاب إلى فكرة إحاطة نفسه بمستشارين آخرين، أكثر أهلية لتسيير شؤون إدارة البلاد بصورة مستقلة.

أول عمل قام به الخديوى بهذا الصدد، كان عزل رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا وتعيين فكرى باشا، وزير العدلية السابق فى حكومة رياض باشا، محله، وهو خصم معروف للسيطرة البريطانية فى مصر.

وإذ استاء الممثل البريطانى فى القاهرة من تنحية مصطفى فهمى باشا، المطيع له قدم احتجاجًا على أوامر الخديوى، الاعتباطية فى رأيه، واقترح على جميع الإنجليز العاملين فى الخدمة المصرية عدم الاعتراف بسلطة الوزير الجديد.

غير أن «عباس باشا» الذى أصر فى بادىء الأمر على الذود بقوة عن حق اختياره أقرب مستشاريه، كان يترتب عليه التراجع أمام ضغط الحكومة البريطانية، التى طالبت بإقالة «فكرى باشا» على الفور. وكلف الخديوى عندئذ بتأليف الحكومة إلى رياض باشا الذى وافق الإنجليز على تعيينه.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٣

مصر

كانت استقالة وزارة مصطفى فهمى باشا، الموالية لإنجلترا فى مطلع العام الفائت، بمثابة محاولة من جانب الخديوى للتخلص من السيطرة البريطانية فى وادى النيل.

وعلى الرغم من أنه كان يترتب على عباس باشا . لدى ذلك . الإذعان لبعض مطالب ممثل بريطانيا العظمى فى القاهرة؛ فإن التوق الذى أبداه إلى البت المستقل فى مسائل الإدارة الداخلية، أثار انطباعًا حسنًا فى مصر، وزاد كثيرًا من شعبيته فى أعين الجماعات الإسلامية التى تكنّ العداء لسيطرة الإنجليز، وزارت الخديوى من المحافظات مرات متكررة، وفود خاصة للإعراب عن مشاعر ولاء السكان له.

إن جميع مظاهر الرأى العام هذه لم تكن تروق إطلاقًا للإنجليز الذين سرعان ما أضفوا عليها طابع انبعاث التعصب الدينى الإسلامى ضد الأجانب.

وإذ صور اللورد كرومر، وضع الأمور فى مصر بهذه الصورة المحفوفة، بالمخاطر أفلح فى استمالة الحكومة البريطانية إلى زيادة تعداد قوات الاحتلال. فلدى إبلاغ الممثلين الأجانب عن تعزيز الحامية البريطانية فى مصر، بررت الحكومة البريطانية هذا الإجراء بالقلاقل، التى حدثت أثناء الأزمة الوزارية وبقلة عدد فيلق الاحتلال الإنجليزى، غير الكافى، فى حال حدوث اضطرابات

خطيرة فى أوساط الشعب؛ إلا أن إنجلترا أعلنت أنها ـ بحفاظها على الوضع القائم ـ لن تفكر بانتهاك الاتفاقيات وفرمانات السلطان التى تحدد الوضع الدولى لوادى النيل.

لدى تلقى حكومة جلالتكم، بلاغ الحكومة البريطانية هذه لم تلبث أن أجابت، بأنها ستأخذ بعين الاعتبار، تأكيدات إنجلترا، بانه لن تحدث فى سياستها المتعلقة بالمسألة المصرية تغيرات مخالفة للاتفاقيات.

إن حكومة رياض باشا الجديدة وضعت نصب عينيها ـ على ما يظهر ـ مهمة استعادة سمعة ومكانة وزارات الخديوى، وأن تعيد إليها ـ قدر الإمكان ـ تلك المجالات فى الإدارة التى انتقلت، فى غضون عامين من وجود مصطفى فهمى باشا فى الحكم، إلى إشراف الإنجليز المباشر.

كان يتوجب على هذه التطلعات أن تثير الاستياء فى أوساط الجالية البريطانية. فقد أثارت الصحف البريطانية حملة تحريض ضد رياض باشا؛ مصورة إياه بأنه متعصّب، يعارض الإصلاحات ويعرقل الإدارة النزيهة للبلاد .ولكن الممثل البريطانى، إذ كان يُعتبر المفوض التركى فى مصر المذنب الرئيسى، عن اتجاه الأمور، لم يضن بالجهود من أجل الإطاحة بمختار باشا.

وخلال العام المنصرم ظلت منتشرة بقوة الإشاعة عن عزم السلطان، بناء على إلحاح السفيرين: الألمانى والإنجليزى فى القسطنطينية، على استدعاء «مختار باشا» من مصر، استنادًا إلى أساس مزعوم بأنه يحث الخديوى على الانتفاضة ضد الإنجليز. إلا أن الحكومة التركية لم تنجر إلى هذه الإيحاءات الداعية، إلى سحب مفوضها من القاهرة؛ حيث كان وجوده يُعتبر الإشارة الوحيدة إلى العلاقة القائمة، بين الامبراطورية العثمانية ومصر الواقعة تحت سيطرتها.

وصارت ضرورة الحفاظ على هذه العلاقة، تتغلغل أكثر فأكثر أيضًا إلى وعى رجال الدولة المصريين، الذين عزم الخديوى أخيرًا ـ بناء على إلحاحهم ـ على القيام، بسفره فى العام الماضى إلى القسطنطينية، رغم جميع جهود الممثل البريطانى لعرقلة تحقيق هذا القصد.

استُقبل عباس باشا، لدى توجهه إلى عاصمة تركيا بصحبة بعض الوزراء والمفوض العثمانى، استقبالاً حافلاً من جانب البادشاه التركى، الذى قدّم، أثناء وجود الخديوى الشاب على ضفاف البوسفور، عددًا غير قليل من الأدلة على اعتنائه الخاص به.

وأحرز «عباس باشا» ووزراؤه، الذين كانوا من جهتهم يستهدفون كسب ثقة السلطان، بعض النتائج على ما يبدو.

رغم أنباء الصحافة الإنجليزية، التى أعلنت عن الإخفاقات، وخيبات الأمل المتعلقة بهذه السفرة، فثمة أساس للتأكيد، على أن الخديوى، عاد إلى بلاده تغمره مشاعر مغايرة، وأن زيارته للقسطنطينية أحدثت انطباعًا حسنًا، فى نفوس السكان المسلمين فى العاصمة التركية، علمًا بأن «السلطان عبد الحميد» نفسه كان يتحدث عن مواليه بأكثر العبارات إطراءً.

لاشك فى أن «عباس باشا» والمقرَّبين إليه أدركوا جميع مواطن ضعف الحكومة التركية: غير أنهم فهموا أيضًا منافع الموقف الصحيح فى تركيا، وضرورة الحفاظ معها على العلاقة التى أقرتها الاتفاقيات.

لم تغب هذه الحالة عن اهتمام الوكيل البريطانى فى القاهرة، ولدى عودة الخديوى إلى مصر، حيث استقبله جميع السكان بحماسة شديدة، رأى اللورد كرومر من الضرورى تغيير نمط أعماله الاعتيادى بعض الشئ: فمن دبلوماسى ملحاح، بل وحتى حاد الطباع أحيانًا، تحوّل إلى شخص لطيف ومجامل؛ وإذ حافظ على أفضل العلاقات الظاهرية مع الخديوى قرر، على ما يبدو، انتّظار صدور أية هفوة خطيرة من جانب رئيس الوزراء؛ لكى يوعز مجددًا إلى حكومة إنجلترا باستحالة منح المصريين قواهم الخاصة.

بينت الأحداث اللاحقة أن حساب الوكيل البريطانى كان صادقًا لحدّ ما، وأفلح فى العام الجارى فى التوصل إلى الإطاحة برياض باشا المكروه من جانب إنجلترا.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٤

مصر

مصر . فى العام المنصرم لم يطرأ تغير يذكر، على الوضع العام للأمور، فى مصر. فجميع جهود الخديوى لإدارة البلاد بصورة مستقلة قوبلت . كما فى السابق . بمقاومة جدية من جانب الإنجليز الذين يواصلون بكل عناد ومثابرة التمسك بسلطتهم ونفوذهم فى وادى النيل.

ولم تتحقق الآمال، التى عقدها عباس باشا فى بادىء الأمر على صلابة طباع رئيس وزرائه وروحه الوطنية، فاهتزت كثيرًا ثقته برياض باشا .

لم يتوانَ الوكيل البريطانى فى القاهرة، فى استغلال هذا الوضع؛ لكى يُبعد عن السلطة رجل الدولة الوحيد فى مصر الذى كان يعتبره الإنجليز قادرًا على إبداء ولو بعض المقاومة فى وجه عمليات استيلائهم التدريجى.

لم يكن من الصعب على اللورد كرومر، وفى حوزته الصحافة، إثارة الرأى العام فى إنجلترا ضد رياض باشا، الذى اتهمه بتأجيج التعصب الدينى فى مصر؛ وأفلح كرومر، بالمعارضة الدائمة لجميع أوامر الوزير، فى تقويض سمعته وسط السكان.

اضطر «رياض باشا» وقد استاء من تهجمات الصحافة ومن الإشاعات الكريهة التى أطلقت، حول نشاط ابنه الذى كان يشغل منصب زميل وزير

الداخلية، إلى تقديم الاستقالة، وتنحى معه عن إدارة الأمور معاونه الواسع النفوذ، وزير الخارجية ديكران باشا.

لم يستطع نوبار باشا، الذى دُعى لتأليف حكومة جديدة، ورغم رجاحة عقله، وقدراته كرجل دولة، فى اتخاذ موقف مستقل فى البلاد، بعد أن ربط نفسه مسبقًا بالتزامات للورد كرومر: الخضوع دون ما اعتراض لتعليمات البعثة البريطانية، وإدخال مصطفى فهمى باشا، المعروف بإخلاصه للإنجليز، إلى حكومته فى منصب وزير الحربية.

هذه االحالة مارست تأثيرًا كريهًا على مزاج الخديوى، وقرر التوجه إلى أوروبا، للمعالجة بالمياه المعدنية؛ على أن يزور ـ قبل ذلك ـ باريس ولندن.

أثار هذا المشروع قلق السلطان، الذى كان خياله يصور له بشكل واضح كل الأخطار المرتبطة بزيارة الخديوى إلى عاصمة بريطانيا العظمى، ومن خلال وساطة سفيرنا والسفير الفرنسى فى القسطنطينية، نصح السلطان عبد الحميد عباس باشا بالتخلى عن رحلته المقررة.

وإذ لم يكن الخديوى يجرؤ على مخالفة رغبة السلطان كان، من جهة أخرى، قد وُضع فى وضع يستحيل عليه، التخلص من الوعد الرسمى، الذى قدمه بزيارة عاصمة إنجلترا؛ حيث أقيمت الاستعدادات لاستقبال حاكم مصر.

كانت الأحداث الدائرة فى أفريقيا، بمثابة عذر لائق لتركيا، من أجل انتشال الخديوى من الوضع العسير.

وسرعان ما تلقى عباس باشا تبليغًا رسميًا بأن السلطان يعارض بصورة قاطعة رحلته إلى لندن؛ إذ أنه يعتبر ذلك أمرًا يتنافى مع كرامة الخديوى ـ إسداء جميل للحكومة البريطانية فى هذه اللحظة، التى يحتج فيها سلطانه على تنازل إنجلترا الوقح لعاهل البلچيكيين عن المحافظة الاستوائية، التى لم تكن ملكًا لها فى يوم من الأيام؛ وإذ لم يكن السلطان يرغب فى حرمان الخديوى من الاستراحة، فقد دعاه إلى قضاء فصل الصيف على ضفاف البوسفور. ولم يتوانَ عباس باشا فى الخضوع لإرادة سلطانه.

فى غضون ذلك أثار مكوث الخديوى المديد فى القسطنطينية، أقاويل مقلقة للغاية.

فقد ساد فى القاهرة اعتقاد، بأن عباس باشا ـ شأنه شأن جده ـ سيبقى محتجزًا نهائيًا فى عاصمة تركيا، وكان قد تم تعيين شقيقه الأصغر محله حاكمًا على مصر.

ولم يتبدد القلق إلا بعد أن تلقى نوبار باشا نبأ عن الاستقبال الحافل الذى خصَّ به الخديوى فى القسطنطينية، وعن الإذن الذى أعطى إياه، أخيرًا، للتوجه إلى المنتجعات البحرية فى إيطاليا، ومن ثم إلى سويسرا.

إذن، وبالإجمال، جرت ظروف رحلة الخديوى بصورة ملائمة للغاية، سواء بالنسبة له شخصيًا أم بالنسبة للدول التى ترغب فى الحفاظ على مصر، تحت السلطة العليا للسلطان، وعلى الحكم المستقل بدرجة معينة لسلالة محمد على.

لدى عودته إلى مصر أصيب الخديوى بصدمة شديدة من الاتجاه الذى سارت فيه ـ أثناء غيابه ـ الشؤون السياسية والداخلية على السواء.

فإن احتجا ج السلطان على التنازل عن المحافظة الاستوائية لصالح بلچيكا لم يبق دون عواقب، وأخذت السلطات العسكرية البريطانية تستعد للقيام بحملة على السودان؛ وأخيرًا، قامت فصيلة إيطالية صغيرة باحتلال كسّلا دون ما عائق.

مارست هذه الحادثة انطباعًا شديد الوطأة، بشكل خاص فى نفوس المصريين؛ إذ أن الطليان ـ باستيلائهم على كسّلا ـ يصبحون متحكمين مباشرين بالفاشر، التى تشكل بوابة يمر عبرها كل الطمى المخصب، الذى تحمله مياه النيل، من جبال الحبشة إلى حقول مصر. وهم يكسبون بذلك، دون شك، تأثيرًا قويًا على مصائر البلاد.

فى ميدان الحياة الداخلية، تجلى تدخل الإنجليز بوضوح خاص فى قضية إعادة تنظيم وزارة الداخلية، وبحكم ذلك امّنوا لأنفسهم حق تعيين مستشار إنجليزى لدى هذه الوزارة. وحتى نهاية العام الفائت، كانت وزارة الداخلية الدائرة

الوحيدة التى تتمتع ببعض الاستقلالية إذ كانت توجد فى أيدى شخصيات مصرية.

نظرًا لهذه الأحداث تشكَّى الخديوى بمرارة، من فقدان مصر التام للحماية.

فمن جانب فرنسا، وهى البلد الأكثر اهتمامًا بكل ما يجرى فى وادى النيل، لا يتلقى الخديوى، حسبما قال، سوى «نصائح عذرية بحتة بأن أكون حازمًا، فى النضال ضد الظالمين»، فى حين أنه كان يترتب عليه أن يتحمل هجمات لا عذرية بل فعلية تمامًا، لا من جانب الإنجليز وحسب، بل أيضًا من جانب وزرائه أنفسهم.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٥

مصر

رغم التعقيدات السياسية العامة فى الامبراطورية التركية، من جهة، وعمليات الطليان الحربية ضد الحبشة، من جهة ثانية، لم يجر تعكير الهدوء فى مصر خلال العام المنصرم.

فى غضون ذلك، لم تكف الصحافة الإنجليزية المصرية . تمسكاً بعادتها المألوفة . من تخويف الأوروبيين من انفجار التعصب الدينى الإسلامى . من التحدث عن انتفاضة يجرى التحضير لها فى أوساط المسلمين، ساعية بذلك إلى أن تبرر فى أعين أوروبا، استمرار وجود القوات البريطانية فى مصر ودفع الدول، بالتالى، إلى إرجاء مناقشة مسألة الجلاء عن هذا البلد.

الاعتبارات السياسية هى الأخرى أدت . على ما يبدو . إلى ظهور عمارة البحر الأبيض المتوسط البريطانية، فى مايو (أيار) من العام الماضى، فى المياه المصرية تحت قيادة الأميرال سايمور.

لقد كانت حكومة سانت چيمس تأمل فى أن وجود الأسطول البريطانى فى الإسكندرية، سوف يفسَّر باعتزام إنجلترا على الدفاع بالقوة السافرة عن الوضع الذى كسبته لنفسها بطريقة غير شرعية ألبتة فى مصر.

بغية التأثير المناسب على الحكومة العثمانية أطلق الإنجليز إشاعة، تزعم أن الخديوى كان ينوى التنحى عن تركيا، وإعلان نفسه خليفةً بعد الاستيلاء على الحجاز.

غير أن هذا النبأ، تبدّى، كما كان متوقعًا، عاريًا عن الصحة، ولكنه بلغ مرماه المنشود بأن دل الحكومة التركية على تلك الإجراءات القصوى، التى يمكن لإنجلترا أن تكون على استعداد للجوء إليها، إذا ما اضطرت للذود بجدية عن مصالحها فى مصر.

لم تطرأ تغيرات فى العام المنصرم على ميدان سياسة مصر الداخلية. وجميع مجالات الإدارة متمركزة فى أيدى الإنجليز، ويبدو أن الخديوى توصل إلى الاقتناع بعدم جدوى إبداء أى مقاومة فى وجه أعمالهم الاستيلائية.

أثناء وجوده ـ الصيف الماضى ـ فى عاصمة تركيا، اقتنع عباس باشا، حسبما قال، أكثر من أى زمن مضى، بلا مبالاة السلطان التامة حيال كل ما يجرى فى مصر.

وإذ لم يلق مساندة من أية جهة كانت قرر الخديوى، قدر الإمكان، الصبر على ظلم إنجلترا وكتم مشاعره الحقيقية حتى وقت أكثر ملاءمة بالنسبة لمصر.

عند نهاية العام الماضى أعلن رئيس مجلس الوزراء نوبار باشا استقالته بصورة غير متوقعة إطلاقًا بالنسبة لزملائه فى الوزارة. وعلى الرغم من أن نوبار باشا نفسه فسر قراره بانحراف فى صحته فان الرأى العام فى القاهرة فسر التنحى الطوعى لرئيس الوزراء بعدم رغبته فى أن يأخذ على عاتقه قسمًا من المسئولية التى ينبغى، فى رأى المصريين، أن يتحملها فى المستقبل القريب، جميع رجال السياسة فى تركيا من جراء الأحداث الخطيرة المرتقبة فى الشرق.

ومهما يكن من أمر، فإن استقالة نوبار باشا، فى ظل الاتجاه المذكور للسياسة الداخلية فى مصر، لم تتسم بأهمية خاصة. ووقّع الخديوى، المضطر للإذعان دون اعتراض ـ لتعليمات الممثل البريطانى ـ مرسومًا عين بموجبه فى منصب رئيس الوزراء مصطفى فهمى باشا، الذى نحّاه عباس باشا عام ١٨٩٣م عن هذا المنصب جزاء ولائه المفرط للإنجليز.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٦

مصر

فى العام المنصرم لم تطرأ تغيرات هامة على وضع الأمور على ضفاف النيل: فالإنجليز بقوا، كشأنهم فى السابق، المتحكمين، المطلقى التصرف، بمصائر البلاد والأسياد المطلقين فى قصر الخديوى، وفى مجلس الوزراء المصريين، على السواء.

إن الحملة على دنقلة، التى قاموا بها بأموال مصرية، وبمساعدة القوات المصرية والتى انتهت الآن بصورة باهرة، وكذلك سلفة الـ ٥٠٠ ألف جنيه استرلينى، التى فرضوها على حكومة الخديوى للتعويض عن المبلغ الذى سُحب فى البدء، لأجل هذه الحملة من صندوق الديون المصرية، لم تعملا إلا على المساهمة فى ترسيخ نفوذ الإنجليز فى المنطقة المحتلة.

إن إدراك البطلان التام، لمقاومة أوامر اللورد كرومر حمل الخديوى غير مرة على الابتعاد عن أى تدخل فى شؤون إدارة البلاد، وكان يحس إحساسًا عميقًا بكل مرارة السخرية التى دوت فى كلمات الممثل البريطانى، الموجهة إلى الخديوى، قبل سفرته الأخيرة إلى خارج البلاد. لقد قال اللورد كرومر لعباس باشا:

إن بإمكانكم السفر باطمئنان إلى أوروبا، حيثما تشاؤون دون ما خوف على البلد المؤتمنون عليه؛ لأنه يوجد تحت حماية إنجلترا، التى تستطيع الدفاع عنه.

إضافة إلى وضع الخديوى العَسِير ترددت بشكل ملحوظ فى العام الماضى علاقاته مع حكومة السلطان. وكان بمثابة سبب رئيسى لذلك وصول الثائر مراد إلى مصر بعد فراره من تركيا. فعلى أثر ظهوره فى القاهرة، بدأ «مراد بيه» بإصدار جريدة، تنشر الدعاية ضد نظام وراثة التاج وإدارة الامبراطورية القائم فى تركيا. فضلاً عن ذلك. وإذ أحاط نفسه بشركاء فى الرأى من المهاجرين أقام علاقات مع عناصر مستاءة فى تركيا نفسها، ومع اللجان الأرمنية والكريتية، فخلق بذلك فى مصر بؤرة كبيرة للدعاية الثورية، وضعت نصب عينيها مهمة الإطاحة بالسلطان وإعادة النفوذ البريطانى فى القسطنطينية، وهو أمر مرغوب فيه بقدر متساو، سواء بالنسبة للأرمن والكانديين أم بالنسبة لحزب فتيان الترك.

رغم مطالب الباب العالى المتكررة بترحيل «مراد بيه» إلى القسطنطينية، لم يستطع الخديوى الامتثال للأمر؛ نظرًا لإعلان اللورد كرومر القاطع بأن إنجلترا لن تسمح بتسليم هذا المهاجر.

الحادثة الجديدة، العرضية تمامًا، التى وقعت فى القاهرة زادت من تفاقم العلاقات بين السلطان والخديوى: فقد تعرض اثنان من محررى جريدة «النيل»، التى يمولها السلطان، للضرب، من جانب موظفى ديوان الخديوى الخاص. وهذا الواقع وفر المسوغات فى القسطنطينية للاشتباه بتعاطف الخديوى مع حزب فتيان الترك.

وسرعان ما تلقى عباس باشا رسالة من القسطنطينية مباشرة، ألقى فيها السلطان على الخديوى بعبارات قاسية للغاية كل المسؤولية عن أعمال الحزب الثورى التركى، وطلب لآخر مرة تسليم مراد بيه.

بعد الاطلاع على محتوى هذه الرسالة رأى الممثل البريطانى أخيرًا من المناسب وضع حد للدعاية المعادية لتركيا، وأرغم «مراد بيه» على مغادرة مصر.

غير أن هذا التنازل لم يحسن علاقات السلطان مع الخديوى التى بقيت متوترة للغاية حتى نهاية العام.

يُلقى عباس باشا ذنب كل إخفاقاته على الحكومة الفرنسية، التى كانت توجهه، فى غضون بضعة أعوام، ومن خلال وكلائها، نحو النضال ضد سلطة الاحتلال، ولكنها لم تقدم له مساعدة جدية، وبقيت على العموم متفرجًا خاملاً على استيلاءات الإنجليز التدريجية.

فى هذه المرة - على ما يبدو - اكتفت الحكومة البريطانية فعلاً، بالاستيلاء على دنقلة، غير أن الخديوى وحكومته والأشخاص المطلعين عن كثب على وضع الأمور على ضفاف النيل، لا يخفون عن أنفسهم، إن الحملة على دنقلة، التى انتهت بهذا القدر من النجاح، ليست سوى مرحلة تمهيدية لبسط منطقة النفوذ البريطانية على كل شرق السودان، وأنه ينبغى، لدى نشوء ظروف مواتية، توقّع قيام إنجلترا بمحاولة مواصلة التقدم نحو الخرطوم واحتلال سواكن.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٨

مصر

فى العام المنصرم واصل الإنجليز، بإلحاحهم المعهود، السعى لتحقيق هدفهم المنشود. بسط سيطرتهم على وادى النيل الخصيب؛ ولأجل ذلك لم يضنوا بالجهود ليس فقط، من أجل التشهير بحاكم مصر الشاب وإضعاف العلاقة التى تربط الخديوى بسلطانه، بل أيضاً من أجل تقويض هيبة المؤسسات الدولية الموجودة فى البلاد، ووضع جميع هيئات الإدارة المحلية نهائيًا تحت إمرتهم.

وبما أن الحكومة البريطانية لم تصادف أية مقاومة تذكر لخططها، لا من جانب السلطان عبد الحميد، بوصفه الحاكم الأعلى لمصر، ولا من جانب الدولة الكبرى التى ليست لها مصالح سياسية مباشرة فى البلاد، فقد باتت عمليًا، فى شخص ممثلها فى القاهرة، سيدًا مطلق السلطة للوضع، علمًا بأن عباس باشا، والوزراء المحيطين به، كانوا مجرد منفذين طيعين لأوامر اللورد كرومر.

برزت علائم هذا النفوذ المهيمن، بصورة جلية، خاصة بعد نجاحات السلاح الإنجليزى المصرى فى السودان، التى وضعت هذه المنطقة الفسيحة كليًا فى أيدى الإنجليز، وسهلت بالتالى ترسيخ أقدامهم نهائيًا فى كل وادى النيل.

بدأت العمليات الحربية ضد المهديين فى العام الماضى بتقدم الفيلق الإنجليزى المصرى، باتجاه مصبات نهر عطبرة لملاقاة حشود الدراوشة التى كانت تسير فى نفس الاتجاه.

ولدى بلوغ معسكر المهديين المحصّن على ضفة النهر المذكور هجم كيتشنر باشا فى ٢٧ مارس (آذار) على خصمه وأحرز نصرًا تامًا عليه. وأُبيد جزء من فصيلة المهديين البالغ تعدادها تسعة آلاف شخص، وتشتت الجزء الآخر.

واستولى المنتصرون على ١٠ مدافع وأكثر من ١٠٠ راية، وعلى المعسكر بأسره. وتم أسر «الأمير محمود» زعيم الدراوشة، ونسيب الخليفة الزائف، أما الأمراء الآخرون فقد قُتلوا باستثناء عثمان دقنة الذى فر إلى الصحراء.

أتاح هذا النجاح للإنجليز إمكانية الاستيلاء على باتونيه وبندى، الواقعتين على ضفتى النيل: اليسرى واليمنى، وبعد ذلك توقفت العمليات الحربية بانتظار ارتفاع منسوب المياه، الذى من شأنه أن يسمح بنقل سفن خفر السواحل عبر الجنادل، التى كان من المقرر العمل تحت غطائها على مواصلة التقدم نحو الجنوب.

أثناء ذلك كانت تجرى الاستعدادات للحملة على أم درمان، علمًا بأن تعداد الفصيلة العاملة زيد إلى ٢٥٠٠٠ نفر؛ وكانت قد نقلت من إنجلترا مدافع حصار وجميع الذخائر الضرورية.

فى شهر أغسطس (آب) فقط، بدأ الهجوم اللاحق باتجاه كِرّارى الواقعة على بعد ١٠ أميال شمالى أم درمان، حيث كانت تحتشد قوات الخصم المنتشرة فى معسكر محصّن ضخم، يقع على الضفة اليسرى للنيل؛ فى الطريق تم الاستيلاء على شبلوقة التى سبق للمهديين أن أخلوها فى يونيو (حزيران) وهم لا يأملون على الأرجح فى الصمود فى هذا الموقع. وفى ٢٠ من أغسطس (آب) اقتربت القوات الإنجليزية المصرية من كرّارى، التى أخلاها الدراوشة فى الحال متراجعين إلى أم درمان.

قبل إعطاء الأمر بالهجوم العام، الذى كان ينبغى له أن يحسم مصير الخليفة، دمر كيتشنر باشا بنيران المدفعية جميع التحصينات القائمة على الضفة اليمنى للنيل، وشرع من ثم فى قصف أم درمان ببطارية مدافع الهاوزر، التى مارس فعلها تأثيرًا شديدًا للغاية فى نفس الدراوشة؛ وإذ رأى الخليفة استحالة الصمود

فى موقعه سارع إلى القيام بهجمة صدها السردار دون ما عناء وانتقل حالاً إلى الهجوم؛ وقد أدى هجوم القوات الإنجليزية المصرية، المدعمة بالنيران الشديدة للمدافع السريعة الطلقات، أدى بسرعة إلى الهزيمة التامة للخصم الذى فر لا يلوى على شىء، بعد أن تكبد خسائر فادحة فى القتلى والجرحى.

لقد وضع حد لوجود أم درمان ـ حصن الحركة المهدية، وفى اليوم التالى بالذات رفرف فوق الدار السابقة لغوردون باشا العلمان: المصرى والبريطانى.

ولم يبق أمام الاستيلاء النهائى على السودان سوى طرد الدراوشة من هيرادوس، الأمر الذى قامت به فيما بعد بصورة ناجحة جدًا حامية كسّلا بقيادة بارسون باشا.

وإذ وضع الإنجليز هدفًا لها، أن يشكلوا من السودان محافظة ذات حكم ذاتى تام، سارعوا فى الحال بعد الاستيلاء على أم درمان إلى الإعلان عن حقهم فى أن يكون لهم الصوت الحاسم فى التصرف بالبلاد التى استولوا عليها. وقام الممثل البريطانى فى القاهرة بإرسالٍ بلاغ خاص بهذا الصدد إلى وزير خارجية الخديوى، أشار فيه إلى أن السودان أُعيد إلى مصر بعد ثلاث حملات فقط، فى أعوام ١٨٩٦ و١٨٩٧ و١٨٩٨ شاركت إنجلترا فى عملياتها الحربية بالوسائل المادية، وبدماء محاربيها على السواء،وإن هذه الاعتبارات هيّأت لها وضعًا استثنائيًا فى هذه الحالة.

وأعرب عن الفكرة نفسها اللورد كرومر فى الخطاب، الذى وجهه فى أم درمان إلى أبرز شيوخ القبائل العربية، علمًا بأنه لم يتلفظ بكلمة واحدة فى هذا الخطاب عن السلطان ـ الحاكم الأعلى لمصر.

غير أن نوايا الإنجليز برزت بأوضح صورها فى الاتفاقية التى عقدوها مع حكومة الخديوى بصدد تنظيم إدارة السودان. يكمن جوهر هذه الاتفاقية فيما يلى:

يؤلف السودان محافظة عامة منفردة تحت إدارة اللورد كيتشنر. يعيَّن الحاكم العام بتوصية من إنجلترا، التى يعتبر إذنها ضروريًا أيضًا لأجل تنحيته. وهو

يتمتع باستقلالية تامة فى شؤون الإدارة، إلا أنه يتوجب عليه أن يبلّغ رئيس مجلس الوزراء المصريين والوكيل الدبلوماسى لبريطانيا فى القاهرة عن جميع القوانين التى يصدرها. يُستحدث جمرك منفرد للسودان. الرعايا الأجانب، المتواجدون ضمن حدود المحافظة الجديدة، لا يتمتعون بأية أفضليات. تُلغى الامتيازات هناك، ولن يُسمح للقناصل الأجانب الذهاب إلى هناك. يندرج فى حدود المنطقة الجديدة كل شرق السودان، مع ميناء سواكن الواقع على البحر الأحمر. تدفع الحكومة المصرية للحاكم العام ذلك المبلغ، الذى كان مخصصًا فى الميزانيات الأخيرة لباب «المصروفات على السودان». إضافة إلى أن جميع نفقات إعاشة الجيش المصرى فى السودان تقع على حكومة الخديوى.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٨٩٩

مصر

فى العام الفائت تسنى للإنجليز نهائيًا إقامة سيطرتهم فى السودان، التى رسخ الاستيلاء عليه الوضع الذى يشغلونه فى مصر.

كانت المهمة الرئيسية، تنحصر فى إنزال ضربة حازمة بالخليفة، الزائف عبد الله التَيْمى الذى كان. حسب الإشاعات التى وصلت إلى هنا. ينوى اقتحام المنطقة، التى تحتلها إنجلترا، سوية مع بعض الأمراء الموالين له.

جميع الاستعدادت لذلك، كانت قد تمت، وفى نوفمبر (تشرين الثانى) اقترب الخليفة الزائف من ضفاف النيل، قرب الخرطوم، وفى الحال استغل العقيد وينفات، قائد القوات الإنجليزية المصرية، هذا التحرك، وإذ دخل فى تماسّ مع قوات الخصم، أنزل هزيمة سريعة بفصائل مقدمة الدراوشة. بعد ذلك اتجهت القوات السودانية إلى الأمام عبر الصحراء، وما عتّمت أن صادفت القوات الرئيسية للمهديين، وفى الصدام الذى دار أفنوهم عن بكرة أبيهم: فلقى مصرعه الخليفة الزائف، وأكثرية أمرائه المحيطين به، وتم أسر جحافلهم المبعثرة مع كل ممتلكاتها وعوائلها.

لم تفقد القوات المصرية سوى ثلاثة أشخاص قتلى، واثنى عشر جريحًا.

هكذا وُضع حد لحركة المهديين وتوفرت للإنجليز إمكانية التفرغ لأداء جميع المهام السياسية والاقتصادية المرتبطة بتوطيد أقدامهم فى السودان.

لا يجوز فى هذا السياق، عدم ملاحظة إعلان السودان مفتوحًا، أمام التجارة الأوروبية؛ علمًا بأن المصنوعات المحلية، حصلت على منفذ إلى البحر، عبر أريتريا بموجب اتفاقية عُقدت مع إيطاليا.

وفى هذه المنطقة من السودان، وكذلك السلع الذاهبة فى الاتجاه المعاكس، سيفرض عليها رسم مخفض بنسبة ٥٪ لا غير.

على أثر ذلك، بدأت المفاوضات مع حكومة روما، بشأن ربط الممتلكات المتاخمة بخط سكة حديد.

لم يصادف نمط الحكم المطلق، لتصرفات الإنجليز فى السودان، الذى يتعارض بشكل سافر مع الحقوق العليا للسودان فى هذه المنطقة المصْرية سابقًا، أىّ مقاومة من جانب الحكومة التركية التى واصلت التمسك بسياسة ضعيفة، وغير حازمة فى المسألة المصرية.

ولم يقم الباب العالى إلا بمحاولة وحيدة للاحتجاج أُوقفت فى الحال؛ ولذا لم يكن بإمكانها أن تُسْفِر عن أية نتائج كانت.

والخديوى، من جهته، لم يحظ بأقل تأييد لدى سلطانه، وحُرم من إمكانية النضال بقواه الخاصة ضد سياسة الحكومة البريطانية التى تبتلع كل شىء فى وادى النيل.

فضلاً عن ذلك فإن السلطان بموقفه من عباس باشا، أحطّ بجاذبية سلطته فى البلاد، ونسف صلاته بمواليه بما يلحق الضرر بمصالحه الخاصة ويقدم فائدة جلية لأسياد مصر الحقيقيين - الإنجليز.

برزت فى العام الماضى تعنتات، ومتطلبات السلطان عبد الحميد التافهة.

فقد قدم السلطان إلى الخديوى، من خلال اللورد كرومر، شكوى يزعم فيها بأنه (الخديوى)، يؤيد جرائد تصدر فى مصر وتقوم بالدعاية ضد الأوضاع السائدة فى تركيا.

هذا، ناهيك عن أن مراجعة السلطان للممثل الدبلوماسى البريطانى بهذا الصدد، أهانت الخديوى كثيرًا، وأن الشكوى نفسها كانت - فى حقيقة الأمر - عارية من أى أساس. فإن عباس باشا لم يقدم التأييد لجرائد معادية للسلطان عبد الحميد، بل فضلاً عن ذلك أنفق أموالاً غير قليلة على إغلاق هذه المطبوعات، إكرامًا لحاكمه الأعلى.

كما أثار استياء شديدًا، فى نفس نائب السلطان موقف البادشاه التركى من قيامه بسفرة إلى جزيرة رودوس، التى نقل الخديوى أسرته إليها، لتمضية فصل الصيف؛ نظرًا لظهور إصابات بوباء الطاعون فى الإسكندرية.

فقد عارض السلطان هذه السفرة، ووجه إلى الخديوى دعوة قاطعة، للسفر إلى ضفاف البوسفور. وفى الوقت نفسه أُوعز إلى حاكم الجزيرة بألا يقوم بزيارة لعباس باشا، فى حال ما إذا وصل إليها، وبدعوة معاليه من ثم لمغادرة رودوس.

ومن جراء هذه الأوامر، لم تدم إقامة الخديوى فى الجزيرة سوى بضعة أيام، وسارع للتوجه إلى أوروبا للاستشفاء بعد أن ترك أسرته فى رودوس.

فى حديث صريح مع ممثلنا تشكّى معاليه بمرارة من موقف السلطان الحقود منه، الذى حرمه من أية فرصة للتعويل، على التعاطف، والمساندة من جانب سلطانه.

استلفت استياء الخديوى انتباه المفوض الأعلى التركى فى مصر، وبناء على توصياته، قرر السلطان إرسال مبعوث خاص إلى القاهرة لينقل إلى عباس باشا، شفهيًا تحية وإكرامًا من جانبه، ويعرب عن التمنى بألا يُخلّف سوء التفاهم وراءه، أى أثر سيئ.

فى العام الماضى برز تأثير الإنجليز المتعاظم على حياة البلاد الداخلية، من جملة ما برز فيه، فيما يبدونه من سعى، للتوصل إلى إعادة تنظيم القضاء الشرعى الإسلامى.

فبعد إعادة تنظيم القسم القضائى فى مصر، بقيت جميع الدعاوى العائلية، والإرثية المتعلقة بالمسلمين من اختصاص القضاة الشرعيين المسلمين القدماء،

وكان نشاط هؤلاء قد أثار - منذ زمن بعيد - استياء الإنجليز، ولكن هؤلاء، تذرعًا منهم بعدم رغبتهم المبدئية المزعومة فى التدخل فى النظام الدينى للبلاد، لم يتجرءوا على الشروع فى القيام، بأية تغييرات فى هذا الميدان.

وفى الوقت الحاضر فكروا فى البت بهذه المسألة؛ مستغلين ليونة الحكومة الموجودة كليًا فى أيديهم. ولم يتوانَ رئيس مجلس الوزراء، فى إعداد مشروع الإصلاح المقترح، الذى مس بالدرجة الأولى إعادة تنظيم المرجع الأعلى للمحاكم الشرعية، الذى كان من المقترح أن يضاف إلى قوامه مستشاران من محكمة الاستئناف.

أثار هذا المشروع موجة من انفجار السخط، فى أواسط رجال الدين المسلمين، فى مصر، وعلى رأسهم قاضى االقاهرة. وأيد احتجاجات هذا الأخير بكل نشاط المفوض الأعلى للسلطان، الذى يعتبر رأس العالم الإسلامى بأسره.

وإذ أدرك الخديوى خطر، حدوث قطيعة بينه، وبين رجال الدين، نال موافقة الممثل البريطانى على إرجاء البت بمسألة إعادة تنظيم المحاكم الشرعية.

وفى مطلع العام المنصرم، واستنادًا إلى مرسوم الخديوى، تم تمديد عمل المحاكم المختلطة المصرية لعام واحد.

لقد عُينت هذه المهلة القصيرة بالاتفاق مع الدول الكبرى، بهدف أن يصار خلال هذا الفاصل الزمنى، إلى مناقشة المسائل الناضجة المتعلقة بتلك التعديلات، التى ينبغى إدخالها إلى النظام الداخلى العضوى، للمحاكم المذكورة والاتفاق حول طبيعة ومقادير هذه التعديلات.

فى غضون العام المنصرم جرت بين الدول محادثات ناشطة حول هذا الموضوع.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٠

مصر

مصر. أحرزت الحكومة البريطانية بسياستها المتشددة والمثابرة فى مصر، وضعًا مطلق السلطة، إلى هذا الحد، بحيث كان بإمكانها، دون ما تخوّف من حدوث تعقيدات فى هذا البلد، تركيز كل اهتمامها على أحداث العام الماضى الجارية، فى جنوب أفريقيا والصين.

مما لا شك فيه، أنه ساعدت بدرجة كبيرة على تهيئة وضع الأمور هذا الملائم بالنسبة لإنجلترا، التهدئة الناجحة للمهديين الذين كانوا يقلقون بال الإنجليز بالدرجة الأولى فى منطقة المجرى الأوسط للنيل، ويجبرونهم على إبقاء قوات عسكرية كبيرة فيها. ولكن أكثر ما كان يساعد بريطانيا، إضافة إلى ذلك، هو السياسة المترددة، وحتى المليئة بالتناقضات، للسلطان عبد الحميد الذى، بوصفه حاكمًا أعلى، لم يستفد من استعداد الخديوى للتقرب منه، بل وحتى أنه كان يصد عباس باشا ويهينه.

والخديوى نفسه، الذى يشعر بأنه متروك لقواه الخاصة، يدرك على ما يبدو انعدام جدوى النضال؛ لأنه خضع فى العام الماضى، بعد ٨ سنوات من العناد، لإصرار اللورد كرومر، وسافر إلى لندن.

أحدثت زيارة لندن. انطباعًا ملائمًا، فى نفس معاليه، بمعنى أنه لم يضطر للتطرق إلى المسائل السياسية الشائكة. والمعاملة اللطيفة التى أبداها الإنجليز ستوطد، بالطبع، الروابط بينهم وبين الخديوى، الذى سيزيد من إذعانه لنفوذ رجال الدولة البريطانيين الذين تعرفوا عليه شخصيًا.

فى طريق العودة كان عباس باشا، ينوى زيارة السلطان بهدف تهنئته بيوم يوبيل ١٩ من أغسطس (آب). وأصيب الخديوى بالدهشة عندما تلقى رفضًا على طلبه، بل وحتى اقتراحًا من السلطان عبد الحميد بالإسراع فى العودة، إلى مصر نظرًا لمغادرة المفوض العثمانى القاهرة، بسبب الإجاة، لا يمكن تفسير هذا الرفض إلا باستياء السلطان شخصيًا، من أن الخديوى لم يقبل دعوة الحاكم الأعلى، بزيارة القسطنطينية قبل السفر إلى لندن؛ ولكن . مهما يكن من أمر . فقد مُست عزة نفس عباس باشا للغاية، ولاسيما بعد رفض السلطان الوساطة، التى اقترحها بين عبد الحميد، وصهر السلطان محمود داماد باشا، الذى قد هاجر تركيا لأسباب سياسية.

وامتعاضًا من ذلك، دعا الخديوى الباشا المذكور إلى القاهرة، ولم يتوانَ هذا فى الانتقال إليها، والإقامة فيها، وردًا على طلب السلطان بإبعاد صهره من مصر، أعلن الخديوى أنه يستحيل، بموجب قوانين البلاد، تنفيذ إرادته.

حاول المفوض السامى العثمانى فى مصر غير مرة إقناع السلطان بتغيير سياسته حيال الخديوى، غير أن جميع محاولاته بقيت دون ما نتيجة، وعندما غادر مختار باشا مصر من تلقاء نفسه، عند ذلك فقط صار السلطان عبد الحميد، يطلب منه بإلحاح العودة إليها؛ مدركًا بأنه سيفقد، بدون هذه الشخصية الفذة والمخلصة له، أى أمل فى مصالحة عباس باشا.

إلا أنه لا يجوز القول أن السلطان لم يكن يهتم، بوضع الأمور، فى هذا الجزء من أفريقيا. فقد كان يتتبع سير الأحداث ويتخذ من جهته، بطيبة خاطر التدابير، التى يمكنها، فى رأيه، المساهمة فى إعلاء سمعته وتعزيز السيطرة

التركية فى هذه القارة، غير أنه كان ـ على الغالب ـ يسترشد باعتبارات شخصية جلبت لتركيا، بصدد مصر، عددًا غير قليل من الأضرار.

يعيش قريبًا بجوار مصر الشيخ والواعظ المعروف السنوسى، الذى يسعى إلى إشاعة الإيمان، بعودة الإسلام وسط شركائه فى الدين. فى العام الماضى قامت بينه وبين السلطان علاقات ناشطة؛ نظرًا لرغبة عبد الحميد فى الاستفادة من نفوذه فى العالم الإسلامى من أجل تثبيت سلطته، وسط الأفارقة أتباع النبى. حتى الآن، بالمناسبة، لم تؤتِ هذه العلاقات ثمارًا محسوسة.

فى الحقيقة إن الشيخ توجه نحو الجنوب إلى دارفور ولكن لا تتوفر، حتى الان بعد معلومات، عن نتائج نشاطه.

يراقب الإنجليز، من جهتهم، باهتمام وضع الأمور فى وسط أفريقيا، وهذا أمر يهمهم بشكل خاص نظرًا للاتفاقية المعقودة، مع الحبشة بصدد تخليها لهم عن كل مجرى النيل الأبيض. ومؤخرًا أرسلوا بعثة إلى السلطان ربعة بالقرب من بحيرة تشاد؛ لكى يستميلوه إلى جانبهم فى المعركة المتوقعة، ضد الفرنسيين الهاجمين من الغرب. وإلى ربعة هذا أُرسلت بعثة من طرابلس الغرب، حسبما تقول الشائعات، تحمل إليه هدايا باسم السلطان عبدالحميد.

فيما يخص إدارة مصر الداخلية، خلال العام المنصرم، من الضرورى التنويه بإجرائين يتسمان بأهمية دولية.

عُقد لحاجات سكك الحديد قرض قيمته ١٧٠٠ر٠٠٠ جنيه استرلينى، حظى باستحسان صندوق الديون المصرية، ومن ثم الدول الكبرى أيضًا التى ضمنت صحة التزامات مصر النقدية.

وبموجب اتفاق مسبق بين الدول صدر مرسوم من الخديوى حول تمديد مهلة أعمال المحاكم المختلطة لمدة خمس سنوات أخرى، وزيد عدد العاملين القضائيين فيها بمنصبين، لعضوى محكمة الاستئناف فى الإسكندرية؛ علمًا بأن أحدهما خُصص ليونانى، والآخر لواحد من قضاة الدرجة الابتدائية حسب اختيار المحكمة من عداد رعايا الدول الثانوية.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠١

مصر

مصر. عاماً إثر عام أخذت تبعية الخديوى للسلطان تغدو شفافة أكثر فأكثر. وإذا كان السلطان عبد الحميد يظهر بين حين وآخر الرغبة فى تأكيد حقوقه السيادية على مصر، فإنما يفعل ذلك فقط، بهدف التأكيد على تبعية الخديوى شخصياً، وصيانة سلطة تركيا العليا ظاهرياً. أما فى واقع الأمر فإن إدارته لمصر أخذت تفلت من تحت إشراف الباب العالى، أو تدخّله، سيما وأن عباس باشا نفسه، يطمح إلى كسب وضع أكثر استقلالية فى العالم الإسلامى.

إن تجربة الأعوام الأخيرة تشكل شهادة مقنعة على خطأ السياسة التى ينهجها السلطان عبد الحميد حيال مصر. فإكراماً للحفاظ على سمعته الخارجية، نال السلطان غير مرة من عزة نفس الخديوى، وبهذا أبعد احتمال حدوث، أى تقارب متين يذكر. وكان عباس باشا، يحركه شعور الضغينة، ويعرب بدوره عن الازدراء بسلطانه، بحيث أنه كان يمكن، فى مطلع العام الماضى، التخوف من حدوث قطيعة جذرية بينهما.

كانت واحدة من الذرائع الهامة، لاستياء السلطان حسن الضيافة، الذى أولى فى مصر لبعض المهاجرين الأتراك، وبالمناسبة، لمحمود داماد باشا، صهر عبد الحميد، ولعثمان باشا المشهور والكردى الأصل، وللأرناؤوطى إسماعيل كمال بيه.

ورغم جـمـيع طلبـات السلطان الملحّة رفض الخـديوى بكل عناد اتخـاذ أية إجراءات ضد هولاء الأشخاص. وفقط بعد تدخل الممثل البريطانى فى القاهرة، فى هذه القضية اعتبـر عباس باشـا أمرًا غير مـلائم استـمرار وجود المهاجرين على الأرض المصرية، واقترح عليهم، أخيرًا، مغادرتها.

عند ذلك وافق مـحمود داماد باشـا على الحضور إلى القسطنطينيـة بدعوة من عبد الحميد، ولكنه غيّر رأيه فى اللحظة الأخيرة، وانتقل إلى أوروبا للعيش مع أبنائه.

إن المآل الموفق للمفاوضات حول هذه المسألة ساعد بدرجة كبيرة على اتخاذ الخديوى بصورة غير متوقعة قرارًا بالسفر شخصيًا إلى العاصمة التركية فى الصيف الماضى. واتسم لقاؤه بالسلطان - رغم جميع الافتراضات - بطابع مسالم تمامًا، ولكنه لم يجلب تغييرات هامة، إلى العلاقات بين الحاكمين.

إن بعض التناقض فى تصرفات عباس باشـا، يعود إلى تلك المضايقات، التى يضطر لتحملها فى ممتلكاته من جانب الإنجليز.

مما لاشك فيه أن الخديوى يدرك كل جبروت الوضع، الذى يشغلونه؛ إلا أنه يسعى مع ذلك إلى إظهار استقلالية معينة، ولو من الناحية الشكلية فقط، وينبغى اعتبار سفرته إلى القسطنطينية واحدة من المحاولات الضعيفة للتصرف حسبما يروق له.

وبالقدر نفسه، لم يذعن عباس باشـا، لرغبة اللورد كرومر، عندما طلب هذا منه حضور القداس، الذى أقيم بعد وفاة الملكة فيكتوريا. واكتفى الخديوى، متذرعًا بالعادات المحلية، بإرسال شقيقه ممثلاً عنه.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٢

مصر

إن نفوذ السلطان التركى، الآخذ فى الهبوط، عامًا إثر عام فى مصر، راح فى الآونة الأخيرة يخلى مكانه كليًا، لنفوذ إنجلترا المتعاظم، التى أخذ وضعها المهيمن يزداد متانةً وجلاءً باطراد.

ولا تزال محاولات الخديوى فى إحراز بعض الاستقلالية عديمة الجدوى تمامًا: فعلاقاته الشخصية بالسلطان ترتدى، شأنها فى السابق، طابعًا تبعيًا، أما تبعيته فى شؤون الإدارة لكلمة الممثل البريطانى الحاسمة، فواضحة كل الوضوح.

من ذلك مثلاً أن عزم عباس حلمى على استحداث منصب لممثل عنه لدى الباب العالى، على غرار ما فعلته بلغاريا، لم يلقَ أى تعاطف من جانب عبد الحميد، الذى أجاب بالرفض القاطع على جميع محاولات الخديوى، تحقيق هذا المشروع.

وأظهر السلطان تصلبًا أشد بصدد قضية جزيرة تاسوس. فقد سبق للسلطان محمود الثانى - فى بداية القرن التاسع عشر - أن منح هذه الجزيرة لجد الخديويين الحاليين، محمد على، لتكون ملكًا لهما بالوراثة، وذلك مكافأة على المساعدة النشيطة، التى قدمها فى قمع انتفاضة الوهّابيين فى شبه الجزيرة العربية.

ومنذ ذلك الحين بقيت هذه الجزيرة ملكًا مطلقًا لورثة محمد على، الذين يديرونها من خلال موظفيهم.

وفى مطلع العام الماضى، أرسل السلطان إلى هذه الجزيرة، مستغلاً الاضطرابات التى اندلعت فيها بسبب فرض ضرائب جديدة، ودون انتظار تحقيق عباس باشا فى القضية، أرسل باسمه متصرفًا على رأس فصيلة عسكرية قوامها ٢٠٠ نفر، مكلّفًا بانتزاع إدارة الجزيرة من أيدى الموظفين المصريين. وكان يترتب على عباس باشا أن يخضع لقرار بادشاه تركيا، بعد أن قام بمسعى متكرر مرتين، ولكن فاشل، لدى السلطان لإلغاء الإجراء، الذى اتخذه والعودة إلى الوضع السابق.

الإجراء الذى اتخذه السلطان فهمه عباس باشا، بأنه مظهر للتبرم منه شخصيًا. وبالفعل فإن الخديوى قدم فى السابق أيضًا عددًا غير قليل من الذرائع لتبرم، كهذا ولاسيما مواقفه المرائية بعض الشىء من المنفيين السياسيين من القسطنطينية. أما الآن فقد أثار استياء كبيرًا، بدعوته لعقد مؤتمر طبى عالمى فى القاهرة. وإذ رأى السلطان فى هذه الدعوة ادعاءً بدور مستقل لرئيس دولة مستقل، طلب من الخديوى بكل إلحاح الإقلاع عن عزمه، ولكن عباس باشا، وجد من الممكن فى هذه المسألة عدم التنازل لحاكمه،وتم انعقاد المؤتمر الذى اقترحه.

فى العام المنصرم تميزت مواقف الممثل البريطانى من الخديوى وحكومته، الذى يسعى بدأب إلى إخضاعها تمامًا، ببعض مظاهر ازدراء اللورد كرومر بشكل جلى، سواء بسمعة شخصية عباس حلمى باشا أم بذات تلك القوانين الإصلاحية التى أصدرها الإنجليز، والتى كان احترامها دائمًا يقف، حسب أقوال الإنجليز، فى وجه انعدام الشرعية والفوضى، اللذين كانا سائدين فى مصر قبل الاحتلال.

ففى قضية منشاوى باشا، الإقطاعى الغنى، والواسع النفوذ، وصديق الخديوى والذى أحيل إلى المحاكمة جنائيًا، مع كبار موظفى إدارة مدينة طنطا؛ جزاء تنكيله باثنين من الفلاحين البسطاء، بذل الإنجليز كل جهد مستطاع؛ لكى

يثيروا أكبر قدر ممكن من الضجيج، مبيِّنين بذلك، من جهة، عدم صلاحية أوضاع ما قبل الإصلاح، التى كانت الحالات المماثلة للحالة المذكورة أعلاه تمثِّل، فى ظل تلك الأوضاع، ظاهرة اعتيادية، ومبينين من جهة أخرى، قوة وأهمية الوضع القانونى، والمساواة فى الحقوق، اللذين كانا يتجليان فى المعاقبة الفورية، للباشا الواسع النفوذ، والموظفين رفيعى المقام؛ جزاء إهانة وجّهوها إلى فلاح بسيط.

غير أن الانطباع، الذى أحدثته فى البلاد، محاكمة منشاوى باشا لصالح إنجلترا والأوضاع التى أقاموها، سرعان ما أضعفته قضية جديدة، بينت بوضوح جلى أن تلك الشرعية، التى كان اللورد كرومر يسهر عليها بعين يقظة كما خُيِّل، ليست بالنسبة له هدفًا لمشاركته فى إدارة مصر بل وسيلة لا يستخدمها إلا عندما يلزم إظهار تفوق النظام الإنجليزى على النظام المحلى، ويتخلى عنها بسهولة أيضًا، عندما تعرقل مخططاته الخاصة. فإن اللورد كرومر، إذ رأى من الضرورى سحب بعض الوثائق من مواد المِلْكية المحتجزة، لهيئة تحرير جريدة حزب فتيان الترك، التى كانت تصدر فى القاهرة، ودون أن يبحث عن سبل قانونية؛ لتنفيذ رغبته، لم يتردد فى إعطاء أمر بهذا الشأن - من خلال رئيس مجلس الوزراء - إلى رئيس بوليس القاهرة، العقيد مانسفيلد، فأقدم هذا على نزع أختام المحكمة، وانتزع الأوراق، التى طلبها كرومر وأوصلها إلى مبنى الوكالة الإنجليزية مباشرة.

إن مبدئى: حرية التجارة، وتطوير المبادرة الذاتية المحلية، فى الإنتاجين: الزراعى والتقنى، التى تطبقهما إنجلترا بالأقوال، يداسان أيضًا بدون أى حياء، حالما يتبين أن تطبيقهما عمليًا يتعارض، مع المصالح الخاصة لإنجلترا.

فقد قام اللورد كرومر، لدى اعتباره إنشاء بضعة معامل لمعالجة القطن المصرى، خطرًا عل مصالح الصناعة البريطانية، بارغام الخديوى على إصدار مرسوم بفرض ضريبة إنتاج قدرها ٨٪ على منتوجاتها، وبما أن ضريبة الإنتاج هذه تعادل مقدار رسم الاستيراد؛ فإن الإجراء المعنى، يساوى أسعار المواد المعالَجة فى مصر، بأسعار المواد المستوردة من إنجلترا. الطعن بالمرسوم، الذى

قدمته الشركات الأجنبية، ذات المصلحة فى محكمة مختلطة، لم يعط النتيجة المتوقعة، وينبغى اعتبار هذه المسألة منتهية لصالح إنجلترا.

إن إدارة الإنجليز لمصر، المهينة لعزة نفس الخديوى، والمهلكة بالنسبة لاستقلال البلاد السياسى، تعطى مع ذلك من الناحية المادية نتائج إيجابية للغاية. فإن ميزانية عام ١٩٠٢ أُوصلت، كما فى الأعوام، الاثنى عشر السابقة أيضًا، إلى رجحان كبير للمداخيل على النفقات.

والوضع الرائع للمالية أتاح للحكومة المصرية، أن تلغى فى العام الماضى الرسوم المذلة جدًا، بالنسبة للسكان المحليين، والتى كانت مفروضة على السفن المبحرة، فى النيل والترِعَ والقناطر والمشحونة بصوابير إلخ..

فضلاً عن ذلك تميز العام الفائت، بافتتاح سدَّى: أسوان وأسيوط - هاتين المنشأتين الضخمتين، اللتين لن تقتصرا على تقديم فائدة هائلة للزراعة القائمة، فى أرض وادى النيل عن طريق الضبط الدقيق لنظام الرى، بل توفران أيضًا إمكانية توسيع نفس مساحة أراضى المزروعات المروية توسعًا كبيرًا.

نظرًا لتوقع ازدياد منتجات الزراعة كنتيجة مباشرة للمنشأتين المذكورتين، ولاتساع التصدير المصرى، اهتمت الحكومة، فى الوقت المناسب تمامًا، بأن تهيئ من جهتها تسهيلات للتجارة الخارجية، ومن أجل هذه الغاية عقدت اتفاقية مع شركة قناة السويس، حول بناء ميناء فى بورسعيد، مجهز بجميع المعدات الحديثة، وحول ربطه بشبكة خطوط سكك الحديد المصرية بخط سكة حديد عادى بدلاً من خط الترام الخفيف، الذى كان موجودًا حتى ذلك الحين.

وتقرر تحسين خطوط سكك الحديد الحكومية؛ ولهذه الغاية زيدت المبالغ المخصصة لاستثمارها من ٤٥٪ إلى ٥٥٪ من عداد الدخل الإجمالى.

إن جميع هذه الاجراءات، غير المرتبطة بزياددة دين الدولة، تُعتبر - بلا شك - ضمانة لنمو يسر البلاد وتوفيقها ماديًا.

استوجب تطور العلاقات التجارية الخارجية، ضرورة اتخاذ اجراءات، لضمان انتظام أكبر لها عن طريق عقد اتفاقيات تجارية مع الدول الأجنبية. ظلت فرنسا

مدة طويلة تمانع فى عقد اتفاقية تجارية، مع مصر، متحاشية بذلك المشاركة فى أية أعمال كانت يمكن تأويلها بأنها اعتراف صامت بشرعية الوضع السياسى الراهن فى هذا البلد، ولكنها فى العام الماضى اعتبرت من الممكن أخيرًا، عقد اتفاقية كهذه.

ومن بين الدول الأوروبية ليست لروسيا والسويد وحدهما حاليًا اتفاقيات تجارة مع مصر، وتسعى حكومة الخديوى بكل إصرار إلى سد هاتين الثغرتين أيضًا.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٣

مصر

فى عـام ١٩٠٣ المنصرم، لم تطـرأ أية تغيـرات على الـوضع الدولى لمصـر، بوصـفهـا بـلداً منضـماً اسـمياً إلى قـوام الامـبـراطـورية التـركية، ولكن القَدَر وضعـه، فى واقـع الأمـر، تحـت كـامل تصـرف الإنجليز.

علاقـات الخديوى بالسلطان لا تزال كالسـابق؛ نظراً لتشبث عـبد الحـمـيـد، فى تلك المسـائل القليلة التى يتـوقف حلهـا عليـه كليًا، ترتدى طابع الانفعالات الشـخصية، التى تتجلى فى المظاهر الحادة جداً لعدم احترام عباس باشا لسلطانه، والازدراء بمطالبه ورغباته.

فالمسألتان اللتان سبق للخديوى أن طرحهما عام ١٩٠٢م بشأن جزيرة تاسوس التى احتلها الأتراك، بطريقة تعسفية بعد أن كانت ملكًا أبديًا لأخلاف محمد على، وبشـأن إنشـاء ممثليـة للخـديوى فى القـسطنطينيـة على غـرار الإمـارة البلغارية، لم تحظيا بحل مناسب. فقد بقى عبد الحميد متعنتًا، فى القرار، الذى اتخذه، وجميع جهود عباس حلمى باشا، لتغيير هذا القرار لصالحه وطلباته الشخصية أثناء زيارته للقسطنطينية بقيت دون أية نتيجة.

ولم يعط نتيجة أيضًا طلب عباس حلمى باشا إلى إنجلترا بالتوسط: فقد سارعت الحكومة التركية بصورة مسبقة إلى إثارة اهتمام ألمانيا، بهذه القضية،

بأن منحت شركة ألمانية، بسرعة غير معهودة بالنسبة لتقاليد الباب العالى، امتيازًا باستثمار مكونات النحاس فى الجزيرة.

واضطر الخديوى للامتثال لإرادة السلطان، ولكن استياءه من أمره تجلى بموقفه الحاد للغاية من ممثل السلطان فى القاهرة مختار باشا، الذى قطع تمامًا علاقته به مؤقتًا. إضافة إلى ذلك أقدم عباس حلمى باشا على إقامة علاقات سافرة، مع ممثلى حزب فتيان الترك، وعقد اتفاقية مع أحدهم، وهو إسماعيل كمال بيه، بشأن القيام بصورة مشتركة بتجفيف البحيرات المالحة فى دلتا النيل.

لم يَقْصر عباس حلمى باشا، سفرته الصيفية العادية على زيارة القسطنطينية وحدها؛ فقد زار أيضًا لندن؛ حيث أُولى اهتمام خاص من جانب الملك، ووزير الخارجية.

إن ما يذكره كرومر دومًا، فى تقريره السنوى، عن نجاح البلد الواقع تحت وصايته على أرضية اليسر المادى، لا يصدّقه على الإطلاق الجزء المفكر من السكان، وتعطى الصحافة المحلية المعطيات الواردة فى التقرير تفسيرًا خاصًا بها، يقوض إلى حد كبير الانطباع المؤاتى لاستنتاجاته المتفائلة، ويكشف القناع عن المصالح الاجتماعية المشار إليها فى التقرير ـ المصالح البريطانية فقط ـ التى يتحمل البلد تضحيات متكررة، وعديدة لأجل رعايتها. وأكثر ما يستحق الاهتمام فى هذا الصدد، هو تذمرات المصريين من الخنق القسرى فى المهد للإنتاج المحلى للغزول القطنية، عن طريق فرض ضريبة إنتاج عليه تعادل ضريبة الاستيراد؛ والفضائح بصدد تسليم شركة إنجليزية، جميع الأراضى التى يمكن استخدامها للرى بفائض المياه المتوقع الحصول عليه، من جراء إنشاء سد أسوان الجديد؛ والتوضيحات بصدد نظام بيع أراضى الدائرة الثانية التى عادت بأرباح هائلة على الرأسماليين الإنجليز، إلخ..

وفى سعيه الدائب لإضعاف الصلات الواحدة بعد الأخرى، القائمة بين مصر وتركيا، توصل اللورد كرومر إلى حمل حكومة الخديوى على عقد اتفاقيات

تجارية، مستقلة وبدون معرفة الباب العالى، مع جميع الدول الأوروبية تقريبًا. ولم تشذ عن القاعدة حتى الآونة الأخيرة سوى فرنسا وروسيا؛ ولكن فى العام الماضى رأت فرنسا من الضرورى، عقد اتفاقية كهذه؛ ونظرًا لذلك أعلنت الحكومة الامبراطورية عن موافقتها على المقترحات المتكررة من جانب الحكومة المصرية بالشروع فى وضع مشروع اتفاقية، حول التجارة بين روسيا ومصر. إلا أنه طُرِح كشرط إلزامى؛ لدى ذلك أن يُعتمد أساسًا للاتفاقية المقترحة الحفاظ على الضريبة، بنسبة ٨٪، التى كان معمولاً بها حتى الآن، على البضائع المستوردة،ولاسيما تلك التى تشكل موضوع تجارتنا الخارجية.

إن الإنجليز، بعد بلوغهم التحطيم التام تقريبًا للنفوذ التركى فى البلد، الذى يحتلونه، وبحكم المثابرة الملازمة لطبيعتهم فى السياسة الاستعمارية، يوجهون الآن تطلعاتهم اللاحقة نحو العمل، قدر الإمكان، على تقليص أهمية وتقييد نطاق عمل تلك المؤسسات، التى تتسم بطابع دولى وتشكل، بالتالى، تذكيرًا واضحًا باهتمام الدول الأخرى أيضًا، فضلاً عن بريطانيا العظمى، فى حياة مصر، وفى مقدمة هذه المؤسسات، التى تنعكس فيها الرعاية الدولية على اقتصاديات ونشاط البلد، صندوق الدينْ الاجتماعى والمحاكم المختلطة.

فبالنسبة لصندوق الدين الاجتماعى، تميز عام ١٩٠٣ بتصفية واحدة من فئات دين الدولة dette non consolidé (*) علمًا بأن رصيد التصفية أُحيل - بموافقة الدول الكبرى - إلى صندوق الاحتياط العام التابع للدولة.

إن هذا الإجراء، الذى يشهد بنجاح النشاط المالى لمصر، يمثل فى الوقت نفسه بالنسبة للإنجليز أهمية غير قليلة أيضًا، بمعنى أنه يحرر ميدانًا كاملاً من الاقتصاد النقدى للبلاد، من الرعاية اللاحقة للصندوق الدولى؛ أى بالتحديد تلك الفروع فى مداخيل الدولة، التى كانت وارداتها تخصص لتسديد الدينْ المدفوع حاليًا.

---

* الدين غير القابل للتأجيل - المترجم

وفيما يتعلق بالمحاكم المختلطة، فقد جرت فى العام الماضى محاولة جدية للغاية، لتقييد نشاطها.

وفى نهاية عام ١٩٠٢ اقترح اللورد كرومر - على لسان وزير الخارجية المصرى جملة من التعديلات على نظام نشاط المحاكم المذكورة، كان أهمها مشروع بسط إشرافها على جميع الدعاوى القضائية التوثيقية المتعلقة بتسجيل الأملاك الثابتة وصفقات شرائها، وبيعها ورهنها، لمؤسسة محلية خاصة؛ أى ليست دولية، بل مصرية يمكن إنشاؤها خصيصًا لهذه الغاية.

كان الدافع إلى تقديم هذا الاقتراح بعض الإزعاجات فى النظام الحالى، التى كانت تبرز فى الطريقة المزدوجة لتسجيل صفقات كهذه فى المحاكم المحلية جزئيًا، وجزئيًا فى المحاكم المختلطة، وكذلك فى بُعد المحاكم الأخيرة عن الكثير من أماكن الوجه القبلى (الصعيد)؛ الأمر الذى يعسّر، ويبطئ أعمال مسك الملفات.

إن أقتراح الحكومة المصرية، الميال إلى الانتقاص من أهمية المحكمة المختلطة المعروفة خدماتها جيدا، لدى جميع الدول ذات المصلحة، لم يلق تعاطفا وسط الممثلين الأجانب، ومن المستبعد أن يحصل على الموافقة الضرورية لإنجازه، لاسيما وأن قسما كبيرًا من الإزعاجات، التى أشار إليها بطرس باشا قد أزيلت تماما، بوسائل المحكمة المختلطة نفسها.

إن طابع موقف إنجلترا من السودان لا يزال، من الناحية الشكلية، قائما على الأرضية السابقة للإدارة الإنجليزية المصرية المشتركة.

ونظرا للتجربة الموفقة لرفع العلم البريطانى، إلى جانب العلم المصرى، فى سواكن عام ١٩٠٢م فقد ارتئى من المفيد القيام، إثر ذلك، بتأكيد ضم هذه المدينة إلى الأراضى السودانية عن طريق أن ينشر مكررا فى جريدة سودانية نص اتفاقية عام ١٨٩٩ م الإنجليزية المصرية الإضافية، بصدد استثناء سواكن، كجزء من السودان، من دائرة اختصاص المحاكم المختلطة المصرية ولم يرافق عملية النشر هذه، كما فى السابق، أى تبليغ رسمى لممثلى الدول الأجنبية عن

الأمور الواقع، ولم يثر - كما فى السابق أيضا، أى احتجاج من أية جهة كانت.

كما بقى دون احتجاج فرض احتكار حكومى فى السودان على العاج، هذا الاجراء، الذى جرى الاستعداد له، منذ زمن بعيد واستدعته، حسب تصريح اللورد كرومر، الرغبة فى إيقاف تعسف المحتكرين، ووضع حد لقتل الفيلة المفرط، ولاسيما الفتية منها.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٤

مصر

مصر تميزت حياة مصر السياسية، فى العام المنصرم، بحدث مارس تأثيرا حازما علىالوضع الدولى لهذا البلد:

ففى ٢٦ من مارس (آزار)/ ٨ من أبريل (نيسان) ١٩٠٤ عقدت اتفاقية بين انجلترا، وفرنسا حول شؤون مصر والمغرب.

فبموجب هذا البيان، تعهدت الدولتان المذكورتان،بالمراعاة المتبادلة، لمبدأ عدم التدخل فى منطقة النفوذ المحددة، لكل واحدة منهما: فرنسا حيال مصر، وبريطانيا العظمى حيال شؤون المغرب.

فى الوقت نفسه كان قد أعد للنشر مشروع الخديوى، الذى يستحق اهتماماً خاصا،بشأن صندوق الديون المصرية.

فقبل نشر هذا المرسوم كانت جميع مداخيل مصر، ابتداء من عام ١٨٧٦م، ترد إلى هذا الصندوق وقيد مشروع القانون الجديد، مصادر هذه الواردات بأن عين لهذا الغرض ضريبة عقارية فقط، قدرها ١٠٩ ملايين فرنك فى السنة؛ أما المداخيل الباقية فوضعها تحت الإشراف المباشر للحكومة المصرية.

إن الاتفاقية الانجليزية الفرنسية المذكورة، أعلاه تتسم بأهمية، لا سياسية وحسب، بل ثقافية واقتصادية أيضا، بالنسبة لمصر. فهى، إذ تمنح إنجلترا

سيطرة سياسية فائقة، فى ممتلكات الخديوى، توسع فى الوقت نفسه إلى حد كبير مجال نفوذها الاقتصادى، بمنحها مبالغ لمواصلة تنمية حياة مصر الاقتصادية بصورة واسعة تحت قيادتها.

مقابل التنازلات الجارية بهذا الصدد لصالح إنجلترا، أصرت فرنسا على تضمين المرسوم مواد ترجىء حق تسديد معظم قروض مصر الخارجية لمدة ٦ - ٩ سنوات.

اهتمت حكومة الجمهورية الفرنسية بإبلاغ الحكومة الإمبراطورية بالاتفاقية المعقودة، وذلك بهدف ضمان تأييد الحكومة الروسية للاقتراحات المتعلقة بصندوق الديون المصرية قبل الاستفسار الشكلى حول هذا الموضوع من جانب الحكومة البريطانية.

أعلنت الحكومة الإمبراطورية موافقتها على إصدار مرسوم الخديوى، ولكن فقط بشرط الإعلان الشكلى، والخطى من جانب إنجلترا، بعدم السعى إلى أية عمليات استيلاء فى التيبت، وإلى التدخل فى الشؤون الداخلية لهذا البلد.

غير أن الحكومة البريطانية، رغم موافقتها من حيث المبدأ على اقتراح روسيا، امتنعت، عن أن تعطى جوابا مباشرا وقاطعا حول محتواه، ودعت من طرفها، الحكومة الإمبراطورية للانضمام إلى ذلك الجزء من الاتفاقية الانجليزية الفرنسية، الذى يضمن فيه حرية أعمال إنجلترا فى مصر؛ بيد أن بريطانيا العظمى، أضفت طابعا مؤقتا على تعهداتها، بالامتناع عن السياسة العدوانية فى التيبت، وربطت مفعول هذه التعهدات بتنفيذ التيبت، لشروط الاتفاقيات المعقودة سابقا.

إلا أن إصرار الحكومة الإمبراطورية الشديد دفع وزير الخارجية البريطانى، أخيرا، إلى إعطاء وعد قاطع حسبما رغبت روسيا فى مذكرة بتاريخ ٢٢ من يونيو (حزيران) من العام الماضى، وبعد هذا بالذات أعلن رسميا عن موافقة روسيا على إصدار مرسوم الخديوى.

المسألة الأخرى الهامة بالنسبة لروسيا، والتى تطرقت إليها اتفاقية ١٩٠٤ م الانجليزية الفرنسية، كانت تمس انضمام بريطانيا العظمى نهائيا إلى اتفاق القسطنطينية لعام ١٨٨٠م بشأن تحييدقناة السويس والعمل، بحكم هذا الاتفاق، على إلغاء اجتماعات اللجنة الدولية الخاصة بالإشراف على التنفيذ الدقيق لجميع القرارات المتعلقة بحرية الملاحة فى القناة.

إن الاتفاقية الجديدة تعطى ممثلى الدولتين ذاتى المصلحة الحق فى إجراء اتصالات مباشرة، مع حكومتيهما، بصدد شؤون القناة.

فى العام الماضي أعارت الحكومة الإمبراطورية قناة السويس، اهتماما خاصا من جراء الأهمية التى اكتسبتها مسألة تحييدها، نظرا لعبورها القادم نحو الشرق الأقصى، من جانب اسطول المحيط الهادىء الثانى، وبهذا الصدد نشرت الحكومة المصرية فى الأول من شهر فبراير (شباط) قواعد مفصلة استنادا إلى الأسس المصاغة فى وثيقة اتفاق باريس لعام ١٨٨٥.

إن إصدار هذه القواعد طرح إلى المقام الأول المسألة المتعلقة بطابع الأسطول الطوعى الروسى فى زمن الحرب وذلك نظرا للتقييدات التى تنص عليها القواعد المذكورة أعلاه، حيال السفن الحربية ،وقد أدى التأويل غير الموفق لمفهوم السفينة الحربية إلى بسط هذا المفهوم، بصورة غير ملائمة إطلاقا بالنسبة لروسيا، على سفن أسطولنا الطوعى وقد أثار تغير الأمور هذا، احتجاجات شديدة اللهجة، من جانب ممثل روسيا فى القاهرة، الذى لفت انتباه وزير الخارجية المصرى إلى أن الأسطول التجارى الروسى، ليس فى استطاعته احتمال أية مضايقات، فى موانئ الدول الصديقة والمحايدة.

وفى الوقت نفسه وجه مستشار الدولة الفعلى، مكسيموف، احتجاجا مماثلا إلى اللورد كرومر، يطلب منه الاتصال بالحكومة البريطانية بشأن هذه المسألة.

وإذ تهربت الحكومة البريطانية من إعطاء جواب مبدئى اعتبرت أن الأمر الممكن الوحيد هو البت، فى هذه المسألة بصورة مستقلة، فى كل حالة على انفراد تبعا للاعتبارات الملموسة.

أما فى الواقع فإن هذا التأويل بالمناسبة لم يوفر ذريعة لتقديم شكاوى على اتخاذ الحكومة المصرية موقفا متحيزا جدا من تعهداتها.

فقد جرى عبور سفننا للقناة فى ظروف ملائمة للغاية بفضل اتخاذ السلطات المحلية كل ما يتوقف عليها من اجراءات لضمان السلامة التامة لأسطولنا.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٥

مصر

مصر أثار عبور قناة السويس عام ١٩٠٥م من جانب فصيلتين من السفن الحربية الروسية - فصيلة طرادات الكابتن دوبروتفورسكى، وعمارة الاميرال نيبوغاتوف أثار عددا من مسائل القانون الدولى، المتنازع عليها. فإن المصاعب التى انبثقت بالدرجة الأولى من جراء إبهامات اتفاق عام ١٨٨٨م، الذى يضبط الملاحة عبر قناة السويس، وكذلك بفضل تأويل السلطات الساحلية الانجليزية المصرية للاتفاق المذكور تأويلا مرضيا دائما حيال روسيا، إن هذه المصاعب كانت تمس عدة نقاط: تزويد الدول المتحاربة بالفحم ومختلف المؤن فى الموانئ المصرية، طابع السفن من وجهة نظر القانون الدولى، التى رافقت الأسطول تحت علم تجارى، حق التوقف فى موانئ باعة الفحم المحايدين، وما إلى ذلك.

إن الخلافات حول هذه المسائل، التى تم البت فيها بصورة ناجحة، بعد تنازلات متبادلة وإيضاحات مديدة والتى شارك فيها مندوب روسيا فى القاهرة بنشاط، تشير إلى ضرورة صياغة الاتفاقية الدولية، صياغة أكثر دقة لشروط عبور سفن الدول المتحاربة قناة السويس، وكذلك تعيين حدود صلاحيات السلطات الساحلية، لدى تأويلها مواد الاتفاق وقد تأكد الشىء نفسه مباشرة بعدما حصل للسفن الروسية، بصدد مسألة نقل متفجرات عبر السويس،

وللباخرة الانجليزية «شاتهام» التى غرقت فى القناة بعد الحريق، وعلى متنها ديناميت مهرب.

إن إنجلترا تعترف كليا بضرورة إعادة النظر فى اتفاق عام ١٨٨٨م.

وقد تحدث اللورد كرومر بهذا المعنى، مع الملازم البحرى شفانك، وفى رده على سؤال مستشار الدولة الفعلى مكسيموف أكد اللورد كرومر رأيه، فى أن إعادة النظر فى الاتفاق أمر مرغوب فيه، مشيرا فى نفس الوقت إلى أن ذلك لن يغدو ممكنا، إلا بعد عقد صلح بين روسيا واليابان.

إن سكان مصر، الذين لا يشاركون مباشرة فى مناقشة مسائل معقدة كهذه ذات طابع دولى، كانوا على العموم، مع ذلك يبدون الاهتمام الكبير بالحرب الروسية اليابانية، ويعربون عن آراء مختلفة حول الأحداث الجارية، تميز المشاعر السياسية لمختلف الطبقات والفئات.

فقد أعرب دائما وأبدا عن تعاطفهم مع هذه الحرب، إخوان فى الدين ينتمون، إلى الطوائف الارثوذكسية السورية واليونانية والخديوى أيضا سعى جهده بشتى الوسائل للاعراب عن عطفة عليها، وعبر عن ذلك غير مرة، وبحرارة أمام مندوب روسيا المعتمد لديه. ومن الضرورى، فى المقابل الإشارة إلى موقف المسلمين العدائى ولا سيما صحافة الجامعة الإسلامية، التى كانت تهلل بغرابة لانتصارات اليابان، وتروج على أعمدة جرائدها لرأى يزعم أن روسيا عدو قديم ومزمن للإسلام.

ينبغى القول أن المسلمين على العموم يقفون موقفا عدائيا خفيا، من كل ما هو أوروبى؛ وقد برز هذا الموقف بجلاء خاص فى أعمال الشغب الصاخبة المعادية للأوروبيين، التى حدثت فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) الماضى، وأثارها سخط الجماهير لدى سماعها نبأ قيام الدول الكبرى بمظاهرة بحرية، للضغط على تركيا فى المسألة المقدونية. وقد اعتبر المسلمون هذا النبأ تحديا وتهديدا للإسلام كله.

تميز عام ١٩٠٥م فى حياة مصر السياسية باستمرار ترسيخ نفوذ وسلطة الانجليز، ترسيخا تدريجيا ولكنه واثق، فى وادى النيل وهو النتيجة المباشرة للاتفاقية الفرنسية البريطانية لعام ١٩٠٤م التى منحت انجلترا حرية التصرف فى مصر. ففى خطابات اللورد كرومر، وتقريره حول إدارة مصر عن عام ١٩٠٥ وفى مختلف الوقائع المشهودة كسفرة، دوق كونّاوت، مثلا، إلى مصر، بهدف تفقّد قوات الاحتلال، يرتسم بكل جلاء موقف انجلترا الجديد من مصر؛ بوصفها محافظة ملحقة بها.

ويلاحظ الشيء نفسه فى مسألة إصلاح المحاكم المختلطة، فإن هذه المسألة، التى سبق أن أثيرت عام ١٩٠٣. بمبادرة من الحكومة الانجلو مصرية، لم يجر البت فيها نهائيا، حتى الآن، رغم المناقشات المتكررة للاقتراحات الانجلو مصرية فى اللجنة المختلطة الدولية التى أنشئت لهذه الغاية فخلف فكرة الإصلاح هذا، التى تتوخى، كما يزعمون، فقط هدف تنظيم التشريع والمرافعة فى المحاكم المختلطة ، كان يقبع فى واقع الأمر حساب سياسى عميق، من جانب إنجلترا: القضاء التدريجى على دائرة الاختصاص المختلطة، وإستبدالها بمحاكم أهلية، بادئ الأمر، ومن ثم بمحاكم بريطانية إن اجراء كهذا من شأنه أن يشكل، فى حال تحقيقه، خطوة هامة للغاية إلى الإمام فى نشاط إنجلترا المنتظم الهادف إلي تحرير مصر نهائياً من الوصاية الدولية.

إن الحكومة الإمبراطورية؛ إذ أدركت تماما خطر المطامع الجشعة البريطانية فى هذه المسألة، اتخذت بنجاح الوسيلة الوحيدة ضدها: المطالبة بأن تكون موافقة الدول الكبرى على المقترحات الأنجلو مصرية مشروطة بتمديد عمل المحاكم المختلطة، وضمانه لأكبر مهلة ممكنة.

بهذه الطريقة يمكن التوصل إلى تمخض الإصلاح عن نتائج حسنة عن طريق تنظيمه نشاط المحاكم المختلطة، وبالتالى إزالة ذرائع السعى لاحقا إلى تقييد مجال اختصاصها.

تقرير إلى صاحب الجلالة عن عام ١٩٠٦

مصر

إن مظاهر التعصب الدينى، التى ظهرت فى السابق أيضا، وسط سكان مصر المسلمين، تجلت عام ١٩٠٦م فى أشكال أكثر وضوحاً.

فتحت تأثير الصحافة المحلية للجامعة الإسلامية، التى يقودها الكاتب الاجتماعى المصرى، المعروف، مصطفى كامل باشا، يقف السكان المحليون موقفا متزايد العداء باطراد من الأوروبيين، إذ يوجهون حقدهم بالدرجة الرئيسية على وكلاء دولة الاحتلال ورعاياها، وقد برزت هذه الحالة النفسية بأوضح صورها فى حادثين، أى بالتحديدالحادث الذى وقع لضباط إنجلترا قرب قرية دنشواى، والحادث الذى وقع اثناء احتلال تركيا موقع طابا فى شبه جزيرة سيناء.

إن حادث الضباط الإنجليز قرب قرية دنشواى التافه بحد ذاته، بين مع ذلك أن المسلمين على استعداد لاستغلال كل فرصة سانحة؛ لكى يظهروا عمليا حقدهم على المسيحين فهذا الحادث، الذى سبب هذا القدر الكبير من الضجة وأثار بضعة استجوابات إلى الوزارة فى البرلمان البريطانى، جرى كالآتى: توجه بضعة ضباط إنجليز إلى صيد الحمام فى ضواحى قرية دنشواى وبعد الطلقات الأولى اندلعت النار فى إحدى منشآت القرية، عند ذلك هجم جمهور من الفلاحين، ظنا منهم أن سبب الحريق هو إطلاق النار، واعتدوا على مطلقى

النار وضربوهم ضربا مبرحا، حتى أن أحد الضباط لقى مصرعه من الضربات، التى أصابته. وترتب على أهالى دنشواى دفع ثمن غال جزاء فعلتهم التعسفية هذه فقد عقدت محكمة خاصة حكمت على أربعة من المذنبين بالإعدام شنقا، وعلى ستة بالعقاب بالجلد بالسيط، وعلى الباقين بالسجن مددا مختلفة؛ فى اليوم التالى بالذات تم تنفيذ الحكم فى الحال.

إن هذا النمط القاسى لأعمال السلطات البريطانية لم يكن فى وسعة - بالطبع - المساعدة على المصالحة بين المسلمين والمسيحيين.

أما الاصطدام بين إنجلترا وتركيا بسبب احتلال القوات العثمانية موقع طابا، فقد اعتبره أنصار الجامعة الإسلامية دوسا من جانب الأوروبيين على حقوق الصدر الأعظم والخليفة - السلطان؛ رغم أن إنجلترا وقفت فى هذه الحالة كليا إلى جانب مصر.

إن الباب العالى، الذى لم يغفل على العموم فرص تمكين مصر من الشعور بحقوقها السيادية، احتل أكثر من مرة بقواته أراضى متنازلا عنها للخديويين، فقد أحتل مؤخرا، مثلا، موقعا فى خليج سلوم، ومن ثم موقع طابا أيضا قرب العقبة، وضمه إلى الحجاز، بحجة أن ذلك ملائم من الناحية الإدارية.

بعد ثلاثة أشهر من المفاوضات، مع إنجلترا، وإعلان هذا إنذارا، تراجع الباب العالى وأبلغ السفير البريطانى فى القسطنطينية عن استعدادة للجلاء عن طابا، والموافقة على تشكيل لجنة استثنائية لأجل رسم حدود الأراضى المصرية.

وأسفر عمل هذه اللجنة فى أكتوبر (تشرين الأول) من العام الماضى عن نتيجة موفقة.

إن الفكرة القائلة أن باستطاعة الأوروبيين إجبار أتباع النبى على الخضوع لإرادتهم لم يكن فى وسعها، بالطبع، الا تثير مشاعر المسلمين، وكان من المتوقع فى ذلك الزمن حدوث اضطرابات خطيرة، وانفجار التعصب الإسلامى فى مصر بأسرها. ومن حسن الحظ أن الأمور لم تتعد الإشاعات والافتراضات.

تنبغى الإشارة إلى أن الصحافة المصرية تشكل أداة قوية لإلهام المسلمين الأقحاح. فهذه الصحافة، التى تتمتع بحرية كبيرة جدا، تساعد بمقالات تحميسية، على الدوام، على نشر أفكار الجامعة الإسلامية، وسط الجماهير.

وتتمتع بشهرة كهذه على الأخص جريدة «اللواء» التى يحظى محررها مصطفى كامل باشا الآنف الذكر، وهو شخص موهوب للغاية، بثقة الخديوى التامة.

وظهرت فى الصحافة القومية حتى مقالات تبرهن على آنية، وضرورة تأسيس برلمان فى مصر، غير أن القوميين، بعد اصطدامهم باعتراضات فى الصحف الموالية لانجلترا والمبرهنة على عدم استعداد السكان المحليين لذلك وتعليمهم غير الكافى، واصلوا بضراوة تهجماتهم على الانجليز، متهمين إياهم بالسعى المتعمد لإبقاء الشعب فى مستوى ثقافى متدن أطول مدة ممكنة.

بغية تحضير شخصيات دستورية قادمة من الوطنيين وضع القوميون نصب أعينهم، بقيادة كامل باشا، هدف إنشاء جامعة فى القاهرة بأموال خاصة وأعلنوا لدى ذلك، بهدف استمالة الرساميل القبطية إلى المشاركة فى هذه القضية، أن الجامعة مفتوحة أمام جميع المصريين دونما فرق فى الأديان. إن قسما كبيرا من الصحافة العربية يتعاطف مع هذه الفكرة، وتحت ضغط الرأى العام وبفضل الدعاية الماهرة لأصدقاء مصطفى كامل تسنى جمع حتى ٣٠٠٠٠ جنيه استرلينى.

تقرير قنصل روسيا العام فى مصر عن عام ١٨٨١
(أرشيف سياسة روسيا الخارجية)

القنصلية العامة

الإمبراطورية الروسية

فى مصر

٢٦ من فبراير ١٨٨٢م

رقم ٧٤

سيدى الكريم نيقولاى كارلوفيتش

لى الشرف أن أقدم طيه، نسخة عن تقرير عام ١٨٨١م المنصرم مرفقة بتقريرى إلى السفارة الإمبراطورية فى القسطنطينية بتاريخ ١٨ من فبراير تحت رقم (٥٦) (*)

مع فائق الاحترام وعميق

الولاء أتشرف بأن أكون خادما مطيعًا لمعاليكم.

إلى صاحب المعالى ن. ك. غيرس ليكس

(*)على الجهة اليسرى من الصفحة كان مكتوبًا بقلم رصاص، على ما يبدو، بيد وزير الخارجية نفسه غيرس «تقرير شيق للغاية»

مصر

البندا. الاثنوغرافيا. مساحة جميع الممتلكات، الموجودة، تحت سلطة الخديوى، تساوى ٢٩٨٧٠٠٠ كيلومتر مربع، يقطنها ١٧٠٠٠٠٠٠ نفساً؛ مساحة مصر ذاتها تبلغ ٥٤ ١٠٢١٣ كيلو مترا مربعا، يقطنها حتى ٥٧٠٠٠٠٠ نفساً. العدد الدقيق لسكان مصر، سيصبح معروفا فى أواسط العام الجارى، إذ أنه شرع، منذ مطلع يناير (كانون الثانى)، بإجراء إحصاء صحيح، لجميع نفوس سكانها، بمن فيهم الأرقاء البدو، الذين لم يجر قيدهم حتى الوقت الحاضر.

عدد الأجانب حتى ٨٠٠٠٠ شخصاً.

عدد الرعايا الروس، ومعظم: يونانيون، أرمن، شراكسية وتركستانيون والأشخاص القاطنون مصر تحت رعايتنا: تشيرنوغوريون، صربيون، بلغار، من أهالى بخارى وخيوى، يبلغ حوالى ٢٥٠ شخصًا.

مدن مصر الرئيسية

الإسكندرية، ميناء مصر الرئيسى، حيث يعيش قسم كبير من الأجانب، عدد سكانها ٢١٢٠٠٠ شخص، بينهم ٤٨٠٠٠ شخصاً أجنبى.

عدد السفن التى أمت ميناء الإسكندرية عام ١٨٨١م: أ - ١٨ حربية، بينها ٤ روسية؛ ب - بواخر ١٠٧٤، بينها ٧٨ روسية، ج - ١٢٩١ شراعية، بينها ١١ روسية.

القاهرة، عاصمة مصر، عدد سكانها ٣٥٠,٠٠٠ شخصاً بينهم م ٢٠,٠٠٠ شخصاً أجنبى. المركز الرئيسى للتجارة الداخلية، والتجارة مع النوبة والسودان، والتى تتقلص سنويا من جراء القضاء على تجارة الزنوج، وفرض احتكار الحكومة على تجارة العاج.

٣ - بورسعيد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، عند مدخل قناة السويس. عدد سكانها ١٢,٠٠٠ شخصاً.

عدد السفن التى أمت بورسيعد عام ١٨٨١م، باستثناء السفن التى عبرت القناة:

(أ) ١٢ حربية، بما فيها واحدة روسية؛

(ب) ٣٦٥ بريدية وتجارية، بما فيها ٥٤ روسية، ج ـ ٤٧ شراعية، بما فيها ٣ روسية.

(جـ) ٤٧ شراعية، بما فيها ٣ روسية.

حتى الآن لا يوجد فى مدينة بورسعيد ماء عذب، وتتزود به بالأنابيب من الإسماعيلية، حيث تعمل آلتان بخاريتان بصورة دائمة.

فى العام الماضى اقترح السيد دى ليسيبس على الحكومة المصرية، شق ترعة المياه العذبة من الإسماعيلية، حتى بورسعيد، ولكن حكومة رياض باشا، آنذاك رفضت اقتراحة، لأنه طلب لقاء ذلك تمليكه التام لجميع الأراضى المحاذية للترعة، المصمم شقها. وأسسس السيد دى ليسيبس، حاليا شركة تنازل لها عن حقه القائم، حسب قوله، على نفس الامتياز، الذى قد ناله عام ١٨٥٦ لأجل شق قناة السويس فى شق ترعة للمياه العذبة من الإسماعيلية التى مدت إليها ترعة من النيل، منذ زمن بعيد ـ إلى بورسعيد وجاء السيد دى ليسيبس شخصيا، إلى مصر، بغية بذل المساعى للمصادقة على هذه الشركة، ولكن مشروعه الجديد، لم يجر النظر فيه حتى الان لاعتبارات سياسية.

٤ ـ دمياط. عدد سكانها ٣٣٠٠٠ شخصاً.

٥ ـ السويس، الواقعة على خليج البحر الأحمر عند مخرج قناة السويس عدد سكانها ١١٠٠٠ شخصاً.

٦ ـ الرشيد، عدد سكانها ١٦٠٠٠ شخصاً.

٧ ـ طنطا، عدد سكانها ٦٠,٠٠٠ شخصاً، مدينة مشهورة بأسواقها الدورية التى يؤمها حتى ٨٠٠ ألف شخصاً، فى هذه الأسواق تجرى كل تجارة أوروبا مع مصر العليا، والنوبة والسودان.

٨ ـ المنصورة، عدد سكانها ١٦٠٠٠ شخصاً، فى حالة تدهور بعض الشىء بسبب إلغاء المحكمة المختلطة، فى هذه المدينة، التى أحيلت دعاواها جزئيا إلى محكمة القاهرة، وجزئيا إلى محكمة الإسكندرية.

البند ٢. الحالة الاقتصادية

خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة، توجد الزراعة فى مصر فى حالة يرثى لها للغاية، سواء من جراء الضرائب المرتفعة جدا، أم بسبب أن الفلاحين كانوا فى قبضة المرابين (يونانيين، أرمن، يهود)، الذين كانوا يستغلون وضعهم العديم المخرج لكى يمتصوا آخر نقطة دم فى عروقهم؛ غير أن الضرائب، وإن تكن كبيرة، تجبى الآن بصورة أكثر سدادا، بالإضافة إلى أنه أنشىء، فى القاهرة مصرفان عقاريان،يزودان الفلاحين لقاء فوائد مئوية متهاودة، بالمبالغ الضرورية لدفع الإتاوات، ويمكن الأمل بأن الزراعة، سوف تزدهر فى مصر، فى المستقبل القريب، كما كان الأمر فى العصور القديمة، عندما كان هذا البلد أهراء لأوروبا.

الأراضى المهملة فى مصر السفلى، بدأت تجد مشترين، لها، من عداد الأوروبيين، وهى أيضا سوف تقدم فائدة للبلاد مع مرور الزمن.

مساحة الأراضى المزروعة تصل فى الوقت الحاضر إلى ٦ ملايين فدان.

أهم المنتجات الزراعية فى مصر هى: القطن، قصب السكر، القمح، الأرز.

فى عام ١٨٨١م كان محصول القطن سيئا، فضلا عن أن كثيرين من المزارعين لم يبيعوه حتى الآن، بسبب أسعاره المتدنية فى أميركا، سعر القطن الآن ٢٥٠ ـ ٢٧٠ قرشا مصريا للقنطار الواحد، بينما كانوا يدفعون عام ١٨٨٠م لقاءه حتى ٣٣٠ قرشا مصريا.

محصول القمح، كان أيضا غير جيد، لدرجة أن كثيرين من المزارعين فى مصر السفلى استطاعوا بالكاد دفع الضريبة العقارية.

أسعار القمح مرتفة جدا فى الوقت الحاضر، فلقاء أردب واحد من القمح، مثلا، يدفعون حتى ١٤٠ قرشا مصريا.

محصول قصب السكر يسير من سيىء إلى أسوأ؛ ولكن سبب ذلك يعود إلى أنه تجرى زراعته، فى الغالب، فى أراض كانت ملكا لأسرة الخديو السابق إسماعيل باشا، ويديرها الآن مراقبون أوروبيون، ليست عندهم أى فكرة عن الاقتصاد، على العموم ولا سيما عن الزراعة فى بلد استوائى تقريبا،

والأشخاص المنفردون، الذين يملكون مزراع قصب السكر، لا يملكون أى مجال لتسويقه سوى المصانع الحكومية التى تقدم، عادة، سعرا متدنيا جدا، ولذا فإن عدد مزارع السكر يتقلص عاما إثر عام.

تربية المواشى فى مصر توجد فى مستوى متدن للغاية، وقد تضررت عام ١٨٨١م، بوجه خاص، من جراء مرض عام أصاب الأبقار، وكان سبب انتشاره، فى الغالب، التنظيم السيىء لقسم البيطرة فى مصر.

لم يتم حتى الآن، اكتشاف معادن فى مصر، ونقول بالمناسبة إنه خلال عام ١٨٨١م تم فى مصر العليا اكتشاف رواسب ذات دلائل ذهبية، ولكن نسبة الذهب فيها كانت تافهة جدا بحيث أن استخراجه لن يغطى النفقات.

لا توجد فى البلد معامل ومصانع سوى معامل السكر، التابعة للخديوى السابق اسماعيل، والتى يعمل نصفها فقط.

الحرف لا تزدهر. وكثير من الورش تصارع الورش الأجنبية بطريقة ما بسبب الاجور المتدنية.

البند ٣. التجارة: كانت نتائج تجارة مصر الخارجية كالآتى:

	الاستيراد	الاستيراد	الاستيراد
فى عام ١٨٨٠	٦٥٤٩٩٣٢٨٢	١٢٩٨٣٢٠٣٥٢	١٩٥٣٣١٢٢٦٣٤
خلال الأشهر الستة الأولى لعـــام ١٨٨١	٣٥٤٨٨٢٥٢٠	٦٥٤٩١٥١٨٨	١٠٠٩٦٩٧٧٠٨

من حيث تجارة الاستيراد بلغ عام ١٨٨٠م أعلى رقم بالمقارنة مع الأعوام الستة السابقة له: وهو يفوق عام ١٨٧٩م بـ ١٥٤٧٧٧٢٨٢ قرشا مصريا، بينما يفوقه أفضل عام، أى عام ١٨٧٥م، بـ ٥٨٠٣٣٥٣٣ قرشا مصريا؛ وخلال الأشهر الستة الأولي من عام ١٨٨١م تجاوزت تجارة الاستيراد، مستواها عام ١٨٨٠ بـ ٤٦٨٧٩٤٩٩ قرشا مصريا؛ إن ذلك كله يبرهن على ازدياد ثروة البلاد.

ومن حيث تجارة التصدير يجرى خلال العامين الأخيرين، بعض الانخفاض بالمقارنة مع الأعوام السابقة لهما، وقد أثر على ذلك المحصول السيىء للقطن وقصب السكر.

تحتل المرتبة الأولى فى استيراد البضائع، حسب العادة، المصنوعات والأقمشة القطنية، وفى المرتبة الثانية الفحم الحجرى.

وفى التصدير يحتل القطن المرتبة الأولى، شأنه فى الأعوام السابقة أيضا.

أكثر من نصف عمليات التجارة الخارجية هو من إيطاليا، روسيا، الهند، أمريكا، اليونان ودول أخرى.

جدول تجارة مصر الخارجية

١ ـ عام ١٨٨٠

	الاستيراد	التصدير	المجموع
إنجلترا	٣٤٨٧٤٩٥,١٧	٩٠٧٤٩٦١,٣٣	١٢٥٦٢٤٥٦,٥٠
فرنسا	١١٢٩٨٥٢,٢٢	١١١٤١٠٢,٧٠	٢٢٤٣٩٢٧,٩٢
النمسا	٨٩٨٩٥٥,٢٤	٣٥٦٣٧٣,٠٧	١٢٥٥٣٢٨,٣١
تركيا	١٣١٦٤٤,٥٦	٧٣٧٣٩٥,٣٩	٨٦٩٠٣٩,٩٥
إيطاليا	٢٦٧٤٧٣,١١	٥٤٨٤٢٩,٥٠	٨١٥٩٠٢,٦١
روسيا	٨٨١٩٧,٤٩	٧٢٢٦٦٦,١٨	٨١٠٨٦٣,٦٧
الهند	٣٩٠٣٥٩,٤٦	٣٤٩٦,٧٩	٣٩٣٨٥٦,٢٥
أميركا	٧٤٠٧٥,٠٤	٩٨٨٥٥,٥٢	١٧٢٩٣٠,٥٦
اليونان	١٠٨٢٢,٠٤	١٣٦٦٩١,١٢	١٤٧٦١٣,١٦
دول أخرى	٧١٠٨٤,٥٥	١٨٨٢٥١,٢٢	٢٥٩٣٣٥,٧٧
المجموع	٦٥٤٩٩٣٢,٨٢	١٢٩٨٣٢٠٣,٥٢	١٩٥٣٣١٣٦,٣٤

	الاستيراد	التصدير	المجموع
إنجلترا	١٨٧٠٥٢٧,٦٥	٤١٤٤٣٨٦.٦٠	٦٠١٤٩١٤,٢٥
روسيا	٧١٨٥٢,٧٦	١٠٢٣٤٢٠,٦٢	١٠٩٥٢٧٣.٣٨
فرنسا	٥٢٤٦٠٦,١٣	٤٨٥٩١٥,٦٥	١٠١٠٥٢١,٧٨
النمسا	٤٦٣٩٥٥,٧٢	٢١٤٦٠١.٢٦	٦٧٨٥٥٩,٩٨
إيطاليا	١٣٢٥٧١,٥١	٣٥٦٨٨٣,٦٠	٤٨٩٤٥٥,١١
الهند	٢٩٠٦٣١.٨٢	١١٠٠,٩٦	٢٩١٧٣٢,٧٨
تركيا	٦٩٩٢٢.٢٦	١٩٨٥٨٩,٩٢	٢٦٨٨١٢,١٨
أميركا	٧٢٨٨٩,٠٧	١٩١٣١,٣٩	٩٢٠٢٠,٤٦
اليونان	٩٣٠٧,٩٧	٤٨٢٠٠,٤٩	٥٧٥٠٧.٤٦
دول أخرى	٤٢٥٦١,٣١	٥٥٩١٨,٣٩	٩٨٤٧٩,٧٠
المجموع	٣٥٤٨٨٢٥.٢٠	٦٥٤٨١٥١,٨٨	١٠٠٩٦٩٩٧,٠٨

المــرور عبــر قنــاة السويـس

عدد السفن التى عبرت القناة عام ١٨٨١م: بالإجمال ٢٧٢٧ سفينة. منها: ٢٢٥٠ إنجليزية، ١٠٩ فرنسية، ٧١ هولندية، ٦٤ نمساوية، ٥٢ إيطالية، ٤٦ أسبانية، ٤٥ المانية، ٢٠ روسية، ٧٠ من بلدان أخرى.

بينها: ٩٤ حربية (٦ روسية)؛ ٤٤٢ بريدية. حمولة السفن عام ١٨٨١م: ٥٧٩٤٤٠١ طن. الإيراد السنوى ٥١٠٧٣٦٠٤ فرنكات. عدد الركاب ٨٦٨٠٧ أشخاص بينهم:

١ ـ عسكريون: أ ـ ٢٤٣٢٧ إنجليزيا، ب ـ ٧٩٨١ تركيا، ج ـ ٥١٧٨ فرنسيا، د ـ ٢٩٤٩ هولنديا، هـ ـ ١٥٠٥ أسبانيا، و ـ ٦٩٨ روسيا،ز ـ ٣٣٦ برتغاليا، حـ ١٣٧ ألمانيا، ط ـ ٥٣ إيطاليا؛ ٢ ـ حجاج ٧٢٢٢؛ ٣ ـ روس منفيون ٤٨٠؛ ٤ ـ مهاجرون إنجليز ٣٣٧؛ ٥ ـ سائر الركاب ٣٥٦٠٤ أشخاص.

تجارة مصر مع روسيا

تجارة مصر المباشرة مع روسيا، بدأت تتزايد منذ عام ١٨٧٠م أثناء الحرب الفرنسية الألمانية، ولاسيما ابتداء من عام ١٨٧٦م عندما أسس البارون كنووب فى الإسكندرية بيت أمبورغر وشركاه للتجارة الروسية، التى توفى رئيسها إيفان أمبورغر، المأسوف عليه، فى أواخر عام ١٨٨١م. وينبغى الأمل بأن هذه

الدار سوف تواصل وجودها فى مصر، إن تحت اسم آخر ولكن تحت العلم الروسى.

ازدادت تجارة مصر مع روسيا، من حيث التصدير أى بالتحديد من حيث تصدير القطن، من الإسكندرية إلى أوديسا مباشرة عام ١٨٨٠م صدرت منها إلى روسيا كمية من القطن، أقل مما فى العام السابق له، لأنه تبين أنه كانت توجد عندنا احتياطيات كبيرة منه، بقيت من الأعوام السابقة، ولكن فى الأشهر الستة الأولى من عام ١٨٨١م صدرت من الأسكندرية إلى روسيا كمية أكبر بكثير، مما كان خلال عام ١٨٨٠م كله.

إضافة إلى القطن، يصدر إلى روسيا من مصر: التمر، الأرز، البن، الحناء، الفول، الخضار، الفواكه، الجلود.

ويستورد من روسيا إلى مصر، القمح على الغالب، ثم الطحين، والخيول، والأبقار، والزيدة، والأجبان. والدهن، والحرير، والحبال، والألواح، والسروج،، وعدد الخيل، استيراد الخيول والأبقار، الذى توقف تماما خلال أعوام ١٨٧٠ - ١٨٧٨، عاد الآن يتزايد بنطاقات واسعة جدا، ولكن من دواعى الأسف أن هذه التجارة يتعاطاها اليهود وحدهم تقريبا، الذين لا يوحون بأية ضمانة للنزاهة والذمة.

وعلى العموم، كما يتبين من الجدول الذى أوردته أعلاه حول حركة تجارة مصر فى عام ١٨٨١م، تحتل روسيا المرتبة الثانية، أى أنها تلى انجلترا مباشرة؛ من المؤكد أن روسيا تتخلف كثيرا من حيث تجارة الاستيراد عن فرنسا والنمسا وحتى إيطاليا، ولكن ينبغى الأمل بإننا، مع تطور أسطولنا التجارى سنحتل فى مصر المرتبة اللائقة بنا، بالنسبة لاستيراد البضائع ايضا.

البند ٤ المالية

توجد مالية مصر فى وضع جيد للغاية بفضل إدارة البلاد بصورة شريفة ومقتصدة من جانب الحكومة، ومن جراء تخفيض نسبة الفوائد المئوية، التى تدفعها الحكومة بموجب الديون الأجنبية إضافة إلى ذلك يجرى تحصيل

الإتاوات، بصورة صحيحة، وفقط بعد إنتهاء جنى المحصول، أى عندما تصبح الأموال متوفرة لدى جميع المزارعين.

تبلغ الميزانية المقررة لعام ١٨٨٢م: المداخيل ٨٧٤٦٥٨٦ جنيها مصريا، المصروفات ٨٤٦٣٩٦٨ جنيهاً مصرياء الرصيد المفترض بقاؤه ٢٨٢٥٨٨ جنيها مصريا.

المصروفات الضرورية:

(أ) على إدارة البلاد ٣٦٨٨٣٧٨ جنيها،

(ب) الإتاوة للباب العالى ٦٧٨٤٨٦ جنيها

(جـ) على تسديد فوائد الديون الخارجية ٣٧٦٠٩٩٧ جنيها.

المصروفات الاستثنائية المفترضة لعام ١٨٨٢م: ٥٤٠٠٠٠ جنيه، أى تحديدا، على وزارة الحربية ١٠٠,٠٠٠، على وزارة الأشغال العامة ١٧٠٠٠٠، على سكك الحديد ٧٠٠٠٠، على السودان وهرر والبحر الأحمر ١٠٠٠٠٠، على المصروفات الطارئة ١٠٠٠٠٠.

البند ٥ الإدارة

يدير مصر الخديوى محمد توفيق الأول بواسطة حكومة شبه دستورية. ومجلس نواب تم تشكيله فى نهاية العام الماضى. فى سبتمبر (ايلول) ١٨٨١م استبدلت حكومة رياض باشا، بحكومة شريف باشا، التى تنتمى بدرجة معينة إلي الحزب القومي؛ ولكن شريف باشا استقال الآن، والحكومة الحالية، لمحمود باشا وعرابي بيه، حكومة قومية صرف، وتحظي بتأييد الجيش بالدرجة الأولي الذي يعتبر نفسه بمثابة مثقفي البلاد. المراقبان: الإنجليزي والفرنسي لا يتمتعان رغم وجودهما كذلك في عداد الحكومة، بذلك النفوذ، الذي كانا يتمتعان به علي عهد رياض باشا، أو شريف باشا.

جرت الانتخابات إلي المجلس في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي بصورة صحيحة، غير أن الاهتياج العام للعقول لدي سكان إفريقيا العرب، ولحد ما

الخوف من الجيش، جعلا النواب، الذين يعارضون أي تدخل أوروبي كان في شئون البلاد الداخلية، ليبيراليين تماما.

علاقات السلطة المركزية مع الممثلين الاجانب ودية علي ما يبدو؛ ولكن السلطات المحلية لا تتصرف دائما بصورة صحيحة حيال الأجانب.

الحالة الصحية في الإقليم حسنة جدا؛ فجميع الإجراءات ، التي اتخذها مجلس الوقاية الصحية الدولي في الإسكندرية ضد الكوليرا، التي اجتاحت الهند والحجاز، تبدّت عمليةً جدا، بحيث أن الكوليرا، رغم عدد الحجاج الكبير الذين اجتازوا مصر، لم تنتشر إلي أبعد من الفيجة (نقطة الحجر الصحي علي البحر المتوسط عند حدود مصر).

البوليس، شأنه فى الزمن السابق أيضا، متوسط النوعية فى كل مكان.

اجتمع مجلس النواب فى أواخر العام؛ ولكنه سوف يعقد جلساته حتى ١٦ من مارس (آذار)؛ مجمل اتجاهه ليبيرالى، وموجه، بالدرجة الأولى، ضد التدخل الأجنبى فى الإدارة الداخلية.

المحاكم المختلطة تعمل وفق الأسس السابقة؛ تم تمديد وجودها مؤقتا لمدة عام واحد؛ اللجنة القضائية الدولية لم تنعقد فى الخريف لاعتبارات سياسية؛ ولكن من المفترض عقدها فى أكتوبر (تشرين الأول) من العام الجارى.

إصلاح المحاكم العربية ذاتها تقدم شوطا بعيدا، خلال العام المنصرم، ولكن لم يتم بعد وضعه قيد التنفيذ، بسبب النقص فى عدد الأشخاص المحضرين حقوقيا.

دائرة الاختصاص القضائى القنصلى لا تزال موجودة؛ لأجل النظر فى دعاوى جنائية، وبعضها دعاوى بوليسية، ولأجل الدعاوى المدنية بين رعايا دولة بعينها؛ ولكن من المرغوب فيه لو أحيلت جميع هذه الدعاوى إلى اختصاص المحاكم المختلطة، التى يضم قوامها عناصر مهيأة للشؤون القضائية، أكثر بكثير من القناصل والموظفين القنصليين.

البند ٦ الإصلاحات

الإصلاح المالى، الذى بوشر به عام ١٨٨٠، وضع قيد التنفيذ نهائيا خلال عام ١٨٨١؛ وجلب فائدة كبيرة للبلاد، وتبين فقط فى واقع الأمر أن الإشراف الانجلو فرنسى، الذى تكلف ثمنا باهظا، كان غير لازم على الاطلاق؛ لأن الصندوق الدولى للتسديد والمفوضين الأجانب، الذين يديرون عقارات الدولة، والعقارات العائدة لاسرة الخديوى السابق إسماعيل باشا، يؤمنون بشكل كاف مصالح أصحاب الأرصدة المصرية، فى حين أن المراقبين العامين، الإنجليزى والفرنسى يجرحان عزة نفس العرب ويثيران سخط السكان المحليين الشديد عليهما، بانهما يتدخلان فى الشؤون السياسية والادارة الداخلية معتبرين نفسيهما شبيهين بالمعتمدين الإنجليز فى الهند.

فإذا لم يتم وضع حد لذلك فيمكن التنبؤ بحدوثِ اضطرابات شديدة وبتحرك السكان العرب ضد الأوروبيين.

إن الإصلاح القضائى كما أسلفت، انتهى إنجازة من الناحية النظرية ولكن لم يباشر بعد بتطبيقه.

الإصلاح العسكرى، وضع حيز التطبيق جزئيا فقط، ولكن فى ظل الحكومة الحالية، التى تتألف غالبيتها من العسكريين، وكما تدل جميع القرائن سوف يطبق إلى حد كبير فى العام الجارى.

البند ٧ العمليات الحربية

فى العام الماضى زيد تعداد الجيش المصرى بمقدار ٢٠٠٠ شخص، وثمة افتراض، بأنه سيزاد مقدا ر ثلاثة آلاف أخرى، وتعداد القوات غير النظامية فى السودان، وهـرر، ودارفور، والبحر الأحمر من المفترض زيادته أيضا، سـ واء بمناسبة الحركة الدينية الجارية فى السودان، أم من جراء الاستعدادات العسكرية فى الحبشة، التى لم تعقد فى يوم من الأيام صلحا نهائيا مع مصر.

قسم كبير من الضباط الأتراك والشراكسة، تم إقصاؤهم من الخدمة، وأحتل العرب جميع المراكز العسكرية العليا.

القانون العسكرى للخدمة الإلزامية بالنسبة لجميع المصريين، الذى وضع عام ١٨٨٠، لم يوضع بعد قيد التنفيذ.

الأسطول الحربى يوجد فى نفس الوضع البائس الذى كان يوجد فيه فى العام الماضى.

البند ٨ التعليم العام

فى زمن إدارة البلاد من جانب الخديوى إسماعيل باشا، تطور التعليم العام، بخطوات سريعة إلى الأمام، ولكن، اعتبارا من زمن التدخل الأجنبى، ومن جراء التدخيرات الكبيرة فى جميع مجالات الإدارة الداخلية، يسير التعليم العام إلى الوراء، بل إلى الأمام. وبالمناسبة نقول إنه فى غضون عام ١٨٨١م أسست الجمعية الخيرية العربية مدرسة جديدة فى القاهرة؛ لأجل الأولاد العرب الفقراء وزير التربية والتعليم الحالى غير موجود فى المنصب اللائق به إطلاقا، والمستشارون الأوروبيون سرحوا من العمل، ومجمل التعليم موجودالآن فى أيدى عرب متعصبين دينيا لحد ما ويدينون بأباطيل شرقية مختلفة.

ازداد عدد المدارس الأجنبية، بإنشاء بعض مؤسسات يسوعية؛ لأن المراقب الفرنسى السيد بلينيير يبسط رعايته بصورة سافرة على اليسوعيين؛ الذين ملأوا البلاد منذ ذلك الزمن، الذى لم يسمحوا لهم فيه بتعليم الشبيبة فى فرنسا.

مدرسة هابيت، الموجودة تحت رعايتنا، تزدهر باستمرار، ففى عام ١٨٨١م كان يؤمها ٣٠٣ تلامذة، بينهم: ١٢٦ يونانيا، و٢٧ عربيا ارثوذكسيا، و٣ أرمن، ١٥ قبطيا، و ٦عرب كاثوليك، و٣ بروتستانيين، و١٠٦ مسلمين، و٧ يهود. يود أولياء الأمور لو يجرى تعليم اللغة الروسية، ولكن من الصعب جدا إيجاد مدرس روسى فى مصر يجيد التكلم بالعربية، أو اليونانية، أو حتى بالفرنسية (*).

(*) الجملة الأخيرة وضع تحتها خط بقلم رصاص . الظاهر أن هذه الفكرة أثارت اهتماما خاصا لدى المرسل إليه

المدير الجديد لدار الآثار المصرية السيد ماسبيرو يجرى أعمال حفريات كثيرة، وهو يعمل على العموم بنجاح كبير، وقد سمح أيضا لأشخاص آخرين بالحفريات، ولكن بشرط أن يقدموا للمتحف جزءا من الآثار القديمة التى يعثرون عليها.

البند ٩ الأديان

عقول السكان المسلمين مهتاجة بعض الشىء، فى كل أرجاء شمال افريقيا، من جراء حركة العرب فى تونس والجزائر .

ويلاحظ بعض الاستياء، من الأوروبيين، ولا سيما من الذين يشغلون مناصب هامة فى الإدارة المركزية ويتلقون رواتب مرتفعة جدا؛ ولكن لم يلاحظ بعد حتى الآن تعصب دينى حقيقى.

الكنيسة القبطية تعرضت لملاحقات شديدة فى زمن حكومة رياض باشا، فقد أجبروا قساوستها على العمل قسرا فى خدمة الدولة، ولم يكتفوا بمنع بناء كنائس جديدة، بل وحتى منعوا تصليح الكنائس القديمة، وتعرض الأساقفة الأقباط للملاحقة، ونهبت بعض الأديرة علنا، من جراء ذلك كله طلب الأقباط رعايتنا، الأمر الذى تشرفت بابلاغ الحكومة عنه فى الوقت المناسب ابتداء من عهد حكومة شريف باشا، صاروا يتركون الأقباط وشأنهم، ومن المرجح أن الحكومة الحالية سوف تتصرف بالطريقة نفسها، لا سيما وإنه يوجد بين النواب بضعة أقباط أغنياء، وبالتالى ذوى نفوذ داخل البلاد، أرى من المناسب أن اضيف إلى ذلك أن الإنجليز يبذلون الجهود لكسب مودة الأقباط، ويعملون لنشر الماسونية فى أوساطهم، إذ يقبلونهم فى عداد أنصار المحافل الانجليزية علاقات الكنيسة القبطية مع الكنيسة الحبشية حسنة جدا، فالمطران والأساقفة، الذين أرسلوا إلى الحبشة من القاهرة، يكتبون من هناك أنهم حظوا باستقبال حافل وان السكان المحليين يكنون لهم الاحترام.

الأرمن فى مصر، يعيشون منذ زمن بعيدا فى تشاجر دائم، مع بعضهم البعض ومع رجال دينهم على السواء، أنهم يتشكون دائما تارة، إلى مطران، القدس وتارة

إلى بطريرك القسطنطينية الذى أرسل لهم منذ بضعه أشهر خلت، قسيسا رفيع المنصب، لأجل إدارة الرعية المصرية، ولكن الأمور لا تزال تسير بشكل عسير لأن أنصار القسيس السابق، وكذلك الكثيرين من أعدائه السابقين، أصبحوا غير راضين عن الكاهن الجديد للكنيسة الأرمنية فى القاهرة.

رجال الدين الأرمن وبعض الدنيويين، سواء بسواء، يوجهون إلىّ أحيانا طلبا بالتدخل فى شؤونهم الكنسية أنا، بالطبع، لا أرفض أبدا طلبهم بالشفاعة لدى الحكومة المصرية، ولكننى لا أوافق على التدخل فى إدارتهم الداخلية، فوق أننى أمنع نواب قنصلنا من القيام. بذلك، لان شؤون الأرمن الكنيسة قذرة. وقائمة فقط، عن مَنْ الذى سيتسنى له، الاستفادة من مداخيل الطائفة.الأرمنية: رئيس رجال الدين أم أحد الأحزاب التى ينقسم إليها الأرمن المحليون.

تبلغ مداخيل الكنيسة الأرمنية، فى القاهرة، حتى ١٥٠٠ جنيه مصرى، ولكن القسم الأكبر، من هذه النقود، يذهب إلى تسديد فوائد مئوية ضخمة لديون الطائفة تفوق ٥٠٠٠ جنيه مصرى.

وإن السبب الرئيسى، للادارة السيئة، لشؤون الكنيسة الأرمنية، فى مصر، يكمن فى الميثاق العضوى. للمجلس الإدارى، وفى طريقة انتخاب أعضائه: فإن جميع أعضاء الرعية الأرمنية القاطنين فى مصر، يتمتعون بحق الاشتراك فى الانتخابات وبأن ينتخبوا، ولذا فإن معظم أعضاء، المجلس، ينتمون عادة إلى الطبقة الدنيا من السكان، ولا يحق لرئيس الرعية الدينى، اتخاذ أية تدابير كانت بدون موافقة المجلس، أما إذا تعدى سلطته، وحتى لو كان ذلك لصالح الطائفة، فإن المجلس يرفع شكوى إلى بطريرك القسطنطينية، الذى يحيل الرئيس الدينى إلى المحكمة الكنيسية، ويستدعيه من مصر. يجدر ببطريرك القسطنطينية، تغيير ميثاق الطائفة الأرمنية المصرية، وإسناد إدارة شؤون الكنيسة الأرمنية المحلية، إلى مجلس يتألف من أشخاص ميسورى الحال، وشرفاء ومخلصين للكنيسة، على أن يعين رئيسا له رجل دين، رفيع المقام معروف، بدرجة ما وسط الأرمن، بحياته المثالية وبإخلاصه لمصالح الأمة.

الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية توجد فى الفقر، أكثر مما فى الغنى، الامكانية الوحيدة؛ لإنهاضها هى حمل الحكومة الرومانية، إن لم يكن، على أن تعاد إليها العقارات العائدة، لبطريركية الإسكندرية، والتى احتجزها الأمير كوزا، فعلى الأقل على تقديم مبلغ سنوى معين لحاجاتها، فى الوقت الحاضر تعيش بطريركيةالإسكندرية فقط، على هبات بعض اليونانيين، وتبرعات مجمعنا الكنسى الأقدس. لا تتلقى هذه الكنيسة، هنا أية هبات من اليونان، بل وفى روسيا أيضا، يتبرع لها أشخاص عاديون بمبالغ قليلة جدا من الأموال، أما إذا أرسلت أموال إلى مصر من روسيا، فإن قسمها الأكبر يذهب إلى دير سيناء الذى سيزداد يسرا، فى المستقبل القريب نظرا لكون حكومتنا، وهبت الدير العقارات التى تعود ملكا لها فى القفقاس، وتزمع على أن تعيدله أيضا العقارات المحتجزة فى بيسارابيا (*).

عدد الحجاج الروس، الذين يمرون عبر الإسكندرية، يتزايد عاما إثر عام؛ ولكن معظمهم يذهب إلى القدس، وقلائل جدا يذهبون إلى سيناء: ٨٧ شخصا عام ١٨٨٠م و ٦٠ شخصاً عام ١٨٨١م.

بالمناسبة نقول إن جميع هؤلاء الحجاج ينتمون إلى الطبقة غير الميسورة من السكان ولا يقدمون ربحا كبيرا، لا لبطريركية الإسكندرية ولا لدير سيناء الدعاية البروتستانية، والدعاية الكاثوليكية، سواء بسواء لا تحظيان بعدد كبير من الأنصار فى أوساط المسلمين، ولكنهما تعملان بنجاح وسط فقراء اليهود واليونانيين والأقباط الذين يلجئون إليهما بغرض المنفعة المادية.

البند ١٠ الجالية الروسية والوكلاء القنصليون

فى الإسكندرية: أ ـ الرعايا الروس ٥٢، ب ـ الأشخاص الموجودون تحت رعايتنا ٦٨، فى القاهرة: أ ـ الرعايا الروس ٣٦، ب ـ الأشخاص الموجودون، تحت رعايتنا ٣٢، فى سائر المدن والمحافظات: أ ـ الرعايا الروس ٢٠، وب ـ الأشخاص الموجودون، تحت رعايتنا ٣١. المجموع ٢٤٠ شخصا، باستثناء الذين يقطنون مصر مؤقتا.

(*) بصدد بيسارابيا كتب علي الهامش بالقلم الرصاص «غير صحيح»

دور التجارة الروسية الرئيسية: فى الإسكندرية أمبورغير وشركاه، التى يجرى حاليا تصفيتها بسبب وفاة أمبورغير؛ انطونيادس بسترس، عاشقيان، سياغ وكورداخى، فى القاهرة: غريغورى ديليا، بوغوس كارابيتوف وعلى بابا، فى السويس: كوستا؛ فى طنطا: كورداخى ابن الاخ.

الحجاج المسلمون، ذوو التبعية الروسية يمرون عبر مصر بأعداد كبيرة عادة ولكن فى العام الماضى، كان عددهم أقل بعض الشئ، لأنهم احتجزوا فى موانئ روسيا، وحتى فى القسطنطينية بسبب الكوليرا فى الحجاز.

فى الوقت الحاضر يوجد فى مصر الوكلاء الروس التاليون: قنصل واحد، ٤ نواب قنصل، و ٥ وكلاء قنصليين.

وفى العام الماضى استحداث منصب نائب قنصلية جديد فى الإسماعيلية ووكالة واحدة فى الزقازيق.

نشعر أيضا بضرورة استحدث وكالة فى كل من: ١ ـ جرجا لأجل السياح، ٢ ـ سواكن لأجل التجارة فى البحر الأحمر، ومع السودان، ٣ ـ مساوة لأجل الحصول على معلومات من أثيوبيا.

البند ١١ الأحداث

إن أكثر ما تميز به عام ١٨٨١م هو الحركة العسكرية فى البلاد: ففى فبراير (شباط)، ويوليو (تموز)، وأغسطس (آب)، وأخيرا سبتمبر (أيلول)، قامت القوات بما يشبه الانقلابات الحكومية، التى أسفرت عن استبدال وزراء الحربية فى فبراير وأغسطس، وأخيرا تغيير كل الوزارة فى سبتمبر، فى مطلع العام الجارى، استبدلت حكومة شريف باشا، بمساعدة القوات، بحكومة عسكرية بحتة، والآن ينبغى الأمل بأن الهدوء، سيستقر لمدة طويلة، إذا بقيت إنجلترا وفرنسا، بطبيعة الحال، هادئتين ولم تشاء غرس الأوضاع الأوروبية، فى مصر بالقوة، وارسال إدارييها، الفاشلين.

فى شهر ديسمبر (كانون الأول)، الماضى اجتمع مجلس النواب، الذى بدأ يظهر بعض الاستقلالية، بل وحتى معارضة سافرة للخديوى الموجود، تحت نفوذ إنجلترا وفرنسا، ولكل تدخل أجنبى فى الإدارة الداخلية للبلاد.

وبالإجمال فإن عقول العرب مهتاجة جدا، وهم يعملون على الالتفاف حول عرابى بيه، الذى يعتبرونه قائدا، لهم، رغبة منهم فى الحصول على دستور، وحريات ممكنة، ويعقدون عليه كل الآمال فى تحقيق أمنيتهم، بالتخلص من الوصاية الأجنبية إضافة إلى عرابى بيه يحظى محمود سامى باشا، العقيد طلبة، وبعض النواب، أيضا بثقة الأمة، والفلاحون؛ أى المزارعون، مهتاجون أيضا ولا يذعنون حتى لأوامر الرئاسة المحلية.

الخديوى محمد توفيق الأول، شخص لين القناة، يتحاشى شتى ضروب الانزعاج؛ وهو، بطبيعته، متعصب دينيا، ولكنه، إذ يتخوف من إنجلترا وفرنسا، اللتين أجلستاه على العرش، باجبارهما السلطان على تنحيته إسماعيل باشا، يوجد تحت نفوذها كليا، ولا يتصرف بطريقة معادية بعض الشىء للأوروبيين، إلا عندما يرغمه على ذلك بالقوة، الجيش وما يسمى بالحزب القومى. وهو، فى قرارة نفسه، إلى جانب هذين الأخيرتين، وحتى إذا تشكى أحيانا للممثلين الأجانب من اضطهاد القوميين، فإنما يفعل ذلك فقط، بهدف عدم حرمان نفسه من التأييد الأجنبى.

بالنسبة للباب العالى يحاول الخديوى الحفاظ،على أفضل العلاقات معه، وهو يبلغه بكل ما يحدث، فى البلاد ويطلب منه النصائح دائما. أما إذا كان الصدر الأعظم، لا يلبى طلبات الخديوى فى كل مرة فإن هذا، إدراكا منه لضعفه يتهم فى ذلك، إما إنجلترا وفرنسا، وإما الحزب القومى، والقوات التى ليس له نفوذ كاف عليها.

لا يتدخل توفيق باشا إطلاقا، فى الإدارة الداخلية، فهو يوقع دون ما اعتراض على المراسيم، التى تضعها الحكومة. الحكومة الحالية هى الرابعة منذ مغادرة إسماعيل باشا البلاد، وهى أكثر شعبية من الثلاث السابقة وإذا بقيت انجلترا

وفرنسا هادئتين، فهى ستبقى قائمة وتجلب فائدة للبلاد كما تدل كافة القرائن.

لم يعد للسلطان نفوذ كبير فى مصر، وإذا كانت ثمة علاقات للحزب القومى فإنما هى بالأحرى مع الحكومات التركية العاملة فى كل شمال أفريقيا؛ بهدف اثارة التعصب الدينى الإسلامى ضد الأوروبيين.

البند ١٢ الوكلاء الأجانب

من بين الوكلاء الأجانب، يضطلع بالدور الأول فى مصر، ابتداء من عام ١٨٧٧م، ممثلو انجلترا وفرنسا، فالوزير البريطانى المطلق الصلاحية، السيد ماليت موجود هنا، منذ بضعة أعوام، وهو حسن الاطلاع على الشرق ونفوذه، قوى للغاية بسبب العدد الهائل من الموظفين الانجليز الموجودين على رأس جميع المصالح الهامة، والذين ليسوا، فى واقع الأمر، سوى عملاء انجليز، فضلا عن ذلك، فإن المراقب العام الفرنسى، إذ يرى أنه لا يستطيع الاتكال، على أحد فى بلاده، بسبب التغيرات الدائمة للحكومة فى فرنسا، يقف على المكشوف، إلى جانب، إنجلترا، ويقوم بدور أداة فى يد السيد ماليت.

يتمتع المندوب البريطانى بنفوذ كبير، على الخديوى، لأن إنجلترا أجلسته على العرش، ولكن الصدر الأعظم ذاته قلما يؤبه به فى البلاد، وليس للسيد ماليت نفوذ على الوزراء الحاليين، لأنهم جميعا من الحزب القومى ومعادون للتدخل الانجلو فرنسى فى شؤون مصر الداخلية، ولكن يوجد بين الموظفين، كثيرا، من الأشخاص المخلصين للسيد ماليت، لأنه وظفهم فى مختلف الوزارات، فى عهد رياض باشا. ليس للمندوب البريطانى. أى وزن فى مجلس النواب أو وسط القوات الموجودة، على رأس الحركة بالمناسبة، منذ زمن غير بعيد غيرت إنجلترا نمط تصرفاتها فى مصر، وبدأ السيد ماليت يغازل الحزب القومى وعرابى بيه والقوات بوجه عام. ومنذ زمن بعيد يغازل ماليت الأقباط ولكن هؤلاء لا يثقون بالإنجليز. وتمارس إنجلترا تأثيرا عليهم، وعلى العرب المسلمين بواسطة المحافل الماسونية، التى يعمل عملاؤها على تجنيد أنصار عملاء لهم، فى البلاد واعدين

إياهم بحماية بريطانيا العظمى، ولكن بشرط أن يتعهدوا أثناء أداء اليمين بالعمل إلى جانبها دائما.

زميلى الفرنسى، السيد سينكيفيتش، رجل ذكى، وسبق له أن خدم فى الشرق، ولكن وضعه عسير جدا، لأسباب عديدة.

١ - إنه فى مصر منذ وقت غير بعيد.

وليست له هنا أية صلات؛

٢ - سبق للسيد بلينيير، بدسائسه، إن غير أربعة قناصل فرنسيين فى مصر، ولذا فمن الأصعب على السيد سينكيفيتش الوثوق به، ولكن ليس فى إمكانه فى الوقت نفسه ألا يكون على علاقات جيدة معه.

٣ - الموظفون الفرنسيون العاملون فى مصر، وكل الجالية الفرنسية هنا (باستثناء زمرة السيد بلينيير القليلة العدد، بالطبع)، يتأسفون كثيرا على سلفه، البارون رينغ، الذى «أى بلينيير»، استغل اشتراك البارون رينغ فى القوات المصرية، التى كانت توجد فى وضع، لا مخرج منه، وسرحها المراقبون لا بقصد التوفير الضرورى، بقدر ما بهدف رفع سعر الأرصدة المصرية، وتضرر بشكل خاص الضباط، الذين سدت فى وجههم سائر المناصب، بسبب تدفق الأجانب. إلى جميع مجالات الإدارة.

٤ - السيد سينكيفيتش من أصل بولندى، ولذا فإن الفرنسيين هنا لا يثقون به كليا.

وأخيرا :

٥ - الفرنسيون الموجودون فى الشرق، ينتمون لاحزاب سياسية مختلفة وأكثرهم هنا بونابرتيون وشرعيون معادون، بدرجة ما، للمندوبين الجمهوريين فى الخارج الوكيل الدبلوماسى الفرنسى يعمل سوية مع زميله الانجليزى طبقا لتعليماته، ولكنه لا يتمتع على الإطلاق بأهمية معادلة لأهمية زميله، وأظن أنه يعترف، فى قرارة نفسه كما اعترف سالفوه، بأن نمط تصرفات الحكومة الفرنسية الحالية يقود مباشرة إلى تحطيم السمعة الفرنسية فى الشرق قاطبة.

الوكيل الدبلوماسى الإيطالى السيد : مارتينو وصل إلى مصر فى نفس السنة معى (عام ١٨٦٦م). وإذ عاش هذه المدة الطويلة فى البلاد، اكتسب علاقات كثيرة للغاية، وهو يشاطرنى رأيى تماما، بصدد الشؤون المصرية وبوصفه عميدا للسلك الدبلوماسى، فهو يتمتع ببعض النفوذ، على الخديوى، وعلى الحكومة الحالية، التى يتعاطف هو معها. القنصل العام الألمانى البارون رأورما، مرتبك تماما، بينما شرع الوكيل الدبلوماسى النمساوى الجديد البارون كوسييك يلعب دورا ما؛ لأنه،باعتباره قد عمل حوالى ٢٠ عاما فى القسطنطينية، مطلع جيد على الشؤون الشرقية وأوصى به السلطان والوزير الأعظم إلى الخديوى بعبارات حارة، وهو غالبا ما يجتمع بى وينشد، على العموم، تأييدنا.

البند ١٣ نشاط القنصل

طبقا للتعليمات التى تلقيتها، أتتبع كل ما يجرى فى البلاد، ولكننى لا أتدخل فى إدارتها الداخلية، فى الشؤون العامة، أتضافر مع أندادى من ألمانيا والنمسا وإيطاليا. ليس فى وسعى أن أبقى على الحياد تماما، باعتبارى ممثلا لإحدى الدول الكبرى، بل وفى رأى العرب، الدولة الأولى بين الدول المسيحية، التى تحارب وحدها، من حين لآخر، ضد تركيا وتبقى منتصرة الشراكسةوالأتراك والأقباط واليونانيون (باستثناء الذين يفتشون هنا عن منافع مادية وليست شريفة دائما، يتملقون لى وأخيرا، الحزب القومى نفسه يكن لى ثقة كبيرة، لأنه يرى أننا لا نتدخل فى شؤونهم الداخلية، وإننا نرغب فقط فى الحفاظ، على علاقات صحيحة للحكومة المصرية مع الباب العالى دون أن نؤيد إطلاقا دسائس الأجانب.

البند ١٤ الخاتمة

إن كل ما لم يتسع المجال لذكرة فى هذا التقرير، سوف أرسله فى تقريرى عن عام ١٨٨٢م الجارى

التوقيع : إيفان ليكس

مـأمـورية العـقـيـد سـولوغـوب إلى مـصـر، عـام ١٨٨٢ أرشـيـف الدولة المركـز للتـاريخ العـسكرى مـوسـكو، الملف ٤٠١، الاضـبـارة ٤، المسـتند ٤١، عـام ١٨٨٢م. ايفاد عقيد الأركان العامة سولوغوب فى مأمورية إلى القسطنطينية.

تقرير إلى صاحب الجلالة من وزير الحربية ٥ يوليو ١٨٨٢

فى حال قيام إنجلترا وفرنسا، بشن عملياتهما الحربية فى مصر، يكون من المفيد للغاية أن يتواجد لدى قوات التجريدة العسكرية التابعة لهما، واحد من ضباطنا. يكون من الأنسب لو أسند هذا التكليف إلى عقيد الأركان العامة سولوغوب الموجود تحت تصرف سفيرنا فى القسطنطينية.

استعلام. بناء على الإرادة السامية لجلالتكم، الإمبراطورية بتاريخ ١٨ من فبراير (شباط) من العام الجارى أوفد العقيد سلوغوب فى مأمورية، إلى القسطنطينية لأجل جمع معلومات عن الجيش التركى، علما بأنه عنيت له المخصصات الإضافية التالية، بصرف النظر عن المحتوى العادى لهذه المأمورية:

١ ـ مبالغ تعويض مصاريفه اليومية قدرها ٣ ونصف امبريالات فى اليوم.

٢ ـ لأجل استئجار مترجمين: ٢٠ نصف امبريالا.

٣ ـ لأجل المصاريف التافهة والسرية: ٥٠ نصف امبريالا.

٤ ـ لأجل مصاريف العلف لستة خيول: روبل معدنى واحد، لكل حصان.

وإنى، إذ آخذ فى الحسبان أن المأمورية المذكورة، ستتطلب من جانب العقيد سولوغوب، بعض المصاريف الإضافية سواء على أمتعة السفر أم على التمثيل، وسط القوات الأجنبية، فإنه لمن المفروض فى حال إذا ما تحققت هذه المأمورية فعلا، تخصيص ١٠٠ نصف امبريال للعقيد سولوغوب، للاستعداد، والسفر ذهابا وايابا، بالإضافة إلى زيادة مبلغ تعويض مصروفه اليومى أثناء أقامته فى مصر، من ٣ إلى ٥ نصف امبريالات يوميا.

التماس. من المستحب لو تكرم جلالتكم الإمبراطورية، بايفاد عقيد الأركان العامة سولوغوب فى مأمورية إلى مصر بالشروط الآنفة الذكر فى حال اندلاع عمليات برية فيها.

(التوقيع غير مقرؤ)

ملاحظة. على هامش التقرير، إلى صاحب الجلالة كتب:

صدرت الإرادة السامية بالموافقة فى ٧ يوليو. (١٢)

رسالة إلى صاحب المعالى وزير الخارجية غيرس ٨ من يوليو ١٨٨٢م

سيدى الكريم نيقولاى كارلوفيتش،

فى حال شن الدول الغربية، عمليات حربية فى مصر يعتبر من الضرورى أن يتواجد لدى قوات التجريدة العسكرية التابعة لها واحد، ما من ضباطنا، ووفقا لتقريرى بهذا الصدد إلى صاحب الجلالة، تكرم سيادة الامبراطور فى ٦ من يوليو الحالى بإصدار أمر بإسناد هذا التكليف إلى العقيد سولوغوب الموجود، تحت تصرف أركاننا العامة فى القسطنطينية وإنى، إذ أبلغ معاليكم نسخة عن الأمر السامى، أتشرف، بأن ألتمس منكم، إصدار أوامر سواء بصدد إبلاغ سفارتنا فى القسطنطينية، بأسرع ما يمكن عن مأمورية العقيد سولوغوب القادمة. أم بصدد منح العقيد المذكور، إذا سمحت له الظروف فعلا بالسفر، المبالغ النقدية اللازمة بسلفة من الأموال العائدة لسفارتنا، بحيث يصار فيما بعد، إلى تحويل هذه المبالغ إلى رصيد وزارة الخارجية بموجب وثيقة متداولة.

وتفضلوا، سيدى الكريم، بقبول فائق احترامى وولائى.

التوقيع:

بيوتر فانوفسكى

إلى سيادة العقيد سلوغوب ٨ من يوليو

سيدى الكريم فاسيلى اوستينوفيتش، فى حال احتمال قيام إنجلترا وفرنسا، بشن عمليات حربية فى مصر، أو فتح عمليات ميدانية، ضد السكان المحليين يعتبر أمرا مفيدا، أن يتواجد لدى فيلق التجريدة واحد من ضباطنا، يكون بإمكانه هنا، على الأرض، الاطلاع بدقة على الحالة القتالية لهذه القوات ومزاياها.

إن هذا التكليف أسند إليكم، بناء على الإرادة السامية نظرا لكون هذه المأمورية ستتطلب بعض المصاريف الإضافية من جانبكم، على أمتعة السفر، وعلى التمثيل وسط القوات الأجنبية، تكرم جلالة الامبراطور بإعطاء الأمر التالى: فى حال ما إذا تحققت هذه المأمورية، فعلا تخصيص مئة نصف امبريال لكم، لأجل الاستعداد والسفر ذهابا وإيابا وزيادة مبلغ تعويض المصروف اليومى، أثناء الإقامة فى مصر من ٣ إلى ٥ نصف امبريالات.

تم إبلاغ وزير الخارجية بهذه الإرادة السامية، مع الطلب بإصدار أمر بهذا الشأن إلى السفارة، وبمنحكم سلفة من الأموال الضرورية، إذا دعت الحاجة، من عداد المبالغ المخصصة للسفارة.

ليس فى المستطاع إعطاؤكم من هنا تعليمات صحيحة بالنسبة لموعد سفركم إلى مصر، ففى ظل الوضع الراهن للأمور سوف تعلمون أنتم فى القسطنطينية، على الأرجح، قبلنا نحن عن التطورات اللاحقة لهذه المسألة، وعن موعد حدوث الحملة الأوروبية الغربية، أى متى ستحل تلك اللحظة المشار إليها فى الإرادة السامية.

فى رأيى أنه ينبغى لكم أن تناقشوا، مع ممثلنا فى القسطنطينية تفاصيل تنفيذ هذه المهمة وموعد السفر، إذا بدا ضروريا على العموم.

وتفضلوا بقبول فائق احترامى

(التوقيع غير مقروء)

رسالة إلى فانوفسكى من

غيرس بيترهوف

٢٨ من يوليو ١٨٨٢

السيد بيوتو سيميونوفيتش الفائق الاحترام، فى تقريرى أمس إلى جلالة الامبراطور، تشرفت بالإعراب عن الرغبة، فى أن يجرى تكليف العقيد سولوغوب مؤقتا بإدارة قنصليتنا العامة، فى مصر، وذلك لمنحه إمكانية تتبع عمليات الانجليز الحربية بصورة أنسب، تكرم صاحب الجلالة لدى ذلك بإصدار أمر لى، بأن أتكلم معكم حول هذا الموضوع.

يبدو لى أن فكرة جلالته محقة تماما، من وجهة النظر السياسية لأننا، بإيفادنا ضابطنا إلى الأركان البريطانية كما هو مفروض نبدو وكأننا نعلن عن استحساننا أو حتى عن تعاطفنا، مع نمط تصرفات الانجليز فى المسألة المصرية، الأمر الذى من شأنه أن يتعارض مع نظرتنا، لذا فإننى من جهتى، أؤيد كليا، الاجراء المقترح، وأنا على استعداد لتكليف العقيد، بالإدارة المؤقتة لقنصليتنا العامة. إذا صدرت موافقة من جانبكم.

على كل حال أنا فى انتظار جوابكم، حاولوا إبلاغى اياه، فى أقرب وقت ممكن، لكى أتمكن من اتخاذ التدابير اللازمة فى الوقت المناسب.

مع خالص الاحترام والولاء، غيرس

برقية شيفرية

القسطنطينية، السفارة الروسية، العقيد سولوغوب.

بناء على الإرادة السامية، أسندت إليكم الإدارة المؤقتة للقنصلية العامة، فى مصر؛ ينبغى عليكم، لدى تنفيذ هذه المهمة، الامتثال للتعليمات التى سوف تتلقونها، من وزارة الخارجية.

التوقيع: وزير الحربية ٣٠ من يوليو ١٨٨٢م.

صاحب المعالى غيرس ٣٠ من يوليو ١٨٨٢م

سيدى الكريم نيقولاى كارلوفيتش، جوابا على رسالتكم بتاريخ ٢٨ من يوليو (تموز) أتشرف بإبلاغكم بأننى موافق تماما، على تصوراتكم السامية حول إسناد إدارة قنصليتنا العامة فى مصر، بصورة موقتة إلى عقيد الأركان العامة سولوغوب.

بناء على ذلك سوف ترسل برقية عاجلة إلى العقيد سولوغوب لكى يتمثل لجميع التعليمات، التى ستتفضلون بإبلاغه إياها من خلال سفارتنا فى القسطنطينية.

بيوتر فانوفسكى

سعادة السيد فانوفسكى ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢

سيدى الكريم بيوتر سيميونوفيتش، أتشرف بأن أرفق طيه لإبلاغ سعادتكم، بلاغ عميدالوكالة الدبلوماسية فى القاهرة العقيد سولوغوب رقم واحد، مع خريطتين ملحقتين به.

مع فائق الاحترام والولاء

الموظف فى وزارة الخارجية

فلانغالى

نسخة عن البلاغ رقم واحد للعقيد سولوغوب

الاسماعيلية فى ٢٦ اغسطس (٧ سبتمبر ١٨٨٢) (*)

انطلقت من القسطنطينية، يوم الثلاثاء المصادف ١٧ من (٢٩) أغسطس فوصلت الإسكندرية، يوم الأحد المصادف ٢٢ (٣)، وفى ٢٤ (٥) توجهت على متن هيريكليكا(١٣) عبر بورسعيد إلى الإسماعيلية.

هذه الرسالة سأبعثها، مع هيريكليكا، التى ستعود فى الحال إلى محطتها فى الإسكندرية.

(*) التاريخ الموضوع بين قوسين يشير إلي التقويم القديم ـ المترجم

نظرا لمكوثى القصير الأمد فى الإسكندرية ولسفرى بدون توقف تقريبا، إلى الإسماعيلية فإننى استطيع، حتى موعد انطلاق هيريكليكا، أن أقدم لكم، فى هذه الأسطر، لمحة عاجلة فقط عن انطباعاتى فى مصر.

لدى نزولى، لأول مرة إلى الشاطئ، فى الإسكندرية لتقديم نفسى، إلى الخديوى وزيارة وزرائه افلحت فى إنجاز هذه الشكليات بسرعة فائقة، بفضل رعاية السيد ليكس ولكون، الوزراء يجتمعون دائم تقريبا، فى رأس التين، مقر الخديوى، بسبب عدم وجود وزارات وأعمال.

الاستقبال الرسمى عند الخديوى دام حوالى ربع ساعة، علما بأن سيادته تكلم وحده فقط تقريبا موجها الكلام بالتناوب تارة إلى السيد ليكس، وتارة إلى أنا.

كان موضوع الحديث، فى الغالب، الحركة الراهنة فى البلد، رغب سيادته فى أن يقول لنا، إن السبب الوحيد للانتفاضة من جانب العرب هو التعصب الاسلامى، الذى يستطيع وحده فقط، فى رأى الخديوى، أن يفسر التضحيات، التى يعانى منها الفلاحون الآن بمثابة دليل على أن العرب مهتاجون ضد جميع المسيحيين على السواء، وليس فقط ضد الانجليز (والفرنسيين)، لفت سيادته انتباهنا إلى أن أنصار عرابى باشا، الذين أسروا كأنهم يعرفون جيداً اية قوات تقف ضدهم: البعض كانوا يعرفون أنهم يقارعون الإنجليز، وآخرون أكدوا خلاف ذلك، ولكن وُجد أيضا أشخاص، كانوا يعتقدون أنهم يقاتلون ضد الموسكوف. إلا أن جميع المعلومات الجانبية، تحمل مع ذلك على الافتراض بوجود مستوى وعى أكثر ارتفاعا، فى معسكر العرابيين فضلا عن أنهم يملكو ن معطيات عسكرية عن الإنجليز أكثر بكثير، مما يملك هؤلاء عن العرابيين وبين عرابى باشا، بمثال إطلاق سراح البحارة النمساويين الاسرى من سفينة ناوتيلوس، إنه يرغب فى استمالة عطف الدول الأوروبية المحايدة، ويستفاد من أقوال النمساويين المذكورين الذين كانوا أسرى عنده أنه أعلن لهم عن ذلك شفهيا.

نزولا عند رغبة السيد ليكس زودنى الخديوى، بامتنان شديد، برسالة توصية إلى سلطان باشا ـ كبير افراد البعثة الخديوية التابعة لمقر القيادة العليا البريطانية.

يثير وزراء الخديوى انطباعا طيبا للغاية فى النفوس بمظهرهم الخارجى وبعلائم ثقافتهم الأوروبية، إلا أنه يوجد بينهم عربى واحد، أو عربيان فقط، أما الباقون فأتراك وأرمن.

الخديوى ووزراؤه، سواء بسواء، يبدون وكأنهم يقفون كليا، خارج تلك الامة، التى عينوا لأجل إدارتها نظرا للنقص فى معايناتى يجب على ألا أتناول بالتفصيل جميع المسائل المتعلقة، بأساليب وضع هذا الرأس على ذلك البدن الذى يواصل العمل حاليا بصورة منفصلة.

أما إذا سمحتم لى، بأن أعرب هنا، عن الانطباع ، الذى تركه الخديوى، فى نفسى، فينبغى على أن أقول: إن أكبر احتمال، بالنسبة له، هو أن يكون دائما أداة فقط، فى أيدى الغير.

فى مدينة الإسكندرية كثير من الأنقاض إلا أنه تجرى إزالتها شيئا فشيئا، ولم تعد تعوق الان، حركة المرور فى الشوارع.

فى البيوت التى بقيت سالمة، والتى يوجد بينها، عدد قليل من المبانى الجيدة، للغاية وتسنت لى مشاهدتها، أثناء زياراتى للقناصل، يعيش بدون مشقة ما بين ٤٠ و ٥٠ ألف شخص، بمن فيهم، أيضا عدد غير كبير من العرب: فقراء أو مستخدمون. ليس ثمة نقص ملحوظ، فى الماء، والأمراض ايضا غير موجودة على مايظهر إن إجراءات السلطات البريطانية، بخصوص تقييد عدد من العائدين، إلى المدينة، لا تتسم بطابع معين صارم، وتطبق بطريقة عرضية: فقد وصل أشخاص كثيرون على متن سفن مختلفة، وسمح لجميعهم بدخول المدينة، ولكن فى يوم الاثنين الماضى، اضطرت باخرة الشركة المصرية الخديوية، التى جلبت حوالى ٤٠٠ شخص مسافر، حسبما تقول الإشاعات لإعادتهم على صاحبها.

السلطات العسكرية البريطانية، قلما تضايق حياة المدينة،والحراس والخفراء الموزعون فى أنحاء المدينة، يبدأون عملهم بعد الساعة ١٠ مساء، فقط عندما لا يسمح بالخروج إلى الشارع إلا بصحبة أو بأذن خاص، باستثناء هؤلاء العساكر، المرتدين بزات حمراء، قذرة جدا، لا تلاحظ فى المدينة، تقريبا أية دلائل أخرى، لوجود الفصيلة البريطانية.

ومرد ذلك إلى قلة عدد الحامية (٤ ـ ٥ آلاف نفر، من المشاة ورجال المدفعية) التى بقيت فى الإسكندرية بقيادة اللواء ايفيلين وود (قائد الفرقة الرابعة). قسم كبير منهم، يرابط فى معسكر بضاحية المدينة وعلى الطريق فى الرملة، وفى مكان غير بعيد، عن شاطىء البحر (على بعد حوالى ٥ فرستات (*) من المدينة، حيث عزز موقع الانجليز، الذى يعترض السبيل من (أبو قير) ويقصف مشارف كفر الدوار، بتحصينات ميدانية (طابية كبيرة واحدة، مسلحة بمدفعين ثقيلين مأخوذين، من بطارية الساحل وببضعة مدافع ميدانية، على مقربة من الطابية توجد، على ما يظهر، خنادق ميدانية أيضا). بما أنه لم يتوفر لى الوقت ولا الدافع، للتعرف على السلطات العسكرية الانجليزية فى الإسكندرية، فإن الموقع المذكور، كان غير مرئى لى إلا من مسافة بعيدة، من سطح أقرب بيت فى الموقع البريطانى الثانى، الذى يزوره سكان المدينة بصورة اعتيادية، والواقع عند البساتين الشرقية الأخيرة على الترعة المحمودية.

هذا الموقع الثانى تشغله فصيلة غير كبيرة من ٣٥٠ نفرا، ترابط فى خنادق، وخلف أسوار البساتين، التى حولوها إلى خط دفاعى، وبما أنه يقع على نتؤ خلف الجناح الايمن للموقع الأول، فهو يتمم الدفاع عن المدينة، من الجهة الشرقية البقعة الواقعة فى اتجاه الخصم تنداح، أمام الموقع الأول فى هيئة كثبان رملية، قسم منها مبنى، بيوت الضواحى وقصر الرملة، وتمتد بمحاذاة ساحل البحر. من هذه الكثبان الساحلية، يتفرع خط من الهضاب الرملية أيضا، ولكن تتخللها نخلات نادرة، وأشجار أخرى، فتشكل برزخا مرتفع التضاريس، يمتد

(*) الفرست تعادل ١٠٦٠ مترا ـ المترجم.

بين بحيرتى (أبو قير ومريوط)، و على هذا البرزخ، الذى زودته الطبيعة بمرتفع واضح المعالم، أقام العرب ثلاث - أربع تحصينات مسلحة ببضعة مدافع، موضوعة خلف مزاغل، وقد أوضحوا لى أن هذه التحصينات تشكل الموقع الأمامى الرئيسى لكفر الدوار.

إن هجوم هذا الموقع، بقدر ما يمكن الحكم على ذلك من مسافة حوالى ٧ فرستات لبقعة مستوية تماما، تمتد من الموقع البريطانى الثانى، حتى سفوح منحدرات الموقع العربى الأمامى، من شأنه أن يكلف عددا غير قليل من الضحايا، لدى وجود نيران دفاعية كافية.

تحمى المدينة من الجنوب بحيرة مريوط، ومن الغرب تسد المنفذ عبر البرزخ الضيق، بين هذا الأخير، وشاطىء البحر حامية بريطانية صغيرة، ترابط فى فورت ميكس، الأجنحة الساحلية للمواقع البريطانية الطرفية معززة بنيران سفينتين مدرعتين، واحدة تقف على مقربة من ميكس، والثانية على مقربة من الرملة فعند هذه الأخيرة تقف سفينة مينوتاور التى توجه ليلا ضوءا كهربائيا، وبضع قنابل إلى المواقع العربية. وترد هذه الأخيرة بنيران مدافعها. أثناء النهار، نادرا جدا ما يجرى إطلاق النار، ولكنه يحدث كل ليلة من كل بد، ولدى ميكس، حسب الاشاعات، يحدث حتى إطلاق نيران البنادق، أثناء وجودى فى الإسكندرية، توجه بضعة اشخاص نهارا، فى زورق للاستحمام قرب طابية ميكس، فتعرضوا لإطلاق نيران من بنادق البدو، وحتى أن أحدهم أصيب بجراح.

عند المكلأ أمام المدينة تقف، عادة، اثنتان - ثلاث سفن مدرعة بريطانية أخرى.

يزيد فى صعوبة هجوم العرب على الإسكندرية إضافة إلى المواقع الأمامية التى يحتلها الإنجليز حاليا، أنه يوجد عند أطراف المدينة، وحتى داخل جزء منها، متراس ترابى محصن ذو ثلاث طابيات منفصلة يحرس مداخل هذه المواقع خفراء انجليز، بينما سد الانجليز الفتحا ت فى المتاريس بأكياس ترابية وحتى لو افترضنا أن استخدم العرب بحيرة مريوط لشن هجوم، وهو أمر أقل

توقعا بالنسبة للانجليز، على الجزء الجنوبى من المدينة، فإن الاستيلاء التام عليها شبه مستحيل تقريبا، لأنه لا توجد لدى العرب وسائل أكثر لأجل القضاء من الساحل على نيران السفن المدرعة.

يقال: إنه عثر فى أحد جوامع المدينة، على مستودع للأسلحة (٣٠٠ ـ ٤٠٠ بندقية وعصا) المخصصة للسخط الجديد، فى صفوف أولئك العرب، الذين بقوا فى المدينة يتواطئون مع العرابيين.

ولو أن العرب اتخذوا منذ البداية الاجراءات اللازمة للدفاع الفعلى عن البطاريات الساحلية للمدينة، لما كانوا اضطروا، على الارجح، للجوء إلى مثل هذه الوسائل الضعيفة.

لقد أتيح لى الوقت لزيارة طابية، عدا الساحلية فقط، التى كانت، كما يقال، أكثر ما تضرر من القصف الانجليزى.

تتألف متاريس الطابية، من ردوم رملية مكسوة منحدراتها بجدران، من الحجر الكلسى الطرى المحلى، وفى جزء الطابية داخل المدينة، يوجد بضع منشآت من الحجر عينه، تستخدم للمستودعات ولسكن أفراد الحامية يوجد داخل الطابية مستودع للبارود، فجرته إحدى القنابل الانجليزية.

يتألف سلاح الطابية من ٤ مدافع خفيفة، (من عيار ٨ر٥ سم تقريبا) محمولة على عربات عالية من حديد المرجل، ذات إطارات متحركة وضاغطات هواء ومصدات من المطاط، وبضعة مدافع ملساء من الحديد الصب (من عيار ٩ر٥ سم تقريبا) من نوعين: ثقيل وخفيف، و ٣ ـ ٤ مدافع مورتر ملساء، متوسطة العيار من الحديد الصب، مدافع الحديد الصب الملساء منصوبة على عربات عالية، ذات قيود وعزقات حديدية ليست لهذه المدافع أية آليات رفع أخرى، سوى الأوتاد والمساند الخشبية السيئة الصنع، ولم أستطع أن ألاحظ بالكاد، أية واحدة من عربات المدافع هذه عليه طلاء ولا تشحيما؛ جزء كبير من خشبها متهدر، بل وحتى متعفن بينما أصيبت القيود والعزقات بصدأ شديد. إحدي القنابل الإنجليزية، التى سقطت قرب قاعدة مدفع أملس من الحديد الصب،

قلبت هذا الجهاز كله على جنبه، علما بأن العربة تحطمت بل وحتى انشطرت، رغم أنه لم تكن للمدفع وصلات بالقاعدة وهو يقبع بصورة منفصلة عن العربة. فى عربات المدافع الحديدية كثير من الصدأ ولا أثر يذكر للتشحيم فى الأجزاء المتحركة الأمر الذى لا يبعث على الظن فى عملها السريع والصحيح.

من الضرورى الإشارة، فضلا عما ذكرت، إلى أن جميع أجزاء المدافع وعرباتها، حسب الظروف المحلية، قد يطمرها الرمل الناعم، لم يكن يوجد فى كل طابية عدا أية تجهيزات لتأمين الحامية والمدفعيين، لا خندق ولا كيس رمل، ولا سرداب للذخائر المدفعية. الانجليز هدموا الواجهة اليمنى للطابية بقنبلة وهذه القنبلة، التى أوقعت المدفع الأملس من الحديدالصب على جنبه، قطعت كوز العزقة، وتركت آثارا على قيود المدفع المقلوب الرابض، بعد المدفع القائم إلى جانب المدفع المرمى كانت القنابل الإنجليزية مستلقية كوما، ولكن الكثير منها لم ينفجر. وفى عداد القنابل المنفجرة لاحظت وجود اثنتين بدون حمامات، رغم أننى قلما صادفت شظايا من قنابل كهذه، كان ينبغى لانفجار مستودع البارود، الذى أحدث كثيرا من الشظايا الحجرية وغيرها، إن يمارس تأثيرا شديدا على الحامية. جدران المبانى الحجرية اخترقتها القنابل بسهولة، ولكن المتاريس تضررت قليلا؛ فلم أشاهد على هذه الأخيرة سوى انفجار موفق واحد لقنبلة أحدثت فجوة واسعة، ولكنها غير عميقة (أعيد ردمها).

السفن المدرعة الانجليزية، أصيبت بأضرار طفيفة جدا فقط فى الإسكندرية لا توجد تقريبا معلومات عن مسرح العمليات فى الإسماعيلية، فالبرقيات تصل عبر لندن، بينما الأخبار الخاصة لا تتعدى دائرة الاشاعات والتخمينات، ولكننى صادفت لدى وصولى قناعة عامة، بأن أمور الإنجليز تسير بصورة سيئة.

طابيات (أبوقير)، التى شاهدتها من مكان بعيد فى البحر، والتى يشغلها العرابيون، تملك ٣٠ ـ ٤٠ مدفعا قصفت المكلأ من الجهة الغربية، ولكن نمط منشآتها لا يختلف، كما يظهر عن منشآت الإسكندرية لأن أجسام المدافع ظاهرة للغاية تحت قمة المتاريس.

على بعد ٧ فرستات إلى الغرب، من بور سعيد، توجد تحصينة قصوى أخرى من التحصينات العائدة للعرابيين على الساحل البحرى. جميع المنارات، الموجودة على طول الشريط الساحلى العائد، لهم، بقيت سالمة وهم يضيئونها بدقة تامة.

فى مكلأ بورسعيد تقف ٦ سفن مدرعة إنجليزية كبيرة. راسية لسد مدخل القناة.

تقول الشائعات إنه أثناء وصول القوات التركية إلى (سودا) قامت هذه السفن بخفر السواحل، حتى المكلأ المذكور، وكان لديها أمر بإرجاع كل سفينة حربية تركية تصادفها، وبأن تفرقها فى الحال إذا أبدت مقاومة.

عدد القوات البريطانية فى بورسعيد قليل جدًا، وهى تشغل موقعا محصنا إلى الغرب من المدينة. وفى الآونة الأخيرة اشترى الإنجليز هناك ما يسمى «المستودع الهولندى» بـ ٨٥ ألف جنيه استرلينى. وسوف يجرى تكييف مبانيه الكبيرة لمستشفى عسكرى وثكنة.

على طول القناة من بورسعيد، حتى سيرابيوم ترابط مراكز غير كبيرة من البحارة والمشاة البحريين، مع مدفعين خفيفين فى أهم المراكز. وبما أن الدول الغربية تخلت عن مشروع الشرطة البحرية فى القناة فإن هذه القناة توجد عمليا فى أيدى الإنجليز، منذ ذلك اليوم، الذى قرروا فيه نقل قاعدة عملياتهم من الإسكندرية إلى الإسماعيلية. الحركة التجارية لا تزال فى أيدى الشركة الدولية، ولم يسمع بعد عن أية مضايقات، لها من جانب السلطات البريطانية. كل ما يتعلق بفترة ما قبل احتلال الإنجليز للقناة، تم إبلاغه إلى القيادة من جانب قبطان السفينة الشراعية بمحرك «زابياكا»[١٤] الراسية فى بورسعيد.

لا وجود لأمراض وبائية فى القناة (حسب تصريح السيد برون» نائب القنصل الروسى فى بورسعيد).

بعد وصولى فقط إلى الإسماعيلية، فى ١٦ يوليو شاهدت أخيرا، علائم راسخة لوجود الفيلق العامل: عدد كبير من سفن النقل فى المكلأ، لم يكن قد تم

بعد، إنزال جميع القوات منها، وفى الساحل مستودعات، وعدد كبير من البغال والأحصنة والعربات، لمختلف الأعمال (يشرف على الانتهاء مد خط سكة حديد إلى المرسى لأجل الشحن، ويجرى نصب قناطر حديدية عبر ترعة المياه العذبة وغيرها).

وفى الحال اختلط مع الإنجليز أفراد فرق المشاة، والخيالة الهنود أيضا، الذين أنزلوا مؤخرا: أنهم أشخاص قصيرو القامة، ونحيفو الأجسام للغاية، وذوو بشرة قاتمة جدا، شبه سوداء، وأحيانا بدون ثوب تقريبا، ولكنهم جميعا يعتمرون عمائم ضخمة.

إن هؤلاء الأشخاص يشكلون تعبيرا واضحا للفكرة، التى ظهرت مؤخرا نسبيا، والقائلة بزيادة جبروت انجلترا فى قارة أوروبا عن طريق جمع وسائل الجزئين الرئيسيين كليهما، للامبراطورية فى الهند والمملكة البريطانية فى أوروبا.

يبدو أن القوات الإنجليزية ستتجمع عما قريب، فى قوى كافية، لأجل مهاجمة موقع التل الكبير. وقد أبلغونى فى مقر القيادة العامة بأن الجنرال وولسلاى يزمع زيارة مواقعه الأمامية يوم السبت، أو الأحد القادم. فى هذه الحالة سوف أرافقه أنا أيضا، فى هذه الزيارة.

أول زيارة قمت بها فى الإسماعيلية، كانت عند الأميرال سايمور بصفته صاحب أعلى رتبة بين العسكريين المحليين. ولكن ليست له علاقة، بالعمليات الجارية حاليا، وهو موجود هنا، على ما يبدو، فقط بسبب ملاءمة الموقع فى الوسط بين الفصائل الرئيسية للأسطول فى السويس وفى بورسعيد وضمن قاعدة عمليات الفيلق العامل.

لم يستقبلنى الجنرال وولسلاى اليوم ـ تاريخ ٢٦ من أغسطس (آب) بسبب مرضه (أوضحوا لى أنه منحرف الصحة منذ يومين)؛ سوف أتعرف عليه غدا قائد الأركان الجنرال أيدى وبعض الأفراد الآخرين فى مقر القيادة العامة، الذين قد تعرفت عليهم، عاملونى معاملة لطيفة للغاية، لحد الآن لا أزال الوحيد من الضباط الأجانب فى الفصيلة، ولكن من المتوقع وصول خمسة آخرين. الانتقال

من الإسكندرية إلى الإسماعيلية، محفوف بالمصاعب التى لم يكن ليتسنى لى التغلب عليها، بدون مساعدة سفينة «هيريكليكا» التى لو لم ألجأ إليها لكنت وصلت فى وقت متأخر جدا.

الوسائل المادية للإنجليز، تصعق بمقاييسها. وعمليات المراقبة المحتملة لوسائل النقل، الراسية فى المكلأ فى الإسماعيلية، سوف يقوم بها قبطان «هيريكليكا» ويرسلها إلى القيادة. والنفقات المالية يجب أن تكون باهظة أيضا، فالعمال العاديون يتقاضون هنا من المفوضية مبلغا، يصل إلى ١٠ شلنات (١٢,٥ فرنكا) فى اليوم.

فى الوقت الحاضر، لا أستطيع بعد أن أحدد مدى امكانية إرسال أنباء متكررة، إلى معاليكم بالرسائل أو برقيا. ففى كل مكان تتعالى الشكاوى على الأوامر التضييقية، للجنزال وولسلاى بصدد جميع أنواع المراسلات: الصحفية وحتى الرسمية.

وأوضحوا لى فى مقر القيادة العامة إن هذه الاجراءات استوجبتها الكثرة غير الاعتيادية للجواسيس، الذين كان الإنجليز محاطين بهم فى الإسكندرية، وكانوا على اتصال مباشر مع القسطنطينية. فضلا عن ذلك؛ فإن هذه الإجراءات تشكل أيضا، حسب تقييمات خاصة، انعكاسا للمزايا الشخصية، للجنرال وولسلاى.

على كل حال أخذت معى الشيفرة الفرنسية، رقم ٣٤٨ والشيفرة الحربية الروسية.

بلاغ العقيد سولوغوب:

القاهرة فى ١٣ (٢٨) سبتمبر ١٨٨٢، رقم ٤.

الاستيلاء على التل الكبير، قد تم تأكيده من جميع الأطراف؛ والعمال الأحرار الوافرو العدد، الذين جمعوا من كل مكان فى الإسماعيلية، قد دفعت المفوضية الإنجليزية أجورهم جزئيا وسرحتهم. الرحلة بالقطار تمت بدون عائق، حتى القاهرة نفسها، ولكن بما إن «قومندان القاعدة» (قائد مؤخرة فيلق العمليات)

أبلغنى أنه لا يستطيع شحن أحصنتى، بسبب عدم وجود عربات لهذا الغرض، فقد فضلت السفر إلى القاهرة ممتطيا جوادا. فانطلقت فى ٥ (١٧) وأجتزت بلبيس، ووصلت القاهرة فى ٨ (٢٠) على أربع دفعات، يبلغ طول هذا الطريق حوالى ١٤٠ فرستا، ويمكن اجتيازه بـ ٢٨ ساعة فقط، مشيا على الأقدام.

الطريق فى كل مكان تقريبا، تمتد إلى جانب ترعة المياة العذبة، وحتى التل الكبير فى كل مكان أيضا تقريبا إلى جانب سكة الحديد. إن الطرق البرية، فى قسمها الأكبر، هى عبارة عن منشأ اصطناعية، متراس، يشكل فى الوقت نفسه سدا للترعة أيضا. وهذا الشريط يتألف كليا تقريبا من رمال وعسة تغوص فيها قائمة الحصان. أحيانا، نصف قدم وتعوق السير كثيرا. والسير على دواليب ممكن سواء، فى الطريق أم إلى جانبيها أحيانا كثيرة، ولكنه يتعب الخيول كثيرا. وبفضل وجود الترعة، وكون الطريق على مقربة من التل الكبير، تمر مباشرة تقريبا فى شريط منفصل بين الأرض المفلوحة فى الدلتا وبين الصحراء، بفضل ذلك لا يمكن للمرء أن يصادف أية صعوبات فى اهتداء سواء السبيل..

أمام القصاصين، ينبسط سهل فسيح، يمتد فى الغالب نحو الشمال والغرب. فى ٦ من سبتمبر (ايلول)، على مقربة من هذه البلدة، كان يوجد معسكر كبير (٢ ـ ٣ كتائب وكثير من وسائط النقل)، وعلى مقربة من هويس قتام على ضفاف الترعة مباشرة (وكذلك على مقربة من محوطة ومحزمة) كان يوجد مستودع للتبن، المضغوط وللبرسيم المضغوط، المخلوط بالشوفان وللعلف الحبوبى، فى أكياس وصناديق مع علب صفيح من اللحم المعلب. هذه المؤن، كانت ترسل إلى المستودعات المذكورة فى صنادل تسحبها قوارب بخارية كانت تواصل السير دائما، رغم تزايد انخفاض منسوب المياه فى الترعة. ويعود الفضل الكبير ـ على الأرجح ـ فى هذا الاتصال المائى إلى الإنجليز الذين لم يكونوا راضين اطلاقا، عن عمل قطاع سكة الحديد بين الإسماعيلية والقصاصين، هذا القطاع، الذى كانت توجد عليه طوال زمن العمليات الحربية ثلاث قاطرات فقط: واحدة محلية، استولوا عليها، وكانت عتيقة وقلما تصلح للعمل، واثنتان غير كبيرتى

المقاييس أبدا (إنتاج عام ١٨٨٢) جلبوهما من إنجلترا. وكل واحدة منهما تسحب أكثر من ٦ ـ ٧ عربات، مع عربة ماء ووقود. قومندان القاعدة فى الإسماعيلية الجنرال إيبار قال لى ـ بصراحة ـ إنه لم يكن يوجد لديهم ضباط ملمون بقضايا الصيانة.

سهل القصاصين يقترب من البلدة، ومحطة التل الكبير لسكة الحديد، على بعد ثلاث فرستات تقريبا، إلى الشرق وينتهى عند المسافة المذكورة بسفح من المرتفعات الرملية الخفيفة الانحدار، التى تمتد قممها، نحو الشمال الشرقى للبلدة. على امتداد هذا السفح ينبسط، الخط الأول للتحصينات العربية، ووراءه قرب القمم استطعت. افتراض وجود الخط الثانى من تحصينات متفرقة.

الأسلوب الذى اختاره الجنرال وولسلاى من أجل مهاجمة موقع التل الكبير، يتطابق تماما مع تصور الإنجليز الأولى عن ضآلة المقاومة، التى يمكن للعرب أن يبدوها بوجههم، فى مصر، فإن الإنجليز، استنادا إلى أعمال فرقة الأمير حسن فى الحرب الروسية ـ التركية الأخيرة، وإلى معاينات محلية أخرى، لم يكونوا يتصورون الحملة المصرية أكثر من نزهة عسكرية، فى القاهرة. وأثناء فترة التوقف قرب التل الكبير اختلفت الآراء، بعض الشىء فى الجيش. ولكن الجنرال وولسلاى بقى على إيمانه بالضآلة المعنوية لخصمه، وعلى هذا الأساس بالذات بنى كل حساب النجاح. ورغم وجود عدد كبير جدا نسبيا من وسائط النقل (*)، لم يستطع الإنجليز الابتعاد عن الترعة. وكان يشكل عقبة فى وجه ذلك، أولا: النقص فى عدد القوات، ثانياً: ضرورة جلب المياه بكميات كبيرة، تتطلب زيادة وسائط النقل كثيرا. وهذان السببان كلاهما، كان يدفعان الإنجليز بالقدر نفسه إلى توجيه ضربة جبهية، إلى الموقع العربى.

لو أن هذا الموقع، كان محصنا فعلا، كما كان يقال عنه، بحيث يكون معدا للمقاومة المتينة، لكان من شأن تعميق الخنادق مقدار ٢ ـ ٣ أقدام أن يحمى

(*) يستفاد من افادات الإنجليز أنه يوجد عندهم لدى القوات ٢,٥ ـ ٣ آلاف بغل نقل وعدد ما من الجمال، بالإضافة إلى قافلة فوج من عربات بعجلتين صنعت خصيصا لأجل الحملة ولكنها تبدت ثقيلة مع ذلك.

متراس الخنادق من إمكانية التصعيدالاعتيادى للعمليات، ولكان من شأن الحفر والأسلاك الشائكة وما شابه من الحوافز فى الأمام ألا تسمح للإنجليز بالتقدم دون عائق فى ظلمة الصباح. مسافة ٥٠٠ ياردة (حوالى ٦٥٠ خطوة) إلى أمام التحصينات مباشرة. وقبل الفجر بـ ٢ ـ ٣ ساعات أزال العرب مراكزهم الأمامية، وهذا أيضا كان معروفا للإنجليز، الذين أطلقوا إشاعة متعمدة عن عزمهم على القيام بالهجوم ليلا.

إن انتصار الجنرال وولسلاى، سيزيد على الأرجح من ترسيخ ذلك السمعة التى كسبها لنفسه فى الجيش البريطانى. وكانوا يذكرونه عادة بقولهم: لقد كانت السعادة دائما إلى جانبه حتى الآن.

إن الإنجليز سيثير فى نفوسهم الرضى، واقع أن حملتهم فى مصر لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام (حملة نابليون الأول دامت من ١ إلى ٢٣ يوليو (تموز) ١٧٩٨.

كثيرون هنا يدركون جيدا تلك الصدفة التى كان يتوقف عليها نجاح الإنجليز، ويعربون عن هذا الرأى فى شكل تصريح، مفاده أنه لو كان عرابى أكثر خبرة، قيد شعرة لما كان فى استطاعة الإنجليز فى يوم من الأيام قمع الحركة الشعبية، التى كان يقودها. وفى رأى الإنجليز أنفسهم، (الذى أعربوا عنه لأعضاء الحكومة المصرية) أنه كان من المستبعد عليهم الاستيلاء على الإسكندرية، لو أن الحماية الساحلية لهذه المدينة كانت منظمة بدرجة ما.

وكان الاستيلاء على التل الكبير أمرا مناسبا جدا للإنجليز، لأن المياة فى الترعة بدأت تنخفض بسرعة (بمعدل ١٤سم فى اليوم)، وكانوا يتخوفون، من أنها ستصبح عما قريب غير صالحة أبدا للشرب. والأقاويل، التى كانت منتشرة بين الإنجليز والزاعمة: أن العرب سدوا مجرى الترعة على امتداد سبعة كيلومترات، تبين أنها لا تقوم على أساس. ولم أستطع أنا ملاحظة آثار سوى سد واحد عرضه ٢ ـ ٣ ساجينات (*)، قائم على بعد نصف فرستا تقريبا، خلف خط تحصينات التل الكبير. وعلى طول امتداد الترعة، من الإسماعيلية وحتى القاهرة، غالبا ما كان يمكن مشاهدة جيفة طافية فى الماء.

(*)الساجين يعادل متراً و١٣ سم . المترجم .

فى ٦ (١٨) سبتمبر (إيلول)، وعلى الرغم من الاجراءات التى اتخذت، لأجل إزالة الموتى، كان لا يزال يوجد فى موقع العرب، إلى الأمام منه بعض الشيء وعلى فرستين خلفه، كثير من الجيف، وكذلك عدد غير قليل من الجثث العربية. وفى عداد هذه الأخيرة، لم أشاهد جثة واحدة، فى بزة عسكرية: فقد كانت جميعها فى ثياب فلاحية عادية.

كان المعسكر الإنجليزى قرب قرية التل الكبير، يتألف من لوائين مع مدفعية، ووسائط نقل ومستشفيات. لقد كان هذا المعسكر، شأنه شأن الأشياء الأخرى التى شاهدتها. قائما بدون انتظام يذكر، فهذه القوات كانت تنتظر الانتقال إلى القاهرة للقيام باستعراض، ولكن سرعان ما سحبت من التل الكبير، لأنه اخذت تظهر بين أفرادها بسبب نتانة الجثث حالات متكررة من الإصابة بالإسهال والقيء.

اتجهت من التل الكبير رأسا، عبر بلبيس فى طريق سير الخيالة الإنجليز إلى القاهرة، تاركا جانبا الطريق إلى الزقازيق، التى كانت تسير عليها وسائط النقل والمشاة.

الطريق إلى بلبيس تمتد طوال الوقت على سد الترعة، فى البدء على ضفتها اليمنى، ومن ثم على ضفتها اليسرى. الترعة هنا تنقسم إلى بضعة فروع جانبية، باتجاه الدلتا، المنطقة على جانبى الطريق مستوية كليا تقريبا: عن اليمين أرض مفلوحة على الغالب، وعن اليسار أرض صحراوية على الغالب.

أصبحنا نصادف خلف التل الكبير عددا غير قليل من السكان العرب، ولكن بلدة بلبيس كانت الأولى بين تلك الأماكن التى لم يهجرها السكان، وترتب علينا التوقف فيها. بعد بضع دقائق من نزولى فى أحد الأفنية، قرب السوق أحاط بى جمهور من الناس كانت تتردد فيه على الدوام كلمتا: «موسكوفى»، «روسى»، على أثر ذلك ظهر أمامى وفد ما دعانى إلى زيارة أحد البيوت، فرفضت الدعوة، بعدها جاءنى رجال من الشرطة ببزات فألقوا علىّ التحية، وأخيرا شرح لى مترجمان عربيان أن السكان مسرورون جدا بمشاهدة شخص روسى وطرحا علىّ

أسئلة كثيرة، كان أهمها التالى: هل صحيح أن الروس يريدون الاستيلاء على لندن، وألا توجد معى رسائل الحكومة الروسية، التى تحظر على الإنجليز احتلال مصر، والتى يجب أن ترسلها من كل بد؟ كما سمعوا بذلك. واضطررت لإجابتهم على السؤال الأول؟ أن الروس فى وئام مع الإنجليز، وعلى السؤال الثانى: بأننى مجرد سائح عادى ذاهب إلى القاهرة لرؤية كيف تسير الأمور هناك. وأوضح لى هؤلاء العرب أنفسهم أن عرابى باشا رفع العلم الروسى قبل أن يستسلم، وأخذ فيما بعد يؤكد على محبته للروس وحقده على الإنجليز.

فى قرية مشتول، التى اضطررت للتوقف فيها فيما بعد لقضاء ليلتى، تكرر الشىء نفسه تقريبا. فى البدء ظل العرب مدة طويلة يشككون فى أننى «إنجليزيا» يتظاهر بأنه « موسكوفى»، ولكن على أثر شتى تأكيدات مترجمى، الذى كانوا يستدعونه جانبا، أخذوا يعبرون لى عن محبتهم للروس وكرههم للإنجليز، وجلبوا لى تمرا وفواكه أخرى، ووضعوا بأنفسهم، أثناء الليل، حوالى عشرة حراس حول مخيمى، (لم تكن ثمة من حاجة تذكر لذلك).

وفى الصباح بدأت التأكيدات عينها، وكان الشيخ أول من تطوع لمرافقتى، ومن جديد أرسل مأكولات مختلفة، ورفض الحراس «البقشيش»، الذى عرضته عليهم، متذرعين بأنهم مسرورون بتقديم خدمة «للموسكوفى».

من المعلومات، التى جمعتها بعد وصولى، إلى القاهرة بصدد استسلام عرابى باشا (الذى جرى، على الغالب، بمحض إرادته، وبمساعدة رئيس شرطة القاهرة)، لم أستطع استشفاف أية اعتبارات، يمكن أن تكون لها صلة بالشائعة الشعبية حول العلم الروسى، الذى رفع أثناء الاستسلام، إلا نه تسنى لى أن أعلم بهذا الصدد، أن سكان مدينة القاهرة أيضا أكدوا، أثناء ظهور الخيالة الإنجليز عند ثكنات العباسية (على بعد بضع فرستات من المدينة)، أنه لا ينبغى السماح للإنجليز بالدخول، لأن الروس سيهجمون على أثرهم كى يطردوهم.

لم أكن ميالا، لتصديق هذه الأهمية الشديدة للاسم الروسى فى أوساط السكان المصريين فى الوقت الحاضر، لأن وقائع الاستقبال، الذى حظيت به فى بلبيس، وفى مشتول كسائح روسى عادى، بالإضافة إلى وقائع أخرى، لم تقنعنى

بذلك حتى النهاية. إن محبة العرب العاجزين معنويا وماديا من المستبعد حاليا أن تتحول إلى شىء، ولكنها بحد ذاتها تبين اتساع حدود نفوذ روسيا فى العالم الإسلامى وخطر السياسة الروسية ـ الإسلامية النشيطة على إنجلترا.

فى هذه اللحظة، التى أكتب فيها هذه الأسطر تجرى مراسيم دخول الخديوى إلى القاهرة. والقوات البريطانية، المصطفة من محطة القطارات حتى القصر، تعلن بالطلقات والموسيقا عن دور الدولة الإسلامية، الذى اتخذته انجلترا على عاتقها. إن هذا الدور يدر عليها فوائد تجارية كبيرة، أما بالنسبة لروسيا، بالنسبة لنفوذها النشيط، فلا يوجد تصرفها، حتى الآن سوى فائدة الموقع الجغرافى وبعض العواطف المعنوية.

إن اعتدال جميع أساليب، ومطالب الإنجليز فى مصر، قد يكون موجها نحو موازنة العواطف المعنوية، الآنفة الذكر فى الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط. لم أفلح بعد فى إقامة أية علاقات هنا، ولذا فإن المعلومات الموجودة فى حوزتى، حول نوايا الإنجليز، لايمكن اعتبارها سوى معلومات اشتراطية للغاية؛ ولكنها جميعا، تشير إلى الاعتدال الشديد فى المطالب. فالسلاح، الذى تم الاستيلاء عليه من العرابيين، تجرى إعادته إلى الحكومة المصرية، وقادة التمرد المعتقلون (حوالى ٥٠ شخصا)، موجودون فى أيدى هذه الحكومة، وسوف يحاكمون فى جلسات علنية؛ وتقول الشائعات؛ إن نصف مبلغ التكاليف الحربية فقط سوف يطلب من مصر دفعه. وقسم من احتياطيات المؤن الإنجليزية، يجرى تسليمه إلى الحكومة المصرية بأسعار متدنية.

يوم الجمعة المصادف ١٧ (٢٩) سبتمبر (إيلول) من المفترض، إجراء عرض كبير للقوات المتمركزة، فى القاهرة (٣ أفواج خيالة، وأكثر من ١٢ كتيبة مشاة)، وبعد هذا، حسبما تقول: الشائعات، ينبغى على الجنرال وولسلاى السفر إلى إنجلترا، ولأجل احتلال مصر كما تقول الشائعات عينها، ستبقى هنا فرقة من ١٠ آلاف نفر. القوات المعادة، سوف تستقل سفنا فى الإسكندرية، وإذا لم تكن سفينة «هيريكليكا»، هناك عند هذا الموعد، فقد يكون من المفيد، لو يبقى أثناء الركوب فيها ضابط بحرى، يتوجب عليه تقديم تقرير عنها.

سيبقى فى قوات الاحتلال الإنجليزى، على الأرجح، قسم كبير من القوات الهندية، وتأمل الحكومة المصرية، على ما يبدو، باحتلال الصعيد بهذه القوات. ثم تسريح الجيش المصرى بمرسوم الخديوى الصادر فى ٧ (١٩) سبتمبر (إيلول)، وسيدخل الجيش، على الأرجح، لدى إعادة تنظيمه الجديدة المقبلة، عدد وافر من العناصرالإنجليزية.

لاتوجد هنا فى القاهرة بعد إشاعات عن النبأ، الذى أبلغ معاليكم به، السيد فيلليه من الإسكندرية حول عزم انجلترا على ضمان استقلال مصر عن تركيا.

بلاغ العقيد سولوغوب

الاسكندرية فى ٣٠ سبتمبر (١٢ أكتوبر) ١٨٨٢.

كان ينبغى لدخول الخديوى العاصمة بصورة مهيبة فى ١٣ (٢٥) من سبتمبر، أن يشكل من كل بد دليلا شعبيا عاما، لاستتباب النظام فى البلاد. فقد استمرت طوال ثلاث ليال متواصلة الزينة، الضوئية الباهظة، الثمن فى القاهرة، وفى مدن المحافظات، وإطلاق الأسهم النارية، والموسيقا، والترفيهات الشعبية، وفى القاهرة أضيئت جميع بيوت الباشوات العرابيين المعتقلين، بأنوار قد تكون أكثر زخرفة، من إضاءة المبانى الأخرى. وقصارى القول؛ فإن جميع المظاهر الخارجية لإعادة سلطة الخديوى إلى نصابها روعيت تماما، وحتى بصورة زائدة عن اللزوم.

على الرغم من ذلك من المستبعد القول: إن المشاعر الداخلية للمشاركين فى تلك التيارات المعادية، التى جرى الاحتفال فى هذه الأيام باندماجها، فى كل واحد، قد تمت تلبيتها بصورة كافية.

قبل معركة التل الكبير، كان يوجد تحت سلطة الخديوى ما لا يزيد عن ٧٠ ألف شخص من السكان (فى الإسكندرية ٤٠ ـ ٥٠ ألفا، فى بورسعيد ١٠ ـ ١٢ ألفا، فى الإسماعيلية ٢ ـ ٣ آلاف؛ السويس كانت شبه مهجورة)، بما فى ذلك أكثر من النصف أجانب. بفضل نجاح السلاح الأجنبى افتتح فجأة أمام الخديوى منفذ إلى الملايين الخمسة الآخرين من السكان (إذا حسبنا الدلتا فقط) أو الـ ١٧ مليونا من سكان مصر كلها.

لقد كان الخديوى يتريث فى السفر إلى الشعب خلف الحراب الإنجليزية مباشرة، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر، بينما كان الإنجليز يستعجلون للتفاخر بثمار انتصارهم وإظهار عظمة نفوذهم. وقلما من كان يشك، فى أن معظم المشاعر الشعبية، تجاهه كانت تتأرجح فقط فى الحدود بين اللامبالاة والرياء، وأن الخديوى كان يريد، على الأقل، أن يكسب فى بداية الأمر فضل توفير جزء من النفقات الباهظة المقرونة بالاحتفال الرسمى باستقباله، وكاد يعرب عن الرغبة فى حصر الاحتفالات فى يوم واحد فقط، ولكنه توجب عليه أن يرضخ فى الحال أمام حجة أن مهلة أقل من ثلاثة أيام، لن تكون كافية لإقناع الشعب بالعودة الفعلية إلى سلطته، فضلا عن أن إلغاء الأمر المتخذ سابقا، من شأنه أن يخلق فى أوساط الشعب شائعات جديدة، ليست فى مصلحته.

حسب الأقاويل الشائعة هنا حتى الآن ما زال، الشعب فى أماكن كثيرة، يؤمن فى تصورات مختلفة فريدة فى نوعها عن الأحداث الحالية فى البلاد. ففى هذه التصورات غير المألوفة، كثيرا ما يعتبر عرابى قديسا، بينما يعتبر الخديوى شخصا ارتضخ أخيرا لمعتقداته، أو أسيرا للإنجليز. وقد تصلح مثالا مميزا للمخيلة الشرقية الحادثة، التى وقعت فى مدينة زفتى: فى اليوم الثالث من الاحتفالات أجبرت شائعة ظهور قوات روسية السكان على أطفاء الأنوار التى أضيئت تكريما للخديوى.

أرفق طيه مقطعا من «اجبشين غازيت»، عن هذه الحادثة. وتأكيدا على شيوع اعتقاد العرب بحتمية ظهور قوات روسية فى مؤخرة القوات الإنجليزية يمكننى الاستشهاد أيضا برواية سمعتها بنفسى، وهى تقول: إن العرب (قرب أبو قير أو رشيد)، أثناء العمليات الحربية، اندفعوا، لاستقبال ٤٠ سفينة روسية كان ينبغى لها أن تصل. وعلى متنها ٣٠٠ ألف محارب.

فى اليوم التالى لوصوله استقبل الخديوى فى ١٤ (٢٦) من سبتمبر وجهاء الشعب، (حوالى ١٠ آلاف شخص، بمعدل اثنين عن كل قرية من قرى الدلتا)، وذلك أيضا بهدف خلق انطباع واضح عن عودته. إلا إنه رفض استقبال بعض الشيوخ الأغنياء، الذين أيدوا التمرد أكثر من اللزوم.

بعد ذلك قدمت للخديوى نفسه هيئة أركان القائد الأعلى البريطانى، التى زيد عدد أفرادها، خصيصا لذلك، إلى ١٠٢ من الضباط. الجنرال وولسلاى نفسه لم يحضر بسبب انحراف فى صحته. وبعد الأركان استقبل الخديوى القناصل.

فى ١٦ (٢٨) من سبتمبر، الساعة ٤ بعد الظهر، وقع فى محطة القطارات بالمدينة انفجار شديد، شعر من جرائه بهزة فى البيوت. ومن ثم، قبل الساعة ٩ مساء، تواصلت القعقعة من انفجار الخراطيش والقذائف مع انفجارين شديدين جديدين، فى برهتين منفصلتين. هذان الانفجاران فى مستودع الذخائر الانجليزية والمصرية جزئيا سببا فى اندلاع حريق قضى تقريبا - بالإضافة إلى المستودع المذكور - على جميع المخازن المجاورة الحاوية على احتياطيات العلف الإنجليزى (حوالى وجبة شهرية) وعلى البزات العسكرية وغيرها. وتواصلت انفجارات القذائف بصورة متفرقة فى اليوم التالى.

ويستفاد من معطيات الصحافة، أن الحريق دمر ١٠٨ عربات قطار، و أن الانفجارات صرعت حوالى خمسة أشخاص، وجرحت حوالى ٢٠ شخصا، قسم منهم إنجليزى وقسم عرب.

لم يتم كشف أسباب الحوادث، ولم يجر دحض تلميحات الجرائد، إلى أن الحريق قام به عرابيون، وعلى كل حال يمكن غزو الحريق إلى انعدام التنظيم الصحيح. لمصلحة سكك الحديد فى ظل الجيش الإنجليزى.

بعد محاولة مواكبة الخديوى فى الإسكندرية من جانب فصائل شرف من الخيالة الهنود، صارت تجرى تأكيدات فى أوساط الشعب تقول: إن الخديوى موجود أسيرا لدى الإنجليز.

ومنذ هذا الوقت لم يعد الإنجليز يلجئون إلى أمثال هذه الاجراءات الظاهرية لفرض الوصاية، على الخديوى، بل على العكس، فقد أخذت تنقلاته تنظم بحيث لا تتعرض حريته للشك.

ففى الاستعراض الكبير للقوات الانجليزية، الذى جرى فى ١٨ (٣٠) من سبتمبر فى الساحة أمام قصر عابدين حضر الخديوى، الذى وصل برفقة حرس

خاص به، فى منصة خاصة، مزخرفة بالسجاد والنباتات، وكان يجلس فيها، عن يمينه، وزراء ووجهاء، ورجال دين ومدنيون، وعن يساره، الأميرال سايمون، وبعض الضباط الإنجليز: العقيدان ويلسون وستيورات والقبطان تشارمسايد، والقناصل العسكريون الإنجليز فى آسيا الصغرى، الذين أصبحوا هنا الآن، فى عهدة ماليت (القنصل البريطانى فى مصر) ويتابعون سير محاكمة عرابى وأعوانه.

كان الجنرال وولسلاى يجلس مباشرة أمام المقعد الذى يشغله الخديوى وحاول جهده، على ما يبدو، وهو يوجه إليه الكلام فى بداية ونهاية العرض، عدم الاقتصاد فى إظهار علائم الاحترام الظاهرية.

فى سجلات الجيش الإنجليزى يتسم العرض المذكور بأهمية أول احتفال عسكرى جرى فيه توحيد القوات الهندية مع الحرس ومع القوات على العموم؛ وحتى أنه تسرى بين الضباط إشاعات تقول إنه: احتفاء بهذا الحدث سوف يرسل جزء من القوات الهندية إلى إنجلترا للمثول أمام الأمبراطورة.

فى ٢٠ من سبتمبر (٢ من أكتوبر) أقام الخديوى مأدبة غداء لجميع الجنرالات الإنجليز، وبعد الغداء أضيئت حديقة قصر الجزيرة بأنوار فاخرة، وفتحت قاعاته أما جميع الضباط الإنجليز، على العموم والقناصل وبعض الشخصيات الأخرى التى دعيت إلى الأمسية البهيجة، المقامة على شرف الجيش الانجليزى.

فى ٢٣ من سبتمبر (٥ من أكتوبر) جرى، بعد تأخر بسبب الفتن الأخيرة، العيدالدينى لإرسال سجادة وهدايا أخرى إلى مكة. وقامت القوات الإنجليزية، التى اصطفت على جوانب ميدان محمد على، وعوضا عن القوات المصرية فى القيام بهذا الواجب، بتأدية التحية لموكب رجال الدين المسلمين.

لم يتحقق الافتراض، حول سفر الجنرال وولسلاى إلى انجلترا بعد العرض مباشرة: فهو سيبقى هنا فترة من الزمن حتى البت فى مسائل رئيسية، تتعلق بتركيب البلاد السياسى، ويسود الاعتقاد بأن قيادة قوات الاحتلال، سوف تسند إلى الجنرال أليسون.

بدأت إعادة قسم من القوات الإنجليزية اعتبارا من يوم الأربعاء المصادف ٢٢ من سبتمبر؛ وحتى يوم السبت المصادف ٢٥ من سبتمبر تم ارسال ٦ وسائط نقل (٤ من الإسكندرية و٢ من الإسماعيلية) مع ٢٨٠٠ شخصًا و١٢٠٠ حصانًا و٣٦ مدفعا، بالإضافة إلى القوات الهندية، التى أرسلت جميعها عبر السويس. وقد سبق لى أن تشرفت بابلاغ معاليكم بذلك فى برقيتين: بتاريخى ٢٢ و٢٥ من سبتمبر. وحتى الوقت الحاضر تم ارسال أكثر من ٤٠ واسطة نقل من الإسكندرية، بما فى ذلك نقل فى مستشفيات متنقلة عسكرية أكثر من ألف شخص مريض، تجمعوا حتى الآونة الأخيرة (مصابين بالرمد والزحار والحمى).

المعلومات بصدد القوات الهندية كانت فى بادئ الأمر متناقضة، وكانت تشكل على الأرجح انعكاسا لبعض تأرجحات الحكومة البريطانية حول هذه المسألة.

فى البدء قيل إن كل الفرقة الهندية ستبقى ضمن قوات الاحتلال؛ بعد ذلك، علمت من الإنجليز أن القوات الهندية ستعاد، بينما كان الوزراء المصريون والجرائد المصرية ـ فى الوقت نفسه ـ يفترضون أن نصف هذه القوات سيبقى، وتبغى الإشارة لدى ذلك إلى أنه جرت فى انجلترا قبل الحملة، مناقشة مشروع القيام بها بقوات هندية فقط؛ وأحد الأسباب الرئيسية لعدم إقرار هذا المشروع، كان يكمن فى فكرة استحالة الوثوق كليا، بانضباط هذه القوات. فالخيالة الهنود، الذين كان الإنجليز راضين جدا عن أعمالهم، أثاروا على أنفسهم، الملامة؛ بسبب عدم امتثالهم غير مرة للأوامر. المعطاة لهم بابداء الرأفة برامى السلاح والفارين.

ولكن الانضباط الداخلى فى القوات الإنجليزية أيضا، حسب رأى الكثيرين هنا. لا يخلو من النقص.

بعد التسريح الرسمى للجيش المصرى، الذى فر فى مختلف الاتجاهات، ولم يعد له من وجود منذ معركة التل الكبير، لم يتم القيام بعد بأى شيء، على ما يبدو، لأجل تشكيل جيش جديد فى الآونة الأخيرة نشرت جريدة «الأهرام» إشاعات عن قرار بتشكيل جيش قوامه عشرة آلاف نفر من أفراد، لم يخدموا فى

الجيش السابق ولم يشتركوا، فى حركة عرابى. الشرط الأخير يستحيل، على ما يظهر، اعتباره شرطا سهل التنفيذ، وسيصار إلى اختيار الضباط، حسب المصدر نفسه، من الأتراك والشراكسة فقط. ومن السهل على المرء أن يرى مسبقا، أنه أياً كان التنظيم الذى سيضفى عمليا على الجيش المصرى القادم فلن تكون لهذا الجيش أهمية فعلية، وذلك على أقل تقدير فى غضون زمن طويل جدا.

بعد وصولى مباشرة إلى القاهرة أوضح لى وزير الداخلية رياض فكرة، تقول: إنه لا يلزم لمصر إطلاقا، نظرا لموقعها الجغرافى، امتلاك جيش دائم؛ وعلى الرغم من أنه لم يجر إصدار أية أوامر رسمية بهذا الشأن، فقد علمت من الخديوى أنه يجرى بصورة ناشطة جدا، تنظيم حراسة محلية، أو جندرمة، للاضطلاع بالخدمة البوليسية، وأن هذا العمل سينتهى قريبا على الأرجح.

وقد أدخلت إلى هذه الجندرمة عناصر أجنبية كثيرة - مسيحيون وأتراك وعدد من الأفراد المحليين، غير أن جميعهم بحاجة لامتحان مديد من أجل تحديد درجة تلك الفائدة، التى يمكن أن يقدموها لتثبيت الحكومة الحالية فى البلاد.

على الرغم من أن الأوروبيين، يعودون بأعداد كبيرة. فإن الاقتناع السائد، الذى يجرى الإعراب عنه بصراحة فى جرائد الإسكندرية، يشهد على أن الخديوى لا يزال باقيا، فى السلطة، بفضل وجود القوات الإنجليزية فقط؛ ورغم أنه لم تقع فى الأيام الأخيرة اضطرابات كبيرة؛ فإن كثيرا من الدلائل تشير بلاشك إلى أن السخط الصامت والهيجان فى أوساط العرب، لايزالان الآن بنفس تلك القوة تقريبا التى كانا يوجدان فيها قبل الأحداث الماضية؛ فإن هزيمة التل الكبير، على ما يبدو، لم تمارس تأثيرا تخويفيا شديدا.

تم حتى الآن فى الإسكندرية، شنق حوالى عشرة عرب من عداد، الذين حرضوا على ضرب المسيحيين هنا، فى وقت سابق. القوات الأنجليزية، التى حضرت عمليات الإعدام هذه استبدلت الآن بسرية خاصة من المصريين شكلت فى الإسكندرية خصيصا لذلك.

التحقيق مع عرابى وأعوانه الرئيسيين يجرى حتى الآن بصورة سرية: المعلومات الوحيدة التى وصلت لى عنه تفيد بأن جميع المتهمين، يجيبون على جميع الأسئلة بالإنكار وينفون اشتراكهم، حيثما أمكن. المحاكمة ستكون علنية. وقال لى الخديوى! إنه يرغب فى اضفاء مغزى تخويفى على معاقبة عرابى، وأعوانه الرئيسيين، وأن كثيرا من الوزراء أبلغوه أنهم سيستقيلون إذا لم يفعل ذلك.

نبذة من بلاغ العقيد سولوغوب

١٣ أكتوبر ١٨٨٢، رقم ٩

إن مشاريع الحكومة البريطانية، كما هو معلوم حتى الآن، بصدد نظام مصر السياسى الاجتماعى، تمس المسائل التالية:

١ - تشكيل الجيش وفق الأسس التى اقترحها بيكير، ولم تتم الموافقة عليها كليا، حتى الآن. إن فكرة بيكير حول هذه المسألة، تعتبر سرا لدى الإنجليز ولن تنشر حاليا، لهذا السبب، فى الجرائد الإنجليزية، وربما ستظهر بعد بضعة أيام فى الجرائد الألمانية.

وقد أرفقت طيه نسخة من هذه المذكرة. الاعتراض الرئيسى عليها هنا، يكمن فى مقدار المعاش المعين للضباط الإنجليز (تسع ميزانية الجيش).

٢ - إلغاء الرقابة الأنجلو - فرنسية واستبدالها بمستشار انجليزى واحد.

٣ - بسط اختصاص المحاكم المختلطة على الدعاوى الجنائية، وفيما بعد على جميع الأشخاص، سواء أكانوا أوروبيين أم من السكان الأصليين.

إلى صاحب المعالى فانوفسكى

١٨ نوفمبر ١٨٨٢

سيدى الكريم بيوتر سيميونوفيتش

وجه عميدالسفارة فى القسطنطينية طلبا، إلى وزارة الخارجية يستفسر فيه عما سيفعله العقيد سولوغوب، لدى وصول وكيلنا الدبلوماسى إلى مصر. عطفا على ذلك أتشرف طائعا بأن أطلب من معاليكم ابلاغى بالجواب، الذى ينبغى إرساله إلى سفارتنا فى القسطنطينية. أرى واجبا على أن أضيف إلى ذلك أنه. نظرا للمسألة التى أثارتها الحكومة التركية بصدد عقد اللجنة الدولية حديثا من أجل رسم حدود تشيرنوغوريا، فأن حضور العقيد سولوغوب فى القسطنطينية من شأنه أن يكون مفيدا جدا لسفارتنا.

مع فائق الاحترام والولاء

فلانغالى

إلى صاحب المعالى فلانغالى

٢٠ نوفمبر ١٨٨٢

سيدى الكريم الكسندر يغوروفيتش، عطفا على رسالتكم بتاريخ ١٨ من نوفمبر الجارى أتشرف بالطلب من معاليكم ابلاغ عميد السفارة فى القسطنطينية، بأن عودة العقيد سولوغوب إلى هناك، نظرا لانتهاء ما كلف به فى مصر، تتطابق تماما مع افتراضاتى؛ ولهذا سوف ترسل طيه إليه تعليمات بهذا الشأن[١٥].

مع فائق الاحترام والولاء

بيوتر فانوفسكى

نشاط المهاجرين السياسيين الروس فى مصر

أرشيف سياسة روسيا الخارجية. الأرشيف السياسى، الأضبارة ٤٨٢، المستند ٢٤٠٧، عــــامى ١٩٠٢ - ١٩٠٣[١٦]. الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية الروسية والقنصلية العامة فى مصر، رقم ٧٤.

القاهرة، ٢٢ إبريل ١٩٠٢

إلى هارتفيغ من كوياندر:

سيدى الكريم نيقولاى هنريخوفيتش.

فى ٢٠ من إبريل (نيسان) الجارى، حضر إلى السفارة فى الإسكندرية بحار الطراد، «الأميرال كورنيلوف» ليف كايرنسكى، وأعلن أنه بقى فى هذه المدينة؛ لأن أثناء انطلاق السفينة أسقوه خمرا حتى السكر، وطلب إرساله إلى الوطن. وسوف نرسله حتما، بالسفينة القادمة.

أعلن كايرنسكى لدى ذلك، أنه يوجد فى مطعم «سيباستوبول» الذى يملكه المصرى التبعية، يوسف ميخائيلوفيتش يوزيفوفيتش، والذى غالبا ما يؤمه بحارة السفن الروسية نظرا لقربه من الميناء، مستودع من المطبوعات الأجنبية العائدة للفوضويين، باللغة الروسية، والتى توزع من هنا فى أرجاء روسيا، من خلال البحارة المذكورين، ويستفاد من أقواله أن عاملى التوقيد تريتياكوف ويوشكوف

ينقلان على متن الباخرة «الملكة أولغا»، التى أبحرت من الإسكندرية فى تاريخ ١٩ من الجارى، مناشير عائدة للفوضويين يستلمها فى أوديسا البحار نيكيفور بوبكوف(*) الذى يتولى توزيعها فيما بعد.

بما أن السفينة المذكورة، ينبغى أن تصل إلى أوديسا فى ٤ من مايو (آيار) القادم فقط، بسبب الحجر الصحى، فإنى سأمتنع لمدة ما عن إبلاغ المعلومات المذكورة أعلاه، إلى حكومتكم برقيا، وذلك ريثما قد يتسنى لى جمع معلومات أكثر دقة حول هذه القضية؛ الأمر الذى قلما أعقد الأمل عليه، لأن الطلب من الحكومة المحلية بالحصول على معلومات كهذه لا طائل تحته نظرا للحماية السافرة التى يقدمها الإنجليز إلى جماعة فتيان الترك الذين يقومون هنا بدعاية سياسية ضد السلطان. وهم لا يتورعون، بالطبع، عن بسط هذه الحماية على رجالنا الثوريين أيضا.

برقية سرية من كوياندر

القاهرة، ٢٩ من إبريل ١٩٠٢م على متن الباخرة «الملكة أولغا»، التى وصلت فى ٥ من مايو (آيار) إلى أوديسا، ينقل عاملا التوقيد تريتياكوف ويوشكوف مطبوعات ثورية يستلمها، فى أوديسا بحار الجمعية الروسية نيكيفور بوبكوف. بحار الطراد «الأميرال كورنيلوف» ليف كايرنسكى مبلغ هذه المعلومات، الذى بقى عرضا فى الإسكندرية، تم إرساله يوم الجمعة الماضى إلى أوديسا.

١٩٠٢/٩/٩. مرسلة فى ١٠ من سبتمبر ١٩٠٢تحت رقم ٨٩٦

إلى لوبوخين مدير دائرة الشرطة:

سيدى الكريم الكسى الكسندروفيتش:

فضلا عن رسالة السيد مدير الدائرة الأولى فى وزارة الخارجية على اسم زفوليانسكى بتاريخ ٢٩ من إبريل (نيسان) من العام الجارى تحت رقم ٣٣٣،

(*) هذا الاسم يرد فى شتى النصوص بكتابات مختلفة لأنه مقتبس من مختلف المصادر الأرشيفية وربما جرى ذلك قصدا بغرض التمويه - المترجم

اتشرف بأن أضيف إلى ذلك نسخا، عن البلاغين، اللذين تلقيناهما لتونا: بلاغ عميد الوكالة الدبلوماسية الروسية فى مصر بتاريخ ١٢ من سبتمبر (إيلول) تحت رقم ١٦٤، وبلاغ القنصل الروسى فى الإسكندرية بتاريخ ١١ من سبتمبر (إيلول) تحت رقم ٦٨٥، بشأن قضية نقل منشورات ذات مضمون ثورى إلى روسيا من الميناء المذكور،، وكذلك بضع نسخ لمطبوعات ثورية باللغة الروسية عثر عليها على متن الباخرة «بورجوم» التى وصلت مؤخرا إلى فيودوسيا من مصر.

أرى من واجبى، أن أضيف إلى ذلك أنه، نزولا عند الرغبة المعرب عنها لمدير دائرتكم بتاريخ ٧ من سبتمبر الجارى تحت رقم ٦٢٦١، طلبت من القنصل الروسى فى الإسكندرية برقيا، إرسال معلومات مفصلة، عن شخصية عامل التوقيد للباخرة «بورجوم» المتخفى فلاديمير فيريسودسكى المشتبه بتوزيع المطبوعات الثورية المذكورة. فور حصولى على برقية جوابية من مستشار البلاط ايفانوف، سوف أبلغكم فى الحال عن محتوى ذلك بصورة اضافية.

رقم ١٦٤، الإسكندرية، ١٢ من سبتمبر ١٩٠٢

إلى صاحب المعالى هارتفيغ:

حضرة السيد نيقولاى هنريخوفيتش:

يشرفنى بأن أرفق طيه إلى معاليكم، نسخة عن بلاغ القنصل الامبراطورى فى الإسكندرية بتاريخ ١١ من سبتمبر (إيلول) الجارى تحت رقم ٦٨٥ بصدد وجود كيس فى قسم الماكينات للباخرة الصهريج «بورجوم»، العائدة لمانتاشوف وشركاه، يحتوى على مختلف المنشورات الممنوعة باللغة الروسية المعدة لإدخالها إلى روسيا.

وأننى، إذ أرفق طيه عدة نسخ من المطبوعات الثورية التى عثر عليها، أرى من واجبى أن أضيف أن مستشار البلاط ايفانوف، سيجمع فى الحال المعلومات اللازمة، عن شخصية يوسف ميخائيلوفيتش ذى الجنسية المصرى، الذى كانت المنشورات المذكورة مرسلة على اسمه من ميونيخ، وعن اشتراكه فى توزيع المطبوعات الممنوعة باللغة الروسية التى سبق ذكرها فى رسالة المستشار السرى كوياندر بتاريخ ٢٢ من أبريل (نيسان) من العام الجارى تحت رقم ٧٤.

برونيفسكى

نسخة عن بلاغ مستشار البلاط ايفانوف إلى عميدالوكالة الدبلوماسية بتاريخ ١١ من سبتمبر من العام الجارى، رقم ٦٨٥:

حضر أمس إلى القنصلية، عند حوالى الظهر قبطان الباخرة «بورجوم»، العائدة لمانتاشوف وشركاه، السيد سالوس الروسى الجنسية، وأعلن لى أنه عثر فى قسم الماكينات بسفينته على كيس يحتوى على مختلف المنشورات الممنوعة، وأنه لا يستطيع، نظرا لإقلاعه الفورى الإلزامى إلى روسيا، وبسبب انعدام الوقت، إيجاز ذلك لى كتابيا، وأنه يزمع لدى وصوله إلى فيودوسيا إبلاغ ذلك إلى السلطات المختصة.

بناء على طلبى، أرسل السيد سالوس، إلى القنصلية نسخات مرفقة بهذا البلاغ من المنشورات المذكورة.

أرى من واجبى، لدى ذلك أن أضيف: أنه يتضح من الغلاف، أن المنشورات المذكورة مرسلة من ميونيخ على عنوان يوسف ميخائيلوفيتش، ذى الجنسية المصرية، وصاحب ما يسمى «حانة سيباستوبول الروسية» القائمة على مقربة من الجمرك.

طلب القبطان سالوس فى الوقت نفسه، أن يشطب من قائمة الطاقم اسم عامل التوقيد فلاديمير فيريسودسكى، الذى، إذ نزل إلى الساحل، لم يعد بعد ذلك إلى السفينة، وأضاف القبطان أن سبب فراره سبب سياسى؛ وإنه أبلغ المحافظ المحلى فورا عن البحث عن هذا الأخير.

إلى الدائرة الأولى

لوزارة الخارجية

وزارة الخارجية

دائرة الشرطة

القسم الخاص، فى ٧ من أكتوبر ١٩٠٢، رقم ٦٢٦١

فى ١٧ من سبتمبر (إيلول) الماضى قدم قبطان الباخرة «بورجوم»، التى وصلت إلى مرفأ فيودوسيا، إلى رئيس شرطة فيودوسيا، بيانا خطيا عن أنه أثناء وجود الباخرة المذكورة فى مصر، فى الإسكندرية، اختفى عامل التوقيد فلاديمير الكسندروفيتش فيريسودسكى، الذى ترك فى قسم الماكينات كيسا يحتوى على مطبوعات ثورية معدة، على ما يبدو، للتوزيع داخل حدود الإمبراطورية.

وقد اتضح من التحقيق الذى قام به رئيس شرطة فيودوسيا بهذا الصدد، من جملة ما اتضح، أن عامل التوقيد الفار، كان يخدم سابقا على متن الباخرة «الملكة أولغا»، التابعة للشركة الروسية للملاحة والتجارة، علما بأنه كان آنذاك يدعى ديمترى تريتياكوف[١٧].

إن دائرة الشرطة، إذ تأخذ فى الاعتبار أن جواز سفر فلاديمير فيريسودسكى، سلمه قبطان الباخرة «بورجوم» إلى قنصلنا فى الإسكندرية، تتشرف طائعة بأن تطلب من الدائرة الأولى أن تتفضل بإرسال أمر برقى، بأن يقدم القنصل معلومات مفصلة من جواز سفر فيريسودسكى المذكور عن مسقط رأس هذا الأخير، وعمره ورتبته، وكذلك عن زمان ومكان ورقم إعطائه جواز السفر، والإبلاغ عن ذلك.

القائم بأعمال المدير لوبوخين

برقية سرية

إلى المستشار برونيفسكى فى القاهرة

(بالشيفرة)

بلغونا برقيا عن المعلومات الواردة فى جواز سفر عامل التوقيد فيريسودسكى المتخفى، حول مسقط رأسه وعمره ورتبته، وكذلك عن زمان ومكان، ورقم إعطائه هذا الجواز.

سيمينتوفسكى

أرسلت فى ٩ من أكتوبر ١٩٠٢م تحت رقم ٢٠٤

١٩٠٢/١٠/١٦

إلى لوبوخين

سيدى الكريم الكسى الكسندروفيتش.

إضافة إلى رسالتى بتاريخ ١٠ من أكتوبر (تشرين الأول) تحت رقم ٨٩٦ أرى من واجبى أن أرفق طيه نسخة عن البرقية السرية لعميد الوكالة الدبلوماسية الروسية فى كالوغا بتاريخ ١٢ الجارى بصدد شخصية فلاديمير فيريسودسكى.

برقية سرية للمستشار برونيفسكى:

القاهرة، ١٢ من أكتوبر ١٩٠٢.

تلقينا برقيتكم (بالشيفرة) الصادرة بتاريخ ٩ من أكتوبر: فلاديمير الكسندروفيتش فيريسودسكى، عمره ٢٨ سنة، استلم جواز السفر من عمدة سلوتسك فى محافظة مينسك فى ١٥ من إبريل (نيسان) من العام الجارى تحت رقم ٧٣١. فى الإسكندرية لم يجر البحث عن فيريسودسكى. آمل بأن يتسنى اغلاق «حانة سيباستوبول».

إلى مدير دائرة الشرطة لوبوخين:

«سيدى الكريم الكسى الكسندروفيتش.

استنادا إلى الرسالة التى بتاريخ ١٦ من أكتوبر (تشرين الأول) العام الجارى، تحت رقم ٩٠٨ أتشرف بأن أرفق طيه نسختين عن بلاغ عميد الوكالة الدبلوماسية الروسية فى مصر بتاريخ ١٥ من مايو (إيار) رقم ٥١، وبلاغ القنصل الروسى فى الإسكندرية بتاريخ ٢٩ من إبريل (نيسان) رقم ٣٤٣، مع ملحق حول قضية إدخال منشورات ذات محتوى ثورى من الميناء المذكور إلى روسيا، وحول شخصية عامل التوقيد المتخفى للباخرة «بورجوم» فلاديمير فيريسودسكى الذى

ارفقنا طيه جواز سفره.

(الوكالة الدبلوماسية الامبراطورية الروسية، رقم ٥١، القاهرة، ٥ مايو ١٩٠٣:

القنصلية العامة فى مصر

من هارتفيغ إلى برونيفسكى:

نيقولاى هنريخوفيتش

ضمن رسالتى بتاريخ ١٢ من سبتمبر (إيلول) ١٩٠٢م، تحت رقم ١٦٤ تشرفت بأن أرفق لمعالكيم نسخة عن بلاغ قنصلنا، فى الإسكندرية المتعلق بالعثور فى الباخرة «بورجوم»، أثناء رسوها فى الإسكندرية، على كيس فيه مطبوعات ممنوعة مخصصة لإدخالها إلى روسيا. وأنبأ قنصلنا فى الوقت ذاته عن اختفاء فيريسودسكى. رغم عمليات البحث الدقيقة لم يتسن العثور على فيريسودسكى فى الإسكندرية.

اسمحوا لى ، يا صاحب المعالى، أن أرى مما ورد فى نسخة بلاغ مستشار البلاط ايفانوف بتاريخ ١٩ من إبريل (نيسان) العام الجارى تحت رقم ٣٤٣، أن قنصلنا فى الإسكندرية تلقى مؤخرا عدد من الجريدة الإيطالية «سيكولو» الذى ورد فيه أن قنصلنا، قدم عدة وثائق مزورة بغية التوصل إلى تسليم «السيد ف.»(٢٠). وعلى عدد «سيكولو» كتبت بقلم أحمر بالإيطالية، كلمة «احذرا». وبما أن الشخص المعين فى الرسالة تحت حرف ف هو، على الأرجح، فيريسودسكى، فيمكن الاستخلاص أن سبب فرار هذا الشخص من الباخرة «بورجوم» هو بالفعل عدم الولاء السياسى. فى الوقت نفسه أرفق مع بلاغ مستشار البلاد ايفانوف بتاريخ ٢٩ من إبريل من العام الجارى تحت رقم ٣٤٣ جواز سفر فيريسودسكى، والعدد المذكور لجريد «سيكولو».

القاهرة، ١٩٠٣:

نسخة عن بلاغ القنصل فى الإسكندرية إلى عميد الوكالة الدبلوماسية الامبراطورية فى مصر بتاريخ ٢٩ من إبريل ١٩٠٣، رقم ٣٤٣:

«تلقيت مؤخرا ببريد المدينة العدد، الذى سبق أن أرسل إليكم بصورة مغلفة، من الجريدة الإيطالية «سيكولو»، الصادرة فى ميلانو بتاريخ ١٥ ـ ١٦ من إبريل (نيسان) بالتقويم الجديد، الذى نشرت فيه رسالة من لندن، تتعلق بميخائيل غوتس المعروف، والمكتوبة عليه بقلم أحمر كلمة «احذر!» الموجهة إلى.

ورد فى هذه الرسالة، من جملة ما ورد، خبر يزعم أن الشرطة الروسية قدمت فى نابولى وثائق مزورة لأجل إلقاء القبض على غوتس وأن «القنصل الروسى فى الإسكندرية عمل الشىء نفسه بصدد البحار ف. الذى كان يخدم على متن الباخرة «بورجوم» وعثر لديه على مطبوعات ممنوعة، ولكن ف. أفلح فى الفرار إلى الساحل والاختباء فى بناية البعثة الأمريكية فى مصر القائمة هنا. وأننى قدمت آنذاك وثائق مزورة اتهم فيها البحار المذكور بالضلوع فى ارتكاب جريمة قتل، وزعموا أن القنصلين الأميركى والبريطانى رفضا تسليمى المتهم، وما إلى ذلك.

إن ما قيل أعلاه، كما هو معلوم لديكم سيدى الكريم، عار من الصحة تماما. واعتقد أن هذا التلفيق يتعلق بفلاديمير فيرديسودسكى الذى كتبت لكم عنه فى ١١ سبتمبر (إيلول) ١٩٠٢ تحت رقم ٦٨٥.

منذ ذلك الحين انتقلت ملكية ما يسمى «الحانة الروسية سيباستوبول»، التى كان يقصدها فى السابق بحارة روس فقط تقريبا وتجرى فيها مطالعة المطبوعات الممنوعة، إلى اليهودى ميخائيلوفيتش ذى الجنسية المحلية الذى كان يتولى تسليم هذه المطبوعات إلى سفننا، أى إلى الاشتراكى المعروف بارونى ذى الجنسية الإيطالية.

لقد سبق لى فى حينه أن لفت إلى الحانة المذكورة انتباه وكلاء شركات الملاحة الروسية، وقباطنة سفننا الحربية، الذين منعوا أفراد طواقمهم من الذهاب إلى هناك. رغم جميع جهود الشرطة المحلية، لا يعرف حتى الآن مكان وجود فيريسودسكى، وأتشرف بأن أرسل طيه جواز سفره الصادر ١٥ إبريل (نيسان) ١٩٠٢م تحت رقم ٧٣١.

أرشيف الدولة المركزى لثورة أكتوبر. ملف دائرة الشرطة، القسم الخاص، الأضبارة ١٨٩٨، المستند ٥:

(بالشيفرة)

أوديسا

إلى رئيس إدارة الجندرمة:

«طبقا للمعلومات الواردة، فإن عاملى التوقيد تريتياكوف ويوشكوف ينقلان، كما يقال، على متن الباخرة «الملكة أولغا» التى أبحرت من الإسكندرية فى ١٩ (نيسان) إبريل وستصل إلى أوديسا فى ٤ من مايو ٠إيار)، منشورات ثورية، سوف يستلمها ويوزعها فى أوديسا، البحار نيكيفور بوبكوف. تكرموا بالتثبت من شخصية بوبكوف الذى وضعت عليه رقابة سرية، واتخذوا الاجراءات لكشف الشحنة، واعتقال المذنبين».

(التوقيع غير مقروء)

المدير

٣٠ إبريل من ١٩٠٢ رقم ٣٠٤

مدينة أوديسا

مدير الدائرة الأولى لوزارة الخارجية

٢٩ من إبريل ١٩٠٣م، رقم ٣٣٣

سيدى الكريم سيرغى ايراستوفيتش

أسارع لأرفق طيه بناء على أمر معاليكم - نسخة عن رسالة الوكيل الدبلوماسى الأمبراطورى، فى كالوغا بتاريخ ٢٢ من إبريل (نيسان) الجارى تحت رقم ٧٤، التى ورد فيها أنه، حسب أقوال بحار روسى، أرسلت على متن الباخرة «الملكة أولغا» من الإسكندرية إلى أوديسا شحنة من المنشورات، ذات المحتوى الثورى باللغة الروسية لأجل توزيعها فى أرجاء الإمبراطورية.

(التوقيع غير مقروء)

وزارة الداخلية، دائرة الشرطة

إلى القسم الخاص، فى ٣ من مايو ١٩٠٢، رقم ٢٣٠٠.

السيد مدير إدارة الجندرمة فى مدينة أوديسا:

إضافة إلى البرقية الشيفرية، بتاريخ ٣٠ من إبريل الماضى ترى إدارة الشرطة من واجبها إبلاغ معاليكم بأن المعلومات الواردة فيها، عن أسلوب إدخال مطبوعات ثورية، إلى أوديسا بواسطة البواخر القادمة من مصر، تم تأكيدها فى التعليمات، التى قد تلقيناها سابقا.

فى الأيام الأخيرة من شهر مارس (آذار) الماضى، تلقت الدائرة بطريقة سرية تماما، رسالة[١٨] من ميونيخ من اللجنة المركزية لـ «عصبة الاشتراكيين = الديمقراطيين الثوريين» (أى لسان حالها جريدة «ايسكرا») إلى سامارا ورد فيها، أمور أخرى، ما يلى: «يمكن استلام المطبوعات فى أوديسا أيضا، ولكن ليس لدينا هناك ما نتشبث به، فى هذه القضية يمكن أن تساعدكم جماعة خيرسون. إنها فريق من الاشتراكيين = الديمقراطيين، من جماعة «الايسكرا» (ذوى صبغة قومية متعصبة على ما يبدو).

لقد قام هذا الفريق، بمبادرته الذاتية تماما، بتدبير الطريق عبر مصر، بل وحتى أرسل نقودا مسبقا، على سبيل التجربة، والطريق تعمل الآن. وهم يسلمون المطبوعات إلى اللجنة المركزية لـ «العامل الجنوبى» الذى تم توحيده. (بالمناسبة، هذا الأخير يقف منا، على ما يظهر، موقفا غير متحيز، وهو على أقل تقدير لا يرى حتى من الضرورى عقد علاقات معنا). ينبغى مقابلة أفراد فريق خيرسون والالتقاء به عن كثب، ينبغى استمالتهم إلى المنظمة الروسية «الايسكرا»، إلا أنه ينبغى الاقتراب منهم باحتراس».

ايزفولينسكى

رئيس دائرة الجندرمة فى مدينة أوديسا:

١٠ من مايو ١٩٠٢، رقم ٣٥٥٧ «عطفا على البرقية المؤرخة فى ٣٠ من إبريل أتشرف بأن أبلغ معاليكم بما يلى:

«إن عملية التحرى السرية، التى أجريناها لم تثبت أن البحار نيكيفور بابكوف عاش فى أوديسا، ويستفاد من معلومات العناوين أن شخصا كهذا لم يسجل وليس مسجلا للاقامة فى مدينة أوديسا. بعد وصول الباخرة «أولغا» فى ٤ من مايو (إيار)، ولدى إجراء تفتيش دقيق للغاية للعفش وكذلك فى غرف عمال التوقيد واقسام الماكينات، لم يتم العثور على أى شىء إجرامى(١٩). ولكن، على الرغم من ذلك، وضعنا مراقبة على إنزال الأغراض من الباخرة من جانب عاملى التوقيد، المذكورين فى البرقية تريتياكوف ويوشكوف، وفى ٧ من مايو (أيار) فقط أثبتنا أن يوشكوف نقل فى كيس أشياء ما إلى البيت ، رقم ٣٧ الواقع فى شارع كالونتاى إلى شقة كناس. وبعملية التفتيش فى هذه الأشياء، التى قام بها الحراس، لم يتم العثور أيضا على أى شىء اجرامى. وبما أنه، إضافة إلى ذلك، لم تسفر مراقبة تريتياكوف ويوشكوف عن إثبات وجود علاقات لهما مع أشخاص مشتبه فيهم ولم يوجد فى عداد صلاتهم المتحقق منها شخص واحد، يحمل اسم بابكوف، فقد أوقفنا مراقبتهما.

أرى من واجبى، أن أضيف إلى ما تقدم أن معلومات المخبرين تفيد، أن كمية كبيرة من المطبوعات الثورية، قد استلمت وأنها توجد حاليا فى مدينة خيرسون، ومن هنا سوف تنقل عما قريب إلى مدينة أوديسا، حيث ستقسم إلى أجزاء وترسل إلى المدن الجنوبية. وضعنا رقابة من المخبرين على هذا المستودع، وثمة أمل فى أننا سنستولى عليه بكليته».

ملف دائرة الشرطة، الأضبارة ١٨٩٨، المستند ٥ رئيس دائرة الجندرمة لمدينة أوديسا، ٢ نوفمبر ١٩٠٢، رقم ٩٩٩٠:

إننى إذ أقدم، إضافة إلى الرقم ٩٠٧٥، المؤرخ فى ١١ من أكتوبر العام الجارى، كشفا عن ديمترى تريتياكوف (فلاديمير فيريسودسكى)، الجارى البحث عنه،

أتشرف بأن أبلغ أنه، بدلا من عملية نقل المطبوعات السرية، التى كان يزمع القيام بها، إلى روسيا، والتى تركها تريتياكوف فى ٨ من سبتمبر (إيلول) على متن الباخرة «بورجوم»، والتى استلمتها حاليا، للكشف عليها، من رئيس دائرة الجندرمة فى محافظة تافريا، فقد أرفقت بها لى خمسة طرود بريدية، فى وسيلة نقل وصلت من ميونيخ إلى الإسكندرية.

وعلى الطرود العنوان التالى: «الإسكندرية، يوسف ميخائيلوفيتش ايزيفوفيتش، إلى نيكيفور بابكو»، وغنى عن البيان أن هذه الشحنة كانت موجهة، إلى نيكيفور بابكو المعنى فى البرقية الشيفرية لدائرة الشرطة بتاريخ ٣ من إبريل (نيسان) من العام الجارى.

يستفاد من معلومات قسم التحرى فى أوديسا، أنه لم يجر البحث عن نيكيفور بابكو، فى هذه المدينة وأن أحدا لا يعرفه ولم يسجل أبدا فى سجل نفوسها: بصدد شخصية هذا توجد فقط، معلومات من البحار كايرنسكى، الذى سماه بابكو، فى الربيع فى الإسكندرية، مستلما للشحنة فى أوديسا.

نظرا لما تقدم، ثمة شك فى هذا الأمر: هل أن نيكيفور بابكو موجود فعلا يا ترى، أم أن تريتياكوف نفسه يدعى بهذا الاسم لغرض التمويه؟ ولذا أتشرف طائعا بأن أطلب إبلاغى بما إذا كانت توجد فى دائرة الشرطة معلومات محددة عن شخصية، نيكيفور بابكو.

توجد طيه قائمة موجزة، بشحنة المطبوعات السرية.

قائمة موجزة بالمطبوعات، التى تركها فى الإسكندرية على متن الباخرة «بورجوم» ديمترى تريتياكوف.

«زاريا»، ديسمبر ١٩٠١م ٢٣ نسخة

«الحركة العمالية فى تفليس» ١٨٣

«ايسكرا»، العدد ١٣ (٣٧ نسخة)، العدد ١٤ (٣٧ نسخة)

العدد ١٥ (٤٦) نسخة، العدد ١٦ (نسخة واحدة).

العدد ١٧، (١٨٤ نسخة)، العدد ١٨، (١٩٤ نسخة)، العدد ١٩ (٤٢٦ نسخة)، المجموع ٩٤٥ نسخة.

«روسيا السرية»	نسخة واحدة
«الراية الحمراء»	نسخة واحدة
«الدفاع عن اوبوخوف	١٥ نسخة
«دفاعا عن عمال ايفانوفو= فوزنيسينسك	٤٤ نسخة
«مورد رزق كل شخص	١٤ نسخة
«برنامج العاملين»	٦ نسخ
«خطابان»	٣٧ نسخة
«روايات من الثورة الفرنسية»	٩٦ نسخة
«برنامج إلى الرفاق الدعاة»	٨ نسحخ
«بيان الحزب الشيوعى»	٦ نسخ
«اندريه كوجرخوف»	نسخة واحدة
«قصيدة»	٧ نسخ
«ما العمل»	٩٤ نسخة

رئيس الفيلق الخاص للجندرمة روتميستر زادونسكى

إلى السيد رئيس دائرة الجندرمة لمدينة أوديسا:

«عطفا على البلاغ المؤرخ فى ٢ من سبتمبر (إيلول) تحت رقم ٩٩٩٠ أتشرف بأن أطلب من معاليكم أن ترسلوا إلى الدائرة خمس نسخ. من كل المطبوعات التالية، التى تركها ديمترى تريتياكوف فى ٨ من سبتمبر من العام الجارى فى الإسكندرية على متن الباخرة «بورجوم»: ١ ـ «زاريا»، ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٠١م، ٢ ـ «ما العمل».

لوبوخين

إلى رئيس دائرة الجندرمة لمدينة أوديسا

١٥ من نوفمبر ١٩٠٢م، رقم ١٠٤٩٧«بناء على الطلب المؤرخ ٩ من نوفمبر من العام الجارى تحت رقم ٧١٦٢ أتشرف بأن أرفق طيه خمس نسخ من كل من «زاريا» و«ما العمل» من عداد الشحنة التى تركها ديمترى تريتياكوف على متن الباخرة «بورجوم» فى الإسكندرية».

رئيس دائرة الجندرمة فى محافظة مينسك:

١٢ من ديسمبر ١٩٠٢م، رقم ٥٨٣٠ بناء على الاقتراح من جانب عمدة دائرة نفوس سلوتسك بتاريخ ٢٥ من أكتوبر (تشرين الأول) من العام الجارى تحت رقم ٦٧٨٤ حول إثبات صحة جواز السفر باسم فلاديمير الكسندروفيتش فيريسودسكى، أتشرف بإبلاغ دائرة الشرطة بما يلى:

فى مدينة سلوتسك لا يوجد عمدة دائرة نفوس؛ لأن دائرة النفوس المدنية مختصرة، فى المدينة، ولذا فإن جواز السفر يعطيه عمدة المدينة. يتبين من الاستقصاء السرى، الذى أجريناه فيما بعد، أن أسرة فيريسودسكى غير مسجلة، إطلاقا فى قائمة دائرة النفوس فى مدينة سلوتسك، بينما سجل فى دفتر جوازات السفر تحت رقم ٧٣١ جواز سفر أعطاه عمدة المدينة فى ٢٢ من مايو (وليس ١٥ من إبريل) على ورقة وردية اللون إلى المدعو إبرام غولبرغ.

من استجواب الأهالى، لا يتضح أن أحدا ما، منهم يعرف اسم عائلة فيريسودسكى، أو أن أفرادا بهذا الاسم قطنوا فى زمن ما هناك.

إذن، أثبت الاستقصاء السرى التزوير، الذى لا يرقى إليه الشك، لجواز السفر الذى زعموا أن عمدة دائرة نفوس سلوتسك أعطاه بتاريخ ١٥ من إبريل (نيسان) من العام الجارى تحت رقم ٧٣١ باسم فيريسودسكى».

الأرشيف الحزبى المركزى لمعهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. الملف ٣٤، الاضبارة ١، المستند ٢٥٣.

كروبسكايا. رسالة(٢٠) إلى الإسكندرية (مصر) حول نقل المطبوعات عبر الإسكندرية - باطوم:

فى ٣ من سبتمبر (٢١ من أغسطس) ١٩٠٢م

سيدى الكريم:

تلقينا رسالتيكم المؤرختين فى ٢٥ و٢٦ من يونيو (حزيران) لاندرى كيف جرى تدبير الأمر؛ لأن رفاقنا الروس نظموا الطريق ولم يبلغونا بأية تفاصيل كانت.

لقد كنا فقط، نرسل كمية معينة من المطبوعات إلى العنوان المشار إليه فى الرسالة، بتاريخ ٦/٢٥ تقولون: إن السيد/ تريتياكوف طلب مواصلة إرسال مطبوعات على عنوان يوزيفوفيتش. بناء على هذا الطلب، سوف نرسل عما قريب رزمة ونصف أخرى (من زوريخ). نستنتج من رسالتكم أن تريتياكوف اتفق مع فيسوتسكى[٢١] بالتفصيل حول إيصال واستلام المطبوعات وأنه تم تدبير كل شىء فى باطوم. أبلغنا رفيقنا فى روسيا بالتفصيل عن محتوى رسالتكم.

اكتبوا لنا بالتفصيل على العنوان التالى:

Hezzes Axelzool / Vogels angstrasse 9II Iurieh.

فيما يتعلق بالمطبوعات اللازمة للبحارة يمكننا إرسالها بالقدر الذى يحتاجونه، من «الايسكرا»، ١٠ نسخ من كل عدد. بلغونا المقدار، الذى ينبغى إرساله. شكرا على الرسالتين المفصلتين.

بلغونا عن عمليات الإرسال، وعن كيفية سير الأمور بوجه عام.

مع أطيب التمنيات.

تراسلنا مع رفاقنا الروس، وقد تبين أن صلاتهم بتريتياكوف انقطعت وغاب عن أنظارهم. أشيروا علينا كيف ينبغى البحث عنه. إذا كانت الأمور عندكم غير مضبوطة، فيمكن للمرة الأولى أن ندبر الأمر على النحو التالى: يقوم رفيق لنا، لدى وصول الباخرة «بورجوم» إلى باطوم، بالبحث عن فيريسودسكى، ويطرح عليه السؤال التالى: هل تعرف كروتيفيرسكى؟ وعلى هذا السؤال يجب على فيريسودسكى أن يجيب: «كلا، ولكننى أعرف فيرخوف».

كروبسكايا

ملف الأرشيف السياسى، المستند ٨٥٩[٢٢]، عام ١٩٠٧

من سميرنوف إلى وزارة خارجية روسيا

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧

منذ بعض الوقت لفتت انتباه قنصليتنا فى الإسكندرية غير مرة، حالات انتهاك الانضباط، وسط بحارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة، ويمكن الافتراض، استنادا إلى معاينات القباطنة، أن البحارة لدى الوصول بالذات، إلى ميناء الإسكندرية، يقعون فى مجال التأثيرات المضرة. فضلا عن ذلك فإن بعض الكلمات المتقطعة فى الأحاديث بين أفراد الطاقم، كشفت شائعات منتشرة بين الناس حول احتمال تفجير احدى البواخر، بواسطة قنبلة وضعت فى الإسكندرية، ومزودة بجهاز تفجير فظيع. يبدو أن هدف هذه الجريمة كان السعى لإرهاب الطاقم، الذى لم يشترك فى الاضرابات. ونظرا لوقوع انفجارين مماثلين فى باخرتين باوديسا، فإن محاولة القيام بالشىء نفسه فى الإسكندرية كانت أمرا كثير الاحتمال، ومن جراء ذلك لفت قنصلنا انتباه رئيس الشرطة، إلى ذلك.

بعد الرقابة الدقيقة من جانب الشرطة، تسنى الوقوع على آثار المؤامرة، التى كانت تهدف إلى تفجير الباخرة؛ فى الوقت نفسه استلم القبطان رسالة تطلب منه، تحت التهديد بالقتل، دفع ٥٠٠٠ روبل للأغراض الثورية.

تطابق ذلك كله مع وصول الأمير الأعظم بوريس فلاديميروفيتش إلى هنا، وتأمينا لسلامة سموه الأمبراطورى اضطرت الشرطة للقيام باعتقالات على جناح السرعة.

ومن جراء ذلك، فإن الاستعدادات للتفجير، التى كان عملاء الشرطة يراقبونها بعين يقظة قد انقطعت قبل تلك المرحلة، التى كان من شأنها أن تقدم أدلة اتهام أكثر ثباتا؛ وبالمناسبة، عثر لدى أحد المعتقلين، على أملاح وحوامض ضرورية، لصنع مواد متفجرة.

أثبت التحقيق، الذى قام به قنصلنا المستشار أباظة انتماء الموقوفين الثلاثة، للجنسية الروسية، وقدم معطيات كافية لاقناع أباظة بذنبهم الفعلى.

كان الموقوفون ثلاثة أشخاص: فالشخص الرئيسى، والأكثر نشاطا بينهم الجورجى «ميشكا» باتسويف، وهو بحار سابق لدى الشركة الروسية للملاحة والتجارة، كان يوجد فى حوزته أيضا جوازا سفر روسيان، باسمى ماليشيف واسطمبوللى. أثناء أعمال الشغب فى أوديسا، حوكم وحكم عليه بالنفى، ولكنه فر إلى الإسكندرية. إنه شخص موهوب، ونشيط للغاية، وكان يقف على رأس الخطة كلها.

الشخصان الآخران يهوديان: «فولوديا» بلوتنيك فى حوزته جواز سفر بهذا الاسم، وبيكا بونتمان برجوازى صغير من أوديسا ولا يحمل جواز سفر؛ كلاهما حرفيان بسيطان، شبه أميين (أحدهما مجلد كتب، والآخر جصاص).

إذ طلبت من المستشار أباظة، أن يقدم تفاصيل إلى الوزارة الامبراطورية عن القضية، التى ينظر فيها، أسرع لاحاطة معاليكم علما بهذه القضية فى خطوطها الرئيسية، نظرا لما أثارته هنا من اهتمام غير متوقع ومحموم.

سميرنوف

من سميرنوف إلى وزارة خارجية روسيا

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧، رقم ٢

نشرت جريدة «الإصلاح» الصادرة بالفرنسية فى الإسكندرية، وبصورة محورة تماما نبأ توقيف ثلاثة أشخاص، ذوى الجنسية الروسية، ويستفاد من أقوال الجريدة أن الموقوفين كانوا «لاجئين سياسيين»، تلاحقهم الحكومة الروسية، بسبب معتقداتهم السياسية، وأنه يتهددهم فى الوطن الإعدام لا محالة.

وأطلق العنان، لدى ذلك، لجميع الكلمات الطنانة عن الحرية، وحقوق الإنسان والروح الإنسانية، وأهيب بجميع الأشخاص، المتنورين والذين لم يفقدوا مفهوم العدالة، إلى التكاتف بغية انتزاع «البائسين» من أيدى السلطات الروسية، من براثن الموت.

وفى البورصة أيد الحركة المحمى النمساوى اليهودى كامبوس، و هو رجل بورصة غنى، وقد قام، بمساعدة بعض أفراد موقه، بدفع جمهور كبير من الناس إلى القنصلية البريطانية، حيث طالبوا، بأن يقدم اللورد كرومر شفاعته للموقوفين. ووعد نائب القنصل، لدى استقباله لوفد منهم، بأن ينقل إلى المندوب البريطانى فى القاهرة، التماس الجمهور، الذى تفرق بصورة سلمية هذه المرة. وحتى المساء تلقى اللورد كرومر كمية كبيرة من البرقيات، التى تحمل عددا كبيرا من توقيعات يهود الاسكندرية الموجهة إلى رعايا مختلف الدول. يمكن للمرء العثور بين هذه التوقيعات على أسماء متمولين كبار، مثل البارون فيليكس ميناشا رئيس المحافل الماسونية المصرية.

إن مضمون جميع هذه البرقيات مماثل تقريبا: استثارة مشاعر حب الإنسان لدى اللورد كرومر، مع الرجاء بالدفاع عن الموقوفين السياسيين «البائسين» وبعدم تسليمهم إلى روسيا، وفى هذه الكومة من البرقيات يمكن للمرء أن يصادف برقيات ذات طابع متناقض تماما، وأذكر واحدة منها بدون توقيع عرضها على اللورد كرومر، هذا نصها: «نهنئ اللورد كرومر بسماحه بالفوضى فى الإسكندرية، تحت رعاية اليهود»[٢٣].

فى اليوم عينه، يوم السبت المصادف ٦ من يناير (كانون الثانى)، أبحرت من الإسكندرية باخرة روسية فى رحلة ذهاب وإياب، ولكن كان يستحيل تماما إرسال الموقوفين على متنها نظرا للهياج، الذى ساد فى المدينة، وللجمهور الذى طوق سجن خضرا، حيث كان يوجد الموقوفون.

فى اليوم التالى، الأحد، ازداد الهياج شدة من جراء العدد الكبير من الجمهور الحافل، واتخذ الوضع فى المدينة طابعاً مقلقا جدا.

بعد الظهر بدأت أعمال الشغب من جانب الجمهور؛ فقد اقتحم باخرة الشركة الروسية الراسية فى الميناء، وحطم الأبواب، وفتش كل الباخرة بحثا عن المجرمين؛ بعد ذلك اندفع نحو القنصلية، وحاول الدخول عنوة إليها، وقذف بالأوساخ وشتى فضلات الطعام إلى النوافذ. وأخيرا نزع وحطم لوحة شعار الدولة، التى كانت معلقة فوق الباب. ثمة دلائل على أن ذلك اليهودى كامبوس

نفسه كان على رأس الجمهور فى الباخرة وأمام القنصلية الروسية على السواء؛ بالمناسبة أقول: إن التحقيق القادم سيوضح، على الأرجح، جميع التفاصيل.

من حسن الحظ أن قنصلنا كان غائبا، فى ذلك الأحد: فمنذ الصباح، كان عندى فى القاهرة، للتحدث معى عن الحركة فى الإسكندرية، وعن مصاعب إرسال المجرمين إلى روسيا.

بما أنه كانت تتردد بين الجمهور تهديدات باغتيال المستشار أباظة، فقد وجهت إلى كرومر ـ بوصفه ممثلا لبلد يحتل مصر بقواته العسكرية ـ طلبا حول ما إذا كان فى إمكانه، اتخاذ جميع الاجراءات لتأمين سلامة قنصلنا، وأفراد القنصلية.

أجابنى اللورد كرومر: بأنه يكون من غير المرغوب فيه، بالنسبة له توجيه القوات المحلية ضد الجمهور الأوروبى، لأن ذلك يمكن أن يسبب انفجار روح التعصب، ولكنه وعدنى بمساعدة القوات البريطانية لدى نشوء. حاجة قصوى. وبالمناسبة، فقد قال: إن الشرطة منظمة تنظيما رائعا، فى الإسكندرية، وفى القاهرة على السواء، وأن اجراءات الشرطة المعززة بدوريات تبدو له حتى الآن ضمانة كافية.

سميرنوف

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧م، رقم ٣.

فى اليوم التالى، بعد أعمال الشغب، التى اندلعت فى الإسكندرية، امتد الإضراب إلى القاهرة: ففى يوم الاثنين الواقع فى ٨ من يناير (كانون الثانى) عقد اجتماع حاشد ألقيت فيه خطابات حارة عن موضوع الحرية الدائم، وحب الإنسان والتضامن دفاعا عن المظلومين.

حضر عندى أحد معارفى من أكثر اليهود المحليين اعتدالا فى الرأى، وطلب منى استقبال مندوبين، أو ثلاثة من الاجتماع الحاشد، وأن أشرح لهم القضية، لأنه يوجد لديهم تصور مشوه جدا عنها. وأعرب لى عن الأمل فى أن ذلك سيهدىء الجمهور.

فأجبت بأنه، إذا كان المندبون يرغبون فى أن يعرفوا منى الوضع الحقيقى للأمور؛ فإننى لا أرفض استقبالهم؛ ونتيجة لذلك حضر عندى وفد من ١٢ شخصا محامين وصحفيين. وقد اقتنعت من الحديث معهم بأن لديهم، فى الواقع، تصورا مبالغا فيه جدا، وغير صحيح عن القضية وأنهم يقفون سلفا موقفا عدم ثقة من أعمال وبيانات السلطات الروسية. ومع ذلك فإن كلماتى أثارت فى نفوسهم بعض الانطباع، وعلى الرغم من أن الصحافة نشرتها فى اليوم التالى، فى شكل محور كثيرا، فإن الوفد أفلح، لدى عودته من الاجتماع الحاشد، فى ممارسة، تأثير مهدئ على الجمهور، الذى تفرق هذه المرة بصورة هادئة جدا.

فى اليوم التالى، يوم الثلاثاء المصادف ٩ من يناير (كانون الثانى)، عقد اجتماع حاشد، لعمال التنضيد الطليان المعروفين هنا بمعتقداتهم الفوضوية. وانضم إليهم يهود، وعناصر متطرفة أخرى، حضروا اجتماع الأمس، وبعد الظهر قام الجمهور الضخم، وقد ملأ الشارع أمام الوكالة الدبلوماسية الأمبراطورية، بمظاهرة عدائية لنا، تخللتها التهديدات والصفير والصيحات والهتافات المليئة بالحقد على روسيا. ومنذ الأمس أصبحت تحرس مبنى الوكالة دورية من الشرطة، ولذا لم يتسن للمتظاهرين اقتحام الحديقة والبيت، رغم أن الجمهور زاحم رجال الشرطة بشدة عند البوابة، التى أغلقت على عجل.

عندما انتهت المظاهرة ظهرت كتيبة من الخيالة برئاسة مدير شرطة القاهرة، وأطلقت على الجمهور خراطيم مياه الإطفاء، فأصابت فقط بعض المتظاهرين الذين لم يفلحوا فى مغادرة المكان، وكذلك مشاهدين كانوا واقفين على الأرصفة.

أمام مبنى نائب مفوضنا، الذى اتجه نحوه الجمهور من الوكالة، تكررت المظاهرة نفسها، علما بأن الجمهور قطع الأكمام المطاطية للمضخات الإطفائية، وعصر بشدة رجل شرطة حاول سحب المسدس.

وشاعت تنبؤات بأن مظاهرة جديدة، وأكثر صخبا سوف تنطلق عند المساء، ونتيجة لذلك رأيت من واجبى أن أكتب إلى اللورد كرومر أنه، على الرغم من أن الشرطة تحرس الوكالة، إلا أن هذه الشرطة لا تعترض المظاهرات المعادية لنا،

ولذا فإنى آمل بأنه سيجرى عند المساء اتخاذ إجراءات، أكثر جدية وأن أحداثا كهذه لن تتكرر أمام الوكالة الامبراطورية ومبنى نائب القنصل. ومنذ ذلك الحين لم تتجدد المظاهرات أمام الوكالة؛ رغم أن اجتماعات حاشدة صاخبة، كانت تجرى يوميا.

فى الأيام التالية، أصبح منظر المدينة متوترا، فى أعقاب تجمعات الفضوليين فى الزوايا ومجموعات مشبوهة من عابرى السبيل ودوريات الخيالة، وعدد كبير من الشرطة، ولا سيما فى الشوارع المحاذية للوكالة الدبلوماسية ومبنى نائب القنصل.

والآن، بعد مرور اسبوع، أخذ الهدوء، يستتب، ورغم ذلك تواصل دوريات معززة، من الشرطة حراسة الوكالة، ومبنى نائب القنصل ليلا ونهارا.

ويبدو أنه وصلت إلى الشرطة التهديدات باغتيالى، لأنها رأت من الضرورى أن تعين لى عملاء سريين يقتفون أثرى فى كل مكان فى الشوارع، بينما طلب منى مستشار وزارة الداخلية السيد ميتشيل، الذى عرج على مساء أمس، أن أكون أكثر حذرا وأن اتحاشى بصورة خاصة أحد الأحياء، حيث يعيش الآن عدد كبير من اليهود المبعدين من روسيا.

سميرنوف

القاهرة، ١٦ يناير ١٩٠٧، رقم ٤

عندما كنت عند اللورد كرومر، فى اليوم التالى، بعد هجوم الجمهور على قنصليتنا فى الإسكندرية، وأعربت له عن دهشتى من أن وزير خارجية الخديوى لم يبد بعد أى موقف من قضيتى، ولما كان ينبغى على التحدث معه عن تلبية طلبى، فإن كلماتى هذه أثارت أعصاب محادثى لسبب ما. وقال بانفعال شديد: إنه ليس ثمة متسع من الوقت للتفكير بمسائل الأخلاق، عندما توجد فى أيدينا مسألة صعبة، تتعلق بالموقوفين، أدت إلى إثارة اضطرابات خطيرة فى الإسكندرية والقاهرة. واعترضت على ذلك بقولى: إن المسألة الرئيسية بالنسبة لى، بعد الإهانة، التى ألحقها الجمهور بشعار دولتنا، هى مسألة تلبية طلبى.

وبعد أن تمتم اللورد كرومر بكلمات، حول أن وزير الخارجية يمكن أن يأتى إلى، لتقديم اعتذاراً أنتقل سريعا إلى الحديث عن المسائل الجارية.

إلا أنه أثناء عودتى مباشرة تكلم بالهاتف، مع بطرس باشا، وقال له: أن يحضر إلى للإعراب عن الأسف، ويأمر محافظ الإسكندرية، بأن يزور المستشار أباظة ويقوم بنفس الاعتذار.

بعد عودتى بعشرين دقيقة، حضر إلى بطرس باشا؛ وقلت له: إننى، إذ اعتبر زيارته تعبيرا عن الرغبة فى تسوية، هذا الحادث المؤسف، لا أدرى ما إذا كان ذلك سيرضى الحكومة الامبراطورية، ولذا فقد طلبت تعليمات من معاليكم بهذا الشأن.

عندما استلمت برقية من بطرسبورغ، وأعلنت لوزير الخارجية أننا نطالب بالإعادة الرسمية للشعار المنزوع، بحضور السلطات بالبزات الرسمية وموكب من الجنود، عندها صدر اعتراض من جانب بطرس باشا المراوغ: فقد أكد لى أن رجال الشرطة، أعادوا تعليق اللوحة فى مكانها، فى الحال بعد نزعها، فاعترضت قائلا: إن القنصل - حسبما أعلم - أعاد اللوحة التالفة، لأجل إصلاحها وطليها بماء الذهب، وعندها قال بطرس باشا: إنه إذا كان القنصل قد نزع اللوحة؛ فلماذا ينبغى، إذن، تعليقها بصورة رسمية؟

وبعد أن شرحت للوزير أن المسألة، لا تنحصر فى من الذى نزع اللوحة، وأين توجد الآن؟ بل فى أن شرطة الإسكندرية لم تق الشعار الامبراطورى، من إهانات الجمهور، وأنه يجب عليها الآن - وفقا للعرف الدولى المتبع فى أحوال كهذه - أن تقدم له رسميا التكريم المطلوب أثناء إعادة وضعه، فوق باب القنصلية، استطردت قائلا: إنه إذا كان يرى ثمة عوائق ما، فى تلبية مطلبنا، فإننى ومرؤوسى سنضطر للامتناع عن الذهاب فى اليوم التالى، إلى القصر لحضور الاستقبال الذى سيقيمه الخديوى بمناسبة عيد الفطر.

أربكت كلماتى بطرس باشا، وقال: إنه سيتوجب عليه، بالطبع، الإذعان لمطلبنا، وأنه هو وحده لا يمثل كل حكومة الخديوى وينبغى له معرفة رأى زملائه.

بعد مرور ساعة، وإذ طلب على الأرجح نصيحة اللورد كرومر، عرج وزير الخارجية على، ليعلمنى أن مطلبنا سوف يلبى سواء بالنسبة لإعادة تركيب الشعار أم بالنسبة لمحاكمة المذنبين فى أعمال الشغب.

فى اليوم التالى، سافرت مع موظفى الوكالة الدبلوماسية الموكلة لى، بالبزات الرسمية، إلى القصر لحضور الاستقبال، علما بأن موكبى صاحبته كتيبة من الخيالة أرسلتها الشرطة بأمر من اللورد كرومر.

يوم أمس الاثنين، المصادف ١٥ من يناير (كانون الثانى)، جرى تثبيت اللوحة المجددة، مع الشعار فوق باب القنصلية فى الإسكندرية: قامت الشرطة بتعليق اللوحة وسط انغام النشيد الوطنى الروسى وبحضور السلطات بالبزات الرسمية وجنود.

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧:

فى قضية توقيف ثلاثة أشخاص ذوى الجنسية الروسية، التى أثارت مثل هذا الهياج، غير المتوقع فى الإسكندرية والقاهرة، اتخذ اللورد كرومر منذ البداية موقفا محددا تماما.

لقد أعلن لى فى الحال أننا نقف على أرضية قانونية تماما، وأن لسلطتنا القنصلية حقا لا يرقى إليه الشك فى أن توقف رعاياها وترسلهم من مصر إلى روسيا، وأن الحكومة المصرية، سوف تقدم لنا العون فى ممارستنا لهذا الحق، بل وحتى القوات البريطانية أيضا، فى حالة الضرورة القصوى.

على هذا الطرح المتشدد للقضية على أرضية الشرعية تحطم دون ما أمل كل التحريض، الذى أثاره يهود الإسكندرية بصورة مصطنعة وكل دعواتهم إلى ممثل انجلترا الليبيرالية للتحلى بالمشاعر الإنسانية.

وأنزل جواب اللورد كرومر على المذكرة، التى رفعها إليه اثنان من المحامين اليهود المحليين، حول قضية توقيف ثلاثة أشخاص روس، وأعادت نشرها جميع الجرائد، أنزل بسرعة ضربة شديدة جدا، بهياج المشاعر المتعاظم، وأفقد الحركة مقصدها وهدفها، بأن أبعد عنها جميع العناصر المتعلقة.

أرى من واجبى أن أرفق طيه، فى مقتطفات من الجرائد، مذكرة المحامين وجواب اللورد كرومر عليها وجوابه أيضا على المحامى بتراكى.

يكون من المستحب لمعاليكم الاطلاع، على كيفية تفسير اللورد كرومر لمجمل المسألة فى جوابه. فهو يعلن، أولا، أنه لايمكن الحديث، فى بلد توجد فيه امتيازات، عن نظام لتسليم الأشخاص المتهمين إلى البلد الذى فروا منه، بل يوجد فقط نظام تحويل الأشخاص، الذين تشتبه بهم السلطات المحلية، إلى السلطات القنصلية، بناء على طلبها، علما بأنه يجب على الحكومة المحلية بأن تفعل ذلك، دون أن تطلب إيضاحات حول التهم الموجهة إلى الموقوفين. ويلقى اللورد كرومر على الحكومة المحلية واجب أن تساعد القنصل بالقوة فى اعتقال وإرسال الموقوفين، لأنه لو لم تكن لدى السلطة القنصلية امكانية ممارسة حقها لكانت الامتيازات نفسها تحولت إلى هراء.

طوال فترة الأزمة المنقضية ـ أقول «المنقضية»؛ لأن الهدوء سيحل بلا شك ـ كان سلوك اللورد كرومر لبقا تماما، ولم يتراجع خطوة واحدة عن البرنامج، الذى أشار إليه فى جوابه.

إلا أن سلوك الأشخاص، الموجودين تحت حماية الامتيازات، والذين يحاولون فى الوقت نفسه زعزعة مبدئها، لم يكن بدرجة معلومة يساعد اللورد كرمر. فقد قال لى: «أنا عدو للامتيازات فى «شكلها» الحالى: أننا لا نرى لا أية أوضاع مستحيلة يؤدى تطبيقها. ولكن ما دامت أنها موجودة فيجب على حمايتها».

مما لاشك فيه، أن رجل دولة بارزا كالمندوب البريطانى هنا سوف يستطيع استخلاص كل الفائدة من الوضع الراهن للأمور، ولسوف نرى فى الربيع فى تقريره السنوى أية مواد أعطته الاضطرابات، التى جرت فى الإسكندرية والقاهرة، لصالح الغاء، أو على أقل تقدير، تقليص الامتيازات.

سميرنوف

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧م.

التحريض بصدد اعتقال ثلاثة روس، الذى أثاره فى الإسكندرية اليهودى كامبوس والصحفى كانيفيه المحرر، فى جريدة «الإصلاح»، قام به بالدرجة الأولى اليهود المحليون ـ كما ذكرت فى برقيتى السرية إلى معاليكم ـ علما بأنه انضم إليه ماسونسون فرنسيون (نصف محافلهم، إن لم يكن أكثر، مليئة باليهود) وفوضويون طليان.

فى الأعوام الأخيرة، أثارت ظروف الحياة العصرية للمدينة الكبيرة، التى تتطلب عددا وافرا من العمال التقنيين[٢٤]، سيلا عارما من أوربيى الطبقات الدنيا إلى مصر، وقد بينت الأحداث الأخيرة أى عنصر خطر يمثله هذا الجمهور، غير المسؤول أمام السلطات المحلية.

فقد استغل الجمهور، المعنى فى هذه الحالة الظروف فقط، لكى يعرب عن عدم ثقته بنظام دولتنا والتعاطف مع الثورة الروسية وبنى إسرائيل «المضطهدين»، فى روسيا، ولكن جمهور الأوروبيين، قد يسبب كثيرا من المتاعب، والمشاكل لحكومة الخديوى فى المستقبل، نظرا لمصاعب اتفاق الدول الكبرى فى المسألة المتعلقة بمقدار مسؤولية رعاياها.

اضطلعت الصحافة الفرنسية المحلية، بدور متحمس للغاية للتحريض، ففى حين أن الجرائد الصادرة بالإنجليزية، سلكت سلوكا لبقا تماما، بينما وقفت الصحافة العربية موقف عدم استحسان جليا من الأحداث، اتخذت الجرائد الفرنسية لهجة عدائية جدا من روسيا.

يقف فى المقام الأول فى ذلك، بلا شك، السيد كانيفيه الآنف الذكر.

فريثما كان كامبوس يحث الجمهور مباشرة، إلى الاشتراك فى المظاهرات الشارعية، كان السيد كانيفيه يثير الرأى العام بنداءات حماسية منشورة فى جريدة «الإصلاح» وبأخبار محورة بشكل مقصود.

إن ماضى السيد كانيفيه لا يخلو من العيوب إطلاقا: فإذ كان يعتبر فى عداد الصحفيين الموهوبين جدا، فى باريس وجهت إليه أثناء القضية البنامية تهمة

التهويل وحوكم، واضطر للعودة إلى فرنسا، وحتى أنه شطب اسمه من قوائم فرسان فيلق الشرف.

بناء على تصريحى الشفهى، حول المقالات المنشورة، فى جريدة «الاصلاح» فقد أوعز المبعوث الفرنسى السيد كلوبوكوفسكى إلى قنصله فى الإسكندرية بمباشرة التحقيق ضد السيد كانيفيه: وحتى أنه أعلن لى أنه إذا تأكد ذنب كانيفيه، فلن يعارض طرده خارج حدود مصر.

وبالإجمال صادفت شخصيا من جانب السيد كلوبوكوفسكى استعدادا تاما لمساعدتنا فى تهدئة الفتنة. وعندما نوهت له، بأن نبرة الجرائد الفرنسية الصادرة فى القاهرة تتناقض تناقضا مع طابع العلاقات بين روسيا وفرنسا، عندها استدعى فى الحال محررين اثنين - ثلاثة من أبرز الصحفيين وقال لهم: إنه، على الرغم من حرية الصحافة، توجد فى التعليقات على الدول الصديقة حدود لايجوز تجاوزها دون ما عقاب. وكان المحررون قد أصبحوا على علم ببدء التحقيق ضد كانيفيه، ولذا لم يكن بوسع كلمات المبعوث ألا تمارس تأثيرا مهدئا على اللهجة العامة للجرائد الفرنسية الصادرة هنا.

سميرنوف

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧م.

بالإضافة إلى السيد كانيفيه يعتبر المحمى النمساوى، رجل البورصة الثرى جدا، اليهودى كامبوس، واحدا من أكبر منظمى التحريض، الذى شمل الإسكندرية والقاهرة. لم أتلق بعد معطيات دقيقة عن استيضاح تحقيق الشرطة، لمشاركته فى أعمال الشغب، ولكن بعد خطاباته الحماسية فى البورصة فقد كان يوجد، على ما يبدو، فى الصفوف الأولى للجمهور الذى اقتحم الباخرة «الامبراطور نيقولاى» وعربد أمام قنصليتنا.

أكيد أن كامبوس يؤكد الآن أنه كانت تحدوه الرغبة فقط، فى تهدئة الجمهور، ولكنه، حسب شهادات قنصلنا ورئيس شرطة الإسكندرية، هو الذى أنشأ الحركة بقدر أكبر.

المبعوث المجرى والنمساوى هنا الكونت كوزيير ودسكى لا يمانع فى محاكمة

كـامـبـوس، ولكنه قـد حـدثنى، وهو فى انتظار شكوى خطيـة لأجل ذلك، عن مصاعب اثبات الذنب الفعلى، فى ظل الظروف الحاضرة، وعن عدم وجود مادة قانون مناسبة تماما فى القوانين النمساوية، وعن استحالة تقديم شخص واحد على أنه المذنب الوحيد عن حركة جماهيرية كهذه.

من جـراء ذلك يمكن للمـرء أن يرى مـسبـقـا المصاعب، التى سـتـصطدم بهـا حكومة الخديوى فى تنفيذ الوعد، الذى أعطتنا إياه، بمعاقبة المذنبين. فجميع هؤلاء تقريبا رعايا لدول أوروبية مختلفة، ويخضعون لمفعول قوانين مختلفة تماما، وإن ذلك كله، يمكن أن يسهل لهم فقط إمكانية التملص من العقاب.

واضطررت للتحدث مع اللورد كـرومر. عن هذا الأمـر، الذى يهمه أكثر مما يهمنا، وذلك لكى ينال معكرو هدوء البلد العقاب، الذى يستحقونه. وهو يرى أن محاكمة كامبوس، الذى يعتبر إلى جانب كانيفيه المذنب الرئيسى للحركة، سيكون من المستبعد التوصل إلى انجازها إذا لم يعمد معاليكم، من خلال سفيرنا فى فيينا، إلى لفت انتباه الحكومة النمساوية = المجرية بجدية إلى هذه المسألة. ويكون من المستحسن لو أن اللورد كرومر طلب فى هذه الحالة، وفى الوقت نفسه الحصول من السفير البريطانى فى فيينا على تصورات مماثلة.

من البديهى أن عدم معاقبة كامبوس وكانيفيه من شأنه أن يفسر تفسيرا غير ملائم بالنسبة لسمعتنا، وأن يشكل حجة زائدة ضد الامتيازات.

سميرنوف

القاهرة ١٦ من يناير ١٩٠٧م.

أثناء عملية إرسال الرعايا الروس الثلاثة المعتقلين، فى الإسكندرية إلى روسيا، اضطررنا للاصطدام بمصاعب كبيرة.

فإن وجودهم فى سجن حضرا، القائم فى طرف مدينة الإسكندرية، كان يشكل خطرا متزايدا يوما عن يوم. فقرب السجن كانت ترابط دائما مجموعات من المراقبين المهتاجين للغاية، الذين كانوا حتى أثناء الليل، يسهرون على ألا يلجأ أى كان، إلى نقل المجرمين. وروج يهود الإسكندرية الأغنياء، الذين يجدون دائما

أساليب للاطلاع، عما يجرى داخل السجن، شائعة تقول: إنهم لن يتورعوا عن بذل أية نفقات، من أجل إطلاق سراح أبناء قومهم.

طلبت منى الحكومة المصرية واللورد كرومر، بكل إلحاح الاستعجال فى إرسال الموقوفين، مسيرين بكل أساس إلى أنه طالما بقوا فى مصر، فإن الاهتياج سوف يتعاظم مع الأمل التوصل إلى تغيير مصيرهم بطريقة من الطرق.

كانت خطورة وضعنا تكمن فى استحالة تنفيذ الحاح الحكومة الخديوية واللورد كرومر على الفور دون مخالفة القواعد المتبعة. فلا يسمح للقنصلية بترحيل المجرمين على متن بواخر خط الإسكندرية المباشر، ويمكن فقط وضعهم فى عهدة باخرة دورية، تبحر من الإسكندرية مرة كل أسبوعين، إلى بورسعيد، يافا، بيروت، علما بأنه يمكن إرسال شخص واحد فقط، فى كل مرة. وعليه، فسنضطر فى هذه الحالة إلى تأجيل ترحيلهم ما يزيدعن ستة أسابيع، وهو أمر مستحيل تماما، نظرا للاهتياج العام هنا.

فضلا عن ذلك لم نكن على يقين من أنه سيتسنى لنا إرسالهم، حتى ولو على انفراد. فإن طاقم بواخر الشركة الروسية، الذى جرى مؤخرا تشكيله من هنا وهناك، ليس مأمونا على الإطلاق. ويسود فى صفوف البحارة تذمر دائم، وحدثت غير مرة حالات انتهاك الانضباط والتمرد السافر فى الإسكندرية، كما ذكرت عن ذلك فى أحد بلاغاتى السابقة. إننى، إذ اخذت فى الاعتبار، سواء طابع الجرائم، التى يتهم بها الموقوفون أم الصبغة السياسية، التى اسبغت على هذه القضية هنا، ترتب على أن أقف موقفا حذرا جدا، من أمزجة البحارة. وأن أضع القبطان، الذى توجب على أن آخذه فى الحسبان نظرا للخطر المهدد، أمام ضرورة إما الرفض التام لقبول المجرم على الباخرة، وأما الطلب منه وضع حراسة مشددة عليه كافية لاستبعاد إمكانية حصول تمرد. إذن، حتى فى حال إرسال الموقوفين، كل على انفراد، طبقا للقواعد ـ وهو أمر كان مستحيلا، كما أسلفت، نظرا للإلحاح الشديد من جانب الحكومة الخديوية، وللهياج البالغ فى البلد ـ فلم يكن فى وسعنا، مع ذلك، التعويل على أنهم سوف يرسلون بالفعل، ولما كنا على كل حال استطعنا تحاشى مرافقة كل واحد منهم بحراسة مشددة.

اقترحت عليّ الحكومة المصرية أن تضع الموقوفين، تحت تصرفنا على باخرتنا فى أى ميناء مناسب، من موانئ مصر. ووعد اللورد كرومر، فى حال الضرورة القصوى، حتى بتقديم معونة القوات البريطانية، هذا فى حين أن الوسائل، التى تملكها القنصلية لأجل ترحيل المجرمين، إلى روسيا ليست كافية البتة للاستفادة من الحق الذى تمنحنا إياه الامتيازات.

نظرا لكل ما تقدم، رأيت من واجبى الاستفادة من أول باخرة دورية تبحر من بورسعيد، وموافقة قبطان الباخرة «كورنيلوف» ـ الذى أعطى هذه الموافقة بعد تردد طويل ـ على قبول المجرمين الثلاثة جميعا فى آن واحد، شريطة أن يرافقهم من كل بلد عشرة حراس. ورفضت الحكومة الخديوية رفضا باتا تقديم مستخدميها لأجل هذه الغاية، وعندها اضطر قنصلنا، لاستئجار أشخاص بناء على توصية رئيس الشرطة، لأجل مرافقة الموقوفين حتى أوديسا. ونقلهم القطار الاستثنائى، الذى قدمته الحكومة، إلى بورسعيد وسط حراسة قوة عسكرية، ورفعت الباخرة المرساة بعد وصول القطار مباشرة.

فى اليوم التالى تلقيت نبأ بأن الباخرة «كورنيلوف» تجاوزت يافا بسلامة.

بما أن المخرج الراهن، كان المخرج الوحيد من ذلك الوضع العاجز الذى إن وجدنا، فيه فلا يمكننى أن آمل بألا يمانع معاليكم فى السماح للقنصلية فى الإسكندية بأن تدرج فى حساب التكاليف الطارئة جميع النفقات التى صرفتها على ترحيل الموقوفين إلى أوديسا.

سميرنوف

القاهرة، ١٦ من يناير ١٩٠٧م، رقم ٩.

فى الأول من يناير (كانون الثانى) وصل إلى القاهرة صاحب السمو الامبراطورى الأمير الأعظم بوريس فلاديميروفيتش. وإذا حذرنى السكرتير الخاص للأمير الأعظم السيد شيك بأن الأمير الأعظم يتجول متنكرا بصرامة، تحت اسم Compte de Brudes، وبناء على رغبة سموه، فلم استقبله فى محطة القاطرات، ولم أحضر إلى سموه فى الفندق إلا فى اليوم التالى فقط.

فى الأيام التالية، قرر الأمير الأعظم مشاهدة المدينة وزيارة الأهرام وصحراء سقارة. وفى يوم السبت المصادف ٦ من يناير رافقت الأمير الأعظم إلى المقابلة عند الخديوى، وبعد ذلك استقبل سموه الأمبراطورى زيارة الخديوى الجوابية فى الوكالة الدبلوماسية الأمبراطورية، وفى يوم الاثنين المصادف ٨ من يناير سافر إلى مصر العليا، لقضاء حوالى أسبوعين.

فى اليوم التالى مباشرة، لسفر الأمير الأعظم، بدأت الاضطرابات فى القاهرة، وحضر عندى مانسفيلد باشا رئيس شرطة القاهرة ورجانى إبلاغ سموه بأن جمهورا من الفوضويين، ظهر فى المدينة وأن الفئات الدنيا من السكان محرضة تحريضا شديدا ضد روسيا[٢٥]. وكان يشغل باله أن العملاء لاحظوا وجود أفراد مشبوهين ظهروا فى كل مكان زاره الأمير الأعظم، ويبدو أنهم كانوا يراقبون سموه. ومن جراء ذلك يود مانسفيلد باشا أن يطلب من الأمير الأعظم عدم العودة من مصر العليا قبل مرور أسبوعين، وألا يتوقف فى القاهرة بعد عودته. بل وحتى أن يركب الباخرة، إذا أمكن، لا فى الإسكندرية، بل فى بورسعيد.

سميرنوف

أرشيف الدولة التاريخى المركزى، لينينغراد، الملف ٦٧٨، الأضبارة ١، المستند ١٣٤٥، أعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٥.

من رسالة المبعوث الروسى فى مصر سميرنوف إلى مدير المكتب الرئيسى للشركة الروسية للملاحة والتجارة مولتشانوف

القاهرة، ٢٧ من إبريل ١٩١٣م

عزيزى أناطولى. يفغرافوفيتش! .. لليوم الثالث أنا موجود فى الإسكندرية بشأن قضية تخصكم عن كثب، فقد أبلغونى من الوزارة أنه من المتوقع حدوث إضراب فى أول مايو (أيار) لطواقم البواخر، وتم إصدار الأوامر، باتخاذ الإجراءات الممكنة. وأخيرا اتخذ أمر بتوقيف أداموفيتش، القائد الرئيسى

المعروف لديكم. وفى الحال، سافرت إلى الإسكندرية، وبعد مرور ثلاث ساعات بالتحديد على محادثاتى، مع الشرطة تم توقيف أداموفيتش، الذى يعيش تحت اسم مستعار،وبجواز سفر ألمانى، علما بأنه تم العثور عنده، على أوراق هامة للغاية، ومراسلات وحتى ختم المنظمة. أرسل لكم بصمته.

لقد جرى ذلك كله بنجاح بالغ. فكيف السبيل لإرساله إلى روسيا؟ القنصل، يتشكى من أن الغرف فى بواخرنا غير ملائمة للموقوفين..

أرشف سياسة روسيا الخارجية الأرشيف السياسى الأضبارة ٤٨٢ المستند ٨٧٤، عام ١٩١٣م.

بلاغ[٢٦]. المبعوث فى مصر إلى وزارة الخارجية، القاهرة، ١٧ (٣٠) مايو ١٩١٣، رقم ١٦.

لقد أصبحت معلومة لدى الوزارة الإمبراطورية تفاصيل اعتقال منظم إضراب طواقم البواخر، أداموفيتش، وذلك سواء من برقياتى السرية، أم من البلاغ المفصل، الذى أرسله قنصلنا فى الإسكندرية، بتاريخ ٢٨ من إبريل (نيسان) من العام الجارى، تحت رقم ٣٦٥، وقدمت منه نسخة إلى الدائرة الأولى.

رغم أن أداموفيتش كان يختبئ، فى الإسكندرية، تحت اسم مستعار وبجواز سفر ألمانى، فقد تم اعتقاله بعد مرور ثلاث ساعات على قيامى شخصيا بتسليم أمر وزارة الداخلية باعتقاله إلى القنصلية.

أرى من واجبى أن أشير إلى أننا ندين بالتنفيذ الناجح للمهمة، التى ألقيت علينا، سواء إلى نشاط القنصل وسرعة إعطائه الأوامر، وإلى المستشار بتروف أم إلى المعونة الودية، من جانب موظفى الشرطة، المحلية الذين، قد سبق لى غير مرة، أن اعتمدت على مساعدتهم الدائمة.

إن اعتقال أداموفيتش وضع فى حيازة الحكومة الإمبراطورية مواد شيقة وهامة إلى أعلى حد. فقد تم العثور على وثائق تتعلق بتنظيم طواقم البواخر، وعلى ختم المنظمة نفسه، وقوائم مختلفة، ورسائل من أشخاص معتقلين فى روسيا، ومراسلات تثبت علاقة المنظمة، باتحادات مماثلة لها، فى الغرب وبلجان عمالية فى أوروبا.

وبالمناسبة وجد فى قائمة الأشخاص المرتبطين، بالمنظمة اسما شخصين ذوى التبعية الروسية، يعيشان فى القاهرة وضواحيها، ومن جراء ذلك كلفت نائب قنصلنا المستشار زوييف بتفتيش بيتهما. ومن المرجح أن شائعة اعتقال أداموفيتش، قد وصلت إلى الشخصين المعنيين ـ فلدى عملية التفتيش، لم يتم العثور على أى شىء مثير للشبهة، ولكن الصحافة المحلية، تلقفت نبأ الاعتقال وأخذت تحتج بشدة على «العنف الروسى» ومرد ذلك إلى أن «ضحية» التفتيش كان المدعو سيرغى بوريتسين، الذى يعيش منذ بضع سنوات، فى حلوان حيث أنشأ مزرعة تجارية، لتربية الزهور. فبعد الحركة التحررية غادر بوريتيسين روسيا على جناح السرعة حيث حوكم جزاء مقالات نشرها، وبوصفه صحفيا سابقا، أقام هنا أيضا روابط مع الجماعات الليبيرالية، ورجال الصحافة ـ الأمر الذى يفسر اهتمام هؤلاء الشديد، بالقضية.

وغنى عن البيان إن عملية التفتيش العادية التى قام بها السيد زوييف، جرى تحويرها فى الجرائد بتلاوين متجهمة.

فى غضون ذلك قام شركاء أداموفيتش فى الرأى فى فيينا بإبلاغ نبأ اعتقاله إلى لندن، إلى ممثلى حزب العمال البريطانى، ونتيجة لذلك بعث السير ادوارد غراى برقية استفسار إلى اللورد كيتشنر الذى أجاب على هذه البرقية أنه لاتوجد فى قضية أداموفيتش أية تراجعات عن النظام الشرعى، لأنه ليس بإمكان انجلترا، فى ظل وجود الامتيازات، فى مصر، التدخل فى هذه المسألة.

ولكن الصحف اللندنية، وسائر الصحف الأوروبية، شرعت تبدى القلق بصدد اعتقال عضو الاتحاد العمالى، وحذت حذوها بعض الجرائد المحلية هنا التى، إذ نسيت مؤقتا تفتيش بيت بوريتسين، وإذ نسيت شروط بلد الامتيازات، أخذت تطالب بإلحاح لاعتبارات إنسانية بإطلاق سراح أداموفيتش الذى ينتظره جزاء معتقداته الليبيرالية الحكم بالإعدام. على حد زعمها، أو على أقل تقدير الحكم بالأشغال الشاقة، مدى الحياة فى سيبيريا. وحتى أنه تسربت إلى الصحافة

رسالة شخصية من أداموفيتش، كتبها فى السجن، ويرجو فيها السلطات البريطانية والشعب الإنجليزى بعدم السماح بأن يسقط هو ضحية لمعتقداته الليبيرالية.

لاتزال طرية فى ذاكرتى أحداث عام ١٩٠٧م عندما بدأت، بصدد قيامنا باعتقال ثلاثة أشخاص ذوى التبعية الروسية، فى الإسكندرية كانوا ينوون تفجير باخرة روسية بالقنابل، حملة تحريض جرائدية مماثلة تماما، مع المطالبة بأن تدافع إنجلترا الحرة التفكير عن ضحايا الاستبداد الروسى. وقد انتهت هذه القضية آنذاك، كما تذكرون يا صاحب المعالى، باضطرابات خطيرة جدا فى الإسكندرية، والقاهرة، فإن جميع حثالات الجاليات الأوروبية، ويوجد بينها عدد كبير من الفوضويين هنا، اشتركت آنذاك فى هذه الحركة، وتعرضت قنصليتنا فى الإسكندرية، لهجوم الرعاع الذين أهانوا علمنا وشعارنا وعريد الجمهور المتوعد أمام مبنى الوكالة فى القاهرة أيضا، وتلقيت أنا تهديدات بالقتل، وبذلت الشرطة جهودا غير قليلة، من أجل تحاشى حصول تعقيدات لاحقة.

على أثر ذلك رأيت من واجبى تبادل الرأى مع اللورد كيتشنر حول ما يجرى. وأعربت له عن قناعتى التامة بأنه ما دامت الامتيازات موجودة، فإن قناصلنا سيجدون دائما مساندة، من جانب السلطة المحلية، فى ممارسة حقوقهم، وهو أمر تؤكده أيضا لهجة، جواب الفيلد مارشال للسير أدوارد غراى. وأضفت قائلا: إنه، نظرا لارتباطات منظمة طواقم البواخر مع الاتحادات العمالية، بل وحتى مع أوساط فوضوية، فى أوروبا، فإن اللهجة، التى يتخذها بعض الصحفيين الذين يسمحون لأنفسهم بالتحدث عن وجود أعمال عنف فروسية ويطالبون خلافا للتفكير السليم بإطلاق سراح أداموفيتش، إنما هى لهجة غير مستحبة على الإطلاق سيما وأن تحريضا مماثلا عام ١٩٠٧م أثار فى مصر أعمال شغب خطيرة.

على الرغم من أن اللورد كيتشنر لايعتبر نصيرا لمضايقة الصحافة، فقد تسنى لى مع ذلك إقناعه بتقديم نصائح إلى رجال الصحافة بالاعتدال. وما لبث نتائج ذلك أن ظهرت: فإن جريدة «إجبشين مايل» الأكثر اشتياطا غيرت لهجتها

كثيرا، وإذا كانت لاتزال تسمح ببعض العبارات غير المستحبة، بالنسبة لروسيا، فإنما تفعل ذلك فقط فى نشر رسائل أشخاص عاديين موجهة إلى هيئة التحرير.

إن جريدة «إجبشين مايل» كانت ملكا لشخص ذى التبعية النمساوية، وكان ينبغى علىّ التعامل معها بصورة حذرة جدا. وفى الوقت نفسه حاولت التأثير على مجلات أخرى أيضا، كـ «جورنال دى كايير» و«لو بروغريه»، بأن قدمت لها بعض التوجيهات..

على هذا النحو آمل بحلول هدوء مؤقت فى الصحافة، ولكن نظرا لكون القضية تثير اهتمام الأوساط العمالية، التى تحرضها اتحادات مختلفة من أوروبا، فلا يجوز توقع، فتور التحريض، تماما ما دام لم يتم ترحيل، أداموفيتش من مصر، أرى من الضرورى تماما إرسال رجال شرطة لجلبه. فنظرا لهياج طواقم البواخر، فإن إرساله - بدون حراسة مأمونة - أمر بالغ الخطورة، بل وقد يكون مستحيلا أيضا. وآسف فقط من أننا تباطأنا كثيرا فى ارسال موكب الحراسة، هذا لأنه سوف يمر أكثر من شهر بين تاريخ اعتقال أداموفيتش - ٢٤ من إبريل (نيسان) - وبين تاريخ إنطلاق أول باخرة، يمكن أن تنقله - ٢٨ من مايو (آيار). فخلال هذا الزمن أفلح هذا التحريض فى النضوح، وتجميع الصفوف، وهو يدل على التخالط الوثيق بين الاتحادات العمالية الثورية العالمية، هذا التحريض الذى رأيت من واجبى إبلاغ معاليكم عنه فى تقريرى هذا.

سميرنوف

من المبعوث فى مصر إلى وزير الخارجية.

القاهرة، ١٧ (٣٠) مايو ١٩١٣م، رقم ١٧

حمل البرق إلينا أمس نبأ من لندن عن الاستجواب، الذى قدمه رامساى ماكدونالد فى مجلس العموم بصدد اعتقال أداموفيتش فى الإسكندرية. وأجاب السير أدوارد غراى، طبقا لروح البرقية التى أرسلها إليه اللورد كيتشنر بهذا الصدد، ولم يكن فى وسعه على ما يبدو الإجابة بطريقة أخرى. ويظهر أن

أعضاء البرلمان، الذى آثاروا أسئلة كهذه، ليس لديهم تصور كاف عن جوهر الامتيازات، وكان يتوجب على الوزير أن يوضح أنه ما دامت الامتيازات موجودة فلا يمكن للحكومة البريطانية ولا للحكومة المصرية التدخل فى جوهر المسألة المتعلقة باعتقال شخص التبعية الروسية، وهما ملزمتان فقط بمساعدة السلطات الروسية فى ممارسة حقوقها.

استغل الوزير البريطانى هذه الحالة، بالطبع، لكى يدل البرلمان ويؤدى له على أن الامتيازات تشكل مضايقة لا تحتمل بالنسبة لحرية أفعال بريطانيا فى مصر، وكرر القول أن إنجلترا، قد بدأت بإجراء مفاوضات مع بعض الدول حول إلغائها.

ولكن، رغم أن السير غراى لم يفوت الفرصة لاستغلال قضية أداموافيتش كحجة قوية ضد الامتيازات، فلا يمكننا عدم الاعتراف، بأن مجمل الموقف من القضية، سواء فى لندن، أم هنا من جانب السلطات البريطانية والمصرية، يتميز حتى اللحظة الراهنة باللباقة التامة.

سميرنوف

من المبعوث فى مصر إلى وزير الخارجية

القاهرة، ١٧ (٣٠) حتى مايو ١٩١٣، رقم ١٨

لايجوز عدم لفت الانتباه إلى الأصداء غير الاعتيادية، التى أعربت عنها المنظمات العمالية الأوروبية، بصدد قضية أداموفيتش.

وكانت إحدى كبريات النقابات البريطانية ، التى تمثل ٤٠٠٠ عامل، أول من اتخذ قرارا اجماعيا بتوجية احتجاج إلى السير إدوارد غراى، وبالمطالبة بإطلاق سراح الموقوف على الفور.

وأعرب عن الاحتجاج والمطلب نفسيهما، Hammer smith and
Shephe rde, Bush Habowm Com=
Mittee, Nationel doekers
Conference at Fiver Pool, so =

ciety of hocomotior Engineers
and Firemen, Shop Assistemsantion hondon
Trades council

وجريدة Daily Citizen

الناطقة، باسم حزب العمال، وسائر جرائد أمثال هذه المنظمات، وكان همها الوحيد، التحدث عن قضية اعتقال أداموفيتش.

ومن انجلترا انتقلت اضطرابات الحلقات العمالية، إلى فرنسا وبلجيكا وألمانيا، والنمسا، وفى كل مكان جرى الإعراب عن التعاطف، مع أداموفيتش، كما حدث بعد إعدام فيرير، ولو بدرجة أقل بالطبع.

الصحافة هنا - إننى أقصد الجرائد الصادرة، بلغات أوروبية؛ لأن الصحافة العربية قلما اهتمت بقضية أداموفيتش - كانت بالأحرى، إذن، انعكاسا لمزاج الجماعات العمالية فى أوروبا، وعملت بوحيها.

إن إجراءات لجمها، التى اتخذها اللورد كيتسنر بناءً على طلبى، والقالات الرشيدة والهدئة، التى أوحينا نحن بها، قد أخمدت ثورتها؛ غير أن النشاط السرى لشركاء، أداموفيتش فى الرأى، والتأثير، الذى يمارسه من أوروبا على العمال الأوروبيين المقيمين هنا، والسريعى التأثر بالأفكار الثورية الفوضوية، يتواصلان بالقوة السابقة، وتجرى فى الجتماعات والاحتشادات، منافشة المسألة المتعلقة بإجراءات تحريرأداموفيتش.

نظرا لذلك، فما دام المعتقل لم ينقل من مصر؛ فإن التحريض سيتواصل حتمًا، ولقو يمكن أن يثير، كما سبق، لنا أن عاينا، إما مظاهرات معادية لنا وإما اضطرابات وأعمال شغب، شبيهة بتلك التى جرت عام ١٩٠٧م، ناهيك عن أنه ما دام أداموفيتش موجودا، فى السجن المصرى، فإن أية محاولة لتحريره ليست مستحيلة أبدا. وبالمناسبة، عززت الرقابة عليه، بناء على طلب قنصلنا، بعد أن تسنى له تحرير رسالة من السجن، إلى هيئة تحرير إحدى الجرائد.

سمير نوف

من المبعوث فى مصر إلى وزير الخارجية

القاهرة، ٣ (١٦) يونيو ١٩١٣م، رقم ١٩

إن المعتقلين فى الأسكندرية أداموفيتش وفلاديمير تيرسكى، وكذلك المرأة التى تسكن مع الأول السيدة تريبيه ذات التبعية السويسرية، ولقبها الأصلى خوخلوفا، يعتبرون قادة ثوريين هامين جدا؛ لأنه، لو لم يكونوا يفترضون نقل أحد أهم مراكز التحريض الخارجى، المعادى للحكومة إى مصر، لما كانوا أرسلوهم إلى هنا.

إن دور هؤلاء الأشخاص ـ ولاسيما أداموفيتش ـ تدل عليه سواء تلك الضجة، التى أثارتها الاعتقالات فى أوروبا أم مراسلات أداموفيتش، التى نقلت إلى قنصليتنا فى الاسكندرية، والتى تصعق بمقاديرها وتتألف من منشورات ومطبوعات ثورية فوصوية، وارتباطات بالكتل والمنظمات الثورية الأوروبية، وكذلك من كمية كبيرة، من الرسائل الخاصة، لمختلف القادة الثوريين، ؤوإن الرسائل هذهستقدم للشرطة مادة غزيرة وهامة.

غير أن الحزب نسى، لدى توسيع نطاق نشاطة فى مصر، أن يأخذ فى الحسبان شروط الامتيازات، فى هذا البلد.

فى الحقيقة إن المتعقلين كليهما احتاطا لنفسيهما، بجنسية أجنبية كحالة الضرورة؛ فأداموفيتش كان يقيم بجواز سفر ألمانى، بينما كان تيرسكى يدعى بأنه أرجنتينى.

أما السيدة تريبية، وهى متزوجة من شخص سويسرى، فقد كانت تنتمى إلى الجنسية السويسرية، ولذا ورغم أنها اعتقلت، مع مساكنها فقد اقتضى إطلاق سراحها بعد زمن قليل. أصيب أداموفيتش لدى اعتقاله بالارتباك، لأنه ـ على ما يظهر ـ لم يكن يظن أبدًا بأنه سيقع هنا بهذه السهولة، فى أيدى السلطات الروسية.

بعد اعتقاله مباشرة بدأ أقوى تحريض، وسط الاشتراكيين، والفوضويين المصريين بتأييد واضح من جانب السيدة تريبيه وشركائها فى الرأى؛ وانضمت

الصحافةإليهم أيضًا كما أسلفت. وثار قلق مختلف المنظمات العمالية أيضًا فى أوروبا، وبدأت الاحتجاجات ضد اعتقال أداموفيتش فى جميع المراكز العمالية الأوروبية. وأخيرا، حتى فى مجلس العموم البريطانى نفسه، جرى ثلاث مرات، تقديم استجواب بصدد قضية أداموفيتش.

فى البدء، قيل: إنه لاينبغى للسلطات البريطانية السماح بـ «تسليم» أداموفيتش، علما بأنه غاب عن البال تمامًا، أنه لم يجر هنا أى «تسليم» ، ولم يكن يمكن أن يجرى؛ لأن أداموفيتش،قد اعتقل من جانبنا كأى أجنى، يجوز أن تعتقله حكومته، فى بلد الامتيازات.

وفيما بعد أخذت الصحافة تتحدث عن أنه يجب على السلطات الروسية، تنازلا منها، للرأى العام فى أوروبا بأسرها، أن تطلق سراح أداموفيتش وأن تنظر فى قيته هنا، فى مكان حدوثها.

فى الأوساط العمالية والاشتراكية للاسكندرية، والقاهرة، تجرى اجتماعات حاشدة، تناقش إجراءات عدم السماح بإرسال المعتقلين، إلى روسيا.

ومن المرتاى جمع جمهور ومحاولة انتزاعهما من الحصار، كما جرى اللجوء إلى التخويف: فقد نقل إلى بواسطة أشخاص مختلفين، بأننى وكلا ممثلينا القنصليين، فى الاسكندرية والقاهرة محكومون، بالإعدام إذا جرى إرسال المعتقلين. مع ذلك، إلى روسيا. ولم تتورع السيدة تريبيه شخصيا، عن توجيه تهديدات، كهذه إلى المستشار الوزارى بتروف.

أرى من واجبى أن أكرر أن التباطؤ فى إرسال خفر، إلى هنا وفر الوقت، لنضوج كل هذه الحركة بأن أطال أكثر من شهر. مدة وجود أداموفيتش فى سجن محلى، حيث أفلح فى أن يقيم منه علاقات. مع شركائه فى الرأى، وذلك عن طريق بعث رسائل لنشرها فى الجرائد، بل وحتى أنه تسنى له الفرار من السجن، رغم أنه تم القبض عليه فى الحال. فلو أن أفراد الجندرمة، وصلوا إلى هنا قبل أسبوعين، وهو أمر لم يكن مستحيلا على الإطلاق، ولم أنهم أرسلوا بعد ثلاثة . اربعة أيام من الاعتقال، لكانت تمت إزالة الكثير من المصاعب والمضاعفات.

لم يكن من الممكن بتاتًا إرسال المعتقلين بدون خفر من الجندرمة؛ ولم يكن فى استطاعة القواص، الذى يفتقر للحنكة، والخبرات العسكرية، وغير الملم باللغة الروسية، أن يصونهما، ولاسيما أن كثيرين من طاقم الباخرة هم شركاء فى الرأى، ومعاونون لهما. إضافةً إلى أن عدد القواصين عندنا فى الأسكندرية غير كاف حتى لأجل الاضطلاع بالخدمة القنصلية - الأ مر الذى سبق لى آن اشرت إليه غير مرة والذى يضايق للغاية، فى حالات هامة، إعمال سلطتنا القنصلية.

ففى هذه المرة كان ينبغى وضع حراسة فى قسم الماكنات أيضًا، بالباخرة؛ لأننا تلقينا تحذيرا من القسطنطينية بوجود نية تفجير المراجل بقنبلة.

قبل اقلاع الباخرة، بساعة واحدة، تم نقل المعتقلين، بالسيارة من السجن إلى جمرك الميناء، ورفعت الباخرة المرساة بدونهما. ولكن فيما بعد لدى الخروج من الميناء، أستلمت أداموفيتش وتيرسكى من الخفر المصرى، الذى أوصلهما مباشرة إلى المتين على زورق جمركى.

إننا مدينون بالانجاز الناجح لهذه القضية، إلى حد كبير، لمساهمة الموظفين المحليين فى الشرطة انجلو - مصرية التى، بدءًا بمدير الأمن وانتهاءً بأصغر عميل، ساعدتنا وعاونتنا، بغيرة بالغة، كما لو أنها شرطة روسية. وإننى، إذ أنوى فى المستقبل القريب، أن أرفع إلى معاليكم قائمة بالأشخاص، الذين سيكون من الضرورى لنا، التماس تقليد أوسمة روسية لهم، لايمكننى إلا أن بأن الإنجليز، إذ وقفوا لائقا للغاية، من القضية من الناحية الشكلية وبمراعاتهم للامتيازات، على مايبدو، كان فى إمكانهم دائمًا، إعاقتنا، أو عرقلتنا بمختلف الأساليب، فى اعتقال أداموفيتش وترحيله، واذا كانوا لم يستغلوا مثل هذه الامكانية فإن الفضل فى ذلك يعود، بالطبع، إلى إرادة اللورد كيتشنر، الذى تسنى لى، منذ محادثتى الأولى، معه حول هذه القضية، الاستحصال على وعد بمساعدتنا فى إيصال القضية إلى نهايتها.

سمير نوف

من المبعوث فى مصر إلى وزير الخارجية

القاهرة، ٣ (١٦) من يونيو ١٩١٣، رقم٢٠

أرى من واجبى أن ارفق طيه، فى مقطع من الجريدة، الاستجواب الجديد، الثالث، فى مجلس العموم البريطانى بشأن قضية أداموفيتش. أن جواب السير إدوارد غراى، يتميز بنفس ذلك الهدوء، والسداد، اللذين تميزت بهما أجوبته السابقة، وهو يتطابق كليا مع روح البرقية التوضحية، التى أرسلها اللورد كيتشنر، منذ بداية القضية إلى وزير الخارجية .

وأوضح هذا مجددا للبرلمان القواعد الاساسية للامتيازات، وقال: إه لايوجد هنا أى «تسليم» كما لاتوجد فى هذه الحالة فوارق بين الجريمة لاسياسية والجريمة الجنائية، وختم بالقول: إنه ما دامت الامتيازات لم تلغ بعد فيجب التقيد بها إن المسألة تتحصر مجددا فى ضرورة إلغاء أو تغيير الامتيازات، الأمر الذى يتحدث عنه الإنجليز كثيرًا فى الآونة الأخيرة. يستحيل على المرء ألا يرى مسبقا أنه إذا حرمنا تغيير نظام الامتيازات، من امكانية ايقاف نشاط المحرضين السياسيين. هنا، فإن مصر ستصبح واحدة من اهم واخطر نقاط الدعاية المعادية لحكومتنا.

سمير نوف

من المبعوث فى القاهرة إلى وزير الخارجية

القاهرة، ١٥ (٢٨) من يوليو ١٩١٣م رقم ٣٨

نشر فى الصحف الانجليزية تقرير اللورد كيتشنر إلى السير إدوارد غراى، الذى ارفقناه طيه بمقتطف من الجرائد، حول قضية أداموفيتش.

وقد أوضح الممثل البريطانى فى مصر بالتفاصيل، فى هذا التقرير، مفعول الامتيازات دون أن يعرب إطلاقا عن موقفه المتحامل منها، وعلم النسواب والجمهور البريطانى من هذا التقرير، من جملة ما علموه، أن أداموفيتش لم يكن على الإطلاق، المواطن الأجنبى الوحيد، الذى اعتقل وزج به فى السجن المحلى، بناء على طلب السلطات القنصلية . فبالإضافة إلى أداموفيتش كان يقبع فى السجون المصرية حوالى ثلاثمائة اجنبى.

ينبغى الأمل فى أن كل الضجيج الذى أثير، فى إنجلترا حول اعتقال أداموفيتش سينتهى مع نشر تقرير كيتشنر. غير أن الرأى العام، يواصل اتخاذ موقف عدائى للغاية، من روسيا، وتلوم جريدة «دايلى نيوز» كيتشنر، على أنه يحث الحكومة المصرية على رفض تسليمنا» أداموفيتش ،كما فعلت تركيا فى الأربعينيات، عندما رفضت تسليم كوشوت إلى النمسا. إن استشهادا كهذا حول انتهاك تركيا السافر، للمعاهدات وحول قيامها، بعمل عدائى مباش ضد النمسا، رغم إنجلترا استحسنت لاعتبارات دبلوماسية، يتوافق بالكاد سواء مع ذلك فى حينه علاقات روسيا الودية مع إنجلترا أم مع الأهمية السياسية لقضية أداموفيتش، التى (أى الأهمية) حظيت بهذا القدر الواسع النطاق، من العلنية، وذلك فقط بسبب الاهتمام الذى أعارته إياها الأوساط الفوضوية والاشتراكية، الديمقراطية والعمالية.

منذ حوالى ثلاثة أسابيع تقريبا، اعتقل فى مصر فار ايطالى من الخدمة العسكرية، انتقل أثناء حرب طرابلس الغرب إلى جانب الأتراك، ولعب دورًا بارزًا للغاية، بوصفه شخصًا قريبًا من أنور بيه، وأرسل إلى إيطاليا حيث سيجرى إعدامه - بلاشك - غير أن اعتقاله، والعقاب، الذى ينتظره لم يثيرا هنا تعاطفا معه حتى وسط المسلمين، الذين انتقل إلى جانبهم، ولم تر الصحافة فى هذه القضية أى انتهاك لحق الالتجاء فى مصر، والذى طالبت به بكل الحاح، بالنسبة لأداموفيتش

سمير نوف

برقية عاجلة من السيد وزير

البحرية ٢٧ بتاريخ ٥ (١٨) مارس

١٩١٧، رقم ٣٧٨٥

القاهرة، ٦(١٩) من مارس ١٩١٧

بلغوا جميع قادة القوات البحرية والبرية الروسية: - أطلب منكم أن تعلنوا لجميع الوحدات باسمى أن النظام فى روسيا استعيد فى كل مكان بالجهود

الموحدة لدوما (مجلس) الدولة والضباط، والوحدات العسكرية والشعب. إن السلطة الحكومية، التى أنشئت ترى فقط فى الحفاظ على أشد النظام صرامةً، ضمانة للانتصار النهائى لوطننا. فبدونه لايمكن تصور الانتصار. وقد تجد روسيا نفسها على حافة الهلاك، بدلا من سحق العدو. أطيعوا قادتكم، شأنكم أنتم أيضًا، الذين اعترفوا بالانقلاب (*)، الذى قام به الشعب ، والنصر حليفنا. فلترس هذه الأيام العظيمة بداية الحياة السعيدة، والحرية الجديدة لروسيا.

يذكروا أن كل يوم فتنة زائد يبعدنا عن النصر المنشود، الذى سيضمن لبلادنا امكانية العمل السلمى، والسعيد والحر لما فيه خير لروسيا.

من سمير نوف إلى ميليوكوف

القاهرة، ١٢ من مارس ١٩١٧

بعد تسليمى المفوض السامى البريطانى نص بلاغكم البرقى المؤرخ، فى ٦ (١٩) من ماركس (آذار) من هذا العام نشرت محتواه فى الصحافة المحلية، لإطلاع الجمهور والجالية الروسية عليه.

فى أوساط هذه الجالية كان قد أصبح معلوما، من البرقيات المنشورة فى الجرائد، عن الأحداث، التى جرت فى روسيا، ومع ذلك قوبل البلاغ الصادر عن الوكالة الدبلوماسية الروسية، بهياج شديد.

ففى يوم الأحد المصادف ١٢ (٢٥) من مارس نظمنت الجالية اجتماعًا جماهيريًا حاشدًا، حضره أيضًا عدد غير قليل من الأجانب. بعد انتهاء الاجتماع الحاشد حضر إلى عندى وفد عنه، وقرأ على السيد بروزوز، الذى ترأس الاجتماع وهو المندوب الروسى فى صندوق الديون المصرية، ومبعوثنا السابق فى البرازيل، نداء أرفقت عنه نسخة هنا، مع نص البرقية، التى صاغها الاجتماع.

واعربت فى جوابى للوفد عن الشقة التامة، بالمآل الموفق للأزمة الراهنة؛ لأن أسماء الأشخاص، الذين يترأسون الحكومة، تشكل ضمانة لذلك. وأضفت قائلا:

(*) المقصود هنا ثورة فبراير (شباط) عام ١٩١٧ فى روسيا - المترجم

إن السلطة موجودة فى أيدٍ أمينة، وأن الطموح إلى الانتصار على العدو يتضاعف كثيرًا وكثيرًا فى روسيا الحرة.

بعدها خرجت إلى الشرفة. لقد تجمع فى الشارع أمام المبنى، حشد ضخم من الناس. وحيانى بصوت عالٍ الاشخاص الذين كانوا فى الاجتماع الحاشد وهم يرفعون علمًا أحمر كتب عليه «عاشت روسيا الحرة!».

البرقية باسم الجالية الروسية، أرسلتها اليكم على الفور، وآمل بانكم استلمتوها فى الوقت المناسب.

نسخة عن نداء السيد بروزور، الذى ترأس الوفد عن الاجتماع الحاشد فى ١٢ (٢٥) من مارس (آذار) ١٩١٧م إلى المبعوث الروسى فى مصر: «انفض لتوه الاجتماع، الذى كان يهدف إلى الترحيب بالمستقبل المجيد الجديد، الذى انفتح أمام روسيا. اشترك فى الاجتماع على السواء من يقطن هنا من أبناء الشعب الروسى، وابناء مختلف القوميات التى ربطت مصيرها به. كلفنا الاجتماع، بأن نرفع إليكم، بوصفكم الممثل الرفيع الاحترام لروسيا فى مصر، طلبًا بأن تتفضلوا وترسلوا إلى رئيس دوما الدولة البرقية الآتى نصها: «نحن»، قوى التبعية الروسية من جميع القوميات والقاطنين مصر، نعرب عن مشاعر التعاطف العميقة والثقة المطلقة، بالأشخاص الذين يقودون اليوم مصائر روسيا نحو مستقبل جديد للسلم والإخاء بين الشعوب ويناضلون فى سبيل شعوبهم، ونبعث بتمنياتنا الحارة إلى جيشنا المجيد، وقادته الذين لا يقهرون».

برقية سرية من القنصل الروسى

فى الإسكندرية بتروف ٢٢ إلى المبعوث

الروسى فى مصر سمير نوف٢٨

الإسكندرية ٤ (١٧) من أغسطس

١٩١٧، رقم ٢٥٠٩

«أبرق إلى المبعوث فى القاهرة:

فى ٦ من أغسطس (آب) وصل إلى الإسكندرية من مرسيليا على متن سفينة حربية فرنسية بحارا الطراد« بيريسفيت» ميخائيل بتروف ونيقولاى لوتشينين الموفدان إلى لجنة التحقيق فى ملابسات غرق الطراد المذكور. كانت لديهما بطاقتان حتى بورسعيد ونزلا هنا، فى الإسكندرية، دون ما إذن بذلك، رغم قواعد حالة الطوارئ السارية المفعول وفى الخفاء عن سلطات المرفأ، وأخفيا على ذلك لدى استلام عفشهما بذل القنصل جهدًا كبيرًا لمنع إعادتهما قسرًا إلى الباخرة. وقد فسرا سبب سلوكهما بظروف العيش على متى الباخرة، التى هى، مع ذلك، مماثلة لظروف عيش رفاقهم الفرنسيين.

أخبرونى أن لوتشينكين نطق فى مبنى القنصلية بأقاويل ذات طابع سلامى، وبلشفى عن ضرورة إيقاف الحرب، مؤكدًا على أن وضع الشعب لن يصبح أسوأ حتى ولو احتلت ألمانيا جزءا من روسيا...»

بتروف

من ماكالينسكى إلى سمير نوف

بورسعيد، ٢٩ من اغسطس (١١ من سبتمبر) ١٩١٧

«أرى من واجبى أبلاغكم بأن السلطات الفرنسية، والإنجليزية هنا (ولاسيما الأولى) مهتمة اهتمامًا شديدًا بمندوبنا رجل المدفعية البحرية الفوضوى لوتشينكين، وقد استحلصت على معلومات عنه لدى القنصل، والتمست منى معلومات مماثلة. الظاهر أنها تولى أهمية جدية جدًا لهذا الداعى، الذى نزل فى الإسكندرية دون ما اذن بذلك، وأفلح فى تمرير كومة من المناشير الفوضوية الشيوعية. أنا شخصيًا لم اقم بعد بأى عمل نشيط بصدد هذه القضية، بانتظار جواب من بتروغراد. ولكن، إذا كانت سلطات الحلفاء المحلية، ترغب فى اعتقال هذا الشخص، فلن أحاول عرقلتها ألبتة فى ذلك، بل على العكس. اللجنة لاتستطيع بعد بدء أعمالها،لأنه يستحيل القيام باى شىء بدون جواب الإنجليز، بل واللجنة نفسها ليست فى نصابها الكامل: فأمين السر غير موجود، وأحد البحارة = المندوبين لايزال مريضًا، والآخر فوضوى ومن المستبعد إمكان السماح له من جانبنا، بالاشتراك فى العمل...».

من ماكالينسكى إلى سميرنوف

بورسعيد، ٨ (٢١) من سبتمبر ١٩١٧)

« بصدد لوتشينكين لم أتلق بعد شيئًا من الأركان العامة البحرية، ولكن تجرى عندنا مفاوضات مع السلطات المحلية، وأظن أن الإنجليز سيكتفون حاليًا باستمارة بسيطة».

برقية سرية من سيرنوف

إلى الأركان العامة البحرية

القاهرة ٢٠ من سبتمبر (٣من أكتوبر)

١٩١٧، رقم٩٣

مستعجل

«إن المفوض السامى، الذى سبق له أن أعلن لى عن عدم ارتياح الإنجليز لوجود مندوب عن الطراد «بيريسفيت» رجل المدفعية البحرية لوتشينكين فى مصر نظرًا لدعايته الفوضوية والسلامية، أبلغنى الآن بالبيان الرسمى الخطى للقائد الأعلى حول النشاط الثورى للشخص المذكور، فاقترح علينا إما أن نقوم بأنفسنا باقصائه خارج حدود مصر، وإما أن نسمح للسلطات العسكرية الإنجليزية بنفيه؛ إلا أن القائد الأعلى يود ألا تجرى مضايقة أعمال اللجنة؛ ولذلك فإذا سنحت الفرصة، وإذا كانت الحكومة المؤقتة الروسية، تعتبر أن مشاركة لوتشينكين فى اللجنة ضرورية للغاية، فينبغى السماح له بالبقاء هنا، حتى نهاية عملها، وبعد ذلك سيصبار على كل حال إلى ابعاد لوتشينكين من مصر.

من الضرورى، للإجابة على المفوض السامى، معرفة رأى الوزارة حول المسألة المذكورة. أرجو إبلاغى بصورة عاجلة برقيًا»

سميرنوف

من وزارة الخارجية إلى الاركان

العامة البحرية

٢ من أكتوبر ١٩١٧م رقم ٣٣٩

«مستعجل إضافة إلى البرقية بتاريخ ٢٦ من سبتمبر (أيلول) الماضى إلى قسم الإحصاءات التابع للأركان العامة البحرية، المرفقة ببرقية المبعرث الروسى فى القاهرة بتاريخ ٢٠ من الشهر نفسه، تحت رقم ٩٣، والمتعلقة بالازعاجات المرتبطة باستمرار وجود مندوب الطراد «بيرسيفيت» رجل المدفعية البحرية لوتشينكين فى مصر، نظرا لما يقوم به من دعاية سلامية وفوضوية، تعلن الدائرة السياسية الثانية أنه لاتوجد ثمة عقبات من جانب وزارة الخارجية فى وجه إبعاد الشخص المذكور من مصر، إلا أنه يعبر من الضرورى، بالمناسبة، أن يتم إتجاز مثل هذا الإجراء بدون مشاركة السلطات الانجليزية المحلية».

صفحات مجهولة من التاريخ
المبكر للطبقة العاملة المصرية

أرشيف سياسة روسيا الخارجية

ملف القنصلية العامة فى مصر،

الإضبارة ٤٨٢، المستند ٣٢٤، عام ١٨٩٤.

من القنصل فى بورسعيد إلى

برون بريأوبراجنسكى

بورسعيد، ١٤ (٢٦) من مايو ١٨٩٤م

أرى من واجبى أن أبلغكم عن واحد، من اضرابات عمالنا البلديين، فى صناعة الفحم، الذى بدأ يوم الاثنين الواقع فى ٩ (٢١) من الشهر الجارى وانتهى بسلامة مساء يوم أمس.

لقد كان هذا الإضراب، على ما يبدو، نتيجة مباشرة لقيام المحافظ بإيقاف مفعول القانون المتعلق، بمهنة الحمالين، والمنشور فى «الجريدة الرسمية» بتاريخ ٤(١٦) من مايو (أيار) والذى أقر بأنه ينبغى على المحافظ، كما فى السابق، أن يعين شيوخ ونواب شيوخ عمال الفحم.

وما لبثت شركات الفحم الكبرى فى بورسعيد (شركتان فرنسيتان وشركتان إنجليزيتان) أن أعلنت احتجاجها، على هذا الرجوع إلى النظام، الذى جرى التنديد به، منذ زمن الإضراب السابق على أيام إبراهيم توفيق باشا. وحصلت من محافظنا ماهر باشا على وعد بإدخال تعديلات على الوضع الجديد، للحمالين عن طريق إلغاء فئة عمال صناعة الفحم منه. وعليه، فقد سمح للشركات المذكورة بالتصرف، كما فى السابق، أى دفع الأجور للشيوخ الحاليين، الذين يحق لهم وحدهم، ولفرقتهم أيضًا، القبول فى العمل والتسريح منه؛ إذن، يبدو أن القضية قد سويت وأن كل شىء سيكون - بلا شك - كما فى السابق إذا لم يعمد معالى ماهر باشا، كما يوحون له، إلى الإنصات لبعض الشيوخ القدماء، لعمال الفحم الذين سرحوا من العمل فى أعقاب الإضراب السابق، والذين يتحينون منذ ذلك الزمن، فرصة سانحة للعودة مجددًا إلى الوظائف السابقة. إنهم يسمون هؤلاء الأشخاص على المكشوف: محمد كرشوم وعثمان البيومى (هذا الأخير أصبح - منذ زمن غير بعيد - رئيسا للخفراء. هذان الاسمان وردا فى قرار المحكمة التأديبية العليا بتاريخ ٢١ من يونيو (حزيران) ١٨٨٩م الذى سرح بموجبه أيضًا إبراهيم توفيق باشا نفسه (راجع «الجريدة الرسمية» بتاريخ ١٨٨٩/٧/١م.

ابتداء من هذه اللحظة أخذت تتكرر شكاوى عمال صناعة الفحم، الذين باتوا ضحية لتصرفات الشيوخ الذين استأجرتهم شركات الفحم.

فابتداء من مساء يوم الأحد، الواقع فى ٨(٢٠) من الشهر الجارى تسود اضطرابات كبيرة فى القرية العربية؛ وفى وقت لاحق أعلنت الاضراب التجمعات، التى تكونت هنا.

من الضرورى الإشارة إلى أن هذه الحركة، لم تكن موجهة ضد أرباب العمل، أى ضد مكاتب الفحم، بل ضد بعض الشيوخ، الذين استأجرتهم؛ لقد كان المقصود لا الحصول على زيادة، للأجور، أو أى افضلية أخرى من أرباب العمل - فالاعتراض الوحيد للمضربين كان الاضطهاد، الذى لاقوه من جانب الشيوخ، الذين كان قسم منهم، يملكون الحوانيت فى القرية العربية، التى كان يجبرون

فيها أعضاء فرقتهم، تحت طائلة التسريح من العمل، على شراء جميع حاجياتهم بأسعار مرتفعة جدًا، دون أن يقدموا لهم معادلاً مناسبًا، بالنقود الرنانة، وهو أمر ضرورى للغاية، ولو بشكل علاوة غير كبيرة على الأجرة.

لقد كان يبدو أنه من السهل جدا على مركز المحافظة، فى هذه الظروف تهدئة الأمزجة، وقطع دابر هذه الاستهتارات، وذلك بتنسيق الإجراءات المتخذة، مع شركات الفحم، من جهة، وبإغلاق حوانيت الشيوخ، من جهة أخرى.

يصعب على المرء التسليم، بأنه لو كان المحافظ، يرغب فى إيقاف الحركة منذ البداية لما كان استطاع فعل ذلك، لأن الوضع تدهور كثيرًا بعد أربعة أيام من المظاهرات الصاخبة، وشتى أنواع الاضطرابات والمشاجرات فى القرية وتأزم الوضع فى شوارع المدينة، لدرجة أن حتى عمال صناعة الفحم قذفوا أمس بالحجارة الشركة الأوروبية «بورمس جوم» وشركاه، أهم شركة من شركات الفحم، وجرحوا أشخاصا عديدين. وكان يكفى أن يقوم ماهر باشا مساء أمس بزيارة القرية العربية، حتى يستعاد الهدوء بضربة ساحر، ويعود عمال الفحم إلى العمل فى ذلك المساء نفسه مع وصول أول باخرة بحاجة إلى فحم.

تُعزى زيارة المحافظ للقرية العربية، والظهور المفاجئ لقرار إيقاف الإضراب إلى رسالة تلقتها بعض المراجع، والقنصل البريطانى بالدرجة الأولى، وتنبئ بأنه، بعد اقتحام عمال الفحم شركة بورمس مباشرة، تقرر عقد اتفاقية مع قبطانى سفينتى «فيرليس» و«جانيت» نظرا لعدم كفاية إجراءات حماية ممتلكات الأوروبيين أيضًا، بشأن إنزال بحارة من السفينتين فى صباح اليوم التالى، أى اليوم عند الفجر، واحتلال القرية العربية إذا لم يعلن مركز المحافظة خلال هذا الوقت عن إيقاف الإضراب.

منذ عدة أيام كانت شركات الفحم، حسب معلوماتى، قد وافقت على أن يقوم موظف من مركز المحافظة بالإشراف على دوائر الأجور، التى يجب تأكيد صحتها بتوقيعات رؤساء الشركات. وسوف يجرى دفع الأجور أسبوعيًا، وللعمال مباشرة؛ ولن يبقى شيوخ عمال الفحم على الحوانيت، وجميع الخلافات بين

الحمالين، يجب أن يحقق فيها موظف مركز المحافظة الذى يقوم ـ فيما بعد ـ بإحاطة إدارات الشركات علما بها.

اليوم عاد عمال الفحم إلى العمل كالمعتاد، ولاشيء ينذر بعودة الأحداث المؤسفة التى وقعت فى الأيام الأخيرة .

أسمح لنفسى بأن أرفق برسالتى هذه العدد الأخير من جريدتنا المحلية الذى يعطى بعض التفاصيل عن معارك أمس. إننى أعلم أن شركات الفحم طلبت من المحافظ أن يطرد من بورسعيد حوالى ألف من عمال الفحم، الذين عددهم كبير جدا، يتراوح بين ٢٠٠٠و٢٥٠٠ عامل يكفى تمامًا لحاجاتها. ويقال: إن معالى ماهر باشا، يقترح ترحيل أكثرهم إلى مسقط رؤوسهم؛ كى يتم نهائيًا إبعاد جميع المتسكعين والعاطلين عن العمل من بور سعيد.

بورسعيد، ١٧ (٢٩) من مايو ١٨٩٤

تتمة لرسالتى المؤرخة فى ١٤(٢٦) من مايو أدقق فى التأكيد الخاطئ بأن عثمان البيومى عين مؤخرًا رئيسًا للخفراء فى القرية العربية فهذا المنصب هو، على مايبدو، أقل مرتبة من منصب «شيخ الصعيد»، الذى كان يشغلة، أى أنه رئيس الأشخاص المنحدرين من مصر العليا، الذين يقطنون هنا ويؤلفون مجموعة كبيرة العدد من عمال الفحم.

تنبغى الإشارة على الفور، إلى أن الرئيس الجديد للخفراء ـ حسين أبو رزق ـ ونسيبه ووكيله ـ محمدالمصرى ـ كليهما يرد أسماهما شكليًا فقط.

وأخيرا، ينبغى القول: إن البيومى لم يكن موجودا فى بورسعيد أثناء الإضراب. فهو لم يعد إلا بعد أن استدعوه على جناح السرعة؛ لأجل الاستعانة به فى استعادة النظام.

ولربما لن يعلموا فى يوم من الأيام، أى دور اضطلع به، وهل كان بالفعل المبادر الرئيسى للاضراب.

أضيف أيضًا ـ يا صاحب المعالى، أن سفينة خفر السواحل البريطانية «فيرليس» غادرت بور سعيد أمس الأول باتجاه مالطة، بينما وصل مساء أمس

إلى بورسعيد الطراد الفرنسى «كوسماو» لكى يبقى هنا عدة أيام.

برون

(ملف الأرشيف السياسى، الإضبارة ٤٨٢، المستند ٨٣٢، عام ١٨٩٤.)

بلاغ مستشار البلاط برونّ

بريأ وبراجنسكى إلى غيرس

الإسكندرية ٢٩ من سبتمبر ١٨٩٤،

رقم ٤٦

فى الآونة الأخيرة تعرفت مصر على ظاهرة جديدة عليها - اضرابات العمال(٣٠) أرست بدايتها الإضرابات القصيرة الأمد للعمال، الذين يشحنون الفحم الحجرى على البواخر، التى تعبر فناة السويس، وإضراب عمال لف السجاير، الإضراب الثالث، المستمر، حتى الوقت الحاضر، والذى يمكن أن يسفر عن عواقب خطيرة للغاية، بدأ فى بور سعيد وسط عمال (جرافى) قناة السويس، الذين يقومون بجميع الأعمال الجرافية (الكراكية) الضرورية، لتأمين الملاحة الصحيحة عبر القناة.

يقسم هؤلاء العمال، إلى ثابتين وموسميين؛ عمالُ الفئة الأولى يعملون فى القناة نفسها، ويتقاضون أجرة سنوية محددة، تدفع لهم شهريًا؛ والآخرون يعملون فى مرطم بورسعيد، عند مصب القناة فى البحر، ونظرا للعواصف البحرية، التى تعيق العمل على مقربة من البحر فى فصل الشتاء فهم لايعملون سوى ٦ -٧ أشهر فى السنة، ويتقاضون أجورًا حسب ساعات العمل.

إن الظروف غير المؤاتية، التى وضع فيها عمال الجرافات الموسميون ، بالمقارنة مع العمال الثابتين دفعتهم أخيرًا إلى رفع مطالب إلى إدارة القناة، حول تحسين وضعها المادى، كان أهمها ينحصر فى أن تدفع لهم الإدارة، أسوةً بالعمال الثابتين، أجرة شهرية محددة على مدى ١٠ أشهر بالسنة.

قبل تنفيذ إدارة القناة هذه المطالب رفض العمال المذكورون، وكان جزء كبير منهم يتألف من رعايا يونانيين، مواصلة العمل بعد أن تلقوا مساندة مادية من جانب التجار اليونانيين المحليين، وبفضل ذلك طال زمن الإضراب، وأخذ يهدد الهدوء الاجتماعى. وهذه الحالة الأخيرة أثارت تدخل القنصل اليونانى السيد غريبارى فى هذه القضية، الذى تسنى له الحصول من المضربين على وعد بالتخلى عن مطالبهم، وإيقاف الإضراب بشرط أن لاتسرح شركة القناة قادة المضربين

من دواعى الأسف أن الشركة لم تقبل بهدا الشرط، مما أثار على الفور توسيع نطاق الإضراب، الذى انضم إليه أيضًا عمال آخرون فى القناة. ومن جراء ذلك توقفت الأعمال الجرافية من بورسعيد حتى الإسكندرية.

نظرًا لهذه الاعتبارات، قررت الإدارة الباريسية المركزية للقناة الدخول فى مفاوضات مع المضربين، وأوفدت لهذه الغاية إلى مصر شخصًا مفوضًا، وصل مؤخرا إلى بورسعيد.

(الأرشيف السياسى، المستند ٨٣٢، عام ١٨٩٤.)

من برون بريأ وبراجنسكى إلى غيرس

الإسكندرية، ٢٩ من سبتمبر (١١من أكتوبر

١٨٩٤، رقم ٤٦

تعرفت مصر فى العام الحالى على ظاهرة جديدة، بالنسبة لها هى ظاهرة إضرابات العمال. جرى الإضراب الأول ربيع هذا العام، فى بورسعيد وسط عمال الفحم، الذين يشحنون الفحم على البواخر، التى تعبر قناة السويس. ودام هذا الإضراب بضعة أيام فقط. الإضراب الثانى استمر حوالى شهرين، وجرى فى الصيف فى القاهرة وسط عمال لف السجاير، الذين كانوا يريدون وضع تعيين أجرة محددة من جانب تجار الدخان لقاء لف السجاير. وبفضل وساطة القنصل اليونانى - زهاء جميع عمال لف السجاير هم يونانيون - تمت تسوية الخلاف بين أرباب العمل، والعمال، علمًا بأن الأخيرين حصلوا على تنازلات كبيرة، من تجار

الدخان. الإضراب الثالث، الأكثر خطورة، بدأ منذ سبعة أسابيع، وفى بورسعيد من جديد، وسط عمال قناة السويس، الذين يقومون بجميع الأعمال الضرورية؛ لتأمين الملاحة الصحيحة على طول هذا الشريان الملاحى الدولى.

بدأ الإضراب فى ذلك الجزء من العمال العاملين على ماكينات التجريف (الكراكى)، الذين يقومون بتنظيف قاع القناة عند مصبها فى البحر الأبيض المتوسط. يقسم عمال تجريف القناة إلى فئتين: فئة العاملين فى القناة، ويسمون ثابتين ويتقاضون من شركة قناة السويس أجرة سنوية محددة، تدفع لهم على أشهر. وفئة العاملين فى مرطم بورسعيد عند مصب القناة فى البحر، ويدعون موسميين ويتقاضون أجرة حسب ساعات العمل، وهم يتلقون لقاء ساعة عمل واحدة ٤٠ سنتيما، والكمية الاعتيادية لساعات العمل هى ١٠ ساعات فى اليوم، الإ أنهم يعملون أحيانا ١٤ بل وحتى ١٨ ساعة فى اليوم.

أن عمال التجريف الموسميين هؤلاء يعملون فى ظرف ٦ أشهر، أو ٧ أشهر على أبعد تقدير، فى السنة، لأن العواصف فى فصل الشتاء لاتسمح بالعمل على مقربة من البحر وقرر هؤلاء العمال، الذين يبقون طوال نصف عام تقريبا دون شغل، وبغية تأمين عيشهم وعيش عوائلهم، رفع طلب إلى شركة القناة بأن تدفع لهم لاحسب عدد الساعات بل شهريا، بأن تؤمن لهم الأجرة فى غضون ١٠ أشهر فى السنة. فضلاً عن ذلك قرروا أن يطلبوا إضفاء صيغة شرعبة على مثال سبق إن مورس عمليًا، وهو أن تأخذ إدارة القناة على عاتقها، فى حال تسريحهم من الخدمة، نفقات عودتهم إلى مسقط رأسهم، وأن تعين لهم مكافأة غير كبيرة المبلغ.

فمنذ حوالى ٥٠ يومًا مضت، قام عمال التجريف الموسميون، مستغلين إحدى المماحكات المتكررة والأغلاط غير الكبيرة فى حساب ساعة العمل، التى غالبا جدًا ماتحدث من جانب موظفى القناة، حيال هؤلاء العمال كما علمت من مصادر موثوقة للغاية، قاموا بإضراب، ورفضوا العمل فى القناة مالم تؤمن لهم إدارتها المطالب الخمسة، التى عرضت لتوى اثنين من أهمها. كان عدد عمال التجريف الموسميين، والذين أعلنوا هذه المطالب ١٠٧ أشخاص، بينهم ٩٠ من القومية

اليونانية، وأكثر من ٦٠ من ذوى التبعية اليونانية ورفضت إدارة القناة مطالب العمال، وعند ذلك توقفت جميع أعمال تنظيف مدخل القناة وقدم التجار اليونانيون فى بورسعيد لمواطنيهم المضربين المساعدة المالية الضرورية لإعالتهم وإعالة عوائلهم، الأمر الذى أتاح لعمال التجريف الإصرار على مطالبهم. ولكن عندما أخذ أمد الإضراب يطول، وأصبح يمكن التخوف، من جراء ذلك، من حدوث إخلال بالأمن الاجتماعى، توجه الوكيل الدبلوماسى اليونانى هنا السيد غريبارى إلى بورسعيد؛ لكى يدرس القضية عن كثب ويضع حدًا، إذا أمكن، لحالة الأمور الشاذة، التى طال أمدها. بعد الاطلاع من المدير العام للإدارة المصرية للقناة الكونت سيريون على مجمل سير القضية وجميع تفاصيلها فى الإسماعيلية حاول السيد غريبارى، الذى وصل منذ أسبوعين إلى بورسعيد، إقناع العمال بإيقاف. الإضراب، معلنًا لهم فى الوقت نفسه أنهم، طبقا للتعليمات، التى تلقاها من حكومته، سيتعرضون لأقسى المعاقبة على أقل انتهاك للأمن الاجتماعى. فى غصون اليومين الأولين بقيت جميع محاولات السيد غريبارى وجميع الحجج، التى أوردها للعمال لصالح إيقاف الإضراب دون مانتيجة، شأنها شأن المحاولات المماثلة، التى قام بها الحاكم العام، للقناة ماهر باشا قبل مجىء السيد غريبارى، وإذ علم السيد غريبارى من الكونت سيريون أن الإدارة الرئيسية للقناة فى باريس قررت، خلاف لرأى ماهر باشا، أن تكون عديمة الشفقة تجاه عمال التجريف، فلا تذعن لمطالبهم ولاتقبلهم فى العمل إلا بعد تسريح نصف جميع العمال المضربين، وإذا كان مع ذلك يأمل فى أن تلطف الشركة من مطلبها الأخير؛ خوفا من امتداد مدة الإضراب، وتكتفى فقط بطرد قادة الإضراب، حاول إقناع العمال بالعودة إلى أعمالهم، بدون أية شروط، وبالموافقة على تسريح الشركة لقادة الإضراب.وبعد مفاوضات مديدة، وبفضل المهارة واللباقة الرائعتين للسيد غريبارى تسنى له نيل موافقة العمال على العودة دون شروط إلى أعمالهم، ولكنهم لم يرغبوا فى الموافقة على تسريح قادة الإضراب، مؤكدين على أنه لايوجد قادة إضراب، وأنهم جميعًا «تآخوا»، كما يحدث ذلك، حتى الآن فى الشرق وفى اليونان، أى أنهم قطعوا وعدًا على أنفسهم فى الكنيسة بألا يتخلوا

عن بعضهم البعض، واعرب الكونت سيريون وماهر باشا، اللذان لم يستطيعا نيل موافقة العمال على العودة إلى أعمالهم بدون شرط، عن ارتياحهما الشديد للنتائج، التى أحرزها السيد غريبارى، وأبرق الكونت سيريون إلى باريس بشأن ما حدث وأوصى بالاكتفاء بمجرد عودة عمال التجريف إلى العمل.

ومن دواعى الأسف أن الإدارة المركزية للقناة فى باريس لم توافق على الاكتفاء بالنتائج التى توصل إليها السيد غريبارى" إذ اعتبرت أن الموافقة عليها من شأنها أن تعنى المساس بـ «عزة نفس» الإدارة. وبعد أن علم العمال بهذا الجواب من باريس أخذ يتسع نطاق الإضراب، الذى كان حتى ذلك الحين محصورًا، وسط عمال التجريف الموسميين فى بورسعيد: ففى اليوم التالى انضم إلى عمال التجريف الموسميين المضربين ٣٠ شخصًا من العمال الثابتين، وفى اليوم الثالث انضم إلى عمال التجريف أيضًا عمال يشتغلون فى مصانع الماكينات التابعة للشركة. أما السيد غريبارى، الذى فعل كل مايستطيعه فى بورسعيد فقد عاد إلى الإسكندرية بعد أن كرر على المضربين قوله: إنه يجب عليهم - تحت طائلة أقسى العقوبة - ألا ينتهكوا الأمن الاجتماعى. وفى الوقت الحاضر أوقف الأعمال جميع عمال التجريف لمرفأ بورسعيد، وللقناة على امتداد القناة من بورسعيد إلى الإسماعيلية، بينما تستمر أعمال التجريف، فيما بين الإسماعيلية والسويس. ويبلغ عدد المضربين فى الوقت الحاضر أكثر من ٣٠٠ شخص.

بعد مغادرة السيد غريبارى أقدمت إدارة الشركة فى باريس، وقد أدركت خطأها على الأرجح، على التنازل فى مطالبها، وأعلنت أنها توافق على إعادة العمال إلى العمل، ولكن شرط تسريح قادة الحركة فقط، وليس نصف عدد جميع العمال. وبما أن العمال لن يوافقوا أبدًا على هذا الشرط، فقد عقدت اتفاقية سرية بين نوبار باشا والممثلين: الفرنسى واليونانى، هنا تقضى بأن تأخذ الحكومة المصرية على عاتقها نفقات إعادة العمال المسرحين إلى مسقط رأسهم، بينما ينبغى أن يقال لهؤلاء، إرضاءً لكرامتهم، إن جميع هذه النفقات، سوف تدفعها شركة القناة. غير أن هذا الشرط أيضًا لم يوافق عليه العمال.

عند ذلك وجدت الإدارة المركزية فى باريس نفسها مضطرة للدخول فى مفاوضات، مع المضربين وأوفدت إلى مصر لهذه الغاية أحد مسؤوليها الإداريين (مدير «جورنال دوديبا») السيد باتينو، الذى وصل إلى بورسعيد يوم الاثنين الماضى، وفى يوم الثلاثاء توجه إلى القاهرة للاجتماع بالسيد كوغوردان ونوبار باشا.

طوال زمن الإضراب، الذى مازال مستمرًا منذ حوالى شهرين، لم يجر لحسن الحظ انتهاك الهدوء الاجتماعى فى القناة إلا أن الحكومة المصرية اتخذت الإجراءات الضرورية لضمان الأمن وعززت شرطة بورسعيد بفرقة كبيرة وفضلاً عن ذلك توجد فى بورسعيد وحدتان ثابتتان(٣١) إنجليزية وفرنسية.

فى عز الإضراب أقدم شخص سيئ القصد، ومجهول الهوية، فى الإسماعلية على اغتيال كبير مهندسى الشركة السيد ليماسون بالمسدس، وعلى الرغم من أنه لم يتم بعد كشف القاتل؛ فإن الاعتقاد السائد هنا هو أنه لاينتمى إلى المضربين (٣٢).

قال لى السيد غريبارى، وهو يندد تنديدًا شديدًا بالطابع العنفى، الذى أسبغه عمال بورسعيد على قضية بلوغ مطالبهم، أنه توصل إلى الاقتناء، بعد دراسته جميع الملابسات على الطبيعة، بأن جوهر مطالب عمال التجريف عادل ومنصف؛ لذا فلا يمكن للمرء ألا يأسف من أن الإدارة المركزية لقناة السويس، لم توافق، منذ ثلاثة أسابيع مضت، على القبول بالشروط، التى تسنى للسيد غريبارى التوصل إليها، بعد بذل جهد جهيد. فإن شركة القناة، بعدم موافقتها على الصفح آنذاك عن العمال المذنبين، اضطرت الآن لخوض مفاوضات معهم، وسوف يترتب عليها، كما تدل جميع القرائن، الرضوخ لقسم من مطالبهم، وإلا فستجازف بإبقاء القناة بدون عمال؛ غير أنه لا يمكن للقناة، حسب رأى الإخصائيين، أن تبقى، بدون تصليح، فى حالة جيدة أكثر من ثلاثة أشهر: فالرمال التى تترسب داخل القناة والرواسب البحرية عند مدخلها يمكن أن تجعلها غير صالحة للملاحة، ومن حسن الحظ أن المضربين لايلجئون إلى انتهاك الأمن الاجتماعى، ولا إلى إجراءات عنفية فى القناة، فيكفى لهم، مثلا، إغراق كراكة عند مدخل

القناة، أو فى القناة نفسها، حتى تتوقف كل الملاحة الدولية فيها، إضافةً إلى هذه الاعتبارات يتسم إضراب العمال فى القناة بمغزى مؤسف من الناحية السياسية أيضًا، فإن ذات الوكالة الدبلوماسية الفرنسية، التى اعتبرت مطالب عمال التجريف مبالغا فيها خلاف لرأى السيد غربيارى، تدرك أن خلق وإطالة أمد اضطرابات من هذا النوع على التربة المصرية، بل وفى مكان هام جدًا بالنسبة لأوروبا كلها لقناة السويس، يمكنهما أن يخدما سوى مصالح الإنجليز والاحتلال.

(الارشيف السياسى، المستند ٨٣٢، عام ١٨٩٤)

من برون بريأوبراجنسكى إلى غيرس

القاهرة، ١٣ (٢٥) أكتوبر ١٨٩٤، رقم ٥٢

إن إضراب العمال فى قناة السويس، الذى تشرفت بإبلاغ معاليكم عنه فى رسالتى بتاريخ ٢٩ من سبتمبر (١١ من أكتوبر) من العام الجارى تحت رقم ٤٦، قد انتهى الآن. فبعد مفاوضات مديدة جدًا، عقدت بين المسؤول الإدارى لشركة القناة السيد باتينو، الذى وصل إلى هنا من باريس وبين العمال المضربين قررت الإدارة المركزية فى باريس، بعد أن اعتبرت أن لديها فى القناة فائضًا كبيرًا جدًا من العمال فى القناة (أكثر من ٣٠٠٠ شخص) وأنه ينبغى لها تقليص عددهم تدريجيًا، قررت تسريح جميع عمال التجريف (الموسميين) المضربين؛ على أن تأخذ على عاتقها نفقات إرجاع المسرحين إلى مسقط رأسهم، وإضافة إلى ذلك تعهدت الشركة، فضلاً عن هذه النفقات تقوم بدفع معونة مرة واحدة بمقدار أجرة شهر واحد أو شهرين وفقًا لعدد السنوات، التى قضاها العمال فى خدمة القناة.

وعمال مصانع الماكينات، الذين برهنوا على أنهم انضموا إلى الإضراب تحت تأثير تهديدات عمال التجريف الموسميين، إعادتهم الشركة، إلى الخدمة. ومن جراء ذلك فإن عدد العمال المسرحين بلغ ١١٠ أشخاص فقط.

أثناء إضراب عمال التجريف الموسميين جرى نقل عمال تجريف ثابتين من القناة ذاتها، ووضعهم على آلات التجريف العاملة عند التقاء القناة بالبحر

الأبيض المتوسط، فقاموا بجميع الأعمال المطلوبة هناك، إذن، إذا لم تعمد الشركة، التى تشتكى من فيض العمال، إلى استبدال عمال التجريف الموسميين المسرحين حاليًا بأشخاص آخرين، فسوف يبقى لديها فى الخدمة عمال التجريف الثابتون فقط، أى الذين يتقاضون أجرة سنوية محددة، وليس مكافأة حسب كمية ساعات العمل. وهذا بالذات ماكان يسعى إلى بلوغه المضربون، عمال التجريف الموسميون، إلا أنهم دفعوا أماكن عملهم ثمنًا لنمط تصرفاتهم العنيفة

من سمير نوف إلى وزارة الخارجية

القاهرة، ٢٨ من مارس ١٩٠٧، رقم ٢٢

انتهى لتوه إضراب عمال الفحم فى بورسعيد، الذى كان ينذر بعواقب خطيرة، وكان فى وسعه أن يوقف حركة السفن فى هذه المدينة. يعود سبب هذا الإضراب، كما حدث غير مرة حتى الآن، إلى استياء العمال من استغلالهم من جانب الشيوخ المستأجرين للعمل. هذا، فى حين أن وساطة الشيوخ ، بحكم الظروف المحلية، تعتبر ضرورية، ولا يمكن أن تستغنى عنها لاشركات الفحم الكبرى، ولا العمال المياومون المصريون أنفسهم على السواء.

ومادام القانون لايستطيع ضبط دور هؤلاء الوسطاء، ووقاية العمال من الاستغلال المحتمل؛ فإن حركة السفن لا يمكن اعتبارها مضمونة فى مواجهة تلك المصاعب، التى تسفر عنها الإضرابات.

أرشيف سياسة روسيا الخارجية

القنصلية العامة فى مصر، الإضبارة

٨٢٠، المستند ١٥٣، أعوام ١٩٠٥ . ١٩٠٧)

العلاقات التجارية بين روسيا ومصر

أرشيف الدولة لمقاطعة أوديسا . الملف

٢، الإضبارة ٢١ المستند ٢٨٢ . «بصدد اقتراح

السيد القائم، بوظيفة الحاكم العام

لنوفور سيسك وبيسارابيا، حول

إقامة علاقات تجارية مباشرة، مع مصر

والبلدان الساحلية للبحر الأحمر»

٢٠ من يناير ١٨٥١

إلى السيد حاكم مدينة أوديسا

أحاطنى السيد وزير المالية، فى رسالة بتاريخ ٢١ من ديسمبر

(كانون الأول) الماضى تحت رقم ٧٣٥١، علمًا بمذكرتى المقدم كوفاليفسكى (٣٣) التابع لفيلق مهندسى التعدين، اللتين تلقاهما من السيد ناظر وزارة الخارجية بشأن فائدة إنشاء علاقات تجارية مباشرة بين روسيا، وبين مصر، والحبشة، وسائر بلدان حوض البحر الأحمر، وبشأن بلاغ القنصلية العامة الروسية، فى مصر، الذى يتضمن رأيها بصدد هذا الموضوع إن السيد مستشار الدولة الكونت فرونتشينكو، بعد اطلاعه على التفاصيل الواردة فى المذكرتين

الأنفتى الذكر، للمقدم كوفاليفسكى وعلى معلومات بلاغ القنصل العام، وكذلك التصورات، والاستنتاج بصدد المسألة نفسها من جانب مجلس وزير المالية، يقترح على إصدار الأوامر، لكى يصار إلى عرض المعلومات المذكورة على جماعة التجار، الذين يتاجرون فى موانى البحر الأسود، وبحر آزوف مع بلدان أخرى، حول ما إذا كان بعض أفراء هذه الجماعة يرغبون فى إنشاء شركة للاتجار، مع مصر، وفى حال صياغة مشروع ميثاق بهذا الصدد، مع شرح الأفضليات الضرورية، فى رأيهم، للسير إلا نجع لهذا المشروع، ينبغى رفعه، إلى وزارة المالية، للنظر فيه وإننى، إذ أرفق طيه نسخة عن اقتراح السيد/ وزير المالية، أتشرف طائعا بأن ألتمس من معاليكم إصدار أمر بهذا الشأن، لتنفيذ مضمون مطلبق السيد الوزير، بصدد جماعة التجار العاملة فى ميناء أوديسا.

القائم بنصب الحاكم العام

الفريق فيودوروف

٢٥ من يناير ١٨٥١، رقم ١٧٩٥

إلى فرع أوديسا للمجلس التجارى

إن السيد وزير المالية، إذ أحاط، فى رسالة بتاريخ ٢١ من ديسمبر (كانون الأول) من العام الماضى، تحت رقم ٧٣٥١ السيد القائم بوظيفة الحاكم العام لنوفو روسيسك وبيسارابيا، علمًا بمذكرتى المقدم كوفاليفسكى، التابع لفيلق مهندسى التعدين، اللتين تلقاهما من ناظر وزارة الخارجية، حول فائدة إقامة علاقات تجارية مباشرة بين روسيا وبين مصر، والحبشة وسائر البلدان الساحلية لحوض البحر الأحمر، وببلاغ القنصل العام الروسى فى مصر الذى يعرض فيه رأيه بصدد هذا الموضوع، وإذ استوضح التفاصيل الواردة فى المذكرتين، الآنفتى الذكر، وبلاغ المعلومات، وكذلك التصورات والاستنتاج بصدد هذا الموضوع من جانب مجلس وزير المالية، يقترح: إصدار الأوامر؛ لكى يصار إلى عرض المعلومات والتصورات المذكورة أعلاه على جماعة التجار، الذين يتاجرون فى موانئ البحر الأسود، وبحر آزوف مع بلدان أخرى، حول ما إذا كان بعض أفراد هذه الجماعة يرغبون فى إنشاء شركة للاتجار مع مصر، وفى حال

وضــع مـشــــروع مـيــثـاق بهـذا الصـدد، مع شـرح الأفـضليـات الضـرورية، فى رأيهم.

للسير ال نجع لهذا المشروع، ينبغى رفعه إلى وزارة المالية للنظر فيه.

وإننى، إذ أرفق طيه إلى فرع أوديسا للمجلس التجارى نسخة عن الاقتراح، الذى تلقيتـه من السـيـد وزير الماليـة إلى الفـريق فـيـودوروف تحت رقـم ٧٣٥١، أكلف القسم المذكور بإصدار الأمـر المناسب، لتنفـيـذ مضـمون مطلب السـيـد الوزير بصدد جماعة التجار العاملة فى ميناء أوديسا.

بلغونى عن رأيكم بهذا الصدد فى جوابكم اللاحق.

(التوقيع غير مقروء)

٥ من فبراير ١٨٥١م، رقم ٨

إلى معالى السيد حاكم مدينة أوديسا

تــقـــرير

إن تعليمات معاليكم بتاريخ ٢٥ من يناير (كانون الثانى) تحت رقم ١٧٩٥، حول إقـامـة عـلاقـات تجـاريـة مبـاشـرة، بين أوديسـا وبين مـصـر، والبلدان السـاحليـة لحوض البحـر الأحمر، وفقًا لمشروع المهندس المقدم كوفاليفسكى، جرى الاستماع إليها فى جلسة فرع أوديسا للمجلس التجارى، التى عقدت فى اليوم الأول من الشهر الجارى.

يتـشـرف فـرع أوديسـا، بعـد أن نظر فى جـمـيع تفـاصـيل اقـتـراح السـيـد كوفاليفسكى، واستنتاج المراجع العليا بهذا الصدد، على السواء، وبعد أن جمع آراء الكثيرين من تجار هذه المدينة حول هذه القضية، بأن يبلغ معاليكم بتصوراته التالية حول هذا الموضوع:

١ - إن اقـتـراح باشـا مـصـر، بإقـامـة عـلاقـات تجـارية مـبـاشـرة، مع أوديسـا، ومع روسـيـا بوجـه عـام ،ليس قضية جديدة بل وحتى إنه كان لدى الراحل مـحـمـد على وكـلاء خـاصـون لذلك، منذ حوالى ٣٠ عـامًا، ومنهم: السـيـد كـورسى فى

أوديسا، والسيد أفيروف فى بطر سبورنح غيرأن جميع مشاريعه لم تكلل بالنجاح، لأن الشؤون لم تكن قائمة على أسس تجارية متينة وسبب ذلك:

٢ - أن السلع ، التى يمكننا إرسالها إلى مصر أى بالتحديد. الحديد: الحبال، مصنوعات من الحديد والنحاس وما شابه، تكلف مصر غاليا جدا، أى أنهاغ أغلى بكثير من مصنوعات فرنسا أو إنجلترا، فضلا عن أن الطلب عليها تافه للغاية إن لبعض التجار الروس علاقات مع مصر، منذ زمن بعيد (السادة رودوكاناكى ورالى، وتسيتسينى فى أوديسا، ورالى = سكارا مانغو فى تاغانروغ، وغيرهم)، غير أن جميع هذه العلاقات غير مستقرة بتاتًا، ولاتدر على التجار أية أرباح تقريبًا.

٣ - يمكن للحديد الررسى الصنع، الذى هو أرفع جودةً بما لا يقاس من الحديد الإنجليزى الصنع، أن يغدو سلعة تصديرنا الأساسية لا إلى مصر وحسب، بل وإلى الشرق بوجه عام، ولكن تجار أوديسا يعرفون ، ورغم تأكيد السيد كوفاليفسكى، أن هذا الحديد هو أغلى ثمنًا بكثير من الحديد الإنجليزى لا فى مصر وحدها، بل فى تركيا أيضًا. فضلا عن أن أشكال فصيانه يصنعونها فى معاملنا، ليس كتلك، التى يرغب جميع الصناعيين اقتناءها فى الشرق، وفى الخارج بوجه عام. وقد سبق للتجار المحليين والأجانب، على السواء، أن اتصلوا غير مرة بالسيد ديميدوف وغيره، من أصحاب المعامل المشهورين، عندنا حول هذا الموضوع، ولكن لم يقوموا بتغيير أشكال قضبان الحديد فى معاملهم، بل وحتى أن المراسلة نفسها لم تحرز أى نجاح. إن الحديد الروسى أفضل من الحديد الإنجليزى بما لا يقاس، وهو يشترى لبعض الأغراض فى الشرق رغم غلائه. ولكن يستحيل، بأشكاله الحالية وبأسعاره الحالية، حتى التفكير فى تعزيز هذه التجارة فى مصر، أو فى أى مكان آخر من إفريقيا أما فيما يتعلق بالسماورات أو المناقل، فمن المستبعد جدا أن يكون عليها طلب فى البلدان ذات المناخ القائظ جدًا، بحيث يحتاج سكانها إلى استعمالها

٤ ـ السلع التى يمكن الحصول عليها من مصر وسائر انحاء إفريقيا هى: البن الشرقى أو بن مخا، البخور، وغيره من الأصماغ، القطن، العاج، وما شابه، غير أن البن الشرقى مطلوب بكميات ضئيلة جدًا فى روسيا، وحتى فى سائر أنحاء أوروبا، وذلك بسبب قلة الاعتياد على استهلاكه، وغلائه - فهو أغلى من البن الأميركى بـ ٣٠٪، ويعطى رطل بن مخا كمية من فناجين القهوة أقل بمقدار النصف، مما يعطيه البن العادى، أو الأخضر. القطن المصرى غير مطلوب فى روسيا، فى معاملها، وحسب، بل وفى إنجلترا أيضًا، حيث إن الآلات الروسية والإنجليزية، غير مكيفة لهذا القطن، والفرنسيون وحدهم قادرون على استعماله فى مغازلهم ولا حاجة للحديث عن السلع الأخرى إذ إنها تشكل مواد إضافية لمشحونات السفن أكثر مما تشكل غرضًا لها

٥ ـ يتبين مما عرضناه أعلاه أن ضرورة إنشاء شركة خاصة لذلك، هى أمر مستبعد؛ لأنه لو أن التجار وجدوا فيها فوائد تذكر لكانوا أقاموا علاقات مع مصر من زمان. أما فى الوقت الحاضر فليس فى وسع أية رعاية أن تغود بفوائد كبيرة، بل من شأنها أن توقع التجار والبعثات نفسها فى الشرق، على السواء، فى خسائر وهموم لا طائل تحتها (٣٤). فضلاً عن على ذلك فإن فرع أدويسا للمجلس التجارى، يضيف إلى ذلك قوله: إنه، رغم أن مدراء أهم الدور التجارية فى تاغانروغ وروستوف: السادة راللى وإيمس ورودوكاناكى، وغيرهم موجودون الآن فى أوديسا، ويشاطرون هذا الفرع رأيه كليا، فقد يكون من المفيد على كل حال استطلاع رأى حاكم مدينة تاغانروغ فى ذلك.

نائب الرئيس (التوقيع غير مقروء)

إلى السيد القائم بمنصب الحاكم

العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا

بعث لى السيد ناظر وزارة الخارجية بنسخ عن مذكرتى مقدم فيلق مهندسى التعدين حول فائدة إقامة علاقات تجارية مباشرة، بين روسيا، وبين مصر والحبشة وسائر البلدان الساحلية، وعن إبلاغ القنصل العام الروسى فى مصر، الذى يعرض فيه رأيه حول هذا الموضوع.يوضح المقدم كوفاليفسكى فى مذكرتيه هاتين:

١ - إن باشا مصر السابق، محمد على، غير راض عن الأسعار المرتفعة للحديد الإنجليزى والنمساوى، وكذلك عن النوعية السيئة للحديد الإنجليزى، أعرب عن الرغبة فى استيراد الحديد من روسيا تفضيلاً، وتشاور مع قنصلنا العام فى مصر بخصوص هذا الموضوع. وقد اقتنع محمد على، لدى اطلاعه على المذكرة المفصلة، التى وضعها السيد كوفاليفسكى عن أسعار الحديد الروسى والإنجليزى، بأن حديدنا، رغم سعره الباهظ جدًا فى أوديسا والذى اعتمده كوفاليفسكى كأساس فى مذكرته من شأنه أن يكلف مصر أقل بـ ٤٠٪ مما يكلفها الحديد الإنجليزى، فى حين أنه لايتخلف فى نوعيته إلا عن عدد قليل من أنواع الحديد النمساوى. أثار هذا الحساب فى نفس محمد على العزم على إيفاد سمسار إلى أوديسا لأجل شراء قضبان وصفائح حديد، ولاسيما حديد مراجل للآلات، وتقديم طلبيات على بعض المصنوعات الحديدية الضخمة، ولكن وفاته المبكرة أعاقته عن تنفيذ هذا المشروع المفيد جدًا الذى لم يفلح فى تعاطيه نجله أضًا إبراهيم باشا، الذى كان يدرك جيدا فوائد مصر.

إن هذه الحالة تشكل، فى رأى السيد كوفاليفسكى، دليلاً على وجود حاجة، فى مصر لحديدنا، الذى يؤلف بالإضافة إلى المصنوعات الحديدية الضخمة والأوانى المصنوعة من الحديد الزهر والنحاس، مادة للتجارة المفيدة بالنسبة لنا فى مصر نفسها، فى حين أن هذه السلع نفسها، لدى نقلها عبر برلزخ السويس إلى السواحل المصرية وسواحل الجزيرة العربية والحبشة الواقعة على البحر الأحمر، تقدم فوائد أكبر بكثير فى حال مبادلتها بالمصنوعات المستعمرية المحلية.

ومن ثم يسرد السيد كوفاليفسكى تلك السلع، التى يمكن إرسالها بفائدة كبيرة من روسيا إلى مصر والحبشة وكذلك تلك السلع، التى يمكن استيرادها بفائدة من هذين البلدين *، مضيفا إلى أنه يمكن للتدابير التالية أن تساعد، فى حال

(*) هذه السلع هى : نلتصدير ـ الجلود ، النفط، السختيان، الدهن، اللحم المملح، حبال القنب، ورق الكتابة، الفحم الحجرى، للأستيراد ـ البن، العاج، عقاقير ومواد صباغة قطن، حرائر هندية وموسلين، قطن واقمشة قطنية، تبغ، جذور أعشاب التوابل.

إنجازها، على إقامة علاقات تجارية بين روسيا، بأسرع ما يمكن، وهذين البلدين :

١ ـ تأسيس بيت تجارى إفريقى فى أوديسا، أو تاغانروغ، للا تجار مع مصر على غرار البيت التجارى الاسترابازى، وبنفس المشاركة النشيطة والحماية من جانب الحكومة.

٢ ـ استحداث وكالة قنصلية فى السويس وفى أحد موانئ البحر الأحمر، ومن الأفضل فى سواكن أو مساوة، سواء من أجل نشر تجارتنا، أم من أجل حماية رعهايا روسيا المسلمين، الذين يؤمون سواحل البحر الأحمر للسجود أمام قبر النبى محمد.

٣ ـ إقامة خط اتصال تجارى بريدى، بين أوديسا والإسكندرية لأجل منح تجارنا أسلوبًا، لإيصال السلع إلى مصر بطريقة سريعة ومريحة.

ويوضح السيد كوفاليفسكى بهذا الصدد أنه يمكن الوصول من أوديسا إلى الإسكندرية خلال ٥، أو ٦ أيام على ظهر باخرة، وأن عبور برزخ السويس لايشكل أية صعوبات، نظرًا لقلة مسافة هذا البرزخ، ولرخص استئجار الجمال، وأن إيصال سلعنا إلى مختلف موانئ البحر الأحمر، يمكن القيام به بسهولة وبصورة مريحة على متن سفن عربية، نظرًا لرخص أجرة النقل (النولون).

إن القنصل العام فى مصر مستشار الدولة فوك، فى بلاغه إلى المبعوث الإمبراطورى الروسى لدى الباب العالى العثمانى المستشار السرى تيتوف بشأن تصورات المقدم كوفاليفسكى المذكورة أعلاه، يعرض من جهته:

١ ـ إن حديدنا لايمكن أن يباع فى الإسكندرية بالسعر المتدنى جدًا، الذى يباع به الحديد الانجليزى.

فضلاً عن أن أشكال حديدنا فى قطع أو الواح أو صفائح، بالمقارنة مع أشكال الحديد المستورد من إنجلترا، ليست بنفس التنوع، وهى أقل سهولة فى المعالجة وهذه الملاحظة تنسحب على نحاسنا أيضًا.

ولكن إذا صار من الممكن صنع الحديد، والنحاس فى روسيا بأشكال مختلفة ملائمة للمعالجة، وتخفيض ثمنها إلى مستوى أدنى من ثمن الحديد والنحاس الإنجليزيين فيمما لا شك فيه أن تسويق هاتين السلعتين فى مصر، سيعود بمنفعة كبيرة للغاية؛ ومن الأشياء المصنوعة من النحاس سيكون من المناسب أن تباع فى الإسكندرية السماورات، المناقل، الشمعدانات البسيطة الكبيرة المقاييس؛ لان جميع أبناء الشرق معتادون على وضعها على الأرض، أباريق قهوة مختلفة، مغاسل بالطراز الشرقى، وماشابه. بالإضافة إلى ذلك يستعملون فى مصر كثيرًا خيوطنا المذهبة ولامبهرجة، أو الأسلاك لأجل التطريز المذهب، المصنوعات الجلدية، المصنوعات من الصوف البسيط أكثر مما من السختيان يمكن أن تسوق أيضًا بفائدة.

٢ ـ إنه قد يكون من المفيد لنا طبعًا محاولة إقامة علاقات تجارية مباشرة، مع مصر وأن نريسل لهذا الغرض إلى الإسكندرية فى أول فرصة، دفعة من السلع الروسية على أن نكلف ببيعها بيت أنا ستازى للتجارة، الذى أبدى استعداده لأن يأخذ على عاتقه كل مايتعلق باستلام وتسويق ومبادلة سلعنا بمصنوعات مصرية، ولأن تساعد على العموم فى التطوير التدريجى لعلاقات روسيا التجارية الدائمة، مع هذا الإقليم؛ إلا أنه ينبغى أن نبقى جانبا التجارة مع السويس، وموانئ البحر الأحمر، ريثما نسير علاقاتنا التجارية بصورة صحيحة وناجحة مع مصر عبر الإسكندرية

٣ ـ إنه نظرًا لذلك يكفى أن يكون لدينا فى المستقبل وبادئ الأمر وكيل فى السويس يستخدم مراسلات السيدين كوستا وكوتسيكا فى شبه الجزيرة الالحبشة من أجل الحصول على معلومات عن حالة التجارة فى بلدان سواحل البحر الأحمر.

إن هذا الرأى لقنصلنا العام فى مصر يعتبره المستشار السرى تيتوف معللا للغاية.

وهذه القضية، المتعلقة بجمع بعض المعلومات الإضافية، قد جرى النظر فيها، كما تدل جميع القرائن، فى مجلس وزراء المالية الذى اعتبر، من جهته، أن فى

حال إقامة علاقات تجارية، مع إفريقيا، يجب أن يقتصر بادئ الأمر على مصر دون بسطها على الحبشة وسائر البلدان الواقعة فى حوض البحر الأحمر، وإن إنشاء خط اتصال مباشر مع الأسكندرية من موانئ بحر آزوف، بوصفها أكثر ملاءمة للاتصالات مع روسيا الداخلية، من شأنه أن يقدم منافع كبيرة للتجارة الروسية، لأنه يفتح الطريق، من جهة، أمام التسويق المفيد لبعض مصنوعاتنا الوطنية مثل الحديد والمصنوعات المعدنية والحبال والأمراس والسلع الجلدية وغيرها، ومن جهة ثانية، أمام استيراد الصمغ العربى، ومواد الصباغة، والبن الشرقى، ولاسيما القطن الضرورى للمعامل الروسية، وإنه يمكن توقع الحصول على فوائد لا تقل عن ذلك من التجارة بخشب البناء، الذى تنبت أشجاره بوفرة على الساحل الشرقى للبحر الأسود، والذى يعتبر تصديره من المراسى الواقعة على هذا الساحل أمرًا مريحًا للغاية؛ ولكن لأجل بلوغ النجاح فى هذا الأمر ينبغى بذل جهود مشتركة لعدة بيوت تجارية بإمكانها أن تحوز رأسمالا كبيرا فى حال أنشاء شركة عامة. مما لاشك فيه أن منافسة النمساويين، ولاسيما الإنجليز، الذين أفلحوا فى الاستيلاء فى مصر على التجارة بالمصنوعات الآنفة الذكر، سوف تكون عقبة كبيرة أمام تسويق السلع الروسية وخاصة إذا كان سعرها سيتعدى أسعار نفس المصنوعات المستوردة من النمسا وإنجلترا، وإنه لهذا السبب ستصاحب هذه التجارة بادئ الأمر بعض الإخفاقات؛ غير أن هذه الإخفاقات، وما سيصاحبها من خسائر لا يجب عليها، فى رأى المجلس، أن توقف الطموح الدائم إى بلوغ الهدف المفترض. ويمكن للحكومة، حتى بدون المشاركة بصورة مباشرة فى التداولات التجارية للشركة، أن تساعد على نجاحها بما يترتب عليها من إجراءات فعلاوة على الرعاية الدائمة للحقوق التجارية لتجارنا، بل والدفاع عنها فى الحالات الضرورية، يمكن أن نلتمس منكم بأن تتفضلوا، من خلال القناصل والبعثة الدبلوماسية فى القسطنطينية: أولاً، بإعفاء الشركة، خلال الفترة الأولى، من دفع الضرائب المهنية، وفقا لرأسمالها الأساسى؛ ثانيا، بإرسال البواخر البريدية إلى الإسكندرية مباشرة إذا كان ذلك لايشكل عقبة فى دائرة البريد بالاتفاق المسبق مع سيدها المدير العام.

على هذا الأساس، وبموجب قرار مجلس وزير المالية، نطلب من معاليكم طائعين بإصدار أوامر بأن تعرض جميع المعلومات والآراء، الآنفة الذكر على جماعة التجار العاملين فى موانئ حوض البحر الأسود وبحر آزوف حول ما إذا كان بعض أعضائها يرغبون فى تأسيس شركة للتجارة مع مصر، والعمل فى هذه الحالة مع مصر، والعمل فى هذه الحالة وطبقا لمشروع الميثاق على شرح تلك الأفضليات الضرورية فى نظرهم للتسيير الناجح للمشروع وإبلتاغها ن ثم إلى وزارة المالية للنظر فيها.

أرى من واجبى أن أرفق بذلك طلبًا إلى السيد الحاكم العام العسكرى لموسكو بأن يقترح على التجار فى موسكو تأسيس هذه الشركة.

وزير المالية الكونت فرونتشينكو

١٢ من مارس ١٨٥١، رقم ٥٧١٢

إلى السيد القائم بمنصب الحاكم العام،، لنوفورو سيسك وبيسارابيا

بصدد الاقتراح المؤرخ فى ٢٠ من يناير (كانون الثانى) من العام الجارى تحت رقم ٧٣٤ بشأن إقامة علاقات تجارية مباشرة، مع مصر والبلدان الواقعة على سواحل حوض البحر الأحمر، تفضل معاليكم بإرسال نسخة لى عن اقتراح السيد وزير المالية حول هذا الموضوع بأن أصدر أمرًا مناسبًا بتنفيذ المطلب الوارد فيه.

إن فرع أوديسا للمجلس التجارى، الذى أحلتُ إليه مطلب السيد وزير المالية للنظر فيه واتخاذ قرار بشأنه، وبعد النظر فى جميع تفاصيل نفس اقتراح المقدم المهندس كوفاليفسكى، وفى قرار المرجع الأعلى بهذا الشأن على السواء، وبعد أن جمع الآراء اللازمة لكثير من التجار هنا حول هذا الموضوع، عرض فى تقريره المرفوع إلىّ تحت رقم ٨ تصوراته حول القضية المعنية (راجعوا الوثيقة رقم ٨)

(التوقيع غير مقروء)

(ارشيف الدولة لمقاطعة أوديسا. الملف ١، الإضبارة ١٦، المستند ٠١٤٧)

مكتب الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا. بشأن سفرة الملاك العقارى فاسيلى غان إلى مصر، لدراسة مسألة إقامة تجارة صحيحة، بالخيول والمواشى الروسية مع مصر.

بدأت فى ١٤ من مايو وانتهت فى ١٥ مايو من مايو ١٨٦٦)

إلى صاحب المعالى السيد الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا الجنرال الياور بافل يفستافييفيتش كوتسيبو

من الملاك العقارى الرائد المتقاعد فاسيلى غان

مذكرة

«بناء على تكليف من السيد المدير العام لمزرعة الخيول التابعة للدولة، أتوجه إلى مصر لدراسة الأسس الإيجابية للتجارة الصحيحة، والدائمة بخيول ومواشى روسيا مع مصر. المقصود من ذلك هو جلب القطن المصرى إلى سوق أوديسا، وفقًا لحسابات التبادل التجارى، لأجل الحفاظ الدائم على قيمة المصنوعات المحلية المصدرة، إلى مصر. وإننى إذ أعرف عناية معاليكم الدائمة بتطوير القوى المنتجة للأقليم الموكل إليكم، أتجرأ بالتماس رسالة توصية إلى مبعوثنا لدى الباب العالى العثمانى. أتشرف بأن أرفق طيه الرسائل الخطية، التى تلقيتها من السيد الناظر العام لمزرعة الخيول التابعة للدولة».

فاسيلى غان

١٤ من مايو ١٨٦٦

إلى صاحب المعالى أغناتييف المبعوث الروسى فى اسطنبول

سيدى الكريم نيقولاى بافلوفيتش!

«يتوجه الملاك العقارى، الرائد المتقاعد فاسيلى غان، بناءً على تكليف من السيد الناظر العام لمزرعة الخيول التابعة للدولة، إلى مصر لدراسة مسألة إقامة تجارة صحيحة ودائمة بالخيول والمواشى الروسية مع مصر. فى هذه الحالة

يفترض السيد فاسيلى غان أن يتدارس هناك أيضًا الاعتبارات المتعلقة باستيراد القطن المصرى إلى سوق أوديسا، وفقًا لحسابات التبادل التجارى؛ لأجل الحفاظ الدائم على قيمة المصنوعات المحلية المصدرة إلى مصر.

أتوجه إلى معاليكم بأطيع الرجاء بأن لا تضنوا على السيد غان برعايتكم، ومساعدتكم السمحتين، اللتين سيحتاج إليهما لأجل التنفيذ الناجح للمهمة، التى كُلف بها.

وتفضلوا، سيدى الكريم بقبول صادق احترامى وولائى».

الحاكم العام كوتسيبو

أوديسا، ١٥ من مايو ١٨٦٦

إلى صاحب المعالى السيد الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا والحائز على وسام الشرف

باڤل يفستافييفيتش كوتسيبو

مقتطفات من مذكرة رئيس سماسرة بورصة أوديسا سيمون برنشتاين. تصورات بصدد قناة السويس وتأثيرها المقبل على تجارة مرفأ أوديسا.

١٧ من مارس ١٨٦٨، أوديسا

«إذا كان رجال السياسة، وهم يتتبعون بعين يقظة أتفه الأحداث، التى تنشأ فى ميدان السياسة، يحاولون جهدهم إعداد أنفسهم فى الوقت المناسب للنتائج الملائمة، أو غير الملائمة لهذه الأحداث، فليس ثمة من شك فى أن أولئك الأشخاص أيضًا، الذين إذ يهتمون جدًا بالتنمية الاقتصادية للبلاد، لا يمكنهم أن يبقوا لا مبالين إزاء الظواهر، حتى أقل شأنا كما قد يُخيل، فى العالم التجارى والصناعى إذا كانت لهذه الظواهر علاقة ما بيسر الإقليم.

وإننى استرشادا منى بهذه الفكرة، أسمح لنفسى بتقديم بعض التصورات عن حدث ستغير أهميته تمامًا ظروف التجارة فى جميع الأسواق الأوروبية، وتبشر بخلق مصادر جديدة وغزيرة من الثروة بالنسبة لأوديسا.

إن قناة السويس، موضوع تصورات هذه، سوف تملى اتجاهًا جديدًا للتجارة بالسلع المستعمرية وتُحدث فيها انقلابًا حقيقيًا.. فإن المنتجات الغنية لأفريقيا وشبه الجزيرة العربية والصين، وجميع البلدان الفسيحة، والبعيدة المحاذية للمحيط الهندى، سوف تتدفق على أسواق أوروبا عبر طريق آخر أكثر استقامة وأقصر امتدادًا.

فكم من التكاليف وكم من الوقت يلزم للسفن التى تضطر فى الوقت الحاضر للدوران حول إفريقيا من أجل بلوغ الموانئ البريطانية.

فمن المعلوم أن إنجلترا مُدينة بعظمتها وثروتها لعلاقات التجارية الواسعة النطاق مع الهند؛ وهى ماتزال حتى الآن تحتكر تجارة نصفى الكرة الأرضية مزودة أسواق أوروبا بسلع مثقلة بتكاليف نقل باهظة، بل وبأسواق المضاربين، ونفقات السمسرة والرسوم الجمركية، وما إلى ذلك. إن روسيا تتزود من المستودعات البريطانية، ولا سيما عبر موانئها الواقعة على بحر البلطيق، بسلع الاستهلاك العام والمواد الخام لأجل معاملها.

ولكن إذا كانت أعمال شق قناة السويس ستنتهى، كما يأملون، عند عام ١٨٧٠م، وإذا كان تحقيق هذا المشروع الضخم سيتزامن، إذا سارت الأمور على مايرام، مع انتهاء مد خطوط سكك الحديد التى تربط شمال امبراطوريتنا بجنوبها، فإن روسيا، إذ تكف عن أن تكون دافعة إتاوة لإنجلترا، ستحول لصالحها فوائد لا تحصى إذ سوف تتلقى المنتجات الضرورية لها من مصادرها الأصلية عبر البحر الأسود.. فالقطن المخصص لصنع الأقمشة يقدم وحده لنا مثالا مدهشًا عن تلك الفوائد، التى ستجنيها صناعة روسيا عن طريق نقل هذا المنتج عبر أوديسا. إن روسيا سوف تشترى سنويا عن طريق الشركات الإنجليزية فى الإسكندرية حتى ٥٠ ألف بالة على أقل تقدير من قطن القماش من ماركة ماكو. ووزن هذه الكمية من القطن سوف يصل إلى ٩٠٠ ألف كنتال (٥٤٩٤٧٢٠ بودا *)،

* البود يعادل ١٦,٣٨ كيلوغراما ـ الناشر.

وقيمته إلى ٣٠٠ ألف جنيه استرلينى. هذا القطن يُرسل من الإسكندرية على ظهر بواخر إنجليزية إلى ليفربول وتتراوح تكاليف النقل البحرى ما بين ٠,٥ و١ بنس عن كل جنيه استرلينى، ومن ليفربول يُرسل إلى كرونشتاتدت ومن هناك يوزع على أسواق ومعامل روسيا. ومن السهل على المرء أن يدرك أى توفير فى الوقت والتكاليف ستكسبه صناعة البلاد بالنسبة لهذه المادة فقط عندما سيصدر، بدلاً من القيام بدورة حول كل القارة الأوروبية، إلى نقل قطن القماش مباشرة إلينا بأقصر طريق، أى عبر أوديسا. فإذا ألقينا نظرة على الخريطة وتوقفنا عند فكرة شق قناة السويس، هذا الصرح الذى يشيده جيلنا لإدهاش الأجيال القادمة، عندما يصبح أمرًا مفهومًا مدى قدرة مرفئنا على اجتذاب استيراد سلع ذات قيمة كبيرة إلى روسيا، مثل: الشاى، قطن القماش من بومباى والبنغال ومدراس، والبن العربى، النيلة، صبغ القرمز، مختلف أنواع الأصماغ، المواد العطرية، النباتات الطبية والكثير غيرها من منتجات الطبيعة، التى نضطر الآن للحصول عليها من خلال الأسواق الإنجليزية. إننا؛ إذ نكف عن أن نكون مستغلين، نغدو بدورنا مالكين لتجارة تبادل غنية تتهيأ أوديسا؛ لأن تكون وسيطًا لها.

فى الواقع إنه يمكننا، دون ما خوف من الانجرار إلى عالم الأوهام، التعويل فى المستقبل؛ على أن ربط خطوط سككنا الحديدية بخطوط النمسا الحديدية سوف يخلق فى أوديسا تجارة ترانزيت غنية، وأن المشحونات المرسلة من الشرق عبر قناة السويس سوف ترسل إلينا مفضلة ميناءنا على موانئ الدانوب، ومنه بالذات ستذهب إلى أسواق شمال ألمانيا.

من جهة أخرى، فإن خطوط سككنا الحديدية ستخلق حركة تجارية واسعة النطاق تبدأ من بحر البلطيق وتتجه إلى البحر الأسود ومن ثم إلى المحيط الهندى. وهذه الحركة، التى تجتذب فى تيارها منتجات عدد كبير جدًا من المناطق الغنية، تولد تجارة التبادل، التى يستحيل الآن حتى التكهن بمقاييسها. إن سهولة النقل ستثير انتقال منتجات لتربتنا لاتزال حتى الآن، بسبب نقص طرق

المواصلات، محرومة من إمكانية التسويق. وسيرسل الشرق إلينا، بدوره، منتجات مجهولة لتجارتنا حتى الآن بسبب غلاء نقلها. وفى الوقت نفسه فإن السفن، التى تشحن إلينا منتجات البلدان الاستوائية، سوف تجد لدينا دائما مشحونات مأمونة لخط عودتها. وهذا الأمر الأخير يتسم بأهمية كبيرة للغاية، بالنسبة للملاحة ويعطى مرفأ أوديسا أفضلية كبيرة على موانئ حوض البحر الأبيض المتوسط، التى ينبغى لها، كما قد يخيل للوهلة الأولى، أن تكون أول المستفيدين من المنافع الناتجة عن فتح قناة السويس.

وفعلاً، فإن السفن، التى تفرغ مشحوناتها فى مرسيليا وجنوا وليفورنو، ولا تجد هناك مشحونات جديدة تذهب للبحث عنها إلى البحر الأسود، ولكن عندما ستقام علاقاتنا المباشرة مع الشرق الأقصى؛ فإن السفن تتجه على الغالب إلى أوديسا؛ لأنها تستطيع هنا التعويل على إيجاد مشحونات لخط العودة تتألف من منتجات صناعتينا الزراعية والمعملية، مثل: دقيق القمح، الحبال، الأمراس، الجلود، تيل القنب، والكثير من السلع الأخرى المجهولة تمامًا فى الوقت الحاضر، ولكنها تبشر بدخول الدورة العامة للتجارة مع ظهور الخط الجديد.

إن ذلك كله يحمل على الاقتناع بأن ميناء أوديسا، الذى سيكتسب مع شق قناة السويس أفضلية على الموانئ الأخرى، لا يرقى إليها الشك، لن يعود يشعر بعد ذلك بالنقص فى عدد السفن، كما يحدث الآن، وإن الملاحة فيه، بحصولها على نظام عمل صحيح، سوف تصبح مؤمنة بوجه تلك التقلبات فى أسعار النقل البحرى، التى غالبًا ما تصل إلى درجة خارقة لعادة فى ظل الظروف الحالية.

إن هذه النبذة المقتضبة ترسم بصورة غير كافية إطلاقا تلك الفوائد الضخمة، التى لا مراء فيها التى يقدمها شق قناة السويس بالنسبة لتجارة أوديسا، والتى يجب علينا أن نتهيأ لها؛ لكى نتمكن من الاستفادة منها. والبلاغ الدورى الذى أصدره المحرّك الرئيسى لهذا المشروع العظيم والهائل، السيد ليسيبس، الموجه إلى البيوت التجارية، يدعو رجال التجارة إلى الاستفادة من

الأعمال، التى تمت حتى الآن فى خصوص شق القناة، والتى تسمح منذ الآن بتحميل الشخاتير والسفن البخارية بالبضائع لتوجه إلى السويس والعودة منها.

ومن المعروف أيضًا أن مكاتب تجارية عديدة لأمم مختلفة قد أنشئت سواء على امتداد هذه القناة أم فى مينائى بورسعيد والسويس نفسيهما.

أفلا ينبغى لنا نحن، اقتداء بهذا المثال، أن نبذل من طرفنا الجهد لتأسيس مستودعات هناك أيضًا لجميع تلك السلع، التى تتألف منها تجارتنا التصديرية؟ إن من شأن ذلك أن يكون بمثابة نقطة أمامية تقيمها تجارة وصناعة أقليمنا فى إفريقيا لأجل اطلاع الشرق على منتجاتنا.

رئيس سماسرة بورصة أوديسا

سيمون برنشتاين

٣١ مايو ١٨٦٨، رقم ٢٩٦، سانت بطرسبورغ

إلى صاحب المعالى رايترن

سيدى الكريم ميخائيل خريستوفوروفيتش

«قدم لى رئيس سماسرة بورصة أوديسا سيمون برنشتاين، فى مذكرة أرفقها طيه، تصوراته بصدد قناة السويس، وتأثيرها القادم على تجارة ميناء أوديسا.

ليس فى هذه المذكرة، بالطبع، أى شىء جديد من شأنه أن يغيب عن الاهتمام الواسع الاطلاع لمعاليكم بصدد اقتراب انتهاء الأعمال الضخمة لشق قناة السويس وإنشاء ميناءين فى بورسعيد، والسويس. وهى تصلح فقط دليلا على أن اشتراككم النشيط فى كل ما يتعلق بنجاح مد خطوط سكك الحديد الجنوبية، وبتحضير ميناء أوديسا للنشاط، الذى ينتظره مستقبلا، يلقى تقييما ممتنًا فى أوساط فئة تجار أوديسا.

وقد سبق لى أن رفعت إلى حكومتنا عام ١٨٦٤م، لدى البحث فى مسألة اتجاه خطوط سكك حديد جنوب بلادنا. مذكرة حول علاقة هذه الخطوط بالملاحة المقبلة عبر قناة السويس.

يعرب السيد برنشتاين فى مذكرته عن فكرة إنشاء مستودعات فى مرفأى بورسعيد والسويس لجميع السلع، التى تتألف منها تجارتنا التصديرية. أن تحقيق هذه الفكرة يتوقف، دون شك، على همة تجار أوديسا أنفسهم. أما أنا فأعتقد أنه يكون من المفيد لو يرسل فرع أوديسا للمجلس التجارى سلفًا إلى بورسعيد، والسويس واحدا من أعضائه القديرين لأجل جمع معلومات عن ظروف التجارة المحلية والتعرف على فئة التجار هناك واطلاعهم على معلومات مفصلة متبادلة عن سلع تجارتنا التصديرية، واتجاه خطوط سكك الحديد، التى يجرى مدها عندنا، وكذلك عن السلع المستعمرية، التى يمكن، بعد فتح قناة السويس أمام الملاحة، جلبها من هناك بأقصر طريق عبر ميناء أوديسا بدلا من التجوال البعيد المسافات فى البحار، التى تُنقل السلع عبرها حتى الوقت الحاضر إلى روسيا. ويمكن لبانى ميناء أوديسا أيضا أن يرافق عضو فرع أوديسا للمجلس التجارى المرسل إلى هناك لهذه الغاية: ففى بورسعيد وعبر قناة السويس يمكنه أن يصادف نماذج لتحسين أساليب أعمال تجريف، وتنظيف القاع وتشييد المنشآت الخرسانية، والاطلاع بالإجمال هناك على هذا النوع من أعمال التجريف، التى تلقيت بشأنها من باريس مؤخرًا منشورات شيقة للغاية.

تفضلوا، سيدى الكريم، بقبول خالص احترامى وولائى».

كوتسيبو

من النظام الداخلى للشركة الروسية للملاحة والتجارة (٣٥)

سانت بطرسبورغ، عام ١٨٧٩

«إن الشركة الروسية للملاحة والتجارة، المصادق عليها من جانب صاحب الجلالة فى ٣ من أغسطس (آب) ١٨٥٦ والموجودة تحت الرعاية السامية لجلالته

الامبـراطورية، تواصلُ وجـودها بموجب النظام الداخلى الحـالى، من أجل تطوير تجارة الأقليم الجنوبى لروسيا والمواصلات البحرية، التجارية منها والبريدية على السواء ، لهذا الأقليم مع الموانئ الروسية والأجنبية.

تتعهد الشركة بالحفاظ على المواصلات التالية:

١ ـ خط القسطنطينية بين أوديسا والقسطنطينية، مرة واحدة فى الأسبوع، وبين سيباستوبول والقسطنطينية، مرة واحدة فى الأسبوع أيضًا. فى حال تجمد مياه ميناء أوديسا، يمكن توجيه بواخر خط أوديسا ـ القسطنطينية إلى سيباستوبول بدلاً من أوديسا.

٢ ـ خط الإسكندرية، الدورى، المارّ بالموانئ الرئيسية، الواقعة بين القسطنطينية والإسكندرية، مع التعريج فى الطريق على الموانئ الوسطانية، وذلك حسب تعليمات وزارة المالية، مرة واحدة كل أسبوعين.

٣ ـ خط القفقاس بين كيرتش وباطوم، وفى حال تجمد مياه مضيق كيرتش بين فيودوسيا وباطوم، مرة واحدة فى الأسبوع مع التعريج فى الطريق على جميع الأماكن، التى تطلب القيادة فى القفقاس من الشركة التعريج عليها.

٤ ـ خط الأناضول بين بوتى والقسطنطينية، مرة واحدة كل أسبوعين.

٥ ـ خط الإسكندرية المباشر بين أوديسا، عبر القسطنطينية والإسكندرية، وبورسعيد، مرة واحدة فى الأسبوع».

(أرشيف الدولة لمقاطعة أوديسا. الملف ٥، الإضبارة١، المستند ١٩٥٦).

مراسلات بين وزارة المالية وطرق المواصلات والشركة الروسية للملاحة والتجارة وسائر المؤسسات، بصدد زيادة التعرفة لدى نقل منتجات الحبوب والبذور الزيتية بسكك الحديد والطرق المائية من بيسارابيا ورومانيا إلى أوديسا.

أوديسا، ١٠ من ديسمبر ١٨٨٦

«.... إن العدد الكبير للمؤسسات التجارية القائمة فى أوديسا، التى تضطلع بدور الوسيط فى الصفقات التجارية العديدة، التى تعقد هنا، ينبغى اعتباره

دليلاً واضحًا جدًا على الأهمية الضخمة، التى تتسم بها هذه المدينة فى تجارة جنوب روسيا. ويندرج فى عداد هذه المؤسسات لجنة البورصة، ولجنة التجارة والمانيفاتورة، وأكثر من أربعين سمسار بورصة، وعشرة سماسرة للسفن والمستوصفات، ومكتب البنك الحكومى، والبنك التعليمى، وجمعية التسليف المتبادل، وجمعية التسليف المدينى، وبنكان زراعيان، وأكثر من عشرة مكاتب لأصحاب البنوك، وحتى ١٥ وكالة لمؤسسات التجارية. ينبغى اعتبار المواد التالية المواد الرئيسية لتجارة التصدير: الحبوب المواشى، الجلود والصوف؛ أما مواد الاستيراد فهى: الشاى، التبغ، زيت جوز الهند. الفحم الحجرى، القطن، وفى الآونة الأخيرة أخذت تتزايد كميات استيراد ما يسمى «الفلون» (مادة لدبغ الجلد) من آسيا الصغرى: يعود المكان الأول بين مواد التصدير، بلا شك، للحبوب التى صُدّر منها فى عام ١٨٨٢م الماضى من مرفأ أوديسا ٥٧ ليون بود...»

«التعرفة الجديدة لا تتجاوب، مع الأسف. مع هذه المتطلبات، وهى تستند إلى التعرفة القديمة لسكة حديد نيقولايفسكايا، التى تستخدم بنفس الطريقة بالنسبة لجميع السكك الأخرى ولا تأخذ فى الاعتبار أن كمية هائلة من السلع، التى ترسل الآن من الشرق عبر جنوب روسيا، باستثناء السلع الأجنبية، تسنى توجيهها إلى هذا الطريق، وذلك فقط بفضل توحيد جهود التجار الروس، الموسكوفيين على الغالب، وشركات البواخر الروسية وسكك الحديد الروسية، الذين وضعوا أخيرًا، بجهدهم الدؤوب. أجور نقل بحرى خاصة أصبحت بموجبها منتجات الصين ومصر والهند وتركيا. التى كانت حتى الآن ترسل إلى روسيا عبر تريستا ومرسيليا ولندن وكينيغسبرغ، تمر الآن عبر أوديسا لا إلى داخل روسيا وحسب، بل وإلى وارصو، وحتى الى رومانيا وشرق النمسا وألمانيا فى الآونة الأخيرة. للمزيد من الإيضاح من الأفضل إيراد المعطيات التالية:

حتى آواخر الستينيات كان كل وسط روسيا الصناعى والتجارى يتزود بمنتجات سوريا ومصر، والهند، عبر سانت بطرسبورغ. من لندن ومرسيليا وهامبورغ وغيرها من موانئ أوروبا، وبما أنه كان يوجد فى تبعية تامة للأجانب،

فقد كان يدفع ملايين زائدة فى شكل نولونات وبدائل تأمين وخصومات ومدفوعات سمسرة ورسومات مختلفة، ليس هذا وحسب، بل ولم تكن متوفرة له إمكانيات الحصول على سلع ممتازة، وكان يضطر للارتضاء بتلك السلع، التى كانت تبقى فى المستودعات من الأعوام الفائتة، أما إذا كانت السلع من الاستيراد الجديد، فقد كانت تتعرض لحملة من التلاعبات لأجل تبخيس سعر السلعةعلى حساب نوعيتها بالطبع.

بعد شق قناة السويس بات واضحًا أنه ينبغى تغيير وضع الأمور هنا. فإن أوديسا، إذ غدت أقرب ميناء بالنسبة لبلدان الشرق الأقصى، كان ينبغى لها، بطبيعة الحال، أن تجتذب، ليس جميع منتجاتها وحسب المخصصة لروسيا، بل وحتى أن تتحول إلى موزِّعة لها فى المناطق المحاذية لها من الدول المجاورة. لقد فهم الأجانب ذلك تماما. ودون إضاعة للوقت اتخذوا إجراءات نشيطة للغاية لأجل ضبط أجور النقل (النولونات)، والمصاريف الإضافية، والأهم: تعرفات سكك الحديد، بغية العمل بهذه الطريقة على شل الأفضلية الجغرافية لأوديسا.

وبالفعل، فعلى الرغم من إقامة خط مواصلات مباشرة، كان من المفيد لموسكو، فى الأعوام الأولى، الحصول على السلع عبر تريستا، وإذا كان التجار يرسلون إلى أوديسا جزءًا غير كبير من القطن، والشاى فإنما كانوا يفعلون ذلك بدافع الشعور الوطنى أكثر من اعتبارات المنفعة الشخصية.

ولكن فيما بعد. وبفضل جهود الشركة الروسية للملاحة والتجارة، التى انضم إليها من ثم خط سكك حديد أوديسا، أخذت عقبات إرسال المشحونات إلى أوديسا. تزول شيئا فشيئا، وما أن بدأت هذه المدينة تنافس تريستا بنجاح فى قضية تزويد موسكو، حتى انهار كل ذلك فجأة، بفرض حصار على البحر الأسود إبان الحرب الشرقية الأخيرة فى عامى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ .

استغلت هذا الوضع لا للمنافسة الطبيعية لأوديسا، أى تريستا، وحسب، بل أيضا الموانئ الأجنبية الشمالية، التى فرضت فى الحال تعرفات كانت، رغم أنها

وتدنية للغاية، تشمل جميع النفقات من ميناء الإرسال، حتى نفس عملية التسليم فى موسكو. وهكذا لم يكن لتتسنى لأدويسا، حتى بعد انتهاء الحرب، الاستفادة من أفضليتها الطبيعية بوصفها أقصر طريق، لولا الجهود المشتركة للشركة الروسية للملاحة والتجارة وشركات خطوط سكك الحديد الجنوبية الغربية المستحدثة، والأسطول الطوعى الحديث، التى أفلحت أخيرًا، بعد جهود مديدة، فى وضع «تعرفة المواصلات البحرية المباشرة عبر أوديسا»، على غرار تعرفة المواصلات الألمانية لما وراء البحار، والتى دخلت حيز التنفيذ فى ١ من يناير (كانون الثانى) ١٨٨٣، ولكنها عُدلت نهائيا ونُشرت فى ١من يناير ١٨٨٥م. خلال هذا الفاصل الزمنى القصير، لم يكن فى استطاعة نقل المشحونات عبر أوديسا أن يبلغ، بالطبع، تطوره التام، ولكن يتبين من المعلومات، التى قدمتها شركة خط سكك الحديد الجنوبى الغربى أن كمية هذه المشحونات، التى تتنامى بسرعة، قد بلغت فى عام ١٨٨٥: حوالى مليونى بود باتجاه موسكو وإلى أبعد منها، ١٤٥ ألف بود، إلى خاركوف، ٤٦١ ألف بود إلى أقليم بريفيسلينسك، ٢٢٧ آلف بود إلى بطرسبورغ وريغا، ١٣٩ ألف بود إلى الخارج، عبر فولجسك وأونغينى، أما مجمل كمية المشحونات المرسلة عام ١٨٨٥م إلى ما وراء البحار من مدينة أوديسا، فقد وصل حتى ٤ ملايين بود.

إن رجحان كفة ميناء أوديسا على الموانئ الأحنبية، الذى تم إحرازه بجهد جهيد، وبنفقات باهظة من خزينة الدولة، والشركات وأشخاص عاديين على أنشائه وتجهيزه، والذى لم يثبت قدميه بعد، مهدَّد بالزوال لامحالة بل وحتى إلى الأبد بسبب إدخال التعرفة المفترضة...»

«.... إن المنافسة فى تسويق السلع كبيرة جدًا، لدرجة أن كل كوبيك زائد أصبح يؤثر على صعوبة تسويقها؛ وإذا كان الأجانب قد أوقفوا الآن التبارى مع أوديسا فى قضية تزويد روسيا بمنتجات الشرق؛ فإن سبب ذلك يعود فقط إلى أنهم أدركوا عقم الصراع ضد الأفضليات الطبيعية، التى تتمتع بها أوديسا بفضل موقعها الجغرافى، ولكن ما إن تصبح التعرفة المفترضة إلزامية، حتى تتجه فى

الحال خارج أوديسا لا السلع ذات أجرة النقل المرتفعة وحسب بل وحتى القطن أيضًا، السبب واضح: بما أن أوديسا تُحرم من إمكانية المنافسة مع موانئ بحرى الشمال والبلطيق فيحق لهذه الموانئ، وحتى لتريستا، فرض تعرفة للمواصلات المباشرة أكثر فائدة بقليل بالمقارنة مع ما هى بالنسبة لأوديسا، ولا يتطلب الأمر لذلك من جانب تلك الموانئ بذل تضحيات تذكر بفضل المنافسة الشديدة لشركات التأمين الأجنبية وتهافت البواخر الأجنبية على إيجاد مشحونات بأى نولون كان.

إن أوديسا ستفقد الكثير، بسبب مثل هذا التغير، كما سيعانى كثيرًا أيضًا مجمل إقليمنا الجنوبى، الذى قد بدأ يتزود بالبذور الزيتية والفلفل والأرز والقطن من الهند، وبزيت جوز الهند، والبن من سيلان، وبالشاى من الصين. وبتوقف حركة هذه المشحونات عبر أوديسا، سوف يترتب علينا من جديد الوقوع فى تبعية تامة لتريستا، ومرسيليا ولندن؛ لأنه لا تتوافر لجنوبنا بدون مشاركة موسكو ووارصوا إمكانية الاستفادة من كميات كبيرة من مشحونات البواخر المحيطة الضخمة؛ اما الحصول عليها أجزاءً أجزاءً، مع الإفراط فى شحنها فإنه سيكلف أكثر بكثير من طلبها من لندن. إن ذلك سيكون عبئًا جديدًا على جنوب روسيا المثقل أصلاً بالمدفوعات الزائدة على الفحم الحجرى والآلات الزراعية وأكياس القنب الهندى...»

«... أما الافتراض بأن زيادة تعرفات سكك الحديد لمواصلات ما وراء البحار تدخل ضمن نطاق السياسة الجمركية الوقائية السائدة حاليًا، فهو افتراض غير مبرر إزاء السلع الوافرة الواردة من خارج الحدود بواسطة هذه المواصلات؛ فهذه السلع تتألف حصرًا من خامات لازمة للصناعة الوطنية، أو من منتجات غذائية، ويستحيل إنتاجها داخل حدود روسيا....»

«... وعليه، فإن النتيجة النهائية لتغيير التعرفة المفترض هى أن بواخر الشركة الروسية للملاحة والتجارة والأسطول الطوعى سوف تحتاج إلى

مشحونات، بينما سوف ندفع نحن أجور نقل البواخر الأجنبية؛ وشركات التأمين الروسية ستصبح بدون عمل، بينما ستجمع من الشركات الأجنبية مكافأة: وخطوط سكك الحديد الروسية ستتطلب مدفوعات زائدة كبيرة، بينما سيزداد دخل الخطوط الأجنبية؛ وأخيرًا، فإن المنطقة الصناعية المسكوفية الوسطى سوف تدفع مبالغ زائدة كبيرة على الخامات المنقولة من الشرق، الأمر الذى سيسهل للأجانب مزاحمة منتجاتنا الوطنية.

بصدد جميع هذه الاعتبارات ترى لجنتانا من واجبهما ضم صوتهما إلى طلبات الالتماس التى انطلقت من جميع أنحاء روسيا والداعية إلى عدم فرض تعرفة جديدة لأنها تلحق الضرر، دون شك، بالتجارة الروسية والصناعة الروسية والمصالح الروسية العامة!»

رئيس لجنة أوديسا للتجارة والمانيفاتورة فام دير فليت رئيس لجنة البورصة فى أوديسا شولتس.

أرشيف الدولة التاريخى المركزى. لينينغراد، الملف ١٠٧ . الشركة الروسية للملاحة والتجارة، الإضبارة١، المستند ٤٩٣، عام ١٨٧٣ . «مع تقرير البارون شتايغر عن تفقُّده لوكلاء خط الإسكندرية». مارس عام ١٨٧٣ .

إلى السيد مدير الشركة للملاحة والتجارة

بورسعيد

«منذ زمن انتهاء شق القناة اكتسبت مدينة بورسعيد هيئة أخرى. وحلت محل جمهور عمال جميع الأمم جماعة من التجار، والبحارة أكثر هدوءا، وقلت الحركة فى المدينة، بينما ازدادت فى القناة نفسها وفى الأحواض.

تعبر البواخر يوميًا من بحر إلى آخر، ولا تتوقف فى بورسعيد إلا لبعض الوقت لتفريغ جزء من المشحونات أو أخذ مشحونات محلية، وفحم وماء، وما إلى ذلك.

إن أهمية بورسعيد، لا تنقطلة عبور وحسب، بل أيضًا لميناء تصريف لمصر، تتزايد بسرعة؛ لأن الكثير من منتجات مصر، ولا سيما بذور القطن والقطن نفسه، من الأنفع نقلها إلى بورسعيد منه إلى الإسكندرية.

إن وكالتنا هي، بلا شك، أجمل من جميع الوكالات، التى أعرفها وأكثرها راحة، وحتى أنها واحدة من أجمل مبانى المدينة كلها. موقعها اختير بصورة موفقة للغاية، عند المدخل إلى بورسعيد، والبواخر تتوقف عند الساحل مباشرة بحيث إن فى وسع الوكيل أن يراقب من شرفته جميع العمليات على متن الباخرة.

تصميم المبنى معروف لديكم، وهو مريح للغاية: فإن توزيع المستخدمين فى غرفتين كبيرتين، وعلى جانبيهما ممران جميلان جدا، يجتمع فيهما الزوّار، أمر عملى للغاية. فى الطابق (الفوقانى) الأعلى شقة أنيقة للوكيل لم يتم تأثيثها بعد.

تحت مبنى الوكالة يوجد قبو مساحته ٢٢٠ مترًا مربعًا يمكن استخدامه لمستودع مناسب لبراميل الخمر والزيت، وغيرهما من السلع الأخرى المشابهة. تفصل المخزن عن حوش الوكالة سعرية، وهو يتسع لـ ٤٠٠٠ بالة قطن، وحتى لـ٧٠٠٠ بالة مع الممر. وفى حال احتياجنا إلى مستودع أكبر، يمكن توسيع المخزن كثيرا بدون نفقات كبيرة.

فى الحقيقة إن أية وكالة أخرى لم تنفق هذا القدر من النقود، ولكن مستقبل بورسعيد عظيم جدا، لدرجة أن هذا الإنفاق مبرر تمامًا. وإذا لم تعد للشركة الروسية من حاجة إليها، مع مرور الزمن، فمما لاشك فيه أن هذا المبنى الواقع فى هذا المكان الكثير الحركة سيجد دائمًا زبائن له.

لا يمكن القول أن المكان الخصص لمستودع الفحم مريح بالقدر نفسه. فالحوض هناك، رغم أنه غير بعيد كثيرًا عن الوكالة، قائم فى مكان جانبى لحد ما، وليس ثمة من شك فى أننا لن نحتاج فى يوم من الأيام لمساحة بهذا القدر من الاتساع لأجل مستودع للفحم؛ ولذا فإن هذا الحوض غير مريح، بسبب أن الساحل ذو انحدار كبير نسبيا، وسوف يلزم تدبير مرسى، حتى لشحن المواعين

(٣٦)؛ إنه يكون من غير الصحيح هدر الوقت على إرسال باخرة إلى هناك لاستلام الفحم؛ لهذه الأسباب يرى السيد برون، وأنا موافق على رأيه كليًا، أنه يكون من الأنسب أن نأخذ مكانًا لمستودع الفحم قائمًا قبالة الوكالة تقريبًا على الساحل الآخر (الشرقى) للقناة الذى أقيمت فيه الآن قطاعات منفردة أو جزر.

هذه الأماكن تباع بالسعر نفسه، للمتر المربع، وقد أصبح لدى الكثير من الشركات، وبينها بالمناسبة شركة ميساجيرى ماريتيم والشركة الإنجليزية (٣٩)، مستودعات فى هذه الجزر لأجل الاتجار بالفحم. يكفى فقط شراء عدد الأمتار المربعة، التى ستكون وفق التصميم لازمة لمستودع الفحم، وسيكلف شراؤه أقل، ويكون القيام بالعمليات المتعلقة به أنسب؛ لأن المسافة أقرب، ومن الوكالة يتراءى المستودع، والساحلان عموديًا الانحدار تقريبًا؛ لأن القناة محفورة فى اليابسة، ولايلزم بناء مراسٍ لشحن المواعين. أرى أنه من الضرورى تأمين مكان للفحم فى بورسعيد، لكيلا نكون فى تبعية للإسكندرية، حيث يوجد لدينا مخزن يتسع لطنين، ونصف الطن، ويكفى لحاجاتنا الحالية، ولكنه قد يغدو غير كافٍ، إذا كانت الظروف ستدفع الشركة (وهذا أمر محتمل الوقوع) إلى زيارة مصر بتكرار متزايد، وهو غير نافع إطلاقًا، بالنسبة للبواخر المبحرة على الخط الصينى. فضلاً عن ذلك، فعندما سيشيد كورنيش فى ميناء الإسكندرية، فإن مخزننا الحالى سيصبح بعيدًا عن البحر، وإما أن عملية شحن الفحم ستكلف غاليًا جدًا، وإما سنضطر لاستئجار مخزن آخر، ربما بسعرٍ غالٍ، إذا لم يهد نائب السلطان مكانًا جديدًا لشركات البواخر. لدى حديثى مع سموه حول الكورنيش المقبل، أشرت إلى عدم فائدته بالنسبة لنا من هذه الناحية، وعلى الرغم من أن رأيه استقر على ملاحظتى كيف ما يبدو فإن الخديوى، لم ير من الضرورى الآن بالذات وعد الشركة ببديل.

عملية شحن الفحم فى بورسعيد لا تكلف غاليًا. وقد قدموا للسيد برون عرضا بدفع فرنكين و١٥ سنتيما، للطن الواحد من الباخرة إلى المستودع، وفرتكين و٢٥ سنتيما من المستودع إلى الباخرة.

إن القيام بعملية الشحن، لا بالمقاولة، بل باستئجار عمال وصنادل، سوف يكلف: للعمال ٩٠ سنتيما وللصنادل ما بين ٨٠ سنتيما وفرنك و١٠ سنتيمات (تبعا لوقت العمل ونوعه)، أى من فرنك و٧٠ سنتيما حتى فرنكين للطن الواحد. أما فى الإسكندرية فإن هذه العملية تكلف: من الباخرة إلى المخزن ٣٧ كوبيكا ومن المخزن إلى الباخرة ٥٩ كوبيكا للطن الواحد.

لذلك، يكون من المفيد لو تفضل معاليكم بتكليف السيد برون بأن يقدم إليكم مخططًا عامًا للساحل الشرقى للقناة بشكله الحالى، مع الإشارة إلى تلك القطاعات التى ماتزال خالية، على أن تحددوا للسيد برون مساحة القطاع التى قد تحتاج لها الشركة.

سبق أن نوهت بأن مستقبل بورسعيد يبرر نفقات الشركة على هذه الوكالة. وبالفعل، فعلى الرغم من أننى تكهنت دائمًا ـ كما هو معروف لمعاليكم ـ بأن لبور سعيد مستقبلاً غنيًا، وأشرت فى تقريرى الأخير إلى فائدة مضاعفة الاتصالات، فإننى لم اتوقع أن تتمكن وكالة بورسعيد، بالوسائل التى كانت تملكها من زيادة نقلياتها إلى هذا الحد:

نقليات عام ١٨٧١

المشحونات	الركاب
٢٣٣٠ روبلا	٣٧٥١ روبلا

نقليات عام ١٨٧٢

٩٠٩٢	٥٧٢٨

وإن ما هو هام بشكل خاص إن حركة المشحونات ازدادت خاصة إلى روسيا. ففى عام ١٨٧١ نقلت إلى أوديسا مشحونات بمبلغ ٨٦٢ روبلا، بينما نقلت إليها عام ١٨٧٢ بمبلغ ٧٣٢٥ روبلا.

حركة الركاب انخفضت بمبلغ ٣٠٠ روبل إلى الإسكندرية، وازدادت قليلاً إلى جميع موانئ الخط، إما إلى القسطنطينية فازدادت من ٣٦٩ روبلا إلى ٩٩٢ روبلا.

وإليكم أرقامًا أخرى أكثر بلاغة: فى عام ١٨٧١ أرسل من بورسعيد إلى أوديسا ببواخر الترانزيت الهندية الصينية ٢٨٨ طردًا، بينما أرسل ٣٧٤٨١ طردًا فى عام ١٨٧٢، عدا المشحونات التى نقلتها ٤ بواخر تابعة للشركة الروسية، وشركة ملاحة الدانوب. فى عداد هذه الطرود، كانت توجد ٣٦٢٨ بالة قطن و١١٤١٩ صندوق شاى و١٩٧٧٥ قطعة من أشجار الصبغ. وأخيرًا، نقلت بواخر مختلفة إلى بورسعيد لإرسال إلى تريستا ١٠٣٢٧ طردًا، عدا مشحونات ١٧ باخرة تابعة لشركة لويد، ومعظم الـ١٠٣٢٧ طردا المذكورة، وبينها ٣٣٦٠ بالة قطن، حسب تأكيد السيد برونّ، اتجهت عبر تريستا إلى شمال أوروبا.

وكما ترون فإن البداية موفقة جدا، وليس ثمة من شك فى أن أهمية النقل بالترانزيت ستتخذ نطاقات أوسع من ذلك بكثير. ولا سيما إذا أعلنت الشركة الروسية، فى الهند والصين.

إن كل شحنة، مرسلة إلى وكيلها فى بورسعيد، سوف ترسل فى الحال إلى أوديسا على متن بواخر الشركة الروسية. ويمكن بالطريقة نفسها استلام أية سلع فى روسيا والشرق لإرسالها مقبلاً إلى الشرق الأقصى عن طريق بورسعيد، فى الحقيقة أن بورسعيد، قلما تستطيع إرسال منتجات روسية سوى الحبال والسبيرتو. السيد برون يطلب أن تُرسل له نماذج من حبال مصنع نوفيكون وأن يقيم اتصالا مع مصنع غلاوفسكى.

قوام وكالة بورسعيد:

السيد برونّ ٢٥٠٠ روبل

قسم المشحونات ومكتب الحسابات ٨٥٠ روبلا

قسم الركاب ٦٠٠ روبل

مساعد للقسمين ٣٠٠ روبل

قوّاص وحارس ٣٣٠ روبلا

قواربى ٣٠٠ روبل

بالإضافة إلى أنه يعمل فى الوكالة المستخدم فى الشئون القنصلية السيد بيانكى.

تقوم بأعمال التفريغ شركة دوك وأنتريبو لقاء فرنكين، ونصف للطن الواحد من البواخر إلى الجمرك وفق قائمة المشحونات على حساب المستلمين بدون أى مصروفات ومشاركة من جانب الوكالة.

لقاء إعادة الشحن من باخرة إلى أخرى، مع حق المواعين فى الرسو يومين، يطلبون ٣ فرنكات للطن الواحد، ولقاء رسو المواعين أكثر من هذه المدة ١٤ فرنكا لكل ٤٠ طنا لقاء الماعون والمشمّع والحراس.

لقاء التفريغ إلى مخزن الشركة والشحن منه يطلبون ٦ فرنكات للطن الواحد، مع حق رسو المواعين يومًا كاملاً.

العمال المناوبون: يدفعون للعمال العرب ٣ فرنكات فى اليوم وللأوروبيين ٥ فرنكات.

الإسكندرية

السيد إيفانوف وكيل حاذق ونشيط للغاية. الأمور تسير لديه بصورة حسنة والدفاتر، والمراسلات فى وضع ممتاز. إن للوكالة، كما تعلمون، مساوئ كثيرة: فالجو فيها حار ولا نهاية لأسراب الذباب والبعوض، وهى تعانى أحيانًا من الروائح الكريهة، غير أنها موجودة، من جهة أخرى، فى موقع كثير الحركة، وثمنها رخيص جدًا، بحيث إن تغييرها إلى مكان آخر مستحيل بدون نفقات كبيرة. المنظر الداخلى للوكالة لا يبعث على الارتياح كثيرًا، فأوراق الجدران قذرة، ومتداعية فى بعض الأماكن. والأرضية فى الزوايا قرضتها الجذرات، لذلك سمحتُ للسيد إيفانوف بإلصاق ورق جديد، ولكن غير غالٍ، على جدران الوكالة، وتصليح الأرضية، وسد الثقوب بقطع الصفيح. وآمل بأن يصادق معاليكم على هذا المصروف غير الكبير.

إن قوام المستخدمين معروف لديكم من الميزانية. بقى ١٢٠٠ روبل من وظيفة المعاون الشاغرة، الذى لا يحتاج إليه السيد إيفانوف، و٦٠٠ روبل من السيدسكيليتس، الذى توفى هذا العام. وزع السيد إيفانوف واجبات سكيليتس للشئون الجمركية على مستخدمين آخرين للوكالة، الأمر الذى سيكلف أقل من استئجار مستخدم جديد، ويطلب السيد إيفانوف السماح له بأن يوزع بينهما ٣٠٠ روبل من أصل ٦٠٠ روبل. لى الشرف بأن أرفع إليكم هذا الطلب للبت فيه.

إن مخزن الفحم، الذى يتسع لـ٢٥٠٠ طن من الفحم، فى حالة جيدة. كانت كمية الفحم قليلة جدا. عملية شحن الفحم تكلف: من المخزن إلى الباخرة ٥٩ كوبيكا، ومن الباخرة إلى المخزن ٣٧ كوبيكا للطن الواحد. وهنا، كما فى إزمير، سوف يتوجب علينا، عندما يتم إنشاء كورنيش، الاهتمام بإيجاد مخزن آخر للفحم، ولكن ثمة متسعًا من الوقت للتفكير بذلك.

بلغت نقليات وكالة الإسكندرية:

	المشحونات	الركاب
عام ١٨٧١	١٩٤٣٩ روبلا	١٠٠٩٧ روبلا
عام ١٨٧٢	٣٢٨٠١ روبل	١٢٨١٨ روبلا

إن نشاطها هام جدا فى عمليات الترانزيت، لأن جزءا كبيرا من أجرة النقل يرد من المشحونات، التى تنقلها لنا الشركات الإنجليزية لإيصالها إلى الموانئ السورية، حتى الإسكندرون، ومن جهة أخرى يجرى فى الإسكندرية تسليم مشحونات إلى الشركات الأجنبية، تُستلم فى الموانئ السورية والقرمانية لإرسالها إلى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وتريستا. ينبغى جعل هذه العمليات أكثر أهمية إذا كان خط الإسكندرية سيحافظ لاحقًا على بواخر نقل، كان عددها يكفى بالكاد حتى ذلك الزمن، من حيث السعة القليلة للبواخر، لأجل مشحونات ملاحة السواحل، وكان يلزم تقييد استلام مشحونات ترانزيت بأجرة نقل دنيا لصالحنا، أما فى الماضى، فقد كانت البواخر، المتجهة إلى الإسكندرية، نادرًا ما تمتلئ

عنابرها، ويمكن لبواخر الترانزيت أن تحسّن أجور خطها إلى حد أكبر، وذلك ما سأهتم به، عندما سيتم البت فى مسألة بواخر النقل.

إن مستقبل الإسكندرية غنى للغاية. وقد قال لى الخديوى (الذى رأيت من واجبى القيام بزيارة له فى القاهرة، واستقبلنى بحفاوة فائقة، إن خط سكك الحديد، المؤدى إلى السودان، الذى اقترحه هو، يجب أن يتم مده عما قريب، وأنه سيبعث نشاطًا كبيرًا فى ميناء الإسكندرية، بسبب تنوع منتجات السودان، ونوعيتها الرفيعة، ناهيك عن أن هذا الخط، حتى مساوة الواقعة على البحر الأحمر، سوف يخفض طول مدة الملاحة بين أوروبا والهند مقدار ثلاثة أيام.

بالنسبة لنا تتزايد أهمية الإسكندرية، عامًا بعد عام من حيث استيراد القطن المصرى إلى روسيا، الذى بلغ استيراده خلال موسم النقليات لعامى ١٨٧١ / ١٨٧٢ إلى أوديسا ٨٥٠٠ بالة. وابتداء من أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٧٢ أثناء زيارتى لمصر تم استيراد حوالى ١٢٠٠ بالة؛ بالإضافة إلى القطن تتلقى روسيا من مصر البن والتمر والبخور، وسوف يصار إلى استيراد السكر، حسب تأكيد الخديوى، وهو أمر أشك فى صحته، ولكن سموه أكد أن التجار اليونانيين المحليين وعدوه بالنجاح التام لهذا المشروع.

فى الإسكندرية زرت مطحنة السيد داربلاى، الذى لم يكن موجودًا آنذاك فى مصر. وأعرب لى معاونه عن الأسف من أنه لم يتسن، رغم رغبتهما الشديدة، لاتفاق مع الشركة الروسية، حول نقل دقيقهما، وحبوبهما، التى يتلقيان منها فى السنة ٦٠ ـ ٧٠ ألف ربعية. وقد عقدا الآن اتفاقًا مؤقتًا مع شركة لويد سينتهى موعده، على ما يبدو، فى أواخر إبريل (نيسان).

بالنسبة للعمال، الذين تحتاج إليهم البواخر فى الموانئ.

«إن عدد العمال بالنسبة لكل سفرة هو الآن أكبر من الماضى، ومرد ذلك إلى أنه كانت تبحر فى السابق على خط الإسكندرية بواخر ركاب، تأخذ كمية من المشحونات أقل بما لا يقاس، وذات سرعة تحرك أفضل، وبفضل ذلك لم تكن

تتأخر إلى الموانئ. وبالتالى فهى، إذ كانت تصل فى الموعد المحدد، كان لديها وقت أكبر بالنسبة لكل مرفأ من أجل القيام بأعمال أقل إجمالا.

إن منع البواخر من استئجار العمال، فى ظل العدد المحدود لأفراد الطاقم، الذى يعمل أثناء السير لتلبية مختلف حاجات البواخر، وكل يوم تقريبا فى موانئ الخط، من شأنه أن يلحق الضرر بالشركة الروسية بأن يضطرها، إما لعدم أخذ كل المشحونات وإما للرسو مدة أطول فى الموانئ. ليس للوكلاء أى حق فى منع البواخر من استئجار العمال، عندما تكون بحاجة إليهم، فى حين أن معظم القباطنة مخلصون جدًا لمصالح الشركة الروسية، لدرجة أنهم لن يعمدوا إلى المطالبة بأشخاص زائدين.

المواد الرئيسية للمشحونات إلى بورسعيد لأجل أوديسا هى ـ من أغسطس (آب) حتى يناير (كانون الثانى) ـ الشاى، ومن ديسمبر (كانون الأول)، حتى مايو (أيار) ـ قطن بومباى، وفى الصيف شجرة الصبغ والفلفل وغيرهما. وأخيرًا من أكتوبر (تشرين الأول) إلى مارس (آذار) ـ القطن المصرى.

«إن الشركة الروسية ترغب فى الاستيلاء على نقل منتجات الصين، والهند ومصر إلى أوديسا. فالترانزيت عبر بورسعيد، شأنه شأن علاقات مصر المباشرة مع روسيا، قد ولدت لتوها.

إن مطحنة درابلاى البخارية فى الإسكندرية تتلقى من أوديسا ما بين ٦٠ و٧٠ ألف ربعية من القمح تدفع عنيها ٣,٥ فرنكات لكل ١٠٠ كيلوغرام، أو ٣٥ فرنكًا للطن الواحد...»

الشركة الروسية للملاحة والتجارة، الملف ١٠٧ ، الإضبارة١، المستند (١١٤٧)

تقرير إلى مدير الشركة الروسية من ميللر بعد إيفاده إلى وكالات خط الإسكندرية فى إبريل. مايو ١٨٩٣م.

الإسكندرية (مصر)

الإسكندرية هى ميناء مصر الرئيسى للتصدير والاستيراد، على السواء، الذى تجرى من خلاله كل تجارة مصر الخارجية تقريبًا، ولا يبقى سوى ١٠٪ من الدورات التجارية من نصيب جميع سائر المرافئ الصغيرة الواقعة فى بورسعيد، والسويس ودمياط ورشيد وغيرها. ولا غرابة فى أن مدينة الإسكندرية اتسعت وهى تعتبر الآن مركزًا تجاريًا هامًا، ويسكنها حتى ١٠٠ ألف من الأوروبيين...

إن الدقيق والحبوب تصل إليها من روسيا بصورة دائمة تقريبًا، بكمية غير كبيرة، وهذه المنتجات ضرورية للأوروبيين، الذى لايأكلون خبزًا مصنوعًا من الدقيق المحلى.

فى الأعوام الماضية كان يجرى استيراد كمية كبيرة جدًا من المواشى إلى مصر، ولا سيما من روسيا، ولكن استيرادها يقل عامًا بعد عام، ومرد ذلك إلى تطور تربية الماشية فى مصر نفسها.

كان يُدفع لقاء إيجار المبنى الجديد (لأجل وكالة الشركة الروسية فى الإسكندرية) المريح جدا ٨٠ جنيهًا مصريًا فقط، وهو إيجار رخيص جدًا.

من المفروض حسب الميزانية دفع ٥٠٣٢ روبلا على معاشات سائر المستخدمين (باستثناء الوكيل العام للشركة الروسية السيد براسينو)، وهذا المبلغ لم يزد مع ازدياد الأعمال. ولكن السيد براسينو وجد من الممكن توظيف مستخدم آخر على حساب هذا المبلغ نفسه. ثمة ضرورة ملحة فى الوقت الحاضر، من جراء ازدياد حركة المشحونات، لزيادة الميزانية لتوظيف مستخدم آخر براتب ٤٢٠ روبلا، خصيصا للإشراف فى مخزن البضائع الجمركى على تسليم المشحونات.

الأعمال موزعة فى الوقت الحاضر على النحو التالى: السيد بتروبولو يشرف على المشحونات الواصلة إلى هنا ويتقاضى ١٢٠٠ روبل؛ السيد أفيرينو يشرف على المشحونات الصادرة إلى الخارج ويتقاضى ١٢٢٨ روبلاً؛ السيد روزنبرغ

يتقاضى ٩٠٠ روبل، ويتعاطى جميع أعمال المحاسبة والمراسلات الفرنسية؛ السيد سيبسى يتقاضى ٦٠٠ روبل ويشرف على بطاقات الركاب، ويتعاطى المراسلات الإنجليزية؛ السيد ميكاليوف أمين المخزن يتقاضى ٤٢٠ روبلا ويشرف على مستودع الفحم، ويراقب فى الجمرك، فى الوقت نفسه، تسليم المشحونات. وهاتان الوظيفتان يستحيل التوفيق بينهما فى الوقت الحاضر، ومن الضرورى وجود شخصين لأجل ذلك: واحد فى مستودع الفحم، والآخر لدى مخزن البضائع الجمركى.

جميع المستخدمين جدد، باستثناء السيد أفيرينو الذى يعمل فى الوكالة منذ ٢٧ عامًا، وهم يفلحون فى كل شىء. السيد بتروبولو يجيد اللغة الروسية.

ثم القواص المسن الذى يتقاضى ٤١٤ روبلاً، أما المستخدم لدى الوكالة فيتقاضى ٢١٠ روبلات.

الـ ٦٠ روبلا الباقية فى الميزانية يتلقاها المتقاعد الشيخ سيد أحمد.

أعمال الشحن والتفريغ

منذ سنتين وبواخر الشركة الروسية تلقى المرساة عند الكورنيش الجميل، عند المرطم الذى خصص فيه للشركة ٩٥ مترًا لقاء ٦,٥ جنيهات للمتر الواحد، أى ما يعادل فى السنة حوالى ٤٠٠٠ روبل ذهبًا. هذا المبلغ كبير، ولكنه يعوِّض بأسباب الراحة والسرعة، التى تجرى فيها حاليا عمليات الشحن والتفريغ. مكان الرسو مريح تمامًا، والسيئة الوحيدة هى أنه قصير بعض الشىء لباخرة طويلة مثل «تشيخاتشوف». عملية التفريغ تجرى بوسائل الشركة أو المستلمين، ولكن على حساب المستلمين على كل حال. أما عملية الشحن فتجرى بوسائل المستلمين فقط.

ينحصر المصروف فى استئجار عمال العنابر والمواعين إذا احتيج لهم لأجل الإسراع فى أعمال الشحن. يتعاطى المقاول محمود تقديم المواعين والعمال المياومين.

خصص الجمرك لمشحونات الشركة الواصلة إلى هنا مخزن بضائع منفردا بالمجان تمامًا؛ وهو أفضل مخزن جمركى.

الضرائب

تصاحب دخول البواخر إلى الإسكندرية مصاريف كبيرة جدًا، وإليكم مم تتألف فى كل مرة بالنسبة للباخرة من قياس:

	«تشيخاتشوف»	و«روسيا»
للميناء	٤٦٦,٦٨ روبلا	٢٣٣,٨٦ روبلا
للمنارة	٧٨,١٦ روبلا	٥٢,٩٩ روبلا
للمرشدين	١٧,٢٤ روبلا	١٧,٢٤ روبلا
للقنصلية	١٦٥,٧٢ روبلا	٨١,٩٠ روبلا
المجموع	٧٢٧,٨٠ روبلا	٣٩١,٩٩ روبلا

مستودع الفحم

فى الإسكندرية تتزود البواخر بالفحم المجلوب خصيصًا من كرديف.

خلال عام ١٨٩٢ سُلم منه لبواخر الشركة من المستودع ٧٣٢٠ طنا فقط، أو ٤٤٦٥٢٠ بودا.

شحن الفحم من المستودع إلى الباخرة يكلف قليلاً جدًا: أقل من كوبيك للبود الواحد. بالإضافة إلى المستودع فى الإسكندرية يوجد مستودع مواد غير كبير حيث يجرى حفظ دهان «باتنت» لأجل البواخر.

بورسعيد

يبلغ عدد سكان مدينة بورسعيد حاليًا، التى بنيت فى أواخر الستينيات عند مدخل قناة السويس، حتى ٣٠ ألف نسمة. وهى مبنية على قطعة من اليابسة،

أنشئت بصورة اصطناعية، وتحيط بها، من جهة، بحيرة كبيرة، ومن جهة أخرى البحر والصحراء. وهى على هذا النحو، منفصلة تمامًا عن القسم الخصيب من أراضى مصر، وتبعد ٨٠ كيلو مترا عن الإسماعيلية، التى هى أقرب نقطة إليها تتصل بورسعيد من خلالها بمصر الداخلية؛ إن هذا الموقع خلق حياة مميزة تمامًا لبورسعيد.

هذه المدينة لا تنتج شيئًا على الإطلاق، وهى لم تستخدم حتى الوقت الحاضر كميناء تصدير من مصر. جميع مواد استهلاك المدينة تُجلب إلى هنا من جميع بلدان العالم. إن لبورسعيد بحد ذاتها غرضين رئيسيين: فهى، أولاً: محطة فحم ترسو عندها جميع بواخر المحيطات، التى تعبر قناة السويس، وهنا بالذات تتزود هذه البواخر بكل ما هو ضرورى لمواصلة الملاحة؛ ثانيًا، هنا تجرى عمليات إعادة نقل وإعادة شحن المشحونات من بواخر إلى أخرى.

وفى الوقت الحاضر، ونظرًا لتشغيل الحركة ليلا عبر القناة، أصبحت بواخر المحيطات تتوقف لمدة قصيرة جدًا فى بورسعيد، حوالى ٣ ساعات فقط، إلا أن ذلك ينعش التجارة كثيرًا فى بورسعيد، بحيث إن المدينة تستمر فى النمو شيئًا فشيئا. ظلت الحكومة المصرية مدة طويلة ترفض جميع مقترحات مد خط سكة حديد إلى بور سعيد خوفًا من جعل هذه النقطة منافسًا خطيرًا للإسكندرية، التى تتركز فيها كل تجارة مصر التصديرية.

ومع ذلك، وبعد جهود حثيثة تسنى لشركة قناة السويس فى العام الماضى الحصول على إذن بمد خط حديدى من الإسماعيلية على امتداد قناة السويس حتى بورسعيد على أرض كانت تعود سابقًا لهذه الشركة. وهذا الخط يعتبر جاهزا فى الوقت الراهن، ويُنتظر افتتاحه فى الخريف. ولكن هذا الخط ضيق السكة، وسمحت الحكومة المصرية بأن يُنقل عليه ركاب وبريد وطرود بريدية فقط، أما المشحونات فلا يحق للشركة نقلها على هذا الخط.

إذن، لقد رُبطت بورسعيد الآن، بواسطة سكة حديد، بمصر الداخلية، ومن المحتمل أن تنعش حركة نقل الركاب نشاطها، غير أن ذلك لن يجعل منها بعد ميناء تصدير لمصر.

نشاط الشركة الروسية

كانت دورات وكالة الشركة الروسية فى بورسعيد خلال الأعوام الخمسة الماضية على النحو التالى:

فى التصدير

العام	عدد الركاب	التفريغ لأجلهم	كمية المشحونات بالبودات	النولون المستحصل	مجموع المستحصل
١٨٨٨	٨٠١	٤٢٣٤,٥٨	٣٦١٧٩٥	٣١٢٤٨,٢٢	٣٥٤٨٢,٨٠
١٨٨٩	٩٥٢	٧٦٠١,٧٠	٢٠٨٠٣٥	٢٦٨٧٢,١٤	٣٤٤٧٣,٨٤
١٨٩٠	١٢١٥	٧٦٢٨,١٠	١٠٩٤٥٤	١٢٦٤٥,٧٧	٢٠٢٧٣,٨٧
١٨٩٢	٦٣٤	٤٠١٤,٧٦	٢٨٠١٩٩	٢٣٢٠٨,٨٥	٢٧٢٢٣,٦١

فى الاستيراد

العام	عدد الركاب	التفريغ لأجلهم	كمية المشحونات بالبودات	النولون المستحصل	مجموع المستحصل
١٨٨٨	١٢٥٠	٥٦٨١,٤٣	٢١٥١٠٠	٢٨٠١٨,٩٦	٣٣٧٠٠,٣٩
١٨٨٩	٩٩٠	٥١٤٤,٥٦	٢٤٦١١٦	٢٧٩٩٦٥,١٦	٣٣١٠٩,٧٢
١٨٩٠	٧٤٤	٥٧٣٢,٨٦	٢٩١٨٨٧	٢٩٦٨١,٦٨	٣٥٤١٤,٥٤
١٨٩١	٧٤٦	٥٦٤٧,٧٥	٢٥٦٠٠٠	٢١٧٩٥,٨٤	٢٧٤٤٣,٤١
١٨٩٢	٩٣٩	٤٨١٧,٢٦	١٦٩٠٨٥	١٦٥٤٠,٦١	٢١٣٥٧,٨٧

علاوة على ذلك نُقل إلى بورسعيد من المواشى:

عام ١٨٨٧ ٤٦٣٥ رأسا

عام ١٨٨٨ ٣٩٤٩ رأسا

عام ١٨٩٠ ٣٥ رأسا

عام ١٨٩١ ٣٤٦ رأسا

عام ١٨٩٢ ١٧٥٧ رأسا

إن التدنى الكبير فى عام ١٨٩٢ لعدد الركاب المنقولين من بورسعيد مرده إلى التغيير غير الموفق للأسبوع فى رحلة رجوع البواخر الدورية، الأمر الذى سنشرحه بالتفصيل فيما بعد.

إن مد خط سكة حديد سيمارس، على الأرجح، تأثيرًا على زيادة حركة الركاب عبر بورسعيد.

مشحونات التصدير تتألف فقط من مشحونات إعادة النقل المرسلة من الصين واليابان واستراليا والهند والخليج العربى حسب الطلب إلى الموانئ التى تعرج عليها بواخر الشركة الروسية، أما مشحونات الاستيراد فتتألف جزئيًا من مشحونات إعادة النقل، وجزئيًا من المشحونات المخصصة لتجهيز بورسعيد وجميع محطات قناة السويس، حتى مدينة السويس حصرا. يندرج فى عداد الفئة الأخيرة من المشحونات الدقيق والأخشاب والماشية.

يتبين من فحص أرقام دورات الوكالة أن التصدير من بورسعيد، الذى وصل عام ١٨٨٨م إلى ٣٦١ ألف بود، هبط عام ١٨٩٠م إلى ١٠٩ آلاف بود، وعاد فارتفع عام ١٨٩٢ إلى ٢٨٠ ألف بود.

إن المستوى المرتفع لهذا النقل عام ١٨٨٨م يفسر بالكمية الكبيرة لمشحونات إعادة نقل الشاى المنقولة عبر بورسعيد إلى روسيا، التى تقلصت كثيرا عام ١٨٩٠ بسبب ازدياد رحلات الأسطول الطوعى الروسى، وكانت فيما بعد، فى عامى ١٨٩٠م و١٨٩١م، غير ملائمة بالنسبة لبورسعيد؛ لأنه كان يوجد خط الإسكندرية وحده فقط، الذى كانت بواخره محملة بالمشحونات أكثر من طاقتها بحيث لم يكن فى إمكانها أخذ مشحونات إلى بورسعيد. وفيما بعد، عام ١٨٩٢، أصبح الوضع طبيعيًا لحد ما، بصدد تصدير المشحونات، رغم أن السيد برون يؤكد أنه لو كان جدول مواعيد السفرات أكثر ملاءمة لكانت كمية المشحونات المصدرة

أكبر. أما استيراد المشحونات إلى بورسعيد عام ١٨٩٢، فلم يكن موفقًا جدًا، لأن استيراد الدقيق من روسيا تقلص كثيرا، بسبب الحظر السابق، علمًا بأن قناة السويس كلها كانت فى الماضى تتزود بالدقيق الروسى فقط تقريبًا.

أما انخفاض عدد رؤوس المواشى، ابتداء من عام ١٨٨٩م، المستوردة إلى بورسعيد فمرده إلى عدم التعريج على ميناء الإسكندرون، الذى كانت تذهب منه كمية كبيرة جدًا من المواشى إلى بورسعيد.

من بين المشحونات المصدرة من بورسعيد، يذهب الشاى وحده إلى روسيا، أما القسم الأكبر من بقية المشحونات فيذهب إلى بيروت، وأزمير والقسطنطينية. توجد لدى السيد برون اتفاقية خاصة مع وكلاء شركات أجنبية، حول إعادة النقل المتبادلة للمشحونات، وهو يتفق معهم أيضًا بشأن أجور النقل. وأقدم اتفاقية للسيد برون معقودة مع المدعو ستيبليدون ممثل ثلاث شركات إنجليزية كبيرة، وهى: شركة هال لاين، التى تقوم برحلات إلى الهند، وشركة هولت لاين، التى تقوم برحلات إلى الصين واليابان وجزيرة جاوا، وشركة برسيان غالف لاين، التى تقوم برحلات إلى الخليج العربى؛ ومن ثم تجرى مبادلة المشحونات الاسترالية، مع شركة لويد الألمانية، والسيد برون نفسه وكيل لها، وكذلك مع شركة أوريانت لاين. جميع هذه الشركات تتعامل بأجور النقل، التى نعمل بها وهى تستطيع أخذ المشحونات إلى جميع الموانئ، التى تزورها بواخر الشركة الروسية.

نظرًا للتقلبات المتكررة فى أجور النقل وبغية المنافسة بصورة أكثر نجاحًا تقدم هذه الشركات الأجنبية لوكلائنا الحق فى استلام مشحونات بأجور نقل اختيارية إلى المكان المقرر، بشرط أن يصار إلى اقتسام أجرة النقل المستحصلة، مع الشركة الروسية بنسبة معينة. مثلاً: بالنسبة للمشحونات الذاهبة إلى بومباى تبلغ حصة شركة هال لاين ٦٠٪ من مجمل أجرة النقل المحصلة، وحصة الشركة الروسية الـ٤٠٪ الباقية بغض النظر عن الميناء الذى أخذ منه الشحن.

وبالنسبة للمشحونات الذاهبة إلى شانغهاى تحصل الشركات الأجنبية على ٧٠٪ والـ٣٠٪ الباقية من كل أجرة النقل، تتلقاها الشركة الروسية. وبالنسبة للمشحونات الذاهبة إلى البصرة (فى الخليج العربى) تحصل هذه الشركات على ٧٥٪ لأن أجرة النقل إلى هناك أعلى بكثير دائمًا، وإلى بغداد ٨٠٪، وهلم جرا. هذا النظام لا يصادف أية خلافات، وبفضل علاقات السيد برون الممتازة مع ممثلى الشركات الأجنبية تسير الأمور بنجاح تام، وبفضل هذه العلاقات أيضًا، يتسنى الإبقاء فى بورسعيد على أجور نقل مرتفعة جدًا. وعلاوة على ذلك يجد السيد برون بطريق الصدفة كميات إضافية من المشحونات، التى تصل على بواخر أخرى بالمناسبة نقول إنه يصعب جدا الحصول على مشحونات كهذه؛ لأنه لا يتسنى دائمًا للسيد برون، الذى لا تتوفر البواخر لديه إلا مرة كل أسبوعين، إقناع الحمالين بانتظار وصول بواخرنا، سيما وأنه يعرج على بورسعيد عدد كبير من البواخر المستعدة دائمًا لأخذ المشحونات بأجور نقل متدنية جدا.

وعلى العموم، فإن مسألة اجتذاب المشحونات فى بورسعيد صعبة جدا، ويبدو لى أننا مدينون كثيرًا بنجاح قضيتنا إلى المكانة الفريدة للسيد برون، التى يتمتع بنفوذ شديد فى بور سعيد لا بالنسبة لشئون شركتنا فقط.

مبنى الوكالة

يقع مكتب الوكالة فى المبنى الخاص للشركة الروسية، الذى شيد عام ١٨٧٢م على قطعة أرض اشترتها من شركة قناة السويس. إن هذا العقار، الذى يبلغ ثمنه حسب الميزان التجارى ١٧, ٥٠٢٩١ روبلا، يساوى الآن ضعف هذا المبلغ على أقل تقدير إذا قارناه مع الأسعار الحالية للمبانى المجاورة. إن هذا المبنى يوجد فى حالة جيدة تمامًا، ولا يُنفق على تصليحه سوى نقود زهيدة: ففى عام ١٨٩٠م انفق ٢٤,٢٠ من الروبل، وفى عام ١٨٩١ ـ ٤٩,١٤ من الروبل، وفى عام ١٨٩٢ ـ ٤٧,٢٠ روبل.

تدفع الشركة رسومًا بلديةعلى هذا المبنى قدرها ١١٢,٥٠ روبلا سنويا. ويوجد فى هذا المبنى مكتب الوكالة فى ثلاث غرف كبيرة، وغرفة انتظار كبيرة للمسافرين، وفى الطابق الأعلى شقة السيد الوكيل.

يوجد لدى هذا المبنى مخزن ينفع جدا الشركة، لأجل حفظ مشحونات الشاى المخصصة لإعادة نقلها، والتى من غير الملائم إبقاؤها على متن المواعين. وبين هاتين البنايتين تقع حديقة صغيرة، وجميعها توجد فى حالة ممتازة ونظافة رائعة.

قوام الوكالة

يعمل السيد برون وكيلا منذ تاريخ افتتاح الوكالة تقريبًا فى بورسعيد، وهو يتقاضى ٢٥٠٠ روبل و١٥٠٠ روبل من النسبة المئوية المضمونة للمكافأة، التى لم يتسن له فى يوم من الأيام الحصول على أعلى من هذه الضمانة. وهو يعمل أيضًا قنصلاً روسيًا وألمانيًا ووكيلا لشركة لويد الألمانية والأسطول الطوعى الروسى. وبالنسبة للشركتين الأخيرتين ينحصر نشاط السيد برون، بالدرجة الرئيسية، فقط فى تزويد البواخر بالفحم وإجراء جميع الشكليات للبواخر فى بورسعيد. وعليه، فإن هذه الأشغال لا يلحق الضرر أبدًا بمصالح الشركة الروسية، بل على العكس تزيد نفوذ السيد برون فى عالم التجارة، الأمر الذى يمكن لقضيتنا أن تربح منه.

يعمل غافوتى كاتب حسابات منذ أكثر من ٢٠ سنة، وهو يمسك جميع الدفاتر ويتعاطى المراسلات، ويتقاضى راتبًا قدره ٧٥٠ روبلا فى السنة. كاتب الحسابات الثانى السيد كيت يبيع التذاكر، ويحرر الكوبونات (الرخص) وبوليصات الشحن، وجميع التقارير المتعلقة بالمشحونات، ويتقاضى ٦٦٠ روبلا فى السنة.

يعمل السيد زاندوناتى مستلما للمشحونات، وهو يتقاضى ٦٠٠ روبل فى السنة، والمنصب الثانى لمستلم المشحونات، الذى يبلغ راتبه حسب الميزانية ٦٠٠ روبل أيضًا، لايزال شاغرًا. ويبحث السيد برون لهذا المنصب عن شاب يتكلم الروسية. فضلاً عن هؤلاء المستخدمين يوجد لدى الوكالة مستخدمان براتب ٢٧٠ روبلا لكل منهما، وقواص يتقاضى ١٨٠ روبلا، وحارس يتقاضى ١٥٠ روبلا.

بما أن السيد برون يستفيد من مساعدة هؤلاء الأشخاص للقيام بأعمال جانبية، لا تخص شئون سفارتنا، فهو يدفع لهم من جيبه الخاص رواتب إضافية

تصل إلى ٢٠٥٥ روبلا فى السنة للجميع. الحصة الرئيسية من هذه الأجور الإضافية يحصل عليها السيد غافوتى، معاون السيد برون، الذى يترك انطباعًا فى النفس بأنه مستخدم مرموق جدًا.

أعمال الشحن والتفريغ

تجرى أعمال التفريغ والشحن فى بورسعيد بوسائل شركة دوك وانتريبو، التى تملك أرصفة حديدية ممتازة فى عدد من المواعين الكبيرة، علمًا بأن الشركة الروسية تدفع لقاء تفريغ المشحونات فى الجمرك المرسلة إلى بورسعيد ٣ فرنكات للطن الواحد. هذا فى حين أننا نأخذ من المستلمين ٣ فرنكات و٥٠ سنتيما، ومن هذه العملية تبقى للشركة الروسية سنويا حتى ٣٠٠ روبل هذا كربح صافٍ. ولقاء إعادة شحن المشحونات من باخرة إلى أخرى تأخذ شركة دوك وأنتريبو ٣ فرنكات للطن الواحد، إذا جرت إعادة الشحن مباشرة من باخرة إلى باخرة، أما إذا جرت إعادة الشحن من الباخرة إلى المخزن؛ ومن ثم من المخزن إلى الباخرة فإنها تأخذ ٥ فرنكات للطن الواحد، وإذا رغبت فيما بعد الشركة الروسية فى إبقاء المشحونات على متن المواعين أكثر من ٤٨ ساعة، فإنها تدفع على الطن محسوبًا لليوم الواحد:

لدى إعادة الشحن من طن إلى ١٠٠ طن - ٣ فرنكات

لدى إعادة الشحن من ١٠١ طن إلى ٢٥٠ طنًا - ٢,٢٥ فرنك

لدى إعادة الشحن من ٢٥٠طنًا ومن فوق - ١,٧٥ فرنك

العادة المتبعة فى بورسعيد هى أن تدفع لقاء إعادة شحن المشحونات تلك الشركة الملاحية التى تسلِّم الشحن لباخرة شركة أخرى، وبما أن شركتنا تستلم من المشحونات المعاد نقلها كميات أكبر بكثير مما تسلِّم هى فإن عملية إعادة الشحن تجرى فى معظم الأحيان على حساب شركات أخرى. علمًا بأنه يحدث أحيانًا انحراف عن هذه القاعدة العامة، عندما تتفق الشركات مسبقًاعلى نظام إعادة نقل المشحونات. فبموجب اتفاق الشركة الروسية مع شركة لويد الألمانية

تجرى عملية إعادة الشحن على حساب الشركتين بنسبة تعادل حصة أجرة النقل، التى تتلقاها كل شركة.

وعلى العموم، يجرى السيد برون الحسابات مع الشركات الأجنبية بوضوح ودقة تامين؛ وفور إعادة نقل دفعات المشحونات تضع الوكالة حسابًا مفصلاً عن الدفعة المعنية، وفى الحال يدفع الوكيل، مستلم المشحونات، للشركة الأخرى جميع المدفوعات المستحقة لها.

المدفوعات الإضافية تمارس فى حالات نادرة للغاية.

الشركات الأجنبية

تؤم بواخر الشركة الروسية بورسعيد ٥٢ مرة فى السنة. وسفن شركة «ميساجيرى ماريتيم»، العاملة على الخط السورى، تؤم بورسعيد ٥٢ مرة أيضًا فى السنة. وبواخر شركة لويد تؤمها ١٠٤ مرات فى السنة؛ لأنها تقوم برحلات أسبوعية ذهابًا وإيابًا. وبواخر الشركة الخديوية، تؤم بورسعيد أسبوعيًا فى طريق العودة فقط من مرسين إلى الإسكندرية. وبواخر شركة «بل أزيا مينور» تعرج عليها بصورة غير منتظمة. ووكالتا شركتى «ميساجيرى ماريتيم» ولويد تتعاطان هنا عمليات كبيرة لإعادة شحن مشحونات إلى بواخرهما عابرة المحيطات، التى تصل عيلها مشحونات كثيرة لأجل الموانئ السورية ولأجل أزمير والقسطنطينية، ولذا فإن المنافسة من جانب هاتين الشركتين ليست محسوسة كثيرًا. ولكن البواخر الإنجليزية الكثيرة العدد، التى تجلب الفحم إلى بورسعيد وتضطر لمغادرتها خالية الوفاض، مستعدة دائمًا لقاء نولون زهيد أن تحمل إلى أى مرفأ كان جميع المشحونات الموجودة هنا فى هذا الوقت. ففى عام ١٨٩٢ امّت بورسعيد ٣٩٠ باخرة فحم من هذا النوع، وتتسم بأهمية خاصة لأجل مكافحتها الاتفاقات الموجودة المتعلقة بإعادة نقل المشحونات.

السيد برون، بالمناسبة، يعمل بصورة رائعة فى هذا الميدان لأن أجور النقل التى يضعها أعلى بكثير نسبيًا من أجور نقل الآخرين.

قناة السويس

ختاما لوصف دورات نشاط بورسعيد لايجوز لزوم الصمت بصدد نشاط قناة السويس.

فى الجدول المرفق طيه يمكن للمرء أن يرى بالتفصيل حركة البواخر عبر القناة فى عامى ١٨٩١ و١٨٩٢م مع الإشارة إلى أسماء البلدان، التى تنتمى إليها هذه البواخر، وحمولتها، وعدد الركاب المنقولين.

وقد أشير هنا فقط إلى أن أكبر حركة عبر القناة كانت فى عام ١٨٩١م عندما عبرتها ٤٢٠٧ باخرة، تحمل ٨٦٩٨٧٧٧ طنًا صافيا أو ١٢٢١٧٩٨٦ طنًا قائمًا. ولقاء عبور هذه البواخر قبضت شركة قناة السويس ٨٣٤٧٧٧٧٨ فرنكا. وتنتمى هذه البواخر إلى بلدان مختلفة تشغل روسيا بينها المرتبة الـ١١ . وفى عام ١٨٩١م عبرت القناة ٢١ باخرة روسية تحمل ٣٩٠٢٢ طنا صافيا أو ٦٤٥٤٤ طنا قائما.

كان عام ١٨٩١م، بالمناسبة، عام مؤاتيا جدا؛ لأن عددًا قليلاً من البواخر الإنجليزية، بسبب القحط فى روسيا، عبرت القناة إلى الشرق الأقصى بحثًا عن العمل. وكان عام ١٨٩٢م أقل توفيقًا؛ ففى هذا العام عبرت القناة ٣٥٥٩ باخرة تحمل ٧٧١٢٠٢٨ طنًا صافيًا أو ١٠٨٦٦٤٠١ طن قائم ودفعت لقاء عبور القناة ٧٤٤٧٦٥٨٦ فرنكا. شغلت روسيا المرتبة العاشرة بين شتى البلدان البالغ عددها ١٧ بلدًا. وعبرت القناة ٢٢ باخرة روسية تحمل ٤٣٧٥٠ طنًا صافيًا أو ٧٤٥٣٣ طنا قائمًا.

بعد عام ١٨٩١م وجدت شركة قناة السويس من الممكن تخفيض التعرفة من ١٠ إلى ٩ فرنكات للطن الواحد. وهى، بالإضافة إلى ذلك، تستوفى ١٠ فرنكات من كل راكب كما فى السابق. وأورد هنا على سبيل المثال حساب رسوم السويس على عبور القناة من جانب باخرة «ساراتوف» التابعة للأسطول الطوعى الروستى:

لقاء ٢٩٤٦ طنًا بسعر ٩ فرنكات للطن ٢٦٥١٩,٧٦ فرنكًا

لقاء ١٤٩٣ راكبًا بسعر ١٠ فرنكات للشخص ١٤٩٣٠ فرنكًا

لقاء ١٠ أولاد بسعر ٥ فرنكات للشخص ٥٠ فرنكًا

مجموع ما دُفع ٤١٤٩٩,٧٦ فرنكًا

كان قد تقرر فى عام ١٨٩١ توسيع القناة كثيرًا وتعميقها بهدف زيادة قدرتها على التمرير. ووزعت هذه الأعمال على بضع سنوات، وقد أوصل العمق فى الوقت الحاضر إلى ٢٥ قدمًا وتم توسيع قسم من القناة، غير أن شركة القناة وجدت من الممكن فيما بعد السماح للبواخر بالعبور ليلاً بمساعدة الإنارة الكهربائية لبواخر مبحرة فى القناة، ونظرًا لذلك ازدادت كثيرًا قدرتها على التمرير، التى كانت كبيرة أصلاً، ولذا أرجئ لبعض الوقت استمرار العمل فى توسيع القناة.

إلى عامين مضيا طالب الإنجليز بأن تمنع عبور القناة بواخر الصهاريج المملوءة بالكيروسين إذ اعتبروها خطرة على البواخر الأخرى. ومن جراء ذلك نشأت حتى دعوى قضائية ربحتها، بالمناسبة، شركة القناة فى العام الفائت.

عبرت القناة حتى الوقت الحاضر ٨ بواخر صهاريج مملوءة بكيروسين روسى. وقد فرضت على عبورها جملة من القواعد: لا يحق لها أن تبحر ليلاً، وترافقها باخرة قطر خاصة مزودة بمضخات قادرة، فى حال وقوع حادث طارئ، على ضخ الكيروسين إلى باخرة تُرسل فيما بعد إلى البحر. وعلاوة على ذلك خصص فى بورسعيد حوض خاص لوقوف بواخرنا.

القسم الثانى

القسم الثانى
شركات البواخر الأجنبية التى تنافس الشركة الروسية

إن شركات البواخر الأجنبية، التى تملك خطوطًا بريدية فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، هى الآتية: ميساجيرى ماريتيم الفرنسية، لويد النمساوية، الشركة الخديوية المصرية، وإلى حد ما فلوريو وروباتينو وشركة بانهيلينيك اليونانية.

إضافة إلى ذلك تبحر هنا، ولكن بدون القيام برحلات بريدية، بواخر الشركتين الفرنسيتين فريسينيه وباكيه، والشركة الإنجليزية بل أزيا مينور، والشركة اليونانية بانتوليون، وشركة كورجى الإيجية (تحت العلم التركى)، والشركة الحكومية العثمانية مقصوصة. تعتبر الأخيرة شركة بريدية أيضًا ولكن بواخرها تعمل بصورة غير منتظمة البتة بحيث لا يعتبرها أحد بواخر بريدية.

الشركة الفرنسية ميساجيرى ماريتيم

إن الحكومة الفرنسية، ذات المصلحة فى كسب نفوذ سياسى فى الشرق، تحافظ منذ أكثر من ٤٠ سنة على خطوط ممولة من جانبها على طول سواحل تركيا.

شركة لويد النمساوية

إن شركة لويد النمساوية = المجرية السابقة، التى تحولت حاليًا إلى لويد النمساوية، تقوم منذ زمن بعيد برحلات بريدية إلى الشرق. تعد لويد النمساوية فى الوقت الحاضر أوسع، وأكبر شبكة لخطوط البواخر فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط.

الشركة «الخديوية» المصرية

منذ زمن بعيد تحافظ الحكومة المصرية أيضًا على بضعة خطوط بريدية بحرية بواسطة بواخر «الخديوية» العائدة للحكومة فى السابق، كانت هذه الشركة تعتبر ثانوية ولم يكن فى استطاعة بواخرها منافسة البواخر البريدية الممتازة، ولكن فى العامين الأخيرين عززت هذه الشركة أسطولها بثلاث بواخر سريعة جديدة، استولت فى الحال على هذه الملاحة وسط الشركات الممتازة. وعليه، يترتب الآن أخذ الشركة «الخديوية» فى الحسبان، ولا سيما بالنسبة لشركتنا نظرًا لمنافسة بواخرها على خط الإسكندرية المباشر.

توجد لدى الشركة «الخديوية» فى الوقت الحاضر ١٥ باخرة تعمل على الخطوط التالية:

١. الخط الآسيوى المباشر أسبوعيًا من الإسكندرية إلى القسطنطينية عبر بيريه وإزمير وميتيلين، بسرعة متوسطة قدرها ١٢.٥ عقدة، وتصل السرعةعلى بعض البواخر إلى حوالى ١٤ عقدة. تقف على هذا الخط ثلاث بواخر جديدة: «الأمير عباس» و«كايرو» و«توفيق ربانى». وسوف أتحدث عن هذه البواخر فيما بعد.

٢ ـ الخط السورى من الإسكندرية حتى مرسين ذهابًا وإيابًا كل أسبوع، علمًا بأن البواخر القاصدة مرسين من الإسكندرية تذهب مباشرة إلى يافا، ومن ثم إلى بيروت وطرابلس؛ إما فى طريق العودة فتعرج بواخر هذا الخط، إضافة إلى

ذلك، على الإسكندرون بورسعيد. تعمل على هذا الخط باخرتان بسرعة ١٠ عقد.

٣ ـ أما البواخر الـ٩ ـ ١٠ الباقية فتعمل على خطوط فى البحر الأحمر، حيث تحافظ الشركة «الخديوية» على خط أسبوعى من السويس إلى عدن، مع التعريج على جدّة وسواكن وموانئ أخرى.

تبحر على الخط السورى بواخر كانت فى السابق تعمل على الخط القنصلى. تتمتع هذه البواخر، من حيث مجال المنافسة، على أفضلية أنها تقوم برحلات أسبوعية؛ ولذا فهى تنتزع المشحونات الصغيرة لبواخر السواحل. وهى تتمتع، من حيث نقل الركاب، ببعض الأفضلية أيضًا: أولاً؛ لأن أماكن الدرجة الأولى فى هذه البواخر حسنة جدًا؛ ثانيًا؛ لأن المسلمين المسافرين من ميناء إلى آخر يفضلون فى الغالب السفر على متن بواخر ترفع علمًا مسلمًا، وخاصة عندما يكونون حجاجًا.

إن باخرة «الدقهلية»، التى انتقلتُ على متنها من يافا إلى بيروت، كانت تسير بسرعة ١٠ عقد؛ وكان يوجد فى درجتها الأولى ٣٤ سريرا، وفى الدرجة الثانية ٣٢ سريرًا. غرف الدرجة الأولى معدة كلها تقريبًا لثلاثة أسرّة. صالة الباخرة المخصصة للأكل، والراحة كبيرة جدا، ولكنها واقعة بين الغرف. تقديم الطعام على الخط السورى، يشبه نظيره فى البواخر الروسية. طعام الفطور فقط، يقدم يقدم فى الساعة التاسعة والنصف صباحًا. إنها باخرة قديمة صنعت عام ١٨٦٥.

بين البواخر الجديدة اطلعتُ فى الإسكندرية على باخرة «كايرو»، وفيما بعد سافرت من إزمير إلى القسطنطينية على متن باخرة «توفيق ربانى».

لقاء البواخر الثلاث المتشابهة كليًا من حيث التصميم دفعت الشركة «الخديوية» لمصنع نيبير فى غلاسغو مبلغ ٢١٠ آلاف جنيه مصرى، أى حوالى ٧٠ ألف جنيه مصرى لكل باخرة، رغم أن ثمة شائعات تزعم أن هذه البواخر كلفتها أقل من ذلك بعض الشىء. تحمل هذه البواخر حوالى ٩٠٠ طن من المشحونات،

أى ٥٤ ألف بود. عدد أماكن الدرجة الأولى ٧٢، والدرجة الثانية ٥٠، بالنسبة لنساء الدرجة الثالثة يوجد مكان مسقوف يتسع لـ٥٠ شخصًا. الدرجة الأولى تقع فى الوسط، وفى كل غرفة سريران وأريكة كما فى باخرة «تشيخاتشوف». فى الدرجة الأولى أربعة حمامات موضوعة، تحت تصرف الركاب مجانًا، غرفة الأكل والراحة فى حجرة الربان كبيرة ولكنها منفصلة عنها. توجد لدى الدرجة الأولى فسحة منفردة تمامًا فوق حجرة انربان. يبلغ طول الباخرة ٣٠٠ قدم وأثناء السير كانت مؤخرتها غاطسة إلى عمق ١٨ قدمًا ومقدمتها ١٤ قدمًا. لا توجد على متن هذه الباخرة روافع وتدفئة بخارية. لدى أبواب العنابر الثلاثة، توجد ثلاث روافع بكرة بخارية. تعمل الإضاءة الكهربائية طول الليل وبعد الساعة ١٢ ليلاً فقط تطفأ أنوار الغرف.

تتمتع هذه البواخر بميزتين لايرقى إليهما الشك، وتعطيانها أفضلية كبيرة لنقل الركاب: أولاً، سرعة السير، ثانيًا، نظافة غرف الدرجات والمائدة الرائعة.

تسير هذه السفن بدقة بالغة من القسطنطينية إلى الإسكندرية، وهى تمر عبر إزمير وبيريه كل ٣,٥ يوم، فى حين أن بواخر الشركة الروسية، التى تعرج فقط على إزمير أو بيريه، تسير مدة أربعة أيام، وفى طريق العودة تسير تلك البواخر مدة ٤ أيام، أما بواخرنا فتسير مدة خمسة أيام. من ذلك أنها تنتقل من الإسكندرية إلى بيريه فى ٣٧ ساعة، أما بواخر شركتنا ففى ٥٠ ساعة، ومن أزمير إلى القسطنطينية تسير تلك لبواخر مدة ٢٤ ساعة بعد أن تعرج على ميتيلين والدردنيل. أما البواخر الروسية فتسير ليلتين، أى ٣٦ ساعة بدون تعريج على ميتيلين.

النظافة على متن الباخرة مردها، بالمقام الأول، إلى أن هذه البواخر جديدة تمامًا، فضلاً عن أن توقفها المديد فى الإسكندرية، حتى ١٠ أيام، يوفر لها إمكانية الحفاظ على البواخر فى هيئة رائعة. كما أن عمليات الشحن غير الكبيرة وعدم نقل المواشى يساعدان على صيانة النظافة. تنتقل هذه البواخر من

الإسكندرية إلى القسطنطينية فى ظرف ٤ أيام، وفى الإياب فى ظرف ٣,٥ يوم، وتقف فى القسطنطينية ٣ أيام، وفى الإسكندرية ١٠,٥ يوم، أى أن دورتها تستغرق ٢١ يومًا.

اعارت الشركة «الخديوية» اهتماماً خاصة أيضًا لإطعام المسافرين. فعند الصباح يجرى تقديم شاى أو قهوة، وفى الساعة ٩.٣٠ وجبة فطور كاملة من ٤ أطباق بالإضافة إلى المقبّلات والحلويات، وفى الساعة الواحدة غداء، وفى الساعة السادسة عشاء، وفى المساء شاى.

عدد الخدم فى الدرجة الأولى ٨ أشخاص ما عدا كبير الجرسونات، والوصيفة، وفى الدرجة الثانية وصيفة أخرى و٣ ندل.

إن أسباب الراحة هذه على متن سفن الشركة «الخديوية» اكسبتها فى ظرف عام واحد عطف الجمهور، ومن الملاحظ فى الوقت الحاضر أن «الخديوية» تنقل عددًا من المسافرين أكبر مما تنقله بواخرنا المباشرة.

رغم أنه يبدو لى أنه من غير المربح العمل على نقل الركاب فقط فإن الشركة «الخديوية» لا يمكن أن تصاب بالإفلاس؛ لأنها شركة حكومية، ولذا ينبغى أخذها بعين الاعتبار، ولا سيما سرعة بواخرها الجديدة.

يوجد لدى الشركة الروسية فى الوقت الحاضر على خطها المباشر أكثر من ٦ ملايين من المشحونات، ويمكن القول بكل جرأة أن هذه الشركة تحتل على هذا الخط حتى الوقت الحاضر وضعًا سائدًا فى نقل المشحونات. و«الخديوية» فقط تنافسها من حيث عدد الركاب.

بالمناسبة، تتمتع الشركة «الخديوية» بأفضلية كبيرة فى نقل الحجاج بفضل علمها الإسلامى.

السائحون

إن حركة السائحين تتطور أيضًا عامًا إثر عام. ففى الأعوام السابقة كان السائحون يتوجهون إلى الشرق بصورة منتظمة، وعلى الغالب فى الربيع

والخريف، أما فى الوقت الحاضر فهم يسافرون على مدار السنة تقريبا. وفى الربيع والخريف يلاحظ فقط اشتداد هذه الحركة. بالنسبة للسائحين ومتطلباتهم الحاليه ابلغنى وكيلا شركتنا فى الإسكندرية والقاهرة معلومات شيقة للغاية. فقد أبلغنى بأن تدفق المسافرين على مصر ازداد كثيرًا فى فصل الشتاء الأخير، وبلغت هذه الزيادة خلال سنة واحدة نسبة ١٩٪ تقريبا. وفى فصل الشتاء الفائت وصل إلى مصر من أوروبا حتى ٥٢٠٠ سائح. وفى أوائل الربيع عندما يبدأ القيظ فى مصر يغادر جميع هؤلاء السائحين فى وقت واحد تقريبا فى ظرف حوالى شهرين، من ١٥ من فبراير (شباط) إلى ١٥ من إبريل (نيسان). ومن بينهم يسافر حوالى ١٢٠٠ شخص إلى الإسماعيلية، حيث يستقلون بواخر الشركة البنينسولارية المتجهة إلى الهند، ومن ثم يغادر زهاء ٢٠٠٠ الباقين إلى أوروبا مباشرة عبر مرسيليا وبرنديزى. أما الألفان من السائحين فقبل العودة إلى أوروبا يقومون برحلة إما إلى اليونان وإما إلى فلسطين، وإما يرحلون عبر القسطنطينية، والحركة شديدة بخاصة إلى بيريه. فى ظرف ٣ أشهر من العام الحالى دفعت وكالة شركتنا للشركة «الخديوية» لقاء السائحين فقط (بالروبلات):

فى فبراير	١٩٤
فى مارس	١٥٨٣
فى إبريل	٧٦٩
المجموع	٣٥٤٦

مع العلم بأن جميع الأمكنة على متن بواخر الشركة «الخديوية» كانت دائما مباعة مسبقا... والآن، وإلى جانب بواخرنا تسير بواخر «الخديوية» بسرعة ١٣,٥ عقدة. نخسر نحن بلاشك، ولا عجب فى أن البواخر الروسية تعتبر أبطأ البواخر...

تبدأ حركة الركاب النشيطة من مصر فى مطلع فبراير وتدوم حتى أواسط إبريل.

سان بطرسبورغ

ميللر

بلاغ القنصل الروسى فى الإسكندرية إيفانوف إلى الدائرة الأولى فى وزارة الخارجية عن ضرورة إنشاء غرفة تجارية روسية فى الإسكندرية (٣٧)

الإسكندرية، ١ من أغسطس ١٩٠٢م

بناء على مبادرة أفراد الجاليات الأجنبية أنشئت، وتعمل منذ زمن بعيد فى الإسكندرية غرف تجارية: إنجليزية نمساوية = مجرية، فرنسية، إيطالية، يونانية. إن هذه الغرف التجارية، التى أنشئت بهدف تسهيل وتطوير العلاقات التجارية والصناعية بين شتى البلدان ومصر، تعود بفائدة كبيرة. أما روسيا، التى تحتل من حيث لوائح الاستيراد من مصر المرتبة الثانية ومن حيث لوائح التصدير إليها المرتبة السادسة، فليست لديها مؤسسة كهذه من شأنها، فى حال إنشائها، المساعدة على تطوير التجارة بين كلا البلدين. على هذا الأساس، ونظرا لانعدام المبادرة من جانب أفراد جاليتنا هنا، أرى من المفيد للغاية تأسيس غرفة تجارية روسية فى الإسكندرية.

لاشك فى أن مصر، فى حال تسهيل العلاقات التجارية، وسهولة الحصول على المعلومات والاستعلامات اللازمة، سوف تعمل برغبة أكبر للحصول على منتجات كثيرة فى روسيا تدفع لقاءها الآن ثمنًا أغلى لمنتجى وباعة سائر الدول.

من جهة أخرى، فإن الغرفة التجارية المصممة حسب المجال المتواضع لنشاطها، سوف تقدم خدماتها على الأرجح للتجارة الروسية بوجه عام؛ لأنها ستكون تحت تصرف جميع التجار الروس، الذين سيكون فى استطاعتهم الحصول مجانًا منها على شتى أنواع المعلومات، التى قد تهمهم.

المنتجات الرئيسية، التى تستورد إلى هنا من روسيا هى: الكيروسين، الدقيق، القمح، الماشية الحية، السكر، الأخشاب. ولكن سوف يكون من الممكن مع مرور

الزمن أن تُجلب إلى هنا من روسيا منتجات منسوجة وبقالة وكحوليات وغيرها من المنتجات التى أصبحت بصورة نادرة تستورد إلى هنا الآن أيضًا.

أما الاستيراد من مصر إلى روسيا فيتألف، أساسًا، من القطن، ومن كمية محدودة للغاية من الخضار الطازجة.

ففى عام ١٩٠١م استورد من المنتجات إلى روسيا ما قيمته ١٧٤٣٢٠٤ جنيهات مصرية، وصُدر إلى مصر ما قيمته ٦١٢٣٤٧ جنيها مصريًا. إن أرقام تصديرنا واستيرادنا تتزايد على الدوام فى الأعوام الأخيرة، كما يتضح من الجدول الملحق طيه عن الأعوام العشرة الأخيرة.

بإذن من الوكالة الدبلوماسية أتشرف طائعًا، وأنا أرفع طيه إلى دائرتكم مشروع النظام الداخلى، الذى وضعته بنفسى، بأن أطلب السماح لى بالمباشرة فى تنظيم الغرفة المعنية التى لن تحتاج فى يوم من الأيام إلى أية مساعدة مالية من جانب الوزارة الامبراطورية.

نظرًا لعدم معرفة اللغة الروسية من جانب بعض الأعضاء العتيدين للغرفة المعنية ، فقد وضع هذا المشروع باللغة الفرنسية أفراد جاليتنا هنا، الذين أطلعتُهم على المشروع وذوو المصلحة فى ذلك، أعربوا لى فى هذا الصدد عن استعدادهم التام لمساندة القضية المشتركة.

إذا اعترفت الوزارة الإمبراطورية بملاءمة تأسيس غرفة تجارية روسية فى الإسكندرية، فيكون من المفيد للغاية إضفاء أكبر قدر ممكن من العلنية على إنشائها المقبل فى أوساط فئاتنا التجارية والصناعية.

قنصل إيفانوف

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القلم التركى (الجديد)، الإضبارة ٥٠٢ ب، المستند ٦٨٢٠، ص ١٠٣.)

رسالة وزير المالية فيتّه إلى وزير الخارجية لامزدورف بشأن الموافقة على إنشاء غرفة تجارية روسية فى الإسكندرية.

٢٧ من يناير ١٩٠٣

عطفًا على البلاغ المؤرخ فى ٢ من سبتمبر (أيلول) عام ١٩٠٢ الماضى تحت رقم ٥١٩٦ والمتضمن بلاغ عميد القنصلية العامة فى مصر بتاريخ ٣ من أغسطس (آب) ١٩٠٢م أتشرف بأن أبلغ سيادتكم، مع إعادة الملحق رقم ٢، بأننى، من جهتى، لن أصادف عقبات فى طريق تأسيس غرفة تجارية روسية فى الإسكندرية.

وزير المالية فيته

(المرجع السابق، ص ٧)

بلاغ إيفانوف إلى الدائرة الأولى لوزارة الخارجية حول مصادقة أفراد الجالية الروسية على مشروع النظام الداخلى للغرفة التجارية الروسية. وانتخابات لجنة الغرفة.

الإسكندرية، ٢٢ من مايو ١٩٠٣

إضافة إلى بلاغى بتاريخ ١ من أغسطس ١٩٠٢م تحت رقم ٥٨٣، واستنادا إلى موافقة السيد مدير الدائرة فى ١٢ من فبراير من العام الجارى تحت رقم ٨٥٠، جمعتُ فى ١٢ من إبريل الماضى أفراد الجالية الروسية هنا، وعرضت عليهم مشروع النظام الداخلى للغرفة التجارية الروسية، الذى صغته بنفسى وحُظى بالموافقة الإجماعية.

فى هذا الاجتماع جرى، إضافة إلىّ، انتخاب لجنة للغرفة من الأشخاص الخمسة التالين ذوى التبعية الروسية:

١ - براسينو، وكيل الشركة الروسية للملاحة والتجارة؛

٢- ماليسّون، الذى يتولى فقط استيراد القطن إلى روسيا؛

٣ ـ موتافوف، ممثل شركة مانتاشوف وشركاه للكيروسين فى مصر؛

٤ ـ كوليشكين، ممثل شركة «روسيا» للتأمين:

٥ ـ غيرزينشتاين، الذى يتولى تصدير الدقيق الروسى إلى مصر.

إننى، إذ أُرفق طيه نسخة عن محضر الاجتماع المذكور لأفراد الجالية الروسية و١٠ نسخ مطبوعة للنظام الداخلى للغرفة. مع ترجمة إلى اللغة الروسية، أتشرف طائعا بأن أطلب من الدائرة إصدار أمر مناسب للإعلان وسط فئاتنا التجارية والصناعية عن تأسيس الغرفة التجارية الروسية فى الإسكندرية.

القنصل ايفانوف

(المرجع السابق، ص١٩)

النظام الداخلى للغرفة التجارية الروسية فى الإسكندرية ١٢ (٢٥) من إبريل ١٩٠٣

المادة الأولى

يجرى فى الإسكندرية تأسيس غرفة تجارية روسية، هدفها تسهيل، وتطوير العلاقات التجارية والصناعية بين مصر وروسيا.

المادة الثانية

تقدم الغرفة التجارية الروسية، دون ما أى جزاء، مساعدتها لجميع التجار والصناعيين الروس، وكذلك لجميع الأشخاص على العموم، الذين لهم علاقات تجارية دائمة مع مصر أو يرغبون فى إقامة علاقات كهذه. تقدم الغرفة للأشخاص المذكورين شتى أنواع المعلومات المفيدة التى يمكنها الحصول عليها، كالعادات التجارية المحلية، مثلا، والتعرفات، والقوانين والأوامر التجارية، كل ما يمكن أن يثير اهتمام التجار والصناعيين تأخذ الغرفة على عاتقها، دون مقابل، الوساطات الضرورية مع السلطات المصرية، لأجل إزالة شتى المصاعب، التى قد تنشأ أثناء مختلف أنواع التبادل بين كلا البلدين.

المادة الثالثة

تقدم الغرفةالتجارية، دون مقابل، مساعدتها لجميع التجار، بصرف النظر عن الانتماء القومى، ذوى الإقامة الدائمة فى مصر، وبالإجمال لجميع الأشخاص ذوى العلاقات التجارية والصناعية الدائمة بين كلا البلدين.

المادة الرابعة

تعتنى الغرفة التجارية فى الإسكندرية بإطلاع مصر على البضائع الروسية، كما تسعى جهدها للبحث عن أسواق تصريف لهذه البضائع؛ ولهذه الغاية تساعد على إقامة معارض لنماذج البضائع. وهى تقدم مساعدة مماثلة للبضائع المصرية التى تصدر إلى روسيا.

المادة الخامسة

نظرًا للعدد المحدود جدًا للتجار الروس ذوى الإقامة الدائمة فى مصر، تشكل الغرفة التجارية لجنتنا من ستة أعضاء كحد أدنى. يمكن أن يكون أعضاء فى اللجنة أشخاص ذوى التبعية الروسية. تنتخب اللجنة من قوامها رئيسًا وسكرتيرًا.

تنتخب اللجنة لمدة سنة واحدة ويمكن إعادة انتخابها.

يُسمح بأن ينتخب أعضاء فى الفرقة التجارية، كذلك أشخاص من تبعيات أجنبية ذوو إقامة دائمة فى مصر، ولهم علاقات تجارية مقصودة مع روسيا؛ وعليهم تقديم طلب إلى اللجنة عن رغبته فى السماح لهم بأن يكونوا أعضاء فى الغرفة التجارية الروسية وبأن يعتبروا أعضاء فعليا، بعد مصادقة اللجنة.

المادة السادسة

عند انتهاء كل سنة، تقدم الغرفة التجارية تقريرًا عن الصفقات التجارية والصناعية، مع روسيا إلى الدائرة الأولى لوزارة الخارجية الامبراطورية وإلى دائرة التجارة والمانيفاتورة.

المادة السابعة

جميع أعضاء اللجنة، يضطلعون بواجباتهم دون مقابل؛ ولذا ليس ثمة من حاجة لدفع اشتراك؛ أما المصاريف الجارية فأخذها على عاتقه القنصل الإمبراطورى الروسى فى الإسكندرية الذى هو عضو فى اللجنة، بحكم منصبه دون انتخاب.

(المرجع السابق، ص٩)

رسالة كبير مستشارى وزارة الخارجية الروسية أرغيروبولو إلى سكرتير الوكالة الدبلوماسية فى مصر سابلير حول تقديم مساعدة للمفتش المعملى تشيخوف فى دراسة ظروف تسويق البضائع الروسية فى مصر والاطلاع على صناعة القطن المصرية.

١٠ من سبتمبر ١٩٠٩

أبلغ وزير التجارة والصناعة الوزارة الامبراطورية بأنه سيتوجه إلى مصر فى مستقبل قريب كبير المفتشين المعمليين لمحافظة سان بطرسبورغ مستشار الدولة تشيخوف، الذى أعرب عن الاستعداد؛ لأن يأخذ على عاتقه دون مقابل دراسة ظروف التسويق الممكن لبضائعنا فى البلد المذكور، بالإضافة إلى دراسة وضع صناعة القطن فى مصر، أى بالتحديد: زراعة القطن وتجارة القطن، وأساليب معالجة تيلة الغزل هناك.

إن المستشار السرى تيميريازيف، الذى يعتبر الاطلاع على الفرع الصناعى المذكور مفيدًا للغاية من زاوية علاقاتنا التجارية مع مصر، يبذل المساعى؛ لكى تقدَّم مساعدة للشخص المذكور من جانب ممثلينا فى قضية التنفيذ الناجح للمهمة التى أسندت إليه.

إننى أتشرف، بعد ما عرضته أعلاه، بأن أطلب منكم طائعًا إصدار الأوامر المناسبة لتلبية مسعى المستشار السرى تيميريازيف، الذى تتسم آراؤه بفائدة

كبيرة من رحلته المتوقعة بالنسبة لعلاقاتنا التجارية مع مصر، التى تؤيدها الوزارة الإمبراطورية كليا.

أرغيروبولو

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القنصلية العامة فى مصر، إضبارة ٨٢٠، المستند ٥٧٤، ص٤١)

رسالة مستعجلة من سميرنوف، إلى وزير خارجية روسية إيزفولسكى، حول نجاح المعرض القائم الروسى فى مصر.

١٦ (٢٩) من يناير ١٩١٠م.

المعرض العائم، الذى أقامته الشركة الروسية للملاحة والتجارة على متن الباخرة «الإمبراطور نيقولاى الثانى»، وصل إلى الإسكندرية فى ٧ (٢٠) من يناير؛ وبعد توقفه هناك خمسة أيام تابع طريقه إلى بورسعيد لمدة يومين، وبعد مغادرة مصر توجه إلى شواطئ سوريا.

رغم المدة القصيرة لمكوث المعرض فى مصر لا يسعنى إلا أنوه بذلك الاهتمام، الذى أثاره هنا كدليل على نجاحه الكبير.

فقبل وصول المعرض كانت قد شُكلت فى الإسكندرية برئاسة قنصلنا أباظه لجنة معرضية وضعت التفاصيل المتعلقة بمكوث المعرض فى الإسكندرية، وقد تسنى للوكالة الدبلوماسية الحصول على شروط تسهيلية للسفر بالسكة الحديد بالنسبة للزائرين القادمين من القاهرة.

وتطابقت عودة الخديوى إلى مصر من الحج إلى مكة مع الساعات الأخيرة قبل إقلاع الباخرة «الإمبراطور نيقولاى الثانى» من الإسكندرية، ولذا لم تتسنَّ لسموه زيارة المعرض الذى زاره أيضا، بالإضافة إلى عدد ضخم من الناس وجميع الشخصيات الرسمية للإسكندرية، الأمير محمد على، شقيق الخديوى، مع سائر الأمراء. فى اليوم التالى لوصول المعرض قمت أنا بزيارته مع كامل سلك الوكالة دبلوماسية وبصحبة روس كثيرين من القاهرة، وقبل وقت قليل، من مغادرته، زرته أيضًا بصحبة المبعوث البريطانى فى مصر السير إيلدون هورست.

إن كثيرًا من الشركات التجارية، التى شاركت فى المعرض، تلقت طلبيات كثيرة جدا من الزائرين المصريين، أما مصنوعات إنتاجنا المانيفاتورى والحرفى، التى كانت تباع على متن الباخرة، فقد اشتراها الجمهور بسرعة.

كما ساعد كثيراً على نجاح المعرض، بالإضافة إلى تنظيمه الماهر، وحسن مجاملة طاقمه، وجود جوقة الآلات النحاسية لفوج المشاة المودلينى الـ٥٧ التى عزفت مقطوعات للحنين روس بأداء فنى رفيع، لم يسبق له نظير هنا.

ألكسى سميرنوف

أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القلم التركى (الجديد)، الإضبارة ٥٠٢ ب، المستند ٣٦٨٨، ص١٤٤)

بلاغ القائم بأعمال القنصل الروسى فى بورسعيد نيسّين إلى سميرنوف حول احتمال افتتاح معرض للمصنوعات الحرفية الروسية فى بورسعيد.

٢٨ من فبراير ١٩١١

إن قسم التجارة لدى وزارة التجارة والصناعة، إذ وجد من المفيد نشر مقتطف من بلاغى، الذى قدمته فى شهر نوفمبر من العام الماضى بشأن تسويق المصنوعات الحرفية الروسية فى مصر، أرسل هذا «المقتطف» إلى المؤسسات والأشخاص المعنيين ببيع، وتوزيع مصنوعات الإنتاج الحرفى الروسى؛ وبفضل ذلك صرت أتلقى فى الآونة الأخيرة اقتراحات بإرسال نماذج ومجموعات كاملة من أعمال حرفيينا إلى بورسعيد.

يبدو لى أن الأسلوب، الذى اقترحتُه فى البلاغ هو الأسلوب الأكثر واقعية لإطلاع الجمهور المحلى بصورة جلية، ومن كافة النواحى على مصنوعات صناعتنا الحرفية المجهولة كليًا، حتى الآن فى سوق مصر، أو فى بورسعيد على الأقل؛ فبغية تسهيل بلوغ الهدف المنشود وإنجازه برغبة أكبر طلبت فقط أن ترسل إلى هنا نماذج ومجموعات منتقاة بالشكل الأكمل، إذ أشرت فى طلبى إلى ناحية هامة وهى أن نفقات ترتيب وتنظيم المعرض = المتحف لن تمس المعروضات.

وبالطريقة عينها ضمنت لنفسى هنا تعاونًا مرغوبًا فيه، بخصوص هذا الشأن مع أحد مواطنينا الروس، الذى يمكنه، بحكم وضعه الاجتماعى وميزاته الشخصية وخبرته التجارية، أن يكون مفيدًا وأن يساعد بقدر طاقته على مباشرة المهمة المرسومة وأدائها بنجاح أكبر. وتحرك معاونى فى هذه الحالة لا المصالح والدوافع الشخصية بل الاهتمام على العموم بتطوير علاقاتنا التجارية مع مصر على نطاق أوسع.

يستحيل على المرء ألاّ يرى مسبقًا أنه إذا تكللت بالنجاح التجربة المتواضعة، التى اقترحها بالنسبة لبور سعيد فيمكنها فى هذه الحال، وأنا على ثقة بذلك، أن تشكل مثالا بالنسبة لمراكز تجارية أخرى أكثر أهمية فى مصر من أمثال القاهرة والإسكندرية، اللتين تشكلان بلاشك سوقا رحبة لتصريف مصنوعاتنا الحرفية.

ولكنى أرجو معاليكم بكل وقار، قبل المباشرة فى تنفيذ مشروعى بإقامة معرض = متحف دائم للنماذج، بأن تتكرموا بإبلاغى عما إذا كانت لاتوجد من جانبكم أية عقبات أو اعتراضات من حيث المبدأ على المهمة المرسومة؛ أما فى حال استحسانكم المشروع، فأرجو أن تتيحوا لى إمكانية مراجعتكم عند الضرورة، لأخذ السماح من الحكومة المصرية بالتمرير المعفى من الرسوم لنماذج المصنوعات الحرفية، التى ترسل إلى المعرض وتعرض فيه.

وإننى، إذ أبلغ معاليكم بما عرضته أعلاه، أتشرف بأن ألحق بتقريرى هذا مقتطفًا من بلاغى المنشور فى ١٤ من ديسمبر من العام الماضى.

القائم بأعمال القنصل نيسّين

أرشيف سياسة روسيا الخارجية، ملف القنصلية العامة فى مصر، الإضبارة ٨٢٠، المستند ٥٧٨، ص ١ ـ ٢)

بيان الإدارة العامة لتنظيم استغلال الأرض والحراثة فى روسيا إلى نيسين بشأن إقامة معرض = متحف للمصنوعات الحرفية الروسية فى بور سعيد

٣٠ من نوفمبر ١٩١١

أبلغت وزارة التجارة والصناعة الإدارة العامة لتنظيم استغلال الأرض والحراثة مقترحاتكم بشأن إقامة معرض = متحف للمصنوعات الحرفية الروسية فى بور سعيد.

وقد اعتبر السيد المدير العام لتنظيم استغلال الأرض والحراثة أمرًا مرغوبًا فيه، للغاية الاستفادة من مقترحاتكم، ولذا فإن قسم الاقتصاد الريفى والإحصاء الزراعى يرى من واجبه إبلاغكم، بأنه اتخذ إجراءات لجمع المصنوعات الحرفية، التى قد أشرتم إليها، والتى من المفترض فى المرة الأولى إرسالها بقيمة تتعدى ٥٠٠٠ روبل.

وفى الوقت نفسه وجه القسم طلبًا إلى المكتب الرئيسى للشركة الروسية للملاحة، والتجارة بأن يعطى تعليمات عاجلة بصدد وضع باخرة نقل تحت تصرفكم لإرسال المصنوعات الحرفية إليكم.

إن جميع المواد، التى سترسل إليكم، سوف تكون مزودة ببطاقات مكتوب عليها سعرها، الذى سيشمل أيضًا جميع المصاريف الإضافية.

إن القسم سيكون ممتنًا جدًا لكم على جميع التعليمات الإضافية، التى سترون من الضرورى تقديمها.

عضو مجلس الإدارة العامة

(المرجع السابق، ص ٢٧)

بيان نيسّين إلى قسم التجارة إلى وزارة التجارة والصناعة بشأن نجاح معرض المصنوعات الحرفية الروسية فى مصر
٢٨ من يونيو ١٩١٣

إن المعرض الدائم للمصنوعات الحرفية الروسية فى بور سعيد، الذى افتتح فى ٨ من ديسمبر ١٩١٢، دخل الشهر السابع من وجوده، وأرى من واجبى أن أقدم إلى قسم التجارة تقريرًا عن النتائج التى أحرزها هذا المشروع المتواضع، والتى يمكن الحكم من جرائها على فائدته مستقبلا، وكذلك على إمكان حذو حذوه فى بلدان أخرى.

إن معرض المصنوعات الحرفية، التى لم تكن معروفة إطلاقا، حتى ذلك الحين فى مصر، قد أثار دهشة البعض، الذين كانوا على قناعة بأن روسيا تنتج فقط الكيروسين والدقيق، وربما الأخشاب أيضا وأثار استهزاء الآخرين، الذين رأوا فيه أسلوبا لترويج منتجات صناعتنا، التى تستطيع منافسة البضائع المماثلة للبلدان الأخرى؛ السائحون الأجانب والطبقة المثقفة من السكان المحليين، الذين يزورون المعرض، يصابون بالذهول لدى تقييمهم فننا فى التخريم والتطريز، والمصنوعات من الورق المعجَّن والنقوش المحفورة والمرسومة بواسطة الدمغ الوشمى؛ كما تحظى بنجاح كبير أعمال النقش الفنية لسكان الأرياف التابعة لزيمستفو محافظة موسكو؛ وقد أعطى (*) المعرض، حتى الآن مرات متكررة معلومات للسائحين الأوروبيين، وللتجار المصريين، الذين أثارت اهتمامهم الشديد مختلف فروع صناعتنا الوطنية، وأتاح لهم إمكانية الاتصال مباشرة بالمنتجين. فقد قدم المعرض عناوين، ومعلومات مختلفة عن بعض الزيمستفوات والبيوت، والشركات التجارية، مثلاً: بالإكيريف وشركاه فى روستوف على الدون، سيو وشركاه فى موسكو، شركة آل بانفيلوف، محطة نيكلودوفو بمحافظة فلاديمير وغيرها.

وبالإجمال، أستطيع القول بكل ثقة: إن جميع المصنوعات المعروضة، دون استثناء، تحظى وسوف تحظى بالنجاح، وبالدرجة الأولى اللُعب التى تصعق الجميع ببساطتها وروعتها، ورخص ثمنها؛ وحتى المصنوعات، التى خُيل بادئ الأمر أنها لم تقيم كخردوات الحديد والمصنوعات الصلصالية والأحذية من الأرياف، التابعة لزيمستفو قازان مثلا، تصادف نجاحا لدى الجميع، ووسط الإنجليز على الغالب.

إن الواقع المعترف به عامةً هو أن المصنوعات الحرفية تحظى بتقييم رفيع، وسيكون من السهل جدا تسويقها نظرا لجدّتها وفرادة نوعها، ولأصالة أحداها ودقة ومهارة، وكمال الأخرى، كالتخريمات، والعلب المزخرفة والمصنوعة من

(*) الزيمستفو - مجلس منتخب محلى فى الريف الروسى قبل ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ - المترجم.

الورق المعجَّن. وأنا على ثقة بأن تسويقها سيتم، ولكن من الضرورى قبل كل شىء، بغية التوصل إلى ترويج منتجات صناعتنا، بوجه عام، والمصنوعات الحرفية بوجه خاص، عرضها لأجل إطلاع الناس عليها. وبهذا المعنى مارس معرض بور سعيد المتواضع تأثيرا كبيرا ملحوظا لا على الزوار المحليين من بور سعيد، والقاهرة، وسائر المدن المصرية وحسب، بل وحتى على الزوار الأجانب. وزار المعرض، مرات متكررة أشخاص إنجليز جاءوا من استراليا والهند، وأبدوا رغبتهم فى اقتناء المصنوعات الحرفية، التى شاهدوها. وقد سمعوا فى أوطانهم عن هذه المصنوعات، بلا شك، من مواطنيهم، الذين أوصوهم بزيارة معرضنا.

لقد أحرز المعرض هذا النجاح بدون عون الدعاية، ومساعدة الصحافة الروسية، أو المحلية أو الأجنبية؛ لأنه لم يكن فى مستطاع مشروعنا المتواضع الاستفادة من الإجراءات الصاخبة للغاية؛ لأجل اجتذاب الزائرين لكيلا يلحق بواسطة الدعاية الواسعة النطاق جدا، الضرر بالمعرض باجتذابها الزوار بعدد كبير جدا، بحيث كان سيترتب علينا الإجابة بالرفض على طلباتهم، الأمر الذى كان من شأنه أن يثير، بلاشك، انطباعا غير طيب.

وللسبب نفسه اضطررتُ للامتناع عن أن أوزع على متن البواخر على الركاب بطاقات دعاية مطبوعة بعدة لغات.

لم يستطع المعرض بيع المصنوعات المعروضة فيه، وذلك بالدرجة الأولى؛ لأنه لم يكن مخوّلا بذلك، بالإضافة إلى أنه لو باعها لكان بعد مرور شهر توقف عن الوجود، بسبب عدم كفاية البضائع.

لن أعمد إلى تعداد الطلبات على بعض المصنوعات، التى رُفضت؛ ففى مرات عديدة كان يمكننا، بل وحتى أننا كنا مضطرين لتلبية طلبات بعض الزائرين، ولكن فى الغالب، وحتى فى الغالب جدًا كان ينبغى الإجابة بالرفض. وفقط مخرمات مدرسة التخريم فى تيمنيكوفو، التى أرسلتها السيدة ديميدوفا، وتطريزات زيمستفو قضاء كريستيتس، كان يمكن بيعها بصورة منتظمة؛ لأن المعرض كان يتزود بهذه المصنوعات بصورة دورية.

فإذا كانت المصنوعات الحرفية، قد حظيت بالتقييم والطلب عليها، فينتج عن ذلك أنه يمكن تسويقها ـ وقد بينتُ هذه الدافعين أعلاه. ولكن يجب على العرض دائمًا فى عالم التجارة أن يذهب لملاقاة الطلب: فلا ينبغى للمشترى أن يصادف أية عقبات فى طريق بحثه عن المنتوج الضرورى، بل على العكس، ينبغى تسهيل ذلك عليه بشتى الوسائل؛ ولذا فمن الضرورى لهذه الغاية إقامة مستودع ملحق بالمعرض يستطيع فيه المشترى والتاجر أيضًا، إجراء مشترياته. علمًا بأنى قد عرضت هذه الفكرة غير مرة، ولكنى أؤكد عليها مرة أخرى موردًا الاعتبارات التالية.

إن منتجات صناعتنا بوجه عام، ومصنوعاتنا الحرفية بوجه خاص، غير معروفة تقريبا فى مصر؛ لأنه من الصعب جدا، ولكن ليس من المستحيل، استمالة التاجر المحلى، أو تاجر سوق مصرية كبيرة أخرى، إلى تقديم طلب فى روسيا على بضاعة لايعرف هو نوعيتها ولا يستطيع تحديد مدى رواجها فى السوق المحلية.

فبعد أن يقتنع التجار بأن الجمهور يقيم، ويشترى مصنوعاتهم، بعد ذلك فقط يستطيعون التأكد من إعادة بيع البضائع، التى اشتروها، ويعتزمون على تقديم طلبيات عليها، وعند ذلك تكتسب مصنوعاتنا، بانتشارها شيئا فشيئا، تسويقا واسعا.

ومن الصعب بالقدر نفسه إقناع التاجر بتقديم طلبيات على مصنوعات شاهدها فى المعرض فقط.

فيما يتعلق بالمصنوعات الحرفية بوجه خاص، تصادف هنا صعوبة من نوع آخر: لاتوجد لدينا كاتالوجات، والأسعار متقلبة، ومختلفة ومثلا نجد أن أسعار نفس المصنوعات غير مماثلة لبعضها البعض؛ لأنها أنتجت فى زيمستفوات مختلفة.

من جهة أخرى، فلدى الافتراض أن تجارا محليين عقدوا العزم على إرسال طلبيات إلى الزيمستفوات مباشرة، عندها ينهض سؤال: هل هذه الطلبيات

ستلبى فعلاً؟ والحال أن وقائع سابقة تبرهن على أن فى بعض مدن أوروبا، التى جلبت إليها مصنوعات حرفية بلا عائق، توقف بيع هذه المصنوعات؛ بسبب عدم تلبية الطلبيات الجديدة عليها فضلاً عن هذه العقبات الرئيسية، توجد ثمة صعوبات أُخرى لا تقل عنها شأنًا تنبع من المراسلات، وشروط البيع، والبطء فى استلام البضائع و إزعجات تافهة أُخرى؛ إن ذلك كله، مجتمعًا، يشكل حجر عثرة يصطدم به التجار المحليون.

إن المهمة الرئيسية لمستودع سلعنا هى إزالة جميع هذه المصاعب والعقبات، وتسهيل العلاقات بين تجارنا والتجار المحلين إلى حد كبير؛ وببلوغ هذا الهدف يمكن للعلاقات مستقبلاً أن تنظم وترسخ كثيرًا بحيث يصبح بالإمكان إجراؤها بصورة مباشرة بدون مساعدة المعرض أوالمستودع. وليس ذلك أمرًا ممكنا إلا عندما يصبح كلا الطرفين على معرفة راسخة ببعضهما البعض؛ بحيث يثق أحدهما بالآخر بشكل متبادل، الأمر الذى تستحيل بدونه إقامة علاقات تجارية متينة ومديدة.

كما يشكل عقبة فى طريق إقامة علاقات تُجارية مع بلدان الشرق. إن مصدرينا، بما فيهم الزيمستفوات أيضًا، لا يقدمون سلفة للمشترين منهم، بل يطلبون بالدفع حالاً عند تقديم الطلبية. وفى حالات نادرة لدى عرض بوليصة الشحن. إن هذه الشروط، التى لم يألفها التجار المصريون، الذين يتمتعون، على العكس من ذلك، بتسهيلات كبيرة تمنحهم إياها جميع البلدان الأُوربية، لا تُقبل على الإطلاق، ولايمكن للصفقات المفترض عقدها أن تُعقد فعلاً بعد تبادل الرسائل.

فالثقة تُكتسب، ولكنها لا تُفرض،

ولذا فإذا كان صانعونا ومصدرونا لا يكنون الثقة للتجار المصريين فلماذا ينبغى على هؤلاء؟ وعلى أى أساس، أن يثقوا بتجارنا كثيرا، لكى يرسلوا إليهم مسبقًا ثمن الطلبيات؟ إن دور المستودع المفترض هو أن يكون وسيطًا قادرًا على الإيحاء بالثقة لكلا الطرفين.

ففى هذه الحالة يصبح صانعونا، لدى إرسالهم منتجاتهم إلى المستودع، على ثقة مضمونة فى الحصول على ثمنها؛ ومن جهة أخرى، فإن التجار المحليون، إذ يرون البضائع المرسلة، لن يشككوا فى كميتها ونوعيتها، ولذا فلن يطالبوا بتأجيل الدفع. إذن، إن البيع فى هذه الحالة، يتم وفق الدفع نقدًا برضى الطرفين المتبادل. وفضلاً عن ذلك لن يكون التاجر المحلى مضطرًا لتقديم طلبيات كبيرة دفعة واحدة، إذ سيصبح بإمكانه التزويد تدريجيًا حسب الحاجة بالبضاعة اللازمة له، الأمر الذى من شأنه أن يشكل فائدة شخصية له.

ذلك هو، فى خطوطه العريضة، الأسلوب، الذى افترضه واقترحه لتسهيل تصدير بضائعنا إلى مصر، وقد أملى علّى سرُد شروطه الاقتصادية هذا الأسلوب بالذات، بوصفه الخطوة الأولى والضرورية لتوسيع نطاق علاقتنا التجارية عمليًا.

إن هذه الفكرة، بالمناسبة، قائمة لا على تصورات نظرية وحسب، بل على الوقائع التالية أيضًا

لدى تنظيمى المعرض الحرفى كانت تحدونى الرغبة فى أن تتسع رقعته لجميع منتجات صناعتنا بوجه عام. وبفضل المساندة، التى تقدمها وزارة التجارة والصناعة للمعرض على الدوام، تجاوبت بعض الشركات التجارية، مع دعوتى وأرسلت مصنوعاتها. وباستطاعتى أن أذكر شركة معامل سيو وشركاه فى موسكو، وأوستروأوموف فى موسكو، و باللاكيريف وشركاه فى روستوف على الدون، وورثة باطاشوف فى تولا، الذين بدأوا بيع مصنوعاتهم فى مصر بمساعدة معونة المعرض.

لم يتحدثوا فى يوم من الأيام فى بور سعيد، بل وربما فى مصر كلها، عن العطور الروسية، وها هى تباع الآن هنا. ولا أدرى ما إذا كانت الحلويات و السكاكر الروسية جُلبت إلى هنا فى السابق، ولكن شركة سيو وشركاه تبيعها الآن لا فى بور سعيد فقط، بل فى القاهرة أيضًا.

وعندما رغبت فى جلب سماورات إلى هنا أُثيرت الشكوك فى مبادرتى هذه، ولكن مُعمل ورثة باطاشوف يستطيع التأكيد على أن مجموعاته قد بيعت ثلاث

مرات. ولم يتحدثوا هنا فى يوم من الأيام عن معلبات بالاكيريف، ولكن الاكيريف يصدّرها، إلى هنا فى الوقت الحاضر(٣٨).

لن أعمد، بالطبع، إلى التأكيد على أن القضايا، التى أوردتها هامة، ولكن ذلك ليس سوى بداية، والبداية صعبة كما فى كل قضية.

بيد أن أساس البداية قد أُرسى، ويمكن لهذه الأمثلة أن تتكرر.

ثمة آراء ومزاعم تقول: إن صناعتنا لا تستطيع التنافس مع أية منتجات أجنبية ولا فى أى سوق. ذلك أى خاطئ، ولو كنا تمسكنا به بكل عناد لكان أوصلنا ذلك حتما إلى الركود التام. لا أستطيع فى بلاغى هذا محاججة هذا الرأى بالبراهين و الأمثلة، ولكن يتعين علّى القول: إنه إذا كانت بضائعنا لا تصدًرفإن السبب الوحيد فى ذلك هو أنها غير معروفة. إن جوهر الأمر يكمن لا فى الصراع ضد البضائع الأجنبية. بل فى تسويق بضائعنا ولاسيما تلك التي تختلف تماماً عن البضائع الأجنبية فهنا بالذات يكمن حل هذه المهمة الاقتصادية.

فأى شأن لنا والواقع التالى، واقع أن النمساويين يبيعون الأحذية اللمّاعة وأن الأسبان يبيعون الأحذية القماشية الخفيضة النعل أو الفرنسين يبيعون المخرمات الرقيقة، إذا كنا نستطيع فى هذه السوق عينها أن نبيع، دون إيذاء الآخرين، أحذية زيمستوفو قازان وجزمات اللباد أو مخرمات مدرسة تيميكوفو للتخريم؟ ثمة زعم آخر يقول: إنه تستحيل علينا منافسة الصناعة الألمانية فى بلدان الشرق.

إن هذا الرأى خاطئ أيضًا؛ فإن الألمان ضمنوا لأنفسهم هنا، بالفعل، زبائن كثيرين، ولكن لا بسبب النوعية الرفيعة لمصنوعاتهم، التى يعتبرها الجميع سيئة النوعية، بل بالدعاية وبواسطة التجار المتجولين، ولا سيما بالتسهيلات الكبيرة، التى يقدمونها للمشترى عند الدفع. ذلك هو سر سيطرتهم. ومن غير المعروف لأية أسباب لم يفهم تجارنا ولم يقيّموا حتى الآن أهمية الدعاية: أنهم ينتظرون أن يحضر المشترى بنفسه فى طلب البضاعة، بينما يسبقهم الأجانب بعرضهم منتجاتهم .

فى هذا يكمن السبب الرئيسى لكوننا نحتل مرتبة ثانوية وسط البلدان الأخرى من حيث الاتجار مع بلدان الشرق. إن انعدام الهمة والمراس، الملازم لطعبية تجارنا، يظهر حتى فى تلك البلدان، التى لا يوجد فيها منافسون لهم والتى يمكنهم فيها، بوصفهم أسيادًا للوضع، أن يبيعوا بضائعهم دون أقل عقبة وبسهولة كبيرة. بغية الحيلولة دون هذه الظاهرة، التى تعرقل تصديرنا وتجعله خاسرا، من الضرورة القضاء عليها بإقامة معارض دائمة بصورة تدريجية وفى جميع مراكز عالم التجارة، التى تشكل أهمية بالنسبة لنا. ومن شأن هذه المعارض أن تحل بنجاح ، بالنسبة لنا ، محل التجار المتجولين.

أتجرأ على الاعتقاد بأن وزارة التجارة والصناعة تستطيع، بصلاحيتها الرفيعة، الحكم على فائدة هذا المشروع، وتشجيعه إذا أمكن. غير أن المعرض، كما سبق لى أن أوضحت، لا يمكنه أن يعطى على الفور نتائج عملية، ولكن من الضرورى أن يقام إلى جانبه مستودع لبضائعنا شبيه بتلك المؤسسة، التى توجد فى البلدان الأخرى منذ زمن بعيد تحت تسمية سنديكات. من السابق لأوانه غرس هذه الفكرة فى روسيا الآن، غير أن مثال «Austro-ozientalische aktien geselschaft , société Houngzoise levantine»

«union Exportgese Lschaft» التى هى عبارة عن سنديكاتات صناعية للنمساويين و المجرمين والألمان، يبين أى دور وتأثير تمارسهما هذه على التجارة فى مصر.

توخيًا لفكرتى حول إنشاء مستودع، وعملاً بالتعليمات، التى أعطانى إياها قسم الاقتصاد الريفى والإحصاء الزراعى التابع للإدارة العامة لتنظيم استغلال الأرض والحراثة، كتبتُ اقتراحات موجهة إلى بعض مجالس الزيمستفوات و والأرتيلات الحرفية التى توجد مصنوعاتها فى المعرض، أى بالتحديد: إلى مجالس الزيمستفوات فى محافظات قازان وموسكو وبولتافا وفياتكا وكوستروما ونيجنيى فوفعورود وفى قضاء تورجوك وإلى أرتيل بافلوفسك الحرفى وإلى مدرستى التخريم لبولوفتسيفا و الأميرة تينيشيفا.

لا أستطيع التكهن بماهية الجواب على هذه الاقتراحات (أتشرف بإرفاق نسخة عنها إلى القسم)؛ إلا أنه من المرغوب فيه جدًا أن يكون جوابًا إيجابيًا لأجل إنجاز مشروعى. لا أتردد فى القول بأن نجاحًا كبيرًاينتظر مستودع البضائع الروسية، لأن تسويق هذه المصنوعات سوف يجرى لا فى بورسعيد فقط، بل فى القاهرة أيضًا، التى تلقيت منها عروضًا غير مرة، وبالدرجة الأولى من أصحاب «ناسيونال أوتيل» الذين يصرون على أن أقيم معرضًا فى مؤسساتهم. لقد سبق لهذه الفكرة أن ظهرت غير مرة، وأنا أقيم كليًا فائدتها ومنافعها، ولكن كيف يمكن تدشين معرض فى مدينة كبيرة كالقاهرة إذا كانت لا توجد بضائع للبيع؟

وإننى، إذ أعود إلى المستودع المقترح، أعتقد بأن إنشاءه لن يكون صعبًا إذا قدمت الزيمستفوات مساعدتها عن طيب خاطر بتزويدها المستودع ببضائع لا تتعدى قيمتها الأربعة آلاف روبل من كل واحد منها.

يبدو من المنطقى تمامًا أنه إذا جرت، من جهة، مساعدة وتشجيع ومعاونة حرفيينا فى إنتاج مصنوعاتهم فينبغى، من جهة أخرى، المساعدة على تسويق مصنوعاتهم أيضًا، هذا التسويق، الذى لا يمكن تأسيسه وتوسيعه فى الخارج إلا بواسطة نظام المستودعات، و ذلك لأن الزيمستفوات لن تتمكن فى مستقبل قريب فى إقامة علاقات مباشرة/ مع التجار الأجانب. إن هذه القناعة قائمة على تجربتى الشخصية وعلى معايناتى فى سائر مدن أوروبا، حيث جرت محاولات لاستراد مصنوعات حرفيينا.

كل مستودع يقام فى بلد من بلدان الشرق يجب أن يسبقه معرض يكون بمثابة مؤشر لنشاطه المقبل، وعندما تكون المعاينات مؤاتية ومقنعة عند ذلك فقط يمكن فتح مستودع بصورة موازية للمعرض.

لقد أقمتُ هذا المعرض بوسائلى الخاصة، وأنا أدعّمه، ولسوف أدعّمه حتى آخر العام الحالى، ولكننى لا أستطيع مساعدته إلى أبعد من هذا الموعد.

إن المستودع، فى حال إنشائه، سيستطيع تغطية نفقات الحفاظ عليه، وأجور المستخدمين، وأنا واثق من ذلك، ولكن ما دام يستطيع تغطية نفقات الحفاظ على

المعرض، فيجب على هذا أن يتلقى مساعدة لمدة سنة أخرى. لقد برهنتُ على فائدة المعرض والنتائج المتواضعة التى أحرزها وتلك التى يمكنه إحرازها، حسب افتراضاتى.

لن أواصل الإصرار على مشروعى، الذى لا أستطيع أنا شخصيًا إطراءه، ولكننى أتجرأ على الأمل بأن وزارة التجارة والصناعة والإدارة العامة لتنظيم إستغلال الأرض،والحراثة تستطيعان، بصلاحيتهما الرفيعة، الحكم على ما إذا كان يمكن تكرار تجربة المعرض، وما إذا كان ينبغى تمويله خلال هذا الوقت، أم لا.

أما فيما يتعلق بى شخصياً فلن أُضن بجهودى ولن آسف على الأموال، التى أنفقتها: فلقد رغبت فى إجراء تجربة، و أجريتها؛ وقد بينت لى فائدة مشروعى، التى لم تظهر إلا بعد مرور الزمن.

إلا إنه، إذا تغيرت الظروف، ولم يتم إيصال تجربتى حتى النهاية، فالأمر الوحيد الذى سآسف عليه هو أننى أخطأت.

نيسّين

(المرجع السابق، ص٧٠-٧٧)

بيان لجنة تطوير التجارة الروسية فى مصر

إلى سميرنوف عن برنامج نشاطها

٢٥من إبريل ١٩١٥

بصدد استجواب معاليكم حول محتوى البيان الموجه إلى وزارة التجارة والصناعة من لجنة تطوير التجارة الروسية فى مدينة القاهرة التى تأسست فى شهر أكتوبر من العام الماضى، أتشرف بتقديم المعلومات التالية إليكم.

إن إنشاء مؤسسة تستطيع تسهيل العلاقات التجارية بين روسيا ومصر قد تبدى منذ زمن بعيد أمرًا ضروريًا؛ لأن العقبة الرئيسية فى طريق تطوير هذه

العلاقات كانت عدم اطلاع التجار المصريين بالمرة على الصناعة الروسية، من جهة، وعدم معرفة أصحاب المعامل الروس لظروف السوق المصرية، والعادات التجارية فى وادى النيل، من جهة أخرى.

إن اللجنة المذكورة، المشار إلى برنامج عملها بدقة فى بيانها بتاريخ ٦(١٩) من مارس من العام الجارى تسعى بالفعل إلى تقريب أصحاب المعامل الروس من السوق المصرية. سبق للجنة أن أنشأت لأجل تأدية مهمة قسم استعلامات يزود التجار، من الجانبين الروسى، والمصرى على السواء، بمعلومات ذات طابع بضاعى = استعلامى بصدد شؤونهم التجارية بين روسيا ومصر.

إن النشاط الإعلامى للجنة، التى تقدم بواسطة قسم الإستعلامات معلومات وافره عن التجارة إلى الأشخاص والمؤسسات ذوى المصلحة فى ذلك، هو الذى أرسى أساس التقريب بين الصناعيين الروس، والتجار المصريين.

من بين الشركات والمؤسسات، التى وافقت مبدئيًا على تصدير بضائعنا إلى مصر، يمكن أن نذكر: شركة أصحاب المصانع، والمعامل للمنظمة الصناعية الموسكوفية فى موسكو؛ مجلس مؤتمرات ممثلى الصناعة، والتجارة لجنوب روسيا فى أوديسا؛ الشركة المساهمة للمطحنة البخارية الوارصوية فى وارصو السيدان ماريوت وزيليغمان فى ليبا فا؛ السيد غوستاف غولد فيدير فى وارصو، وغيرهم. فضلا عن ذلك فإن غرفة التصدير الروسية فى بتروغراد واللجنة المذكورة، اللتين توجد لديهما عناصر مشتركة كثيرة فى برامجهما ، وأهداف نشاطهما، إقامة اتصالات فيما بينهما على أساس التعاون المتبادل بغية العمل بالجهود المشتركة على تطوير العلاقات التجارية الروسية = المصرية إلى أقصى حد ممكن. وقد باشرت كلتا المؤسستين فى دراسة بعض المسائل، مثل تصدير التبغ والأسمنت ومواد البناء من روسيا إلى مصر، والصمغ العربى من مصر إلى روسيا، ومسائل هامة أخرى ستجرى معالجاتها على صفحات نشرة اللجنة قيد الطبع التى سترسل منها اللجنة عدة نسخ إلى قسم التجارة.قررت اللجنة أن تقيم فى مبناها معرضًا لنماذج مصنوعات من الإنتاج الروسى؛ لكى تتيح للتجار المصريين إمكانية الاطلاع بأم العين على هذه المصنوعات وميزاتها. وهذه

النماذج سوف تسجل فى كتب خاصة، مع الإشارة إلى أماكن منشئها وعناوين أصحاب المعامل، وشروط البيع، وغيرها.

وبالطريقة عينها سوف تُرسل، بواسطة اللجنة، إلى غرفة التصدير الروسية، أو مؤسسات أخرى فى روسيا، وبناءً على طلب قسم التجارة، نماذج من منتجات مصر والسودان لاطلاع السوق الروسية عليها.

بما أن التبادل البضاعى بين روسيا ومصر مشلول تماما فى الوقت الحاضر بسبب العمليات الحربية، فقد أرجئ تدشين المعرض المخطط له حتى فتح المضائق.

تسنى للجنة فى الوقت الحاضر، رغم الظروف العصيبة لأية علاقات تجارية بين روسيا ومصر، أن تثير اهتمام تجار القاهرة كثيرا بحيث أصبح عدد أعضائها يتعدى المائة من الأعضاء الفعليين، والأعضاء المتبارين، وبينهم شركات تجارية مصرية كبرى، وكذلك مؤسسات بنكية بشخص مدرائها. وممثلون بارزون للأوساط المالية.

تتألف هيئة رئاسة اللجنة من ١٠ أعضاء فعليين برئاسة السيد مالك القائم لدى الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية.

نظرًا لكون مصر لاتملك أية صناعة تقريبًا فيمكن الافتراض بأن منتجات الصناعة الروسية ستتمكن من أن تشغل هنا المكان اللائق بها، الأمر الذى ستساعد عليه اللجنة قدر ماتستطيع(٣٩). عن هيئة رئاسة اللجنة الرئيس (التوقيع غير مقروء) الأمين العام (التوقيع غير مقروء)

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية، ملف القلم التركى (الجديد)، الإضبارة ٥٠٢ ب، المستند ٣٦٧٤، ص ٢ - ٣).

التعاون العلمى والثقافى بين روسيا ومصر

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية)

بصدد إبلاغ باشا مصر بوصف الطريقة الجديدة لاستخراج الذهب من

الرمال الحاوية ذهبا؛ بصدد تكليف الزائد غورييف بالترجمة إلى الفرنسية؛ بصدد إيفاد مهندسى تعدين روس إلى مصر؛ بصدد إرسال أشخاص من قبل باشا مصر إلى روسيا، لأجل التعرف على الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها، وعن إهداء باشا مصر علبة نشوق من الذهب إلى المقدم كوفاليفسكى.

أرشيف سياسة روسيا الخارجية سان بطرسبورغ، الأرشيف الرئيسى، الملف ١١ . ١٠، الإضبارة ٤٨، ١٨٣٨ . ١٨٤٨، المستند ٢)

رسالة القنصل العام لروسيا فى مصر ميديم إلى نائب مدير الدائرة الآسيوية لدى وزارة خارجية روسيا السيد سينيافين

الإسكندرية، ١٦ (٢٨) يونيو ١٨٣٨

السيد نائب المدير سينيافين، ح

طلب منى باشا مصر الحصول على وصف دقيق ومفصل للطريقة الجديدة، والعمل التطبيقى، اللذين يمارسان فى روسيا لاستثمار الرمال الحاوية ذهبا عن طريق الصهر بدلا من الغسل. واليوم أتوجه إلى الدائرة الآسيوية برجاء تطمين رغبة الباشا التى أعرب عنها بهذا الصدد. لهذه الغاية أرجو طائعًا إرسال وصف بالفرنسية للطريقة الجديدة المتبعة فى مصانعنا، وكذلك إرسال رسوم للمعدات التى تستخدم فى العمليات الآنفة الذكر.

تفضلوا، سيدى نائب المدير، بقبول

فائق احترامى

ميدم

(باللغة الفرنسية)

إلى دائرة العلاقات الداخلية

٢٣ من يوليو ١٨٣٨

أبلغ قنصلنا العام فى الإسكندرية الدائرة الآسيوية بأن باشا مصر طلب منه

إعطاءه وصفًا مفصلاً بالفرنسية للطريقة الجديدة لاستخراج الذهب من الرمال عن طريق الصهر بدلا من الغسل؛ كما أبدى رغبته فى الحصول على رسوم للمعدات المستخدمة لهذا الغرض.

إن الدائرة الآسيوية على علم بأنه توجد فى دائرة العلاقات الداخلية معلومات عن الطريقة المذكورة لاستخراج الذهب طلبتها من وزارة المالية بناء على رجاء مماثل من جانب مبعوث أمريكى وصل إلى هنا؛ ولذا فإن الدائرة الآسيوية تطلب طائعة إرسال هذه المعلومات والرسوم، فى حال وجودها لأجل تلبية رغبة باشا مصر.

إلى الدائرة الآسيوية

٢٨ من يوليو ١٨٣٨، رقم ٥٠٥٧

تبعًا لبيان الدائرة الآسيوية، المؤرخ فى ٢٣ يوليو الجارى تحت رقم ٦ ١٩، تتشرف دائرة العلاقات الداخلية بأن ترفق طيه مذكرة تتضمن وصفا مرسلا من السيد وزير المالية للطريقة الجديدة لاستخراج الذهب من الرمال عن طريق الصهر بدلا من الغسل؛ أما فيما يتعلق برسوم المعدات المستخدمة لذلك، فلن يتم الحصول على رسوم كهذه من جانب السيد وزير المالية.

إلى سينيافين من أركان فيلق مهندسى التعدين

٢٠ من سبتمبر ١٨٤١، رقم ٣١٧

سيدى الكريم ليف غريغور ييفيتش، جوابًا على رسالة معاليكم بتاريخ ١٦ من سبتمبر الجارى تحت رقم ٢٤١٧ أتشرف بأن أعلن أننى، بناءً على رغبتكم، كلفت مهندس التعدين الرائد غورييف بأن يترجم إلى اللغة الفرنسية وصف معالجة الرواسب الحاوية ذهبًا فى روسيا، الذى وضع بناء على طلب باشا مصر.

(التوقيع غير مقروء)

تيتوف إلى سينيافين من المبعوث فى القسطنطينية

القسطنطينية من ٢١ من نوفمبر ١٨٤١

سيدى الكريم ليف غريغور يبفيتش، تشرف بتلقى ما أرفق ببيان معاليكم المؤرخ فى ٧ من أكتوبر الماضى تحت رقم ٢٥٥٨، أى ترجمة وصف الطرائق المستخدمة فى روسيا لاستخراج الذهب، مع الرسوم الملحقة بهذا الوصف، لأجل محمد على باشا، وكذلك خمسة أجزاء من النشرة الدورية المعنونة Annuaire du journal des mines de Russie، واستفدت من وساطة الكونت نيقولاى بالين، الذى توجه مؤخرًا إلى مصر، لكى أرسل معه الأعمال المذكورة إلى القنصل العام كريمير، لكى يسلمها إلى محمد على باشا باسم الكونت ميديم بموافقة الوزارة.

وتفضلوا، سيدى الكريم ، بقبول فائق احترامى وولائى . تيتوف

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ٨ من سبتمبر ١٨٤٢، رقم ٢٨٤

سيدى الكريم ليف غريغوريبفيتش، تلقيت بسلامة كتابًا من النشرة الدورية المعنونة Annuaire du jauruas des mines de russie كان مخصصًا لباشا مصر، وأرسل طى بيان معاليكم بتاريخ ١١ من أغسطس تحت رقم ٢٣٠٢، واستفدتُ من توجه باخرة مصرية إلى الإسكندرية لكى أرسله فى الثالث من الشهر الحالى إلى قنصلنا العام فى مصر.

أرجو، سيدى الكريم، أن تتقبلوا فائق احترامى وولائى.

إلى نائب المستشار نيسيلروديه من تيتوف القسطنطينية، ٥ من يوليو ١٨٤٣، رقم ٢٥٤ سيدى الكريم كارل فاسيليفيتش، تلقى السيد المستشار السرى بوتين، قبل سفره من هنا، بلاغًا من القنصل العام كريمير بصدد الرغبة، التى أبداها له محمد على باشا فى أن يسعى لدى حكومتنا من أجل السماح بأن توفد إلى مصر بضعة مهندسين من مصلحة التعدين يملكون معارف عملية وخبرة فى ميدان التعدين ويمكنهم، فى حال الدراسة اللازمة لرواسب الذهب المكتشفة فى

السودان، ومناطق النيل الجنوبية، تطبيق الطرائق المتقنة المستخدمة فى روسيا لأجل استثمار هذه الرواسب.

أرى من واجبى أن أرفع إلى سموكم نسخة عن بلاغ السيد كريمير المذكور أعلاه والملاحق المرفقة به، وكذلك مقتطفًا من رسالته الشخصية إلى سلفى. لقد شجعت محمد على باشا على مسعاه هذا، كما ينبغى الافتراض، التوضيحات، التى قد جرت فى عهد الكونت ميديم، وحسن النية، الذى قدمت به حكومتنا إلى الباشا فى حينه مختلف المعلومات عن طرائق استخراج الذهب فى روسيا. وقد تلقى الباشا هذه المعلومات، حسبما أعلم، بفائق الامتنان.

إذا نظرنا إلى هذا الطلب من الناحية السياسية البحتة فإن ظهور ضباطنا أو أساتذتنا المختصين بالتعدين فى مصر من المستبعد أن يثير بحد ذاته استياء لدى السلطان ووزرائه، أو أن يقدم ذريعة لأقاويل سخيفة وسيئة القصد، وذلك، أولا، لأن الحكومة التركية على مايظهر لاتبدى أى تذمر من ثروات محمد على باشا، وحتى أنها ترى فيها ضمانة للقسط المواظب، الذى تتلقاه منه إتاوةً؛ ثانيا، لقد اعتادت الدول الأجنبية والباب العالى نفسه منذ زمن بعيد على رؤية مصر مزارة من جانبْ أوروبيين من كافة الرُتب، وكثيرون منهم يعملون فى خدمة الباشا، وحتى يترأسون أقسامًا معينة من إدارته. غير أنه قد يكون من المفيد، من باب الاحتراس الاحتياطى فى حال تلبية مطامع محمد على، أن نقترح على الراغبين، وأمثال هؤلاء موجودون وسط ضباط التعدين المحنكين، ماإذا كانوا يودون السفر إلى مصر بصفتهم الشخصية، وليس فى شكل تكليف من طرف الحكومة. ولكن من الضرورى فى هذه الحالة، تحاشيًا لأى سوء تفاهم، إخطار القنصلية العامة مسبقا بذلك لتمكينها من الاشتراط مع الباشا بشأن الرواتب وسائر المسائل المتعلقة بتأمين إخصائيينا فى علم المعادن ومهندسينا التعدينيين، وكذلك بالواجبات التى ستلقى عليهم، بصدد التجول فى مواقع رواسب الذهب الإفريقية ومعاينتها ومعالجتها.

تيتوف

إلى نيسيلروديه من أركان فيلق مهندسى التعدين

سان بطرسبورغ، ٧ من ديسمبر ١٨٤٣، رقم ٦٢٥٧

سيدى الكريم الكونت كارل فاسيلييفيتش، لقد طلبتم منى، ياصاحب السمو، لدى إرسالكم لى فى ٢٥ من نوفمبر الماضى بلاغ السيد مبعوثنا لدى الباب العالى العثمانى تحت رقم ٢٥٤ مع الملحقات، أن أبدى رأيى بصدد إيفاد مهندسى تعدين روس إلى مصر لأجل دراسة الرواسب الحاوية ذهبًا وتنظيم معالجتها الصحيحة.

بعد مطالعتى هذه الأوراق أتشرف، سيدى الكريم. وطبقا لمحتواها، بأن أبلغكم أنه لايوجد لدينا الآن، فى ظل التطور السريع لصناعة استخراج الذهب من الرواسب الحاوية له فى روسيا، أشخاص خبير ون متفرغون، يمكن تخصيصهم للإيفاد إلى مصر. فضلا عن أن إيفاد مهندسين روس، وأوروبيين على العموم، إلى هناك من المستبعد، فى رأيى، أن يجسب فائدة عملية سواء بسبب عسر المناخ المصرى بالنسبة لسكان الشمال، أم بسبب عدم إمكان الأوروبى، الذى لايعرف لغة هذا البلد، ولاعادات الشرق، التكيف بسرعة مع الظروف والعلاقات المحلية، التى تتسم دائما بتأثير شديد على نجاح المؤسسات الصناعية؛ لهذه الأسباب الوجيهة، فلو كان الأمر عائدا لى لكنت امتنعت عن إيفاد مهندسى تعدين روس إلى مصر، ولكنت اقترحت على الباشا، بدلا من ذلك، إرسال أشخاص من لدنه إلى روسيا تقدم لهم دائرة التعدين جميع التعليمات الممكنة لأجل أن تتم بأسرع مايمكن دراسة طرائقنا للتنقيب عن الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها. وبإمكان الأشخاص الموفدين من جانب محمد على، لدى وصولهم إلى أوديسا، السفر رأسا إلى مدينة يكاتيرينبورغ فى الأورال إذا لم يعتبر أمرا ضروريا لهم التعريج على سانت بطرسبورغ.

وإننى، إذ اتشرف بأن أعيد طيه البلاغ المذكور للسيد مستشار الدولة الفعلى تيتوف تحت رقم ٢٥٤ مع بلاغى القنصل العام كريمير، وبأن أرفع شكرى إلى سموكم على إرسالكم إلى دائرة التعدين تقارير بخصوص المهندسين الأربعة العاملين فى خدمة باشا مصر، أرجوكم سيدى الكريم أن تتقبلوا فائق احترامى وولائى.

(التوقيع غير مقروء)

الى تيتوف من نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ١٤ من ديسمبر ١٨٤٣

سيدى الكريم فلاديمير بافلوفيتش،

تلقيت فى حينه رسالة معاليكم المستعجلة بتاريخ ٥ من يوليو رقم ٢٥٤ بصدد مسعى باشا مصر لإيفاد مهندسى تعدين روس إليه لدراسة الرواسب الحاوية ذهبًا المكتشفة فى مصر العليا وتنظيم معالجتها بشكل صحيح.

وإذا كانت الوزارة قد تباطأت حتى الآن فى إعطاء ردها، فإن ذلك حصل بسبب عدم وجود المدير العام لفيلقى مهندسى التعدين فى سانت بطرسبورغ. ولدى عودته حاليًا إلى العاصمة رأيت من واجبى أن أبلغ عن رأيه بصدد رغبة محمد على الآنفة الذكر؛ ولكن جنرال المشاة الكونت كانكرين يرى أن إيفاد الأوروبيين إلى مصر من المستبعد أن يجلب فائدة عملية، سواء بسبب عسر المناخ المصرى بالنسبة لسكان الشمال أم بسبب عدم إمكانهم التكيف بسرعة مع الظروف والعلاقات المحلية، التى تتسم دائمًا بتأثير شديد على نجاح المؤسسات الصناعية؛ ولذا فقط أقترح الامتناع عن إيفاد مهندسينا التعدينيين إلى هناك، وعوضا عن ذلك أقترح على الباشا إيفاد أشخاص من لدنه يرسلون رأسا من أوديسا إلى مدينة يكاتيرينبورغ فى الأورال، حيث تقدم لهم دائرة التعدين جميع التعليمات الممكنة لأجل أن تتم بأسرع مايمكن دراسة طرائقنا فى التنقيب عن الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها. ذلك هو رأى المدير العام لفيلق مهندسى التعدين، الذى أبلغته إلى السيد الامبراطور، لكى يحظى بموافقة جلالته السامية.

وإننى إذ أبلغكم، سيدى الكريم، بما عرضته أعلاه أرجوكم طائعا دعوة المستشار الوزارى كريمير التى بعث رد بهذا المعنى إلى باشا مصر، وفى حال موافقته على إيفاد أشخاص من لدنه إلى روسيا تقديم قائمة إليكم بالأشخاص الذين سيعيَّنون لهذا الغرض، بحيث تستطيع الوزارة، لدى استلامها هذه القائمة

من جانبكم، إصدار أمر فى الوقت المناسب بوصول هؤلاء الأشخاص دون ما عائق إلى مكانهم المقصود.

إلى الكونت كانكرين من نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ٤ من ديسمبر ١٨٤٣

سيدى الكريم إيغور فرانتسيفيتش،

تشرفت بتلقى بيان سموكم المؤرخ فى ٧ من ديسمبر تحت رقم ٦٢٥٧ مع عرض رأيكم بصدد الإزعاجات المقترنة بإيفاد مهندسى تعدين روس إلى مصر، بناء على رغبة محمد على، وبصدد الاقتراح على الباشا بإيفاد أشخاص من لدنه إلى روسيا، يرسلون من أوديسا رأسا إلى الأورال، إلى يكاتيرينبورغ، حيث تقدم لهم دائرة التعدين التعليمات اللازمة لأجل القيام بأسرع مايمكن بدراسة طرائقنا للتنقيب عن الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها.

وإننى إذ أشاطركم رأيكم هذا كليا أحطتُ السيد الامبراطور علما بذلك، وحظى هذا بالإستحسان السامى من جانب جلالته.

وإذ أبلغكم بذلك، سيدى الكريم، أتشرف بأن أضيف أننى طلبت من مبعوثنا فى القسطنطينية إرسال رد بهذا المعنى إلى محمد على بواسطة القنصل العام كريمير؛ إذ أننى دعوتُ هذا الأخير، فى حال موافقة الباشا على إيفاد أشخاص من لدنه إلى روسيا، وإلى إرسال قائمة بالأشخاص، الذين سيعيَّنون لهذا الغرض؛ كى تتمكن حكومتنا فى الوقت المناسب من إصدار أمر فى الوقت المناسب بوصول هؤلاء الأشخاص دون ما عائق إلى مكانهم المقصود.

إلى الكونت فورونتسوف = داشكوف من تيتوف

القسطنطينية، ١٤ من يونيو ١٨٤٤، رقم ٢٣٩ سيدى الكريم إيفان إيلاريو نوفيتش، أبلغنى السيد نائب المستشار، ببيان مؤرخ فى ١٤ من ديسمبر من العام الماضى تحت رقم ٣٤٢٤، أنه بصدد مسعى باشا مصر المرفوع إلى صاحب الجلالة حول إيفاد مهندسى تعدين روس؛ لأجل دراسة الرواسب الحاوية ذهبا المكتشفة فى مصر العليا، وتطبيق معالجتها وفق النظم المتبعة فى مصانع

التعدين عندنا، تكرّم السيد الإمبراطور بإصدار الأمر التالى: الامتناع عن إيفاد مهندسينا إلى مصر، والاقتراح على الباشا بأن يوفد هو إلى روسيا أشخاصا من لدنه، للتدربُّ فى المصانع الحكومية بمدينة بكاتيرينبورغ.

امتثالا لهذه الإرادة الملكية أسرعتُ فى حينه، إلى تزويدقنصلنا العام فى الإسكندرية بالإرشاد اللازم. وقد أبلغنى السيد المستشار الوزارى كريمير الآن، استنادًا إلى بلاغ مرفق طية، بأن محمد على باشا، إذ وافق على الاقتراح، الذى قدم له باسم صاحب الجلالة، ينوى الاستفادة منه فى الربيع القادم، وأن يوفد فى ذلك الوقت بضعة شبان إلى روسيا، يدرسون حاليا فن التعدين فى النمسا.

إن وجود السيد المستشار الوزارى فوك هنا، والذى عين حديثا قنصلا عاما فى مصر، أتاح لى فرصة إحاطته علمًا بالظروف المتعلقة بهذه القضية؛ لكى يقوم فى الوقت المناسب، فى حال إيفاد مهندسين مصريين فى العام القادم إلى روسيا، بإبلاغ البعثة عن ذلك لأجل أحاطة الوزارة علما.

تيتوف

من فوك إلى سينيافين

الإسكندرية، ٢٦ من مارس ١٨٤٥، رقم ٦

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

ببيان صادر فى ١٤ من ديسمبر (كانون الأول) أبلغ السيدُ نائب المستشار السيد المبعوث تيتوف عن اقتراح السيد وزير المالية، الذى نال الموافقة السامية للسيد الامبراطور، بأن يوفد باشا مصر إلى روسيا أشخاصًا من لدنه يمكن قبولهم فى المصانع الحكومية فى يكاتيرينبورغ لدراسة طرائقنا فى التنقيب عن الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها.

لقد سبق لسلفى، السيد المستشار الوزارى كريمير. أنه أحاط محمد على باشا فى حينه علمًا بهذا الاقتراح. وقبل الباشا هذا الاقتراح مع الشكر وأعلن أنه سوف يستفيد منه من كل بد فيما بعد؛ والآن، قبل مغادرتى القاهرة، صرح

لى برغبته فى أن يرسل إلى روسيا لهذا الغرض شابين من أصل مصرى، هما على محمد وإيليا داشورى، موجودين حاليًا فى فيينا، ويجيدان اللغتين الألمانية والفرنسية، ودرسا هناك الأسس الأولية لفن التعدين.

إن باشا مصر، فى هذه الحالة وبعد اطلاعه على إرادة السيد الامبراطور بهذا الشأن ، يصر على إيفاد هذين الشابين بأسرع مايمكن.

نظرا لذلك، واذ اخذت فى الحسبان أن هذين الشابين موجودان حاليا فى فيينا، وأنهما بالتالى سيقومان بلفة كبيرة جدا وزائدة إذا أرسلا عن طريق اوديسا . قررت أن اتوجه إلى معاليكم مباشرة بأشد الرجاء بأن تتفضلوا بإبلاغ سمو الكونت كارل فاسيلييفيتش عن رغبة الباشا والاتصال بوزارة المالية لتهيئة سفر الشابين المذكورين بالطريقة الأكثر راحة ودونما عائق من فيينا مباشرة إلى المكان المقصود بأقصر طريق ممكن .

إننى أبعث ببلاغى هذا، بواسطة الإدارة المصرية إلى السيد مبعوثنا فى فيينا بالبريد المفتوح بغية إيصاله إلى معاليكم؛ وأتشرف طائعًا بأن أطلب منكم، سيدى الكريم، بغية إضاعة أقل قدر ممكن من الوقت، تكليف السيد المستشار السرى الكونت ميديم مباشرة بابلاغ الشابين الموجودين فى فيينا جميع التعليمات اللاحقة بصدد سفرهما إلى روسيا وتزويدهما بجوازى سفر لازمين لأجل ذلك.

فوك

إلى نيسلروديه من أركان فيلق مهندسى التعدين

سان بطرسبورغ، ١٤ من مايو ١٨٤٥، رقم ١٩٠٧

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش

بصدد محتوى رسالة سموكم الموقرة بتاريخ ٧ من مايو (آيار) الجارى تحت رقم ١٢٤٥ أتشرف بأن أجيب بأنه من المفروض، بموجب رأيكم، أن أعين من سفارتنا فى فيينا موظفا خاصا لأجل مرافقة على محمد وإيليا داشورى ذوى التبعية المصرية من فيينا إلى يكاتيرينبوغ، والذين اختارهما باشا مصر لدراسة

طرائقنا فى التنقيب عن الرمال الحاوية ذهبًا ومعالجتها، وأنه ينبغى على، لدى وصولهما إلى هنا، إصدار أمر على الفور سواء بالنسبة لإطلاعهما، بواسطة أساتذة معهد التعدين، على نماذج معدات غسل الذهب الموجودة فى متحف هذا المعهد، أم بالنسبة لتعيين مهندس تعدين لمرافقة هذين الشخصين إلى مصانع الأورال، حيث ستقدم لهما من جانب مسئولى التعدين المحليين جميع التعليمات الممكنة لدراسة الموضوع الذى كلفا به بأسرع ما يمكن وبصورة راسخة.

أرى من واجبى أن أضيف إلى ذلك أنه، نظرًا لمحدودية المبالغ المخصصة لصناعة التعدين لاتوجد إمكانية لقبولهما على حساب النفقات المترتبة على إعاشة وتنقلات الشابين المصريين.

(التوقيع غير مقروء)

الى القنصل العام فى الإسكندرية فون فوك

سان بطرسبورغ، ١٠ أغسطس ١٨٤٥، رقم ٢٢٠٦

سيدى الكريم ألكسندر مكسيموفيتش

عطفًا على رسالة سموكم الموقرة بتاريخ ١٥ من آب (أغسطس) الجارى تحت رقم ٢٢٤٩ أتشرف بأن أبلغكم، سيدى الكريم، بأننى فور استلامى هذه الرسالة كلفت مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى (٤٠) بأن يستقبل من الدائرة الآسيوية المهندسين المصريين على محمد وداشورى وبأن يطلعهما بإشراف أساتذة معهد التعدين على نماذج شتى المعدات المخصصة لمصانع التعدين الموجودة فى متحف هذا المعهد، وأن يسافر مع المهندسين المذكورين إلى مصانع التعدين فى الأورال، حيث ستقدم لهما كل مساهمة ممكنة للدراسة الراسخة لطرائق معالجة الرمال الحاوية ذهبا المستخدمة عندنا.

بعد الدراسة اللائقة لهذا الإنتاج أقترح بأن يتم فى حوالى أواسط يونيو (حزيران) من عام ١٨٦٤ م القادم، تسفير الشابين المصريين المذكورين بشكل مباشر من مصنع ذلاتوأوست إلى أوديسا، بحيث سيكون من الأنسب لهما العودة إلى الوطن.

فيما يتعلق بالنفقات المطلوبة لسفريات على محمد وداشورى وسكنهما وإعاشتهما فسوف يجرى، تنفيذًا للإرادة السامية للسيد الإمبراطور،الواردة فى رسالة سموكم المذكورة تحت رقم ٢٢٤٩. تخصيص مبلغ محترم للمقدم كوفاليفسكى لهذه الغاية بحيث ينفق على إعاشة كل واحد من المصريين المذكورين، حسب تعليمكم سيدى الكريم، روبلا واحدًا فضة فى اليوم.

(التوقيع غير مقروء)

إلى الدائرة الآسيوية

سان بطرسبورغ، ١٨ من سبتمبر ١٨٤٥، رقم ٤٠٤٧ تتشرف أركان فيلق مهندسى التعدين بأن تحيط الدائرة الآسيوية علمًا بأن المهندسين المصريين على محمد وداشورى، بعد اطلاعهما بالقدر اللازم على متحف معهد التعدين وسائر المعاهد المتخصصة فى العاصمة ، توجها حاليا إلى مصانع الأورال برفقة المقدم كوفاليفسكى. وأن سفر هذين المهندسين تأخر بضعة أيام بانتظار معافاة داشورى من مرض أصابه.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

من فوك إلى سينيافين

الإسكندرية ، ٣ من سبتمبر ١٨٤٥، رقم ٢١

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش.

تشرفت بتلقى رسالتى معاليكم المؤرختيين فى ٢٠ من يوليو (تموز) و ١٠ أغسطس (آب) رقم ٢٠٣٨ ورقم ٢٢٠٦، وأسرع للإعراب لكم من شكرى الخالص على إبلاغكم العطوف عن إرسال المهندسين المصريين على محمد وإيليا داشورى من فينيا ووصولهما إلى سان بطرسبورغ، واللذين عينهما محمد على باشا لدراسة الطرائق المستخدمة فى روسيا للتقيب عن الرمال الحاوية ذهبا ومعالجتها.

لقد أصدرت التعليمات بأن يحاط علمًا بذلك باشا مصر الذى طلب منى تقديم أعمق الشكر والامتنان إلى الوزارة على الاهتمام العطوف، الذى أحيط به الشابان المصريان لدى إرسالهما، بناء على طلبه، إلى روسيا. وكان الباشا قد أصبح على علم، من خلال مراسلة فى تريستتا، بالإجراءات التى اتخذت أثناء إرسالهما، ولكنه استعلم بفضولية خاصة عن وصولهما إلى سان بطرسبورغ، وتعجب من كيفية الحصول بهذه السرعة على النبأ بوصولهما.

فوك

إلى سينافين من فوك

الإسكندرية، ٢٤ من سبتمبر ١٨٤٥، رقم ٢٢

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش

فور استلامى رسالة معاليكم المؤرخة فى ٢١ من أغسطس (آب) تحت رقم ٢٢٩٩ أسرعت لإبلاغ باشا مصر، بواسطة وزيره أرتين بيه، رسالة باللغة العربية من الشابين المصريين اللذين أرسلا إلى روسيا لدراسة طرائق التنقيب عن الرمال الحاوية ذهبا، وأخبرته علاوة على ذلك بجميع المعلومات المتعلقة بهذين الشابين التى تلقيتها من الإدارة العامة لفيلق مهندسى التعدين، وبالأحكام الواردة فى رسالتكم المذكورة. وإذ كنت أعلم اللهفة التى يتتبع بها الباشا جميع الأنباء، وكذلك مشاركته فى هذا التكليف، الذى أسنده إلى الشابين المرسلين إلى إقليم بعيد إلى هذا الحد، لذلك لم أود تأجيل ذلك إلى موعد لقائى الشخصى به.

إن قلة الصبر الملازمة لطبع محمد على قد ازدادت مع مرور الزمن وأكثر ماأثار الارتياح فى نفسه من بين هذه المعلومات هو النبأ القائل إن الشابين المصريين اللذين أوفدهما سيكون فى مستطاعهما الإياب فى أواسط شهر يونير (حزيران) القادم تقريبا، وعندما كنت أنا فى زيارته منذ يومين شرع بالتحدث عن ذلك فى الحال، واستفاض فى الاعراب عن أصدق الولاء للسيد الإمبراطور والشكر للوزارة الإمبراطورية. مضيفا أنه سعى دائماً لفعل كل ما هو سار

ومستحب لجلالته الإمبراطورية، ويأمل بأن يمنحه الله فرصة أخرى للبرهنة على ذلك فى الواقع.

جوابًا على بلاغى سلمنى أرتين بيه، وزير التجارة والخارجية، رسالة إلى الشخصين المصريين الموجودين فى روسيا.

لى الشرف أن أقدم إلى معاليكم، بالإضافة إلى هذه الرسالة، نسخة عن رده علىّ

فوك

إلى الدائرة الأسيوية

سان بطرسبورج، ١٩ من أكتوبر ١٨٤٥، رقم ٤٤٩٠ تتشرف أركان فيلق مهندسى التعدين بأن تقدم إلى هذه الدائرة نسخة عن التقرير الذى استلمته من مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى والمؤرخ فى ٦ من أكتوبر (تشرين الأول) تحت رقم ٤، عن سوء صحة المهندسين المصريين على محمد وداشورى.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

نسخة عن تقرير السيد المقدم كوفاليفسكي إلى أركان فيلق مهندسى التعدين بتاريخ ٦ أكتوبر ١٨٤٥، رقم ٤، من مدينة قازان

إن الأركان على علم، من تقريرى المرسل إلى بطرسبورغ، إن داشورى، أحد مهندسى التعدين، اللذين أرافقهما، أصيب بمرض عندما كان لايزال فى بطرسبورغ. ورغم أنه تعافى بعض الشى هناك، فقد عاوده الألم فى الصدر وحالة الحمى أثناء الطريق، وذلك كان سبب توقفنا مرارًا، فضلاً عن ذلك أصيب الآخر، على محمد، أيضا بنوبات مرضية ناشئة، حسب تأكيد الأطباء، من الإصابة بالزكام. وقد اضطررت أثناء الطريق للجوء إلى تقديم إعانات طبية متكررة للسيدين المهندسين المصريين، ولكن بدون التوقف مدة طويلة فى مكان بعينه.

ففى موسكو عالجهما الطبيب كورش المعروف، وفى نيجنى نوفغورود طبيب الأركان باجانوف، وهنا يعالجهما بروفسور عادى هو الدكتور فى الطب فاغنر.

أتشرف بأن أضيف إلى ذلك أنه رغم سوء صحة داشورى الشريف وعلى محمد، فقد أحيطا بكل العناية الجديرة بالمسافرين الأجانب فى موسكو وفى قازان، وها نحن ننطلق اليوم من هنا إلى المكان المقصود.

المقدم كوفاليفسكى

من سامارسكى إلى سينيافين

سان بطرسبورج، ٢٤ من أكتوبر ١٨٤٥، رقم ٤٥٧٨

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش

عطفًا على بيان مماليكم المؤرخ فى ١٩ من أكتوبر (تشرين الأول) تحت رقم ٢٩٠١ أتشرف بأن أبلغكم، سيدى الكريم، بأن رسالة باشا مصر، المرفقة طى بيانكم، قد أرسلت معه إلى السيد المقدم كوفاليفسكى الذى يرافق المهندسين المصريين على محمد وداشورى، لأجل تسليمها إلى الجهة المسئولة.

نسخة عن تقرير المقدم كوفاليفسكى إلى أركان فيلق مهندسى التعدين بتاريخ أكتوبر ١٨٤٥، رقم ٥

طبقًا للتعليمات المعطاة لى من الأركان أتشرف بأن أبلغكم بأنه لدى وصولى إلى يكاتيرينبورغ فى ١٦ من أكتوبر (تشرين الأول) الماضى بمعية مهندسى باشا مصر اللذين ارافقهما، باشرت على الفور بإطلاع أحدهما، داشورى، على الأجهزة التقنية فى يكاتيرينبورغ، أى بالتحديد على الإنتاج الملغمى (*) وعلى الورشة الميكانيكية الجديرة بالدراسة المتأنية من نواح كثيرة، وبعد انتهاء الدروس هنا فى ٢٤ من الشهر نفسه قدت داشورى إلى مصنع بيريوزوفسك لدراسة استخراج، وغسل الرمال بجميع تفاصيلهما، وهو يتعاطى هنا يوميًا الآن حتى الساعة الرابعة غسل الرمال فى آله غسل (Wasch herd) [41] وضعت تحت

(*) طريقة لاستخراج المعادن النادرة بواسطة الزئبق ـ المترجم.

تصرفه الخاص. هكذا بالضبط سوف يعمل بنفسه فى المنجم وفى المقطع أما بالنسبة لعلى محمد فما يزال مريضًا، وهو يوجد تحت رعاية الدكتور وولف أمهر طبيب هنا.

المقدم كوفاليفسكى

من فوك إلى سينيافين

القاهرة، ٢٥ من نوفمبر ١٨٤٥، رقم ٢٥

سيدى الكريم ليف غريغورييفتيش

تشرفت بتلقى بيان معاليكم المؤرخ فى ٢ من أكتوبر (تشرين الأول) تحت رقم ٢٧٥٢ ، وأسرعت فى إبلاغ باشا مصر عن سفر المهندسين الشابين محمد على وداشورى من سان بطرسبورغ إلى مصانع الأورال.

وإننى، إذ أرفع إليكم سيدى الكريم شكرى على تكرمكم بإرسال هذه المعلومات لى التى تحظى باهتمام شديد هنا، أتشرف بالإعراب عن فائق احترامى وولائى.

خادمكم المطيع فوك

تقرير المقدم كوفاليفسكى بتاريخ ١من ديسمبر، رقم ٢٨

إلى أركان فيلق مهندسى التعدين

طبقًا للتعليمات المعطاة لى من الأركان أتشرف بأن أبلغكم بأن مهندسى التعدين، المرسلين من لدن باشا مصر، داشورى الشريف وعلى محمد، اللذين عملا طوال شهر نوفمبر (تشرين الثانى) فى مكامن بيريوزوفسك، قد غسلا شخصيًا أكثر من ٥٠٠ بود من الرمل الحاوى ذهبًا فى آلتى غسل بدويتين؛ إضافة إلى ذلك كانا يطلعان يوميا بصورة عملية على نماذج آلات غسل الذهب التى صنعت لأجلهما لكى يستطيعا تجميعها بنفسيهما فى المكان المفروض ودراسة أجزائها بالتفصيل فى حال صنع آلة تحت إشرافهما فى مصر. أرى من واجبى أن أضيف إلى ذلك أن دروسهما تتوقف غالبا بسبب مرض أحدهما؛ والآن داشورى مصاب بالزكام.

المقدم كوفاليفسكى

إلى الدائرة الأسيوية

سان بطرسبورغ، ٨ من فبراير ١٨٤٦، رقم ٥٦٦

تتشرف أركان فيلق مهندسى التعدين بأن ترفق طيه أربع رسائل تلقتها من المهندسين المصريين على محمد وداشورى الموجودين فى مصانع الأورال وهى موجهة إلى أشخاص مختلفين، وأنها ترى من واجبها أن تطلب طائعة من الدائرة الاسيوية تقديم عون محمود فى إيصال هذه الرسائل إلى أصحابها المعنيين بواسطة سعاة من وزارة الخارجية.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

الى الدائرة الآسيوية

سان بطرسبورغ، ١٨ من ابريل ١٨٤٦، رقم ١٥٧٩

أبلغ مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى أركان فيلق مهندسى التعدين بأن المهندسين المصريين داشورى وعلى محمد اطلعا فى غضون مارس (آزار) الماضى على مصانع سيسيرت وكاسلى وكيشتيم ومناجم سويمانوفو لاستخراج الذهب، ومصنع زلاتوأوست، ومعمل زلاتوأوست لصناعة الأسلحة . ومناجم مياس لاستخراج الذهب، وهما يعملان الآن فى منجم أتلى، وسوف يتوجهان بصحبة السيد كوفاليفسكى، عند أول فرصة تسنح ، إلى فرقة أبحاث جيولوجية للتنقيب والكشف عن الرواسب الحاوية ذهبا حيث سيبقيان حتى مطلع آيار (مايو)، أى حتى موعد توجهها إلى أوديسا.

تتشرف أركان فيلق مهندسى التعدين بأن تبلغ الدائرة الآسيوية بذلك، وأن تطلب طائعة بإعطاء الأوامر لبعث الرسالة، الواردة من المهندسين المصريين المذكورين والمرفقة طيه، إلى عنوان أرتين بيه المخصصة له.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

إلى الدائرة الأسيوية

سان بطرسبورغ، ٢٢ من مايو ١٨٤٦، رقم ٢١٩٥

إن أركان فيلق مهندسى التعدين ، إذ تأخذ فى الحسبان أن مهندسى باشا مصر على محمد وداشورى الموجودين فى مناجم استخراج الذهب فى الأورال سيتوجهان فى القريب العاجل بصحبة أحد مهندسى التعدين الأوراليين إلى أوديسا لمواصلة سفرهما من هناك إلى مصر، ترى من واجبها أن تطلب طائعة من الدائرة الآسيوية إصدار أمر بإن يبدى موظف ما من موظفى وزارة الخارجية الموجودين فى أوديسا، اهتمامه بالمهندسين المصريين المذكورين؛ وتكرموا بإبلاغ الأركان عما تم فعله لاحقا بهذا الصدد.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

إلى الدائرة الاسيوية

سان بطرسبورغ، ٤ من يونيو ١٨٤٦، رقم ٢٤٨٨ أن السيد المقدم كوفاليفسكى، لدى إبلاغه أركان فيلق مهندسى التعدين فى ١٤ مايو (آيار) الحالى من مصنع زلاتوأوست بأن المهندسين المصريين على محمد وداشورى أرسلا من هناك إلى أوديسا بمرافقة مهندس التعدين النقيب بلوم، قدم انطباعات هذين المصريين التى يتضح منها إنهما كانا دائما يشعران بعناية الحكومة الروسية بهما ويكنّنان مشاعر الشكر الخالص للأشخاص الذين أحاطوهما برعايتهم.

إن أركان فيلق مهندسى التعدين، إذ تتشرف بإبلاغ الدائرة الآسيوية بذلك، ترى من واجبها، عطفا على بيان الدائرة بتاريخ ٢٥ من مايو (آيار) الماضى تحت رقم ١٤٨٢، أن تضيف أن السيد وزير المالية أبلغ السيد القائم بوظيفة الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا سواء عن الإعاشة المحترمة للمصريين المذكورين

فى أوديسا أن عن حجز مكانين لهما فى باخرة متوجهة من هناك إلى القسطنطينية. كما أوعز إلى النقيب بلوم بأن يقوم فور وصوله إلى أوديسا بتقديم المصريين إلى الفريق فيدوروف.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

من فورك إلى سينيافين

الإسكندرية، ٢٨ من مايو ١٨٤٦، رقم ١٧

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

تشرفتُ باستلام الرسالة الموجهة إلى أرتين بيه من المهندسين المصريين على محمد وداشورى ضمن أمر معاليكم المؤرخ فى ٣٠ من ابريل (نيسان) تحت رقم ١١٤٤، ولم ألبث ان سلمتها إلى الطرف المخصصة له. وإضافة إلى ذلك أخبرت أرتين بيه ببعض التفاصيل التى تكرّم معاليكم بإبلاغى إياها بصدد دروس الشابين المذكوريين، وأنا على ثقة بأن محمد على باشا سيتقبلها بفضول. غير أن النبأ الذى سيثير الارتياح فى نفسه هو أن الشابين اللذين أرسلهما سوف يبدآن طريق عودتهما فى أواخر هذا الشهر.

فوك

إلى الدائرة الآسيوية سان بطرسبورغ، ٢١ من يونيو ١٨٤٦، رقم ٢٨٩٢

إن مهندس التعدين النقيب بلوم، الذى أوفد لمرافقة المهندسين المصريين على محمد وداشورى من مصنع زلاتوأوست إلى أوديسا، أبلغ أركان فيلق مهندسى التعدين فى ٦ من يونيو (حزيران) أنه قدم المصريين المذكورين إلى السيد القائم بمنصب الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا، وأنه تم تعيين العاشر من الشهر الجارى موعدا لتسفيرهما على متن باخرة من أوديسا إلى القسطنطينية، الأمر الذى ترى أركان الفيلق من واجبها إبلاغ الدائرة الآسيوية به.

القائم بمنصب قائد الأركان

العقيد سامارسكى

إلى السيد مدير وزارة الخارجية

من القائم بمنصب الحاكم العام لنوفوروسيسك وبيسارابيا،

١٢ يونيو ١٨٤٦، رقم ٦٨٥٥

تقرير

أرى من واجبى إبلاغ سموكم بأنه، بناء على طلبكم بتاريخ ٢٨ من مايو (آيار) الجارى تحت رقم ١٤٨٥ أصدرتُ امرًا بأن يرسل إلى القسطنطينية دونما توقف على متن أول باخرة فرقاطة متجهة إلى هناك، المهندسان المصريان اللذان وصلا إلى أوديسا، مع قطع وعينات المعادن الموجودة فى حوزتهما، وأعلنت لهما أن يراجعا بعثتنا فى القسطنطينية فى حال الضرورة، وأحطت علما بذلك السيد المبعوث مستشار الدولة الفعلى تيتوف لكى يقدم لهما إذا دعت الحاجة الرعاية الضرورية لهما.

الفريق فيدوروف

من استينوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ٤ من نوفمبر ١٨٤٦، رقم ٤٤٤

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش، سلمنى قنصلنا العام فى مصر طى رسالة مفتوحة بيانا موجها إلى معاليكم مرفقا برسالة ٤٢ من محمد على إلى عنوان السيد مستشار الدولة، وعلبة نشوق مرصعة بماسات مهداة من باشا مصر إلى السيد المقدم كوفاليفسكى.

وإننى، إذ أغتنم فرصة إقلاع باخرة من أوديسا بهذا التاريخ: لكى أرسل على متنها هاتين الرزمة وعلبة النشوق الموضوعة فى غلاف خاص، أعتبر من المناسب أن أضيف أننى أشرت على وكيلنا فى أوديسا بأن يعتنى بالتطهير الحذر لهذه العلبة فى الحجر الصحى الموجود هناك ويرسلها فيما بعد إلى معاليكم.

أوستينوف

من فوك إلى سينيافين
القاهرة، ١٣ من أكتوبر ١٨٤٦، رقم ٣١
سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

إثر عودة مهندسى التعدين المصريين الشابين من روسيا إلى هنا أراد محمد على باشا اغتنام أول فرصة سانحة لكى يبعث بأحر امتنانه وشكره إلى السيد الإمبراطور وحكومته على الاستقبال العطوف للغاية والمساعدة، اللذين جرى تقديمها للشابين المذكورين أثناء رحلتهما ومكوثهما داخل حدود الإمبراطورية. ورغبة منه، إضافة إلى ذلك، فى الإعراب عن امتنانه الخاص للسيد المقدم كوفاليفسكى، الذى كلف بمرافقة هذين الشابين إلى مصانع التعدين فى سلسلة جبال الأورال، عزم على أن يرسل إليه هدية ثمينة بمثابة تعبير خاص عن امتنانه؛ ولكن تحضير هذه الهدية وإرسالها إلى الإسكندرية أخرا حتى الآن تحقيق مقصده.

وأخيرا، وقبيل سفرى إلى القاهرة، استلمت رسالة من الباشا حول هذا الموضوع موجهة إلى السيد مستشار الدولة، ورسالة من وزيره أرتين بيه، سوية مع علبة النشوق المرصعة بماسات لأجل السيد المقدم كوفاليفسكى عطفًا على ذلك أتشرف بأن أرفق طيه هاتين الرسالتين وعلبة النشوق وبأن أطلب طائعًا أن تتكرموا بإرسالها إلى صاحبها، وأن تعلمونى بذلك.

بما أن الرسالة الموجهة إلى الكونت كارل فاسيلييفيتش مكتوبة باللغة التركية فقد رأيت من المناسب إرفاقها بترجمة فرنسية لها.

فيما يتعلق بعلبة النشوق فإن إرسالها إلى سان بطرسبورغ سوف يكون مرهونًا بصدور أمر مناسب من جانب البعثة الإمبراطورية فى القسطنطينية.

فوك

من المستشار إلى وزير المالية فرونتشينكو
سان بطرسبورغ، ٣ من ديسمبر ١٨٤٦، رقم ٣٤٦٩

سيدى الكريم فيودور بافلوفيتش،

أبلغنى قنصلنا العام فى مصر أن باشا مصر، لدى وصول المهندسين المصريين إلى هناك، اللذين كانا موجودين فى مصانع التعدين فى الأورال، لدراسة طرائق التنقيب عن الرواسب الحاوية ذهبا ومعالجتها، خصص للسيد المقدم كوفاليفسكى علبة نشوق مرصعة بماسات كتعبير عن الشكر على الأعمال، التى قام بها لدى مرافقته المهندسين المذكورين.

إثر إبلاغى ذلك إلى المرجع الأسمى تفضل جلالته الرفيع الرحمة بالسماح للسيد كوفاليفسكى بقبول الهدية، التى قدمها له محمد على باشا.

أتشرف بإبلاغ هذه الإرادة السامية إلى معاليكم، مضيفًا أنه لدى استلامنا هنا علبة النشوق المذكورة سوف ترسل من الدائرة الآسيوية إلى أركان فيلق مهندسى التعدين ليصار إلى تسليمها إلى صاحبها.

من فوك إلى نيسيلروديه

القاهرة، ١٩ من يناير ١٨٤٧، رقم ٢

سيدى الكريم الكونت كارل فاسيلييفيتش

تشرفتُ بتلقى أمر سموكم المؤرخ فى ١٣ من ديسمبر (كانون الأول) تحت رقم ٣٥٣، وفى الحال سلمت محمد على باشا الرسالة الجوابية، التى طلبتم منى، سيدى الكريم، تقديمها إليه.

تلقى محمد على باشا هذه الرسالة بسرور كبير، وطلب منى أن أنقل إلى سموكم الشكر الجزيل على ماأوليتمونه من عناية، غير أن أكثر ماأثار الارتياح الخاص فى نفسه هو العبارات الحميدة جدا، التى تفضلتم فيها، سيدى الكريم بالإعراب عن جميل العطف الذى يكنه السيد الإمبراطور نحوه. وهو يكن احتراما خاصا لصاحب الجلالة، ويثمن تثمينا رفيعًا أقل تعبير عن الاهتمام الشخصى به من جانب السيد الإمبراطور. ولذلك فإن رسالة سموكم أيضًا تركت فى نفسه انطباعًا شديدًا وطيبًا للغاية لن يبقى، بالطبع، دونما فائدة بالنسبة لعلاقات قنصليتنا العامة به.

فوك

ن الدائرة الآسيوية

من القائم بمنصب مدير مصنع زلاتوأوست
ومدير معمل الأسلحة
زلاتوأوست، ٢٩ من يوليو ١٨٤٧، رقم ١٠١

جوابًا على الرسالة الكريمة من وزير داخلية الحكومة المصرية أرتين بيه، التى أرفق بها إلىّ علبة النشوق المقدمة من جانب باشا مصر، وعدته بأن أرسل مجموعة من عينات المعادن الموجودة هنا لأجل المتحف المصرى. عطفا على ذلك أتجرأ بأن أبعث مجموعة من عينات المعادن على دفعات بواسطة البريد فى صناديق لايتعدى وزن كل منها بودا واحدا إلى الدائرة الآسيوية، وأن أطلب طائعا إرسال هذه الصناديق، عندما تسنح لها الفرصة، إلى العنوان المذكور فى الإسكندرية، وأن تتكرموا من ثم بإبلاغى عن ذلك.

المقدم كوفاليفسكى

إلى الكونت نيسيلروديه
القسطنطينية، ٢٤ من يوليو ١٨٤٧، رقم ٢٧٩
سيدى الكريم الكونت كارل فاسيليفيتش،

أتشرف بأن أقدم طيه بالبريد المفتوح تقريرًا موجهًا إلى سموكم من عميد قنصليتنا العامة فى الإسكندرية، وكذلك عينات من الرواسب الحاوية ذهبا المكتشفة فى مصر العليا ترفق به فى طرد خاص.

يستفاد من بلاغ السيد مستشار البلاط كيوستر أن الوزارة سوف تنظر فى الالتماس المقنع من باشا مصر بإرسال مهندس، أو مهندسى تعدين روسيين وبضعة عمال للاضطلاع بأعمال قيادة وإدارة الأمور لدى معالجة الرواسب المذكورة الحاوية ذهبا.

على الرغم من أن التماسا كهذا قدمه محمد على باشا عام ١٨٤٢ لم يحظ بموافقة جلالته، واقترح عليه إرسال أشخاص من لدنه إلى روسيا للتعلم فى المصانع الحكومية بمدينة بكاتيرينبورغ فإن السيد كيوستر لم يتجرأ، فى أول عهده بمنصبه الجديد على الامتناع عن إحاطة سموكم علمًا بالتماس الباشا

وأننى، إذ أرفع ذلك إلى رأى الوزارة، أسمح لنفسى إبلاغكم أن العلاقات بين حاكم مصر، والباب العالى باتت فى الأعوام الأخيرة مؤاتية جدا بحيث أن تلبية رغبة محمد على باشا من شأنها أن تكون الآن أقل ملاءمة مما فى السابق من الناحية السياسية، وإن توفر لمهندسينا التعدينيين فرصة لدراسة هذا الإقليم المثير للفضول جدًا. علمًا بأنه إذا لم يتم السماح فى هذه المرة بإيفاد ضباط من دائرة التعدين إلى مصر فلربما يكون من الممكن اقتراح هذه السفرة على أحد ما من المهندسين المجربين العاملين خارج الملاك بحيث يقومون بها فى شكل مشروع شخصى عن طريق عقد مشروط مسبقا مع باشا مصر.

وإننى، إذ أقدم استدلالى هذا إلى رأى الوزارة، أتشرف بأن أضيف أننى، فى انتظار القرار الذى سيصدر بصدد هذا الموضوع ، سأطلب من السيد مستشار البلاط كيوستر أن لا يعد باشا مصر بأى أمل فى نجاح مشروعه.

أوستينوف

من المستشار إلى وزير المالية فرونتشينكو

سان بطرسبورغ، ١٢ من أغسطس ١٨٤٧، رقم ٢٤٩٨

سيدى الكريم فيودور بافلوفييتش،

أحاط عميد قنصليتنا العامة فى مصر مستشار البلاط كيوستر وزارة الخارجية؛ علما بأن باشا مصر يطلب بكل إلحاح، كتعبير عما يعبره السيد الإمبراطور من حسن التفات، إيفاد ضابط مسئول من فيلق مهندسى التعدين ومعه واحد أو اثنان من معلمى التعدين؟

وبضعة معلمى تعدين إلى مصر! لأجل تنظيم معالجة، وإنجاز استثمار الرواسب الحاوية ذهبا المكتشفة فى مصر العليا؛ علما بأن مستشار البلاط كيوستر أرسل عينات من الذهب المكتشف استلمها من محمد على باشا، وهي مرفقة طيه. ويرى عميد بعثتنا فى القسطنطينية، من جهته، أن تلبية هذا الالتماس لباشا مصر من شأنها أن تكون مفيدة للغاية من الناحية السياسية، وآن

توفر فى نفس الحين لضابطنا فرصة التغلغل إلى أماكن قلما يعرفها الأوروبيون والقيام هناك بأبحاث علمية مختلفة.

لقد أسعدت بأن أرفع إلى رأى السيد الإمبراطور بلاغ مستشار البلاط كيوستر، وتكرم جلالته، بإيلائه التماس باشا مصر اهتمامه الفائق الرحمة، بأن كلفنى بالأتصال بمعاليكم للاستفسار حول: على أى أساس يمكن أن نوفد إلى مصر ضابطا من فيلق مهندسى التعدين ومعه واحد ان اثنان من معلمى التعدين

عطفًا على ذلك أرى من واجبى أن أرسل إلى معاليكم البلاغ الأصلى لمستشار البلاط كيوستر (رقم ٩) وأن أطلب طائعًا إعادة هذا البلاغ إلىّ، وأن تتكرموا بإعلامى عن الأوامر التى ستتخذونها تنفيذا للإرادة السامية للسيد الإمبراطور.

أتشرف بأن أضيف إلى ذلك أنه، رغم أن باشا مصر أعرب عن استعداده لأن يأخذ على عاتقه نفقات إعاشة مهندسى التعدين الروسى فى مصر، ففى اعتقادى أنه يكون من اللائق أكثر تخصيص معاش لهم من الحكومة الروسية.

من المستشار إلى وزير المالية فرونتشينكو

سان بطرسبورغ، ١٢ من أغسطس ١٨٤٧، رقم ٢٤٩٩

سيدى الكريم فيودور بافلوفيتش،

جوابا على رسالتى بالتاريخ أعلاه تحت رقم ٢٤٩٨ تكرم معاليكم بإبلاغى بأن السيد الإمبراطور أولى اهتماما فائق الرحمة لالتماس باشا مصر بصدد إيفاد ضابط مجرب من فيلق مهندسى التعدين إلى مصر، لأجل تنظيم معالجة الرواسب الحاوية ذهبًا المكتشفة هناك؛ إضافة إلى الرسالة المذكورة أرفع طائعا إلى معاليكم طلبا بالتكرم بإبلاغى عما إذا كنتم ترون من الممكن إسناد هذا التكليف إلى مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى الذى تسنت له، وقد زار حتى الآن كثيرا من البلدان الآسيوية، فرصة الاطلاع بصورة كافية على العادات الآسيوية والذى قد نفذ غير مرة تكليفات مختلفة من وزارة الخارجية بصورة

مرضية تماماً. إن وزارة الخارجية، إذ تعرف ضابط الأركان هذا من الناحية الممتازة، يمكنها أن تستفيد من إيفاده إلى مصر لكى تكلفه أيضًا، بصرف النظر عن أبحاثه العلمية، بجمع بعض المعلومات السياسية.

بانتظار جوابكم العطوف بصدد هذا الموضوع أغتنم الفرصة لكى أجدد لكم، سيدى الكريم، تأكيدى على فائق احترامى وولائى لكم.

الى سينيافين من سامارسكى

سان بطرسبورغ، ١٣ من أغسطس ١٨٤٧، رقم ٤٢٠٧

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

بمناسبة الإيفاد المقرر لمهندس تعدين مع موظفين أقل رتبة إلى مصر أتشرف بأن أطلب طائعًا من معاليكم، أن تتكرموا بإبلاغى؛ لكى أرفع تقريرا إلى السيد وزير المالية عن مقدار المعاش الذى تفترضون، سيدى الكريم، تعيينه حسب الظروف المحلية هناك سواء لمهندس التعدين فى رتبة مقدم أم لمعلم تعدين وغاسل رمال، وكذلك المعونة اللازمة لسفر هؤلاء الموظفين إلى هناك وعودتهم إلى روسيا.

إلى المستشار من أركان فيلق مهندس التعدين

سان بطرسبورغ، ١٦ من أغسطس ١٨٤٧، رقم ٤٢٥٨

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش،

جوابًا على الرسالة الموقرة لسموكم بتاريخ ١٢ من أغسطس (آب) تحت رقم ٢٤٩٩ أتشرف بأن أبلغكم، سيدى الكريم، بأننى، إذ لا أجد من جهتى عقبات أمام إيفاد مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى؛ مع معلم تعدين وغاسل رمال إلى مصر؛ لأجل تنظيم معالجة الرواسب الحاوية ذهبًا المكتشفة هناك، أعتقد بأنه ينبغى فى الحال رفع تقرير بهذا الموضوع إلى السيد الإمبراطور، وسوف أتشرف بإعلام سموكم بما يقرره جلالته.

أرى من المناسب أن أضيف إلى ذلك أنه، نظراً لكون إدارة مصانع زلاتواوست، قد أسندت مؤقتاً إلى المقدم طوفاليفسكى، فإن هذا الضابط من المستبعد أن يتمكن من الحضور إلى بطرسبورغ قبل شهرين، رغم كل استعجاله فى تسليم منصبه الكثير التعقيد إلى ضابط الأركان المعين الذى وصل إلى مكان عمله.

(التوقيع غير مقروء)

من أركان فيلق مهندسى التعدين إلى الكونت نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ٢٣ أغسطس ١٨٤٧، رقم ٤٤١٢

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش

عطفاً على الرسالة الموقرة من سموكم، المؤرخة فى ١٢ من أغسطس (آب) الجارى تحت رقم ٢٤٩٨، تشرفت بأن أرفع تقريراً إلى السيد الإمبراطور عرضت فيه مايلى:

١ ـ أن يوفد إلى مصر لتنظيم معالجة الرواسب الحاوية ذهبا مساعد رئيس التعدين لمصانع زلاتواوست المدير المؤقت لهذه المصانع مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى بوصفه ضابط أركان ملمًا بإنتاج الذهب، ومطلعًا كفاية على العادات الآسيوية أثناء مأمورياته المتكررة إلى الخارج، ومعروفا جيدا لدى وزارة الخارجية بتنفيذه تكليفات مختلفة. أما بالنسبة للمعونة الضرورية لضابط الأركان هذا فى التكليف المسند إليه، فينبغى أن يرسل معه معلم تعدين واحد وغاسل ذهب واحد.

٢ـ تعيين معاشات لهؤلاء الموظفين لقاء عملهم خارج البلاد: للمقدم كوفاليفسكى ٥٠ روبلا ذهبا فى الشهر، ولمعلم التعدين ٦ روبلات ذهبا، ولغاسل الرمال الحاوية ٤ روبلات ذهبا، فضلا عن المعاش لقاء عملهم داخل البلاد حسب قوانين المعاشات فى التعدين، أما لدى إرسالهم فينبغى أن يخصص لهم للتنقل عبر روسيا نصف المعاش السنوى المخصص للعمل فى الخارج دون أى خصم منه، ولنفقات الطريق من حدود روسيا إلى الإسكندرية: لكوفاليفسكى

٢٢٥ روبلاً ذهبًا، وللآخرين ٨٥ روبلا ذهبا لكل واحد، وفضلا عن ذلك وضع ٢٥٠ روبلا ذهبا تحت تصرف كوفاليفسكى للمصاريف الطارئة ولمواصلة تنقل موظفى التعدين من الإسكندرية حتى مكان وجود الرواسب الحاوية ذهبا ولشراء أدوات لازمة للأبحاث العلمية، وغير ذلك؛ على أن تترك له حرية إنفاق هذه النقود حسبما يرتأى فى حال الضرورة أو حسب تعليمات قنصلنا فى مصر، ولكن بحيث يقدم حسابًا مناسبًا لهذه النقود.

٣- إن مبلغ النفقات المحسوبة وفق الكشف التقديرى والمخصص لمأمورية المقدم كوفاليفسكى المفترضة إلى مصر لمدة عام واحد والمقدر تقريبًا بسبعة آلاف وتستعمائة وواحد وستين روبلاً ذهبًا وأربعين كوبيكا فضة ينبغى نسبه إلى حساب خزينة الدولة

٤ ـ تكليف القنصل العام الروسى فى مصر بما يلى: لدى وصول المقدم كوفاليفسكى إلى هناك إيلاء العناية اللازمة لضابط الأركان، هذا والإيعاز له بأنه إذا طرأت ضرورة تمديد إقامته فى مصر أكثر من سنة واحدة فينبغى أن يخبر بذلك قبل الأوان.

إن جلالته الامبراطورية تكرم فى ٢٢ من أغسطس (آب) الجارى، بأن كتب بخط يده على هذا التقرير «خاضع للتنفيذ».

وإننى إذ أتشرف بإبلاغ سموكم بهذه الإرادة السامية، أطلب منكم طائعًا سيدى الكريم، الاستعجال فى إصدار الأمر بإيلاء المقدم كوفاليفسكى مع موظفى ـعدين العناية الحميدة من جا ـب قنصلنا فى مصر.

ـرى من واجبى أن أضيف إلى ذلك أننى اقترحت فى الحال على السيد ـرئيس العام لمصانع الأورال إرجاع السيد كوفاليفسكى دون إبطاء إلى سان ـطرسبورغ فور تنفيذ المهام الموكلة إليه وارجاع معلم التعدين وغاسل الرمال إلى أوديسا مباشرة؛ بحيث يصلا إلى هناك فى أواخر أكتوبر المقبل، ولدى وصول السيد كوفاليفـ كى إلى هنا يجب أمره بالحضور إلى سموكم لنيل التعليمات المناسبة ... ـد التكليف المسند إليه. وإن عينات الذهب الرملى، المذكورة فى

البلاغ الأصلى لقنصليتنا العامة فى مصر بتاريخ ٣٠ من يونيو (١٢ يوليو) من العام الجارى والموجه إلى سموكم قد سلمت إلى متحف معهد التعدين لحفظها فيه.

(التوقيع غير مقروء)

إلى سينيافين من سامارسكى

سان بطرسبورغ، ١١ من أكتوبر ١٨٤٧، رقم ٥١٥٩

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

أتشرف بإبلاغ معاليكم بأن السيد مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى المعين بالإرادة السامية للإيفاد إلى مصر بغية تنظيم معالجة الرواسب الحاوية ذهبا المكتشفة هناك، قد وصل إلى سان بطرسبورغ، وأنه أمر على الفور بناء على رسالة السيد وزير المالية إلى مستشار الدولة بتاريخ ٢٣ من أغسطس (آب) الماضى تحت رقم ٤٤١٢ بالحضور إلى وزارة الخارجية لاستلام الإرشادات اللاحقة بصدد التكليف المسند إليه.

سامارسكى

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ٤ من ديسمبر ١٨٤٧، رقم ٤٣٣

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش.

إن مقدم فيلق مهندسى التعدين كوفاليفسكى، الموفد بالإرادة السامية إلى مصر، وعاملى التعدين من رتبة أدنى المرافقين له، وكذلك الماجستير فى العلوم الطبيعية تسينكوفسكى(٤٣)، وصلوا إلى هنا على متن باخرة من أوديسا فى تاريخ ٢٣ من نوفمبر (تشرين الثانى) الماضى.

حتى الآن لم يجر إقلاع الباخرة إلى الإسكندرية، ولن يحدث ذلك حتى قبل مطلع الأسبوع المقبل، ولذا فإن السيد كوفاليفسى والأشخاص المرافقين له باقون حتى الآن فى القسطنطينية.

من تيتوف إلى نيسيلروديه

القسطنطينية، ٢٢ من ديسمبر ١٨٤٧، رقم ٤٥٠

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش،

أتشرف بأن أرسل طيه البلاغ، الذى تلقيته اليوم من قنصلنا العام فى مصر بالبريد المفتوح والموجَّه إلى سموكم.

أبلغنى المستشار الوزارى فوك فى الوقت نفسه بأن باشا مصر أعرب عن ارتياحه الشديد لدى تبلغه منه عن الموعد القريب لوصول المقدم كوفاليفسكى إلى مصر الموفد إلى هناك بموجب الإرادة السامية. وأكد محمد على باشا لفوك، لدى ذلك، بأنه أعطى أمر بتخصيص باخرة خاصة لأجل نقل السيد كوفاليفسكى إلى القاهرة حال وصوله إلى الإسكندرية، وأن ضابط الأركان هذا سوف يمكث فى القاهرة وقتًا قصيرًا كما فى الإسكندرية أيضًا.

تيتوف

من تيتوف إلى نيسيلروديه

القسطنطينية، ٢٧ من يناير ١٨٤٨، رقم ٤٢

سيدى الكريم الكونت كارل فاسيلييفيتش،

أتشرف بأن أرفق طيه بلاغًا تلقيته من قنصلنا العام فى مصر موجهًا إلى سموكم بتاريخ ٤ (١٦) يناير (كانون الثانى) تحت رقم ١.

فى الوقت نفسه أبلغنى المستشار الوزارى فوك معلومات عن الاستقبال، الذى أقامه باشا مصر فى القاهرة لمقدم مهندسى التعدين كوفاليفسكى الموفد إلى هناك بموجب الإرادة السامية، وعن السفر المقبل لضابط أركان هذا إلى سنار. أرى من المناسب أن أرفق طيه نسخة من بلاغ بصدد هذا الموضوع يتبين منه مع الأسف، أن السيد كوفاليفسكى سيبلغ غاية رحلته عند ذلك الفصل من السنة غير الملائم البتة للأبحاث التى ينوى القيام بها.

تيتوف

رسالة محمد على باشا إلى المستشار الإمبراطورى

الكونت نيسيلروديه

استلهاما بتعابير حسن النية، التى تكرّم جلالته الإمبراطورية بإظهارها لى فى مناسبات مختلفة، أقدمت على طلب مهندس من جلالته لغرض فحص مناجم الرواسب الحاوية ذهبًا المكتشفة فى سنّار. وقد تكرّم معاليكم بالإعراب لى عن تعاطف صاحب الجلالة مع طلبى، وعلمت بارتياح شديد أن مقدم فيلق مهندسى التعدين كوفاليفسكى عين لتأدية هذه المهمة.

إننى أعرب عن امتنانى للحكومة الإمبراطورية على توفيرها شتى الظروف السانحة عندما تكرمت بالاقتراح على طالبين مصريين، أوفدتهما إلى روسيا، دراسة الطرائق الجديدة لاستثمار الرواسب الحاوية ذهبا. والعطف الجديد، الذى تفضل جلالته الإمبراطورية باسدائه لى، يزيد من واجبى وامتنانى لجلالته، وإننى لأتجاسر على أن أطلب من صاحب الجلالة أن يتفضل بقبول احترامى وتبجيلى. أطال الله أيامه السعيدة

سافر المقدم كوفاليفسكى إلى المكان المقصود لكى يطلع على كل ماهو ضرورى لتأدية مهمته.

أرجو منكم، حضرة السيد الكونت، نقل أعمق احترامى إلى جلالته الإمبراطورية، والحفاظ على صداقتكم الثمينة لى.

(باللغة الفرنسية)

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ١٠ من مايو ١٨٤٨، رقم ١٩١

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

أتشرف بأن أبعث طيه إلى معاليكم مقطعًا من البلاغ المرسل إلىّ من جانب القنصل العام فورك عن رحلة وأعمال مقدم فيلق مهندسى التعدين كوفاليفسكى.

علاوة على ذلك أرسل السيد فوك تقرير السيد كوفاليفسكى، المرفق طيه، بالبريد المفتوح إلى أركان فيلق مهندسى التعدين تحت رقم ٥، والذى أطلب منكم طائعًا، سيدى الكريم، إصدار أمر بإيصاله إلى عنوانه.

مقطع من بلاغ القنصل العام فوك إلى السيد المبعوث تيتوف بتاريخ ٢٣ إبريل ١٨٤٨

بعد مرور ثلاثة أشهر على انطلاق السيد المقدم كوفاليفسكى فى رحلته المديدة والشاقة تلقيت منه أخيرًا أنباء، وهى أنباء مرضية جدًا. فلقد نجح فى اكتشاف رمال غنية جدًا بالذهب، وفى المباشرة ببناء معمل فى تلك الأماكن عينها. أتشرف بأن أرفق طيه تقريرًا موجهًا إلى قائد أركان فيلق مهندسى التعدين الإمبراطوريين، مع إرسال صورة عنه إلى محمد على باشا.

يمكن لمعاليكم الاطلاع أيضًا على محتواه قبل إرساله على العنوان المطلوب حيث إن السيد كوفاليفسكى، رغم تشكيه من وجود ، صاعب شتى اضطر إلى معاناتها، مشبع بالأمل فى إيصال المهمة الصعبة المسندة إليه حتى نهايتها السعيدة، وهو ينوى العودة إلى القاهرة فى يوليو (تموز).

تقرير من المقدم كوفاليفسكى إلى أركان فيلق مهندسى التعدين

٨ (٢٠ من مارس ١٨٤٨، رقم ٥)

أتشرف بأن أبعث طيه صورة عن رسالتى إلى باشا مصر، وأطلب طائعا إحاطة الدائرة الآسيوية علمًا بها. أتفضل بهذه الرسالة بإعلام أركان الفيلق باكتشاف رواسب حاوية ذهبا. أما فيما يتعلق بكمية الرمال الموجودة فيها، وبنوعيتها فسوف أتشرف بإبلاغ الأركان عن ذلك فى التقرير العام. إن من شأن هذا الموضوع أن يثير فى نفس الباشا مجرد الارتباك.

يسير فصيلنا حتى الآن بدون عقبات، والهجوم الذى شنه على زنوج قبيلة فوغا لم يسفر عن أية عواقب سيئة.

المقدم كوفاليفسكى

صاحب السمو،

إثر وصولى إلى الحاكم العام للسودان فى كسان باشرت مع معاليه فى التنقيب عن الرمال الحاوية ذهبا وتوصلنا إلى نتيجة مشجعة. ربما أن خالد باشا قد أخبر سموكم بأن أحد رجالى غسل فى ظرف خمس ساعات على آلة غسل روسية اعتيادية ٦٩ حبة (زولوتنيك[٤٤] و٦٠ جزءا)، ولكننى أسارع للتنبيه إلى عدم بناء أوهام على هذه النتيجة الرائعة. إلا أنه يستفاد من الحسابات الدقيقة أن الرواسب الحاوية ذهبا غنية جدًا بحيث إن تشييد معمل ينبغى اعتباره قضية نافعة جدًا وقد باشرتُ القيام بالأعمال المتعلقة بذلك.

بعد أن يتم وضع الخطة وإجراء الاستعدادات الضرورية للبدء ببناء المنجم سأترك ذلك كله تحت إشراف واحد من رجالى وأتوجه أنا إلى جبل الذهب، وأماكن أخرى، وأعود من ثم إلى كسان لكى أدشن المعمل الذى سابدأ بتشغيله فى غضون ١٠ أيام من وجودى هنا ويشرع العمال المحليون بالعمليات اللازمة لاستخراج الذهب. هذا المعمل يمكن أن يشكل نموذجًا، بينما سيغدو العمال مهيئين بحيث يصبح بإمكان سموكم بناء مناجم مماثلة أخرى إذا اعتبرتم ذلك ضروريا.

لدى وصولى إلى القاهرة سأتشرف بتقديم خطة الأعمال والتصورات بصدد تعمير المناجم. ومن الضرورى أن يشمل هذا التعمير جميع اللوازم المضمونة والسهلة المنال التى يتطلبها هذا الموقع من هذا المشروع والتصورات العامة التى تحسنونها جيدا ياصاحب السمو.

إن لدى سموكم الكثير من الصبر لأجل التوصل إلى هذه النتيجة؛ وإن عزم وإصرار سموكم قادران وحدهما الآن على المساعدة فى إقامة هذه الصناعة الجديدة والهامة.

من تيتوف الى سينيافين

القسطنطينية، ١٤ من يونيو ١٨٤٨، رقم ٢٥٥

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش

أرسل لى قنصلنا العام فى الإسكندرية تقريرًا بالبريد المفتوح من المقدم كوفاليفسكى، الموفد إلى مصر موجهًا إلى أركان فيلق مهندسى التعدين. وإننى، إذ أرفق طيه إلى معاليكم التقرير المذكور أطلب طائعًا إصدار أمر بإرساله إلى العنوان المقصود، وأرى من المناسب أن أضيف أن إبراهيم باشا اطلع بارتياح شديد، من بلاغ المستشار الوزارى فوك، على النتائج الموفقة لأعمال السيد كوفاليفسكى، وهو ينوى إرسال باخرة إلى أسوان، إلى حيث سيصل ضابط الأركان المذكور مع الأشخاص المرافقين له، بغية التوجه من هناك إلى الإسكندرية.

تيتوف

من فوك إلى تيتوف

الإسكندرية، ٢٢ من يونيو (٤ من يوليو) ١٨٤٨، رقم ٤٤)

حضرة السيد المبعوث،

... بعد البعثة الناجحة إلى قازوغلى وبناء وتشغيل معمل لغسل الرمال الحاوية ذهبا، اتخذ المقدم كوفاليفسكى قرارا بالعودة. وفى ١١ (٢٣) من مايو (آيار) وصل إلى الخرطوم، عاصمة سنار، بعد رحلة شاقة على متن شختورة عبر النيل أصيب معظم رجاله أثناءها بمرض. وهو نفسه أصيب بمرض اليرقان (الصفراء)، ولكنه شفى منه بفضل الإسعاف الطبى الذى تلقاه فى الخرطوم. لقد أرسلت سفينة بخارية إلى أسوان لتأخذه على متنها، وآمل، أيها السيد المبعوث، بأن أبلغكم بالبريد القادم عن عودته الموفقة إلينا.

فوك

صديقى العزيزين إيليا وعلى افندى،

بعد النصائح الكثيرة والكثيرة التى أسديتها لكما أريد أن أوجه كلمة أخيرة إليكما.

إن المحنة، التى عانيتما منها فى غضون بضعة أيام من غيابى، بينت مدى الضرر الذى يصيب المعمل من جراء تغيير أو تجاهل النظام الذى أقمته أنا، لاأقول ذلك لكى أوجه لكما لوما جديدا. وأنا مسرور جدا من كونكما شاهدتما هذا الفرق بأم العين..

من الضرورى أن تقتنعا بأن المهندس، الذى لايأتى ولو يومًا واحدًا إلى المعمل ولاسيما مهندس التعدين، لايعود يستحق حمل هذا اللقب. واصلا دائمًا التنقيب عن المكامن، لأن عددها سيكون دائما غير كاف؛ ولذا ينبغى على الدوام إيجاد أماكن جديدة ستكون فيها كمية الخامات أكبر ممًا فى الأماكن المعروفة سابقا.

عليكما أن تقوما كل يوم بأعمال فى مختلف مواقع المنجم لكى تعرفا العروق الغنية بالذهب معرفة جيدة، ولكيلا تجدا نفسيكما أمام ضرورة غسل رمال فقيرة به. أما فيما يتعلق بالمعمل فأنتما تعرفان أن العمال كانوا يغسلون بادئ الأمر زيع تلك الكمية التى يجرى استخراجها فى روسيا وأننا قد أصبحنا الآن نغسل نصف هذه الكمية؛ فابذلا الجهود لاحقا للاقتراب، قدر الإمكان، من هذا المعدل الذى يمكن، كما تدل التجربة، بلوغه، أبديا اهتماما خاصا بأن لايحتوى الرمل، الذى ستقومان بغسله، حتى على أقل قدر ممكن من الذهب بعد غسله، وذلك بأن تغسلا من وقت لآخر بقايا الرمال العديمة الذهب افتراضا التى تم غسلها.

تعلمان أن إحدى أخطر نواحى عملية استخراج الذهب هى سرقة الذهب، ومن أجل تدارك ذلك، كما فى روسيا أيضًا، من الضرورى تفتيش العمال كل يوم لدى خروجهم من المعمل؛ ولكن، بما أن هذا النظام لم يجر إقراره بعد هنا فينبغى أن تشرحا فى المخيم أن كل شخص سيبيع أو يمتلك ذهبا فطريا سوف يجرى تفتيشه ومعاقبته كسارق؛ راجعا الحاكم العام بهذا الصدد، وأعيرا هذه القضية أكبر قدر ممكن من الاهتمام.

صديقى العزيزين، لقد دللتكما على الأماكن التى يمكن بناء معمل فيها... وكيف ينبغى بناء سد لجمع مياه الأمطار، والكثير من القضايا الأخرى، التى

تتعلق بهذا المشروع. ومع ذلك، وإذا كنتما ستحتاجان فى المستقبل أيضا إلى نصائحى، فأنتما تعلمان كم سأكون مسرورًا بوضع نفسى تحت تصرفكما لكى أسدى لكما بهذه النصائح، وأرجوكما أن ترسلا لى، من جهتكما، تقارير إلى روسيا كل شهرين.

تعلمان جيدا، أيها السيدان، أن صاحب الجلالة يعقد آمالا كبيرة على هذا الفرع الذى أنشئ لتوه، وأن ذلك يجرى تتبعه باهتمام لا فى مصر وحسب بل فى أوروبا أيضا. ولذا تنتظركما إما المكافأة وإما المعاقبة، فاعملا بحيث تواصلان بكل جدارة ذلك النجاح الذى بدأناه.

كونا على ثقة تامة بأننى أحمل ذكريات حارة عن إخلاصكما وتعاونكما اللذين قد برهنتما عليهما فى هذه القضية. سوف أرفع من كل بد كلمات طيبة عن ذلك إلى صاحب الجلالة لأنكما تستحقان ذلك.

كوفاليفسكى

بعث لى السيد كوفاليفسكى من الخرطوم نسخة عن إرشادات فى شكل رسالة وجهها قبل سفره من فازغولى إلى المهندسين المصريين الشابين إيليا محمد وعلى أفندى، اللذين كانا بالعين فى روسيا، نقلت هذه الإرشادات إلى إبراهيم باشا، ولاأرى مانعًا فى إرفاق رسالتى هذه بنسخة عنها، وأن أن معاليكم لعله سيقرأها باهتمام وقد أعلنت جريدة عربية فى القاهرة، فى معرض استخلاصها حصيلة بعثة المقدم كوفاليفسكى، إن هذا الضابط الرفيع المنصب، الذى ساعدإضافة إلى قيامه بأعمال أخرى فى تشغيل أربع آلات لغسل الرمال، استخرج ١٦ر٥ غراما من الذهب فى ١٠ أيام.

فوك

من فوك إلى تتيوف

الإسكندرية، ٢٠ من يوليو ١٨٤٨، رقم ٥٢

سيدى الكريم، فلاديمير بافلوفيتش،

فى ١١ من الشهر الجارى وصل المقدم كوفاليفسكى إلى الإسكندرية عائدًا بالصحة والسلامة من رحلته الطويلة. وقدمته إلى إبراهيم باشا الذى استوضح منه مدة طويلة وبالتفصيل عن كل مايتعلق بالتطوير التدريجى لصناعة استخراج الذهب فى أماكن نائية فى النوبة.

وعطفًا على ذلك، ونظرًا للنقص فى عدد الأشخاص هنا الملمين بهذا الشأن، أعرب عن الرغبة فى إيفاد بضعة شبان لهذا الغرض إلى روسيا لأجل اتقان معارفهم فى العلوم المعنية والتطبيق العملى والدراسة فى المصانع. وفى هذه المناسبة قدم السيد كوفاليفسكى إلى إبراهيم باشا كل الذهب، الذى تم استخراجه فى حضوره فى المعمل الذى أنشأه فى ظرف ٧ أيام فى الآلات الأربع لغسل الرمال الحاوية ذهبًا. وقد قيمته بـ١٥٠٠ روبل.

بعد مرور عدة أيام قدم السيد كوفاليفسكى إلى إبراهيم باشا مختلف الخطط والنماذج وبمعيتها مذكرات عن تركيب الآلات والمعامل وفرع صناعة استخراج الذهب بوجه عام، بما فى ذلك أيضا مذكرة تتعلق بإرسال شبان من هنا إلى روسيا. وقد سلمنى السيد كوفاليفسكى نسخًا من هذه المذكرات (٤٥) وأرى من المناسب إرفاق هذه النسخ برسالتى فى حال ما إذا نوى معاليكم الاطلاع على محتواها.

رغب المقدم كوفاليفسكى فى التوجه إلى القدس، وإذ علم إبراهيم باشا بذلك أمر بأن توضع تحت تصرف باخرة ينتظر وصولها من القسطنطينية. علاوة على ذلك يجرى صنع علبة نشوق مرصعة بماسات وسيف ذهبى، أما معلم التعدين وغاسل الرمال الحاوية ذهبا المرافقان له فسوف تقدم لهما مكافآت نقدية محترمة لائقة.

نزولا على رغبة السيد المقدم كوفاليفسكى سلمته المبلغ المخصص لنفقات العودة: ٢٢٥ روبلا ذهبا له و٨٥ روبلا ذهبا لكل من الشخصين الأقل رتبة المرافقين له، أى بالإجمال ٣٩٥ روبلا ذهبا تعادل ٨٥٨ تاليرا إسبانيا حسب السعر الجارى، وسوف أنسبها إلى حساب النفقات الطارئة لثلث السنة الجارى.

حاشية. الماجستير تسينكوفسكى الذى أبدى رغبته فى مواصلة أبحاثه المتعلقة بموضوع تاريخ الطبيعة، تركه السيد كوفاليفسكى فى سهب قرب روسيروس إلى الجنوب من الخرطوم، وهو لم يعد بعد حتى الآن.

فوك

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ١٤ من أكتوبر ١٨٤٨، رقم ٣٦٢

سيدى الكريم ليف غريفورييفيتش،

فى الخامس من الشهر الجارى وصل إلى هنا السيد المقدم كوفاليفسكى، بعد إنهائه الموفق لرحلته الصعبة الى مصر العليا وسنار، ويصحبته معلم التعدين بورودين وغاسل الرمال الحاوية ذهبا فومين ويتوجه علم . متن باخرة تقلع بتاريخ اليوم إلى أوديسا ليواصل طريقه من هناك إلى سان بطرسبورغ...

تيتوف

من نيسيلروديه إلى فرونتشينكو

سان بطرسبورغ، ٦ من أكتوبر ١٨٤٨، رقم ٣٤٢٠

سيدى الكريم فيودور بافلوفيتش،

إن السيد المقدم كوفاليفسكى، بعد إنهائه فى مصر العليا التكليف، الذى أسندته إليه الحكومة المصرية وأذنت به الإرادة السامية، وقد سافر من تركيا، وسوف يصل عما قريب إلى سان بطرسبورغ.

يتضح من بلاغات قنصليتنا العامة فى مصر أن رحلة السيد كوفاليفسكى إلى هذا الإقليم اقترنت بمصاعب وحرمانات كبيرة بل وحتى بالخطر على الحياة؛ وأنه بعد تذليله جميع المصاعب، نفذ التكليف بنجاح تام وافتتح فى كسان مناجم ذهب جيدة، وشيد معملا وآلات لازمة لغسل الرمال الحاوية ذهبا، وبدأ إنجاز الأعمال تحت قيادته الشخصية.

لدى عودة السيد كوفاليفسكى إلى الإسكندرية استقبله إبراهيم باشا بحفاوة بالغة وأعرب له عن شكره الجزيل على جهوده التى تكللت بنجاح باهر.

إننى، إذ اعتبر أن هذه الأعمال الممتازة جدا للمقدم كوفاليفسكى أثناء أدائه التكليف الكثير المشقات الذى اقترن بخطر على الحياة تمنحه بكل إنصاف حق نيل اهتمام خاص من جانب قيادته، أرفع إلى معاليكم طلبًا بأن تتكرموا علىّ بإبلاغى عما إذا كان ينبغى إحاطة السيد الإمبراطور علمًا بذلك والشفاعة لديه بترقية السيد كوفاليفسكى إلى رتبة أعلى.

الكونت نيسيلروديه

من فرونتشنكو إلى نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ٢٠ من أكتوبر ١٨٤٨

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش،

إن محتوى الرسالة الموقرة لسموكم بتاريخ ٦ من أكتوبر (تشرين الأول) الجارى تحت رقم ٣٤٢٠ بصدد مكافأة مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى بالرتبة التالية، رتبة عقيد، لقاء الأعمال، التى قام بها فى مصر لدى أدائه التكليف المسند إليه، قد أسعدتُ بأن أرفعه إلى الرأى الرسمى للسيد الامبراطور، مضيفًا من جهتى أنه يوجد الآن فى قائمة مهندسى التعدين فى رتبة أعلى من السيد كوفاليفسكى بضعة مهندسى تعدين برتبة مقدم يشغلون مناصب هامة مختلفة ويستحقون كليا أيضا ترقيتهم إلى الرتبةِ التالية، وقد تكرم صاحب الجلالة برحمته الفائقة فى ١٥ اكتوبر (تشرين الأول) الجارى بمنح المقدم كوفاليفسكى وسام القديسة آنا من الدرجة الثانية.

وإننى، إذ أتشرف بإبلاغ سموكم بهذا العطف الملكى، أطلب منكم طائعًا، سيدى الكريم، قبول فائق احترامى وولائى.

فرونتشينكو

قضية إيفاد الماجستير تسينكوفسكى إلى مصر لاستقصاء العلوم الطبيعية

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية. الأرشيف الرئيسى، الملف ١١ ـ ١٠، الإضبارة ٤٨، المستند ٢، عام ١٨٤٧)

من الجمعية الجغرافية الروسية إلى الكونت نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ٣١ من أكتوبر ١٨٤٧، رقم ١١٣٩

سيدى الكريم الكونت كارل فاسيلييفيتش،

تود الجمعية الجغرافية الروسية، بعد أن علمت بالإرسال المرتقب، للمقدم كوفاليفسكى إلى جنوب مصر والبلدان المتاخمة لها، أن تستفيد من هذه الفرصة لجمع معلومات ممكنة عن الأقاليم المذكورة المعروفة قليلا.

وإن الجمعية الجغرافية، افتراضا منها بأنه يلزم لهذا الغرض تزويد السيد كوفاليفسكى بمساعد علمى، وجهت انتباهها إلى الماجستير فى العلوم الطبيعية تسينكوفسكى، الذى أعرب عن استعداده للقيام بهذه الرحلة إذا خصصت له مبالغ مالية.

والجمعية الجغرافية، إذ اعتبرت أمرا ممكنا المشاركة فى تكاليف إرسال السيد تسينكوفسكى إلى مصر، بمساعدة من دوائر أخرى. أعربت أيضًا عن الاستعداد، لتزويده بالإرشادات اللازمة لجمع معلومات فى موضوع العلوم الطبيعية، وكذلك فى مواد الجغرافيا والإحصاء والأثنوغرافيا بوجه عام.

لذا كلفتنى الجمعية برفع طلب إلى سموكم بأن تلتمسوا موافقة المرجع الأعلى، لما فى ذلك من فائدة للعلوم من الاستقصاءات العلمية لبلدان غير معروفة إلى هذا الحد، على إيفاد الماجستير تسينكوفسكى إلى مصر بصفة مساعد للمقدم كوفاليفسكى.

(التوقيع غير مقروء)

من الجمعية الجغرافية الروسية إلى الدوق نيسيلروديه

سان بطرسبورغ، ٦ من نوفمبر ١٨٤٧، رقم ١١٧٠

سيدى الكريم الكونت كارل فاسيلييفيتش،

عطفا على رسالة سموكم بتاريخ ١ تشرين الثانى (نوفمبر) الجارى كلفت الجمعية الجغرافية الروسية السيد الماجستير تسينكوفسكى بالحضور إلى الدائرة الآسيوية لاستلام جواز سفر ورسائل توصية. وأننى، إذ اعلمكم بذلك، سيدى الكريم، أتشرف بالإبلاغ بأنه خصص للسيد تسينكوفسكى بشهادة تكاليف من الجمعية الجغرافية الروسية مبلغ ٥٠٠ روبل فضة، ومن أكاديمية العلوم ٤٠٠ روبل فضة، علاوة على معونة ما من حديقة النبات.

(التوقيع غير مقروء)

إلى داشكوف من فوك

الإسكندرية، ٢٢ سبتمبر ١٨٤٩

سيدى الكريم ياكوف أندرييفيتش،

إن الماجستير تسينكوفسكى، لدى عودته من رحلة فى أرجاء النوبة وكردفان، قام بها بتكليف من أكاديمية العلوم والجمعية الجغرافية، سلم إلى القنصلية العامة فى الإسكندرية تسعة أكياس، وست رزم تحتوى على ماحصل عليه من مجموعات مواد خاصة بتاريخ الطبيعة، وطلب منى إرسال هذه المجموعات إلى سان بطرسبورغ على عنوان الدائرة الآسيوية...

فوك

من إدارة التعليم الدينى لدى المجمع الكنائسى الأقدس

إلى مدير الدائرة الآسيوية لدى وزارة الخارجية سينيافين(٤٦)

سان بطرسبورغ، ١٩ من يوليو ١٨٥١، رقم ٩١٩٢)

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش

تكرم السيد الامبراطور، عطفا على تقريرى المرفوع إلى جلالته فى ٢٣ من يونيو (حزيران) الماضى، بإعطاء موافقته الفائقة الرحمة على اقتراح المجمع الكنائسى الأقدس بشأن إيفاد الماجستير نيقولاى إيلمينسكى الحائز على درجة

بكالوريس من الأكاديمية الدينية فى فازان، إلى القسطنطينية ودمشق والقاهرة لأجل جمع أدق المعلومات وأكثرها تفصيلا عن المذهب الإسلامى وإتقان معارفه فى اللغات العربية والتركية والفارسية على أن يحظى السيد إيلمينسكى، لدى إيفاده إلى الأرجاء المذكورة بحماية ورعاية مبعوثنا لدى الباب العالى العثمانى وسائر ممثلينا فى الشرق.

وإننى، إذ أبلغ معاليكم بهذه الإرادة السامية، أرجوكم طائعًا، سيدى الكريم، إصدار الأمر المناسب لمحض السيد إيلمينسكى حماية ورعاية الأشخاص المذكورين لكى يودى بكل نجاح التكليف المسند إليه كما أرجو إبلاغى بالخطوات التالية.

(التوقيع غير مقروء)

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطينية، ٢٤ من أغسطس ١٨٥١، رقم ٣٢٩

سيدى الكريم ليف غريغورييفيتش،

إن الموافقة السامية على إيفاد الماجستير نيقولاى إيلمينسكى، الحائز على درجة بكالوريوس من الأكاديمية الدينية فى قازان، إلى القسطنطينية ودمشق والقاهرة، والتى أنبأنى بها معاليكم فى ٣ من أغسطس (آب) الجارى تحت رقم ٢٥٠٤، اعتبرتها دليل عمل لى فى أوانه. وأن البعثة، إذ تأخذ بعين الاعتبار تعليمات الوزارة بصدد إرسال الرحلة العلمية للسيد إيلمينسكى تجعل فريضة عليها توفير مايترتب عليها من تسهيلات له سواء هنا أم فى سوريا ومصر بتزويده بالتوصيات اللازمة إلى قناصلنا فى تلك الأرجاء.

تيتوف

من تيتوف إلى سينيافين

القسطنطبنية، ١٤ من أكتوبر ١٨٥١، رقم ٣٩٨

إضافة إلى رسالتى بتاريخ ٢٤ من أغسطس (آب) تحت رقم ٣٢٩ أتشرف بان

أحيط معاليكم علمًا بأنه وصل إلى هنا على متن باخرة أوديسية فى ٢ من أكتوبر (تشرين الأول) الماجستير نيقولاى إيلمينسكى الحائز على درجة بكالوريس من الأكاديمية الدينية فى قازان. وبعد مرور يومين انطلق على متن باخرة إلى بيروت بنية قضاء فصل الشتاء البادئ فى سوريا. وقد أرسلت توصية بشأنه إلى القنصل العام بازيلى. أما فيما بعد، عندما سيتوجه السيد إيلمينسكى إلى مصر، فسوف تعمد البعثة على الفور إلى وضعه فى عهدة السيد مستشار الدولة فوك.

تيتوف

من وكيل وزارة الخارجية فى أوديسا إلى الدائرة الأسيوية

أوديسا، ٢ من فبراير ١٨٥٣، رقم ٤٠

بعث لى القائم بأعمالنا لدى الباب العالى العثمانى السيد أوزيروف، على متن آخر باخرة، صندوقا يحتوى على كتب باللغات الشرقية اقتناها فى مصر إيلمينسكى الحائز على درجة بكالوريس لأجل الأكاديمية الدينية فى قازان، وكلفنى بالعمل على إيصالها إلى العنوان المذكور.

(التوقيع غير مقروء)

رسالة مدير دائرة التعليم العام فى روسيا رحمانوف إلى وزير الخارجية مورافيوف بصدد إرسال المتاحف المصرية مجموعات من التحف الفنية إلى متحف الفنون الجميلة فى موسكو[٤٧]

١٨ من يناير ١٨٩٩

فى العام الماضى اغتنى متحف الفنون الجميلة حامل اسم الامبراطور ألكسندر الثالث، الذى أقيم لدى جامعة موسكو الامبراطورية بمجموعتين من التحف الفنية كبيرتين من حيث العدد وخارقتى الأهمية من حيث مغزاهما العلمى.

ترجع إحداهما إلى تاريخ معيشة وفنون مصر القديمة وتتضمن نماذج كثيرة أصلية ومنسوخة، تم استنساخها بطلبية خاصة لأجل المتحف. يتألف محتوى

هذه المجموعة من أوراق بردى قديمة، ولوحات منحوتة، ذات نقوش هيروغليفية، وعدد كبير من التماثيل، والتماثيل النصفية والنقوش البارزة من فن النحت المصرى القديم الموضوعة حسب ترتيب العصور التاريخية، ونماذج عديدة من الصور الجدارية من مختلف السلالات الفرعونية، وصور فنية للموميات المصرية.

ان هذه المجموعة تنال من حيث عددها ومن حيث الطابع التاريخى لآثارها الفنية المتمثلة، التى ليس لها نظير فى روسيا، أهمية خاصة بالنسبة لمتحف جامعة موسكو، إذ أنه جرى جمعها تحت الإشراف الموثوق به للسيد برغش بيه مساعد مدير المتحف المصرى فى الجيزة قرب القاهرة. وبمشاركته المباشرة. لقد كان تنفيذ هذه المهمة بالنسبة للسيد برغش بيه مصحوبًا ببذل جهود كبيرة تتعلق بالبحث عن هذه التحف فى سوق الآثار التاريخية، وباقتنائها وبإرسالها إلى موسكو. كما أنه بذل عناية خاصة باختيار النسخ الأصلية لأجل استنساخها، والمراقبة الدقيقة للقائمين بعملية الاستنساخ، ولذا فإن هذه النسخ، التى باتت الآن ملكا للمتحف تتميز، حسب رأى شهود عيان، بأصالة خارقة تشكل صورا طبق الأصل حقيقية عن النسخ الأصلية.

المجموعة الثانية، التى أغنت متحف الفنون الجميلة، يعود تاريخها إلى فن الرسم المسيحى القديم لسراديب روما.

إن هذه العملية لجمع نماذج الرسوم الجدارية لما بين القرنين الأول والخامس التى بدأت عام ١٨٨٩م، لاتزال مستمرة حتى أيامنا هذه أيضًا بمساعدة الفنان الروسى رايمان وتحت إشراف عالم الآثار جيوفانى دى سوسى من روما المشهور فى زمنه، وبعد وفاته تحت إشراف خلفه فى دراسة السراديب البروفسور أوراتسيو ماروكى مدير المتحف المصرى فى الفاتيكان.

إن جهود البروفسور أوراتسيو ماروكى، سواء فى اختيار التحف الفنية اللازمة فى السراديب المظلمة والتى يعرفها هو وحده معرفة جيدة والمحيطة بروما من كافة الجوانب إلى مسافات بعيدة، أم فى إشراف الناسخ الروسى رايمان، هى

جهود ضرورية جدا لقضيتنا وعظيمة الشأن فى أيامنا هذه لدرجة أنه تستحيل بدونها مواصلة جمع هذه المجموعة التى تعتبر بالمناسبة المجموعة الوحيدة فى العالم سواء من حيث عدد القطع الكرتونية الفنية التى تم إعدادها خلال فترة ١٠ سنوات أم من حيث الدقة العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ علم الآثار المسيحى لاستنساخ هذه اللوحات الأصلية.

نظرًا لما سبق ذكره، وإكراماً للجهود الخاصة، التى بذلها الأشخاص المذكورون لصالح جامعة موسكو أرى من واجبى أن أتقدم إلى معاليكم برجاء فى السعى، لالتماس مكافأة مساعد مدير المتحف المصرى فى الجيزة قرب القاهرة برغش بيه بوسام القديس ستانيسلاف من الدرجة الثانية مع نجمة ومدير المتحف المصرى فى الفاتيكان أوراتسيو ماروكى بوسام ملائم لمنصبه، وإبلاغى بالإجراءات اللاحقة.

المدير رحمانوف

أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القلم التركى (الجديد)، الإضبارة ٥٠٢٦، المستند ٥٥٢١، ص ١- ٢)

رسالة نائب سكرتير الدولة فى مصر عبد العزيز عزت باشا إلى الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام الروسى فى مصر شميرنوف بشأن استعداد السلطات المصرية لتقديم المساعدة للعالم الروسى أوكوليتش فى مراقبة كسوف الشمس

الإسكندرية، ١٩ من يونيو ١٩٠٥م

فى رسالتكم بتاريخ ٨ من يونيو (حزيران) من العام الجارى تفضلتم بالإعراب عن الرغبة فى أن تعطى حكومة جلالته الموافقة على إدخال جهاز فلكى بدون دفع رسوم عبر جمرك الإسكندرية سيجلبه السيد أوكوليتش، الذى تلقى مهمة من اكاديمية العلوم الإمبراطورية بالقيام بمراقبة كسوف الشمس التام فى أسوان الذى سيحدث هذا العام.

فى الوقت نفسه تفضلتم بالطلب بأن يقترح على السلطات المحلية تقديم أكبر عون ممكن للسيد أوكوليتش.

لى الشرف أن أبلغكم بأنه أعطيت لإدارة الجمرك تعليمات بتمرير الجهاز المذكور دون دفع رسوم، وبأنه ستعطى تعليمات مماثلة لمحافظ أسوان بأن يقدم العون الضرورى للسيد أوكوليتش.

تفضلوا أيها السيد الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام، بقبول فائق احترامى.

عبد العزيز عزت باشا

أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القنصلية العامة فى مصر، الإضبارة ٨٢٠، المستند ٥٧٤، ص ٥، باللغة الفرنسية)

رسالة السكرتير الدائم لأكاديمية العلوم الروسية أولدنبورغ إلى زميل وزير الخارجية غوباستوف بشأن تقديم مساعدة إلى دونيتش الذى سيتوجه إلى مصر لإجراء أبحاث فلكية

٢٥ من سبتمبر ١٩٠٧

قررت أكاديمية العلوم الإمبراطورية إيفاد نيقولاى نيقولايفيتش دونيتش، المعين مستشارًا شرفيًا لدى ديوان الدولة، إلى مصر العليا لمراقبة اجتياز كوكب عطارد لقرص الشمس الذى سيحدث فى ١ (١٤) نوفمبر (تشرين الثانى) من العام الجارى.

نظرا لذلك، وبتكليف من الأكاديمية، اسمح لنفسى بالطلب من معاليكم تقديم عون من جانب وزارة الخارجية لأداء السيد دونيتش بصورة ناجحة المهمة العلمية المسندة إليه، ويكون من المرغوب فيه للغاية إحاطة ممثلى الحكومة الإمبراطورية فى مصر علماً بالبعثة المذكورة للسيد دونيش وإيلاء هذه البعثة الاهتمام المطلوب.

سيرغى أولدنبورغ

أرشيف سياسة روسيا الخارجية، ملف القلم التركى الجديد، الإضبارة ٥٠٢ ب، المستند ٥٥١٩، ص ٩

مذكرة وزير خارجية مصر بطرس باشا إلى سميرنوف بشأن الدعوة لإرسال ممثلين روس إلى مؤتمر الآثار الدولى فى القاهرة

القاهرة، ١١ من فبراير ١٩٠٨

السيد الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام،

إن مؤتمر الآثار الدولى، الذى عقد فى أثينا عام ١٩٠٥، اختار مدينة القاهرة مكانا لدورته الثانية، التى ستعقد أثناء عيد الفصح الكاثوليكى عام ١٩٠٩م.

بما أن هذا القرار حظى بموافقة الحكومة المصرية، فسوف يفتتح المؤتمر فى القاهرة فى الموعد المذكور أعلاه برئاسة صاحب السمو الخديوى. وعطفا على ذلك أستعين بخدماتكم الطيبة لإحاطة حكومة جلالته الإمبراطورية، علمًا بأن حكومة صاحب السمو الخديوى تعير اهتمامًا كبيرًا لأن ترسل حكومة جلالته الامبراطورية ممثلين عنها إلى المؤتمر الآنف الذكر وأن توصى فى نفس الوقت الجمعيات العلمية والمعاهد العلمية فى روسيا بالمشاركة فى أعمال المؤتمر عن طريق إرسال مندوبين إلى هذا الاجتماع الذى يمكنه أن يسدى بقسط قيم جدا فى تطوير علم الآثار لأنه سيعقد فى بلد يتلقى فيه العلم يوميا مصادر لتطوره اللاحق بفضل الاكتشافات المثيرة جدا للاهتمام.

أكون ممتنا لكم إذا أعلمتمونني بالقرار الذى ستتخذه حكومتكم، وفى حال الموافقة بلغونى بأسماء ومناصب المندوبين الذين سيكلفون بتمثيل حكومتكم.

وتفضلوا أيها السيدان: الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام، بقبول فائق احترامى.

بطرس باشا

(المرجع السابق، ص ٣، باللغة الفرنسية)

رسالة أولدنبورغ إلى وزير خارجية روسيا إيزفولسكى مع طلب بالإعراب عن الشكر للحكومة المصرية وموظفى القنصلية الروسية على مساعدة بعثة العالم الفلكى دونيتش.

١١ من مارس ١٩٠٨

بتكليف من مؤتمر أكاديمية العلوم الإمبراطورية أتشرف برفع طلب إلى معاليكم بأن تتفضلوا بالإعراب للحكومة المصرية، وخاصة لمدير محافظة أسوان وغفير البوليس فيها عن صادق الامتنان باسم الأكاديمية على المساعدة المقدمة إلى بعثة الأكاديمية إلى مصر العليا لمراقبة اجتياز كوكب عطارد لقرص الشمس فى ١٤ من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٠٧م برئاسة دونيتش، وبأن تتفضلوا فى الوقت نفسه، إذا أمكن بإصدار أمر مناسب لتوجيه شكر باسم الأكاديمية على ما قدم من مساعدة لهذه البعثة، إلى كل من: سكرتير القنصلية فى بور سعيد من خارج الملاك غافريل ميخايلوفيتش ستيبانوف والأمير غيورغى ديميترييفيتش مافروكورداتو المسجل لدى الدائرة الأولى.

السكرتير الدائم الأكاديمى سيرغى أولدنبورغ

(المرجع السابق، ص ١)

رسالة سكرتير جمعية الآثار الروسية إلى الدائرة الأولى فى وزارة خارجية روسيا بشأن تعيين تورايف وفارماكوفسكى مندوبين روسيين إلى مؤتمر الآثار الدولى فى القاهرة

١٠ من إبريل ١٩٠٨

عطفًا على الرسالة المؤرخة فى ١٥ من مارس (آذار) الماضى تحت رقم ١٦٤٦ تتشرف جمعية الآثار الروسية الإمبراطورية بالإبلاغ بأن بمثابة مندوبين عنها إلى مؤتمر الآثار الدولى فى القاهرة

٢٣ أكتوبر ١٩٠٨

سيكون العضوان الفعليان للجمعية بوريس ألكسندروفيتش تورايف وبوريس فلاديمير وفيتش فارماكوفسكى.

سكرتير الجمعية فارماكوفسكى

(المرجع السابق، المستند (٥٥٧، ص ٩)

رسالة مصلحة التعليم العام إلى الدائرة الأولى فى وزارة خارجية روسيا بشأن

التعيين الإضافى لفريقى اساتذة جامعتى كييف وموسكو كمندوبين روس فى مؤتمر الآثار الدولى فى القاهرة

٢٣ اكتوبر ١٩٠٨

إضافة إلى الرسالة المؤرخة فى ٢ من أكتوبر (تشرين الأول) الجارى تحت رقم ٢٥٧٧٣ تتشرف مصلحة التعليم العام بالإبلاغ بأنه أوفد كمندوبين إلى مؤتمر الآثار الدولى القادم فى القاهرة: عن الجامعة الامبراطورية باسم القديس فلاديمير فى كييف الأساتذة كولاكوفسكى ويالفلوتسكى، وسونى، وعن جامعة موسكو الامبراطورية الأساتذة أنوتشين ومالمبرغ وبافلوف.

نائب المدير (التوقيع غير مقروء)

(المرجع السابق، ص ١٦)

رسالة لجنة الأرشيفات العلمية فى محافظة ساراتوف إلى سميرنوف بالرجاء بتقديم العون فى الحصول على شواهد التحف والعملات القديمة من متحف القاهرة

١٣ من مارس ١٩٠٩

إن لجنة الأرشيفات العلمية فى ساراتوف محرومة من إمكانيات الحصول، لأجل متحف التاريخ والآثار التابع لها، ولو على مجموعة متواضعة جدا من المواد التى يعود تاريخها إلى عهد أقدم الحضارات.

هذا، فى حين أن نقص نماذج التحف القديمة التى تشغل مكانًا بين مصنوعات الإنسان البدائى وزمن استثمار إقليميا يخفض كثيرًا مستوى اهتمام الجمهور بمجموعات متحفنا، سيما وأن زواره هم بالدرجة الأولى، من التلامذة، الذين يتعطشون لدى تعلمهم مادة تاريخ التوراة والتاريخ العام فى المدارس، إلى الاطلاع على مواد الحضارات: اليهودية القديمة، والآشورية ـ البابلية والمصرية، والكلاسيكية.

إن اللجنة، سعيًا منها إلى تلبية رغبة الجمهور هذه العادلة تماما، قررت توجيه رجاء شديد إلى معاليكم بأن تتكرموا بعناء إرسال طلبنا الملح إلى إدارة

متحف القاهرة: أن تتبرع لمتحف التاريخ والآثار التابع للجنة الأرشيفات العلمية فى ساراتوف ببعض شواهد التحف والعملات القديمة الآنفة الذكر، مع إرفاقها قدر الإمكان ببطاقات توضيحية.

بغية إطلاع معاليكم على نشاطها، ومهامها تتشرف اللجنة بأن تقدم لكم نسخة من النداء الذى وجهته إلى المجتمع.

فى الختام نستطيع أن نؤكد لكم، سيدى الكريم، أنه مهما كانت صغيرة كمية المجموعة، التى سترسل حسب النماذج المطلوبة فسوف تتقبلها لجنة الأرشيفات العلمية فى ساراتوف بمشاعر عميق الامتنان.

رئيس اللجنة سوكولوف

نائب الرئيس زايكوفسكى

رئيس الشئون شيغلوف

أمين متحف التاريخ والآثار زايكوفسكى

(أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القنصلية العامة فى مصر، الإضبارة ٨٢٠، المستند ٥٧٤، ص ٢٢

رسالة الإدارة العامة لتنظيم زراعة الأرض والحراثة إلى سميرنوف بصدد إمكانية إيفاد مهندسين إلى مصر للاطلاع على منشآت الرى

٤ من سبتمبر ١٩٠٩

نظرًا لنشوء اقتراح فى الإدارة العامة لتنظيم زراعة الأرض والحراثة بإيفاد مهندسين إلى الخارج، بما فى ذلك إلى مصر، للاطلاع على منشآت الرى وأساليب استثمارها فإن قسم إصلاح الأراضى يسمح لنفسه بأن يرفع إلى معاليكم رجاء التكرم بإعطائنا، قدر الإمكان، معلومات حول تكاليف المعيشة، والتنقلات فى مصر، وذلك بغية استيضاح كمية المبالغ المطلوبة لتنفيذ الإيفاد المقترح لمهندسين شبان لأجل دراسة مسائل الرى.

عن مدير القسم، المهندس مكسيموف

المرجع السابق، ص ٤٠

رسالة لجنة تنظيم الجولات التثقيفية إلى سميرنوف طلبا للمساعدة فى الحصول على تسهيلات فى سكك الحديد لفريق من مدرسى المدارس العامة الذين يفترض قيامهم بجولة فى ربوع مصر

٢٠ مارس ١٩١٠

تتشرف لجنة تنظيم الجولات التثقيفية بأن تحيطكم علمًا بأنها ستقوم فى هذا العام ايضًا، على غرار العام الفائت، بتنظيم رحلات إلى مصر ستشارك فيها ٤ فرق من مدرسى ومدرسات المدارس العامة، تضم كل منها ٥٠ شخصًا.

فى رسالتكم إلى الكونتيسة بوبرينسكايا تكرم معاليكم بالإعراب عن الموافقة على تقديم مساعدة فى هذا العام أيضًا للمشتركين فى الجولة لدى زيارتهم مصر.

إن اللجنة، إذ تعرب لكم عن عميق شكرها على العزم، الذى عبرتم عنه، تسمح لنفسها بأن ترفع إليكم رجاء بالتكرم بالقيام، كما فى العام الماضى، بمسعى لدى الدوائر المعنية للحصول على خصم على بطاقات سفر المشاركين فى الجولة بسكك الحديد من الإسكندرية الى القاهرة، ومنها إلى ثيبية والإياب إلى القاهرة، وفيما بعد من القاهرة إلى بور سعيد.

فضلا عن ذلك تسمح اللجنة لنفسها بأن تطلب منكم أيضا القيام بمسعى بشأن منح المشاركين فى الجولة إمكانية المشاهدة المجانية للآثار والمتاحف وما إلى ذلك.

إن اللجنة تسمح لنفسها فى أن تأمل بأن معاليكم لن يمانع فى تلبية رجائها الصادق، وكذلك فى أن يبلغها، فى أقصر وقت ممكن. عن نتائج ذلك، وترجو معاليكم قبول فائق ولائها.

رئيسة اللجنة الكونتيسة بوبرينسكايا

سكرتير اللجنة وينترفليد

(المرجع السابق، ص ٧٣)

رسـالة الأسـتـاذ المسـاعـد الخـاص فى جـامـعـة بطرسـبـورغ تيـمـوفـيـيف إلى سـمـيرنوف طلبـا لتقديم المساعدة فى تأمين مـسكن لطلاب الجـامـعـة الذين سيقومون بجولة فى ربوع مصر

٨ من إبريل ١٩١٠

فى نهاية شهر يونيو (حزيران) من العام الجارى سيتوجه حوالى ٢٥ طالبًا من طلاب جامعة سان بطرسبورغ الامبراطورية، بإذن من عميد هذه الجامعة، وتحت إشرافى كـأستاذ مـسـاعـد خاص فى الجامعـة، إلى جولة تثقـيفية إلى الشرق الأدنى، بما فيه مصر (القاهرة ـ الإسكندرية).

عطفًا على ذلك أرفع إلى معاليكم صادق الرجاء بتقديم المساعدة فى تدبير أماكن مبيت للطلاب المذكورين فى أحد مـبانى البعثة الروسيـة فى المدينتين الآنفتى الذكر، وفى السماح لهم بمشاهدة معالمهما.

مع صادق الرجاء بأن يتكرم معاليكم بإبلاغى بما سيتقرر بهذا الشأن.

تيموفيييف

(المرجع السابق، ص ٧٤)

رسالة لجنة تنظيم الجولات التثقيفية إلى سميرنوف مع الرجاء بإعلام مدير دار الآثار المصرية ماسبير عن وصول المشتركين الروس فى الجولة القادمة إلى القاهرة

١٢ من مايو ١٩١٠

تسمح لجنة الجولات التعليمية لنفسها بأن ترفع إلى معاليكم صادق الرجاء فى أن تتكرموا بإعلام السيد مدير دار الآثار المصرية الأستاذ ماسبيرو بواسطة السفارة عن المشتركين فى الجولة الذين سيصلون صيف العام الجارى إلى مصر، لأن السيد ماسبيرو بعث لنا إذنا

بالمشاهدة المجانية لآثار مصر العليا، ولكنه وضع شرطًا بأن يبلغه ممثل الحكومة الروسية رسميا عن موعد وصول المشتركين فى جولتنا إلى القاهرة.

إن اللجنة، إذ ترفق طيه مخطط وصول فرق مشتركينا فى الجولة إلى القاهرة، تسمح لنفسها بأن تأمل فى أن يحظى طلبنا باحترام معاليكم، وترجو منكم قبول فائق احترامها وولائها.

رئيس اللجنة نيقولاى سوبوليف

(المرجع السابق، ص ٧٩)

رسالة وزير خارجية مصر رشدى باشا إلى سميرنوف بشأن الاستعداد لتقديم المساعدة لفريق الطلاب الروس فى جولتهم فى ربوع مصر

الإسكندرية، ٢٨ من يونيو ١٩١٠

حضرة السيد المبعوث

جوابا على طلباتكم الأخيرة بشأن إمكانية منح فرق من السائحين الروس - مدرسين وطلاب (المدرسة الحربية فى كييف، مدرسة غوريفيتش المهنية فى سان بطرسبورغ)، الذين ينوون القيام برحلة إلى مصر صيف هذا العام، خصمًا قدره ٥٠٪ على تصرفات السفر بسكك الحديد، وكذلك بطاقات مجانية لزيارة المتاحف والآثار تمنح دائما هذه الفئات من الأشخاص حق الزيارة المجانية. عطفًا على ذلك ستبعث هذه المصلحة إلى وكالتكم الدبلوماسية رسالة لأجل كل واحدة من هذه الفرق. وهذه الرسائل ستكون بديلا عن البطاقات، وينبغى على الوكالة الدبلوماسية، بعد عودة الفرق إلى القاهرة، إعادة البطاقات إلى مصلحة الآثار كما كان الحال فى الأعوام الماضية.

فيما يتعلق بالخصم على بطاقات سكك الحديد، فإن الإدارة المعنية أبلغتنى بأنه ليست لديها أية اعتراضات على منح مختلف فرق السائحين والطلاب الروس خصما قدره ٥٠٪ على تعرفات سكك الحديد لأجل رحلاتهم على الخطوط المصرية؛ غير أن الإدارة ترغب، قبل تقديم البطاقات، فى معرفة العدد الدقيق للأشخاص، وكذلك مواعيد سفرياتهم.

وتفضلوا، سيدى المبعوث، بقبول فائق احترامى.

(المرجع السابق، ص ٨٨، باللغة الفرنسية)

رشدى باشا

رسالة الدائرة الثانية فى وزارة خارجية روسيا إلى الوكالة الدبلوماسية فى مصر تطلب فيها تقديم العون للمهندس يبانتشين فى اطلاعه على المنشآت المائية التكنيكية فى مصر

١٧ من يوليو ١٩١٠

أوفدت الإدارة العامة لتنظيم زراعة الأرض والحراثة إلى مصر لمدة عامين الموظف فى وزارة طرق المواصلات والموضوع فى عهدة هذه الإدارة المهندس السكرتير الوزارى نيقولاى يبانتشين، وذلك من أجل الدراسة الشاملة لفن المنشآت المائية التكنيكية فى مصر والاطلاع العملى على أعمال وأنظمة الرى الجارية هناك.

إن الدائرة الثانية، إذ تبلغ عن ذلك، تتشرف بأن ترفع صادق الرجاء إلى الوكالة الدبلوماسية الإمبراطورية بأن تتكرم بالطلب إلى الدوائر الحكومية المعنية فى مصر تقديم العون للمهندس يبانتشيين فى أداء المهمة المسندة إليه.

المدير بنتكوفسكى

(المرجع السابق، ص٤٣)

رسالة الدائرة الثانية فى وزارة خارجية روسيا إلى الوكالة الدبلوماسية فى مصر تطلب فيها تقديم العون للمهندس الزراعى سكورنياكوف فى دراسة شئون الرى وزراعة القطن فى مصر

٧ من سبتمبر ١٩١٠

تتشرف الدائرة الثانية بتقديم صادق الرجاء بأن تتكرموا بإقامة الاتصالات التمهيدية، مع السلطات المحلية، وبتقديم رسائل توصية مناسبة فى حال الضرورة لأجل نجاح مأموريته فى الخارج إلى حامل الرسالة المفتوحة من وزارة الخارجية والمؤرخة فى ٣ من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٨ تحت رقم ١٣٦٣٠ المهندس الزراعى يفغينى سكورنياكوف الذى ينهى الآن مهمة دراسة أعمال الرى فى أمريكا الشمالية والتى أسندت إليه عام ١٩٠٨، وستوفده الإدارة العامة

لتنظيم زراعة الأرض والحراثة خريف هذا العام إلى مصر لاستكمال المعارف المكتسبة بمعلومات عن حالة شئون الرى وزراعة القطن فى هذا البلد.

نائب المدير بيريزنيكوف

(المرجع السابق، ص ٤٨)

رسالة رشدى باشا إلى عميد الوكالة الدبلوماسية الروسية فى مصر سابلير بشأن الاستعداد لتقديم العون الضرورى للمهندس بيانتشين

القاهرة، ٢٧ من أكتوبر ١٩١٠

حضرة السيد العميد،

تفضلتم فى رسالتكم المؤرخة فى ١ من سبتمبر (أيلول) من العام الجارى تحت رقم ١٠٦ بإبلاغى بأن الإدارة العامة الروسية لتنظيم زراعة الأرض والحراثة تنوى أن توفد إلى مصر المهندس نيقولاى بيانتشين، موظف الدائرة، لأجل القيام فى ظرف عامين بدراسة تنظيم بناء المنشآت المائية التكنيكية وأعمال الرى.

كما أعربتم باسم الحكومة الإمبراطورية عن الرغبة فى أن تقدم المؤسسات المختصة المصرية عونها اللطيف للسيد بيانتشين بهدف تسهيل أ داء المهمة المسندة إليه، وأضفتم أنكم ستبلغوننا فى وقت لاحق عن موعد وصول هذا المهندس.

جوابًا على ذلك أتشرف بأن أحيطكم علمًا، حضرة السيد العميد، بأننى تلقيت لتوى نبأ من زميلى فى وزارة الأشغال العامة، الذى أبلغته عن رسالتكم، يفيد بأن مصالح الرى تلقت الإرشادات الضرورية، لكى تقدم أقصى العون للسيد بيانتشين فيما يتعلق بتأدية المهمة المسندة إليه.

تفضلوا حضرة السيد العميد، بقبول فائق احترامى.

رشدى باشا

(المرجع السابق، ص ٥٠، باللغة الفرنسية)

رسالة الدائرة الأولى فى وزارة خارجية روسيا إلى الوكالة الدبلوماسية فى

مصر بشأن تسليم برنامج تدريس العلوم فى جامعة بطرسبورغ إلى الأمانة العامة للجامعة المصرية

٢٢ من يناير ١٩١١

عطفًا على الرسالة المؤرخة فى ٢ من أكتوبر (تشرين الأول) من العام الماضى تحت رقم ١٣٧ تتشرف الدائرة الأولى بأن ترفق طيه نسخة من برنامج تدريس العلوم فى جامعة سان بطرسبورغ الإمبراطورية لعام ١٩١٠ - ١٩١١م الدراسى، مع صادق الرجاء بتسليم ملحقه إلى الأمانة العامة للجامعة المصرية.

رسالة سميرنوف إلى رشدى باشا بالرجاء بتقديم عون لباراطينوف وبوشويف الموفدين إلى مصر لدراسة نظام زراعة القطن.

القاهرة ١٨ من أكتوبر ١٩١١

معالى الوزير

نظرا لكون الإدارة العامة لتنظيم زراعة الأرض والحراثة فى روسيا أوفدت إلى مصر لمدة ثلاثة أشهر، لدراسة الظروف التاريخية والاقتصادية لزراعة القطن المستشار الوزارى باراطينوف والموظف فى وزارة الزراعة المهندس الزراعى بوشويف، أتشرف بأن أطلب منكم أن تتكرموا بالإيعاز للهيئات المختصة بتقديم عون لطيف إلى السيدين باراطينوف وبوشويف، وتسهيل تأدية المهمة الموكلة إليهما.

أشكركم سلفًا على خدمتكم الطيبة فى هذه القضية وأغتنم الفرصة لكى أؤكد لكم مجددًا، حضرة معالى الوزير، على فائق احترامى لكم.

أرشيف سياسة روسيا الخارجية. ملف القنصلية العامة فى مصر، الإضبارة ٨٢٠ المستند ٥٧٤ ص ١١٧ باللغة الفرنسية).

رسالة رشدى باشا إلى سميرنوف. بشأن الاستعداد لتقديم العون لباراطينوف وبوشويف.

القاهرة/١٥ يناير ١٩١٢

حضرة المبعوث

فور استلامى رسالة وكالتكم الدبلوماسية المؤرخة فى ٣١ من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١١ تحت رقم ١٦٧ أبلغتُ وزارة الأشغال العامة بأن المستشار الوزارى باراطينوف والمهندس الزراعى بوشويف قد كُلّفا من الإدارة العامة لتنظيم زراعة الأرض والحراثة فى روسيا بدراسة الظروف التاريخية والاقتصادية لزراعة القطن فى مصر وطلبت فى الوقت نفسه أن تقدم الوزارة المذكورة عونًا للموظفين الآنفى الذكر فى أداء المهام الموكلة إليهما.

أبلغنى زميلى فى وزارة الأشغال العامة جوابا على ذلك بأن السيدين المذكورين تلقيا بعد حديث مطول حول المسائل الزراعية التى تهمهم مع المدير العام لإدارة الزراعة نسخا من جميع المطبوعات وغيرها التى تصدرها الوزارة المذكورة.

وإننى إذ أحيطكم علما بذلك أغتنم الفرصة لأؤكد لكم مجددا حضرة المبعوث على فائق احترامى لكم.

رشدى باشا

(المرجع السابق، ص ١٢١، باللغة الفرنسية)

رسالة وزير الأشغال العامة فى مصر إسماعيل سرى باشا إلى سميرنوف بصدد موافقته على تسليم بيانتشين نسخا من وثائق تتعلق بمسائل الرى.

القاهرة ١٢ من فبراير ١٩١٣م

حضرة الوكيل الدبلوماسى

عطفًا على الرغبة التى أعربتم عنها فى رسالتكم المؤرخة فى ٢٦ من أكتوبر من العام الماضى تحت رقم ١٥٧ أتشرف بأن أقدم لكم طيه نسخًا من الوثائق المتعلقة ببعض مسائل الرى التى طلبها السيد المهندس بيانتشين.

تشتمل هذه الوثائق على قوائم الزراعة المتناوبة وخرائط لخمسة قطاعات رى فى مصر السفلى حيث يسرى مفعول نظام الزراعة المتناوبة فى غضون جزء من السنة.

كما تُرفق بذلك نسخ عن برامج الزراعة المتناوبة لقطاعات الرى فى أسيوط والفيوم والقطاع الرابع فى مصر العليا.

وتفضلوا حضرة السيد الوكيل الدبلوماسى بقبول فائق احترامى.

إسماعيل سرى باشا

(المرجع السابق ص ١٥٦ باللغة الفرنسية)

رسالة جمعية الإخصائيين فى العلوم الطبيعية إلى سميرنوف بشأن تقديم عون لسوماكوف فى إجراء أبحاث فى مجال علم الحشرات فى مصر.

١٥ من مايو ١٩١٣.

إن هيئة رئاسة جمعية الإخصائيين فى العلوم الطبيعية لدى جامعة يورييف الامبراطورية إذ تبلغكم بأن الجمعية أوفدت العضو الدائم الفعلى للجمعية غريغورى غريغورييفيتش سوماكوف إلى فلسطين ومصر لإجراء أبحاث فى مجال علم الحشرات ترفع إلى معاليكم رجاء بالتكرم بتقديم العون للسيد سوماكوف وتفضلوا بقبول امتناننا سلفا.

الرئيس (توقيع)

السكرتير (توقيع)

(المرجع السابق ص ١٦٠)

رسالة قنصل روسيا العام فى كلكوتا نابوكوف إلى سميرنوف بشأن تقديم عون إلى المهندس تشيكوف فى الاطلاع على منشآت الرى فى مصر.

كلكوتا ٥ من ديسمبر ١٩١٣

أسمح لنفسى بأن أضع تحت الرعاية اللطيفة لمعاليكم مواطننا المهندس فالنتين فاسيلييفيتش تشيكوف المسئول عن رى سهب الجوع. لقد أنهى السيد تشيكوف لتوه جولة مديدة فى إرجاء الهند للاطلاع على المجارى فى البنجاب والمحافظات المتحدة علما بأننى قدمت له كل عون ممكن بناء على أمر من وزارة الخارجية. يتوقع المهندس تشيكوف الوصول إلى القاهرة فى تاريخ ١٦ أو ١٧ من يناير (كانون الثانى) حسب التقويم الجديد وهو يرجو منى القيام بمسعى لديكم كى تتكرموا بتقديم العون الضرورى له فى جولته فى أرجاء مصر للاطلاع على منشآت الرى.

اغتنم هذه الفرصة راجيا منكم، سيدى الكريم، قبول فائق احترامى وولائى.

نابكوف.

(المرجع السابق ص ١٦٢)

رسالة القائم بأعمال رئيس معهد علم النفس والأعصاب غوغيل إلى سميرنوف بالشكر على مساعدة الجولة العلمية الروسية إلى بلدان الشرق.

٢٨ مارس ١٩١٤

قام معهد علم النفس والأعصاب فى العام الفائت بتنظيم جولة علمية إلى بلدان الشرق. وقد أسفرت الجولة عن نجاح تام.

رغم أنه كانت توجد تحت تصرف المشاركين فى الجولة مبالغ محدودة جدًا فقد قدموا مجموعات ثمينة إلى المعهد وإلى المتحف الأثنوغرافى التابع لأكاديمية العلوم الإمبراطورية التربوى التابع لمؤسسات التعليم العالى. إضافة إلى ذلك ألقى المشاركون فى الجولة عددًا من الخطابات والمحاضرات العلنية.

إن مجلس المعهد إذ يعزو نجاح الجولة بدرجة كبيرة إلى مساعدتكم الساطعة التى تجلت فى مسعاكم لتخفيض أجور السفريات بسكك الحديد المصرية وللشروط المسهّلة لمشاهدة معالم مصر، يعرب المجلس لكم عن شكره الصادق

الذى عبرنا عنه فى الاجتماع العلنى للمعهد، الذى عقد مؤخرًا ونشرناه فى التقرير السنوى الذى سيرسله لكم من كل بد ديوان المعهد بعد طبعه.

وإننى إذ أرى من واجبى إحاطتكم علمًا بذلك أرجو قبول صادق احترامى.

القائم بأعمال رئيس المعهد

البروفسور غوغيل

(المرجع السابق، ص ١٦٩)

(شخصيات الثقافة الروسية ومصر)

(العلاقات والارتباطات غير الرسمية)

(التراسل بين ليف تولستوى ومحمد عبده)

إلى سيدنى كوكريلّ.

١٩٠٤، ٢٩ من إبريل (١٢ مايو). ياسنايا بوليانا

عزيزى السيد كوكريلّ

استمحيكم المعذرة على عدم إجابتى على رسالتكم وعدم شكركم على كتب ريوسكين (*). الآن تلقيت رسالة من المفتى[٤١]، وأنا ممتن لكم كثيرًا على إرسالها لى. إن رسالة المفتى مكتوبة بأسلوب إطرائى شرقى رفيع بحيث يصعب علىّ الإجابة عليها.

ولكننى سوف أحاول فعل ذلك وأنا مسرور جدًا للتراسل مع شخص ممتع إلى هذا الحد.

المخلص لكم ليف تولستوى

(*) ليس معروفًا بالضبط أية كتب لريوسكين أرسلها كوكريلّ إلى تولستوى. (المجموعة الكاملة لمؤلفات ليف تولستوى، المجلد ٧٥، موسكو ١٩٥٦، ص ٨٨ ـ ٨٩).

(رسالة محمد عبده إلى ليف تولستوى)

(أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى)

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة، التى فطر الناس عليها ووقفك على الغاية، التى هدى البشر إليها فأدركتَ أن الإنسان، جاء إلى هذا الوجود ليثبت بالعلم ويتم بالعمل؛ ولأن تكون قوته تعبًا ترتاح به نفسه، وسعيا يبقى به يربى جنسه، وشعرت بالشقاء، الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنّة الفطرة ربما استعملوا قواهم - التى لم يُمنحوها إلا ليسعدوا بها - فبها كدر راحتهم وزعزع طمأنينتهم.

ونظرتَ نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلتَ بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعتَ صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه وتقدمتَ أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنتَ بقولك هاديا للعقول كنتَ بعملك حاثا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك فى العمل أملاً يقتدى به المسترشدون وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددًا من عنايته للضعفاء والفقراء. وإن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الذين سوى اعتراف منهم، أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين. فأحمد الله على أنهم فارقوك فى أقوالهم، كما كنت فارقتهم فى عقائدهم وأعمالهم.

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك. وإنّا نسأل الله أن يمد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم مقولك، ويسوق النفوس إلى التأسّى بك فى عملك، والسلام.

(محمود عباس العقاد. محمد عبده. رائد الفكر المعاصر فى مصر).

(رسالة ليف تولستوى إلى محمد عبده)

(صديقى العزيز)

تلقيت رسالتكم الطيبة، والفائقة الإطراء، وأسارع للإجابة عليها، كى أؤكد لكم أنها أثارت فى نفس ارتياحًا شديدًا، كونها وضعتنى فى تعاشر مع شخص مثقف، رغم أنه يعتنق دينًا آخر غير الدين، الذى نشأتُ وتربيت عليه، ولكنه يدين معى بإيمان واحد؛ لأن المعتقدات مختلفة، وكثيرة العدد، ولكن الإيمان واحد فقط، هو الإيمان بالحقيقة. أظن أننى لم أخطئ إذ افترضت حسب رسالتكم. أن الإيمان الذى أعتنقه، هو الإيمان عينه، الذى تعتنوقه أنتم أيضا، وأنه يكمن فى الاعتراف بالرب، وسننه، وبمحبة القريب وبأن تفعل لغيرك ما تود أن يفعله لك. أعتقد أن جميع المبادئ الدينية الحقة تنبع من ذلك وأنها هى عينها سواء بالنسبة لليهود أم بالنسبة للبراهمانيين والبوذيين والمسيحيين والمسلمين. وأظن أنه كلما ازداد تشبع الأديان بالعقائد المتحجرة والأوامر والأعاجيب، والخرافات ازداد تفريقها للناس، بل وحتى توليدها العداء بينهم، وعلى العكس، فكلما تزاد بساطة ونقاوة، تصبح أقرب إلى بلوغ الهدف الأمثل للبشرية ـ التوحد العام؛ لهذا السبب أحدثت رسالتكم فى نفسى انطباعًا طيبًا جدًا وإننى لأود مواصلة التعاشر معكم.

ما رأيكم فى مذهب باب بهاء الله وفى اتباعه؟

تفضلوا حضرة المفتى محمد عبده العزيز، بقبول خالص مشاعر صديقكم.

ليف تولستوى

١٣ مايو ١٩٠٤

(المجموعة الكاملة للمؤلفات المجلد ٧٥ ص ٩١ ـ ٩٢) (*).

(رسائل فلاديمير سولوفيوف من مصر(٤٩)).

(رسائل فلاديمير سولوفيوف. سان بطرسبورغ، ١٩٠٨).

لندن ١٤، (٢٦) من أكتوبر ١٨٧٥

(*) الرسالة إلى كوكريل كتبها تولستوى باللغة الإنجليزية أما الرسالة إلى محمد عبده فالفرنسية.

(والدتى العزيزة)

... إن أشغالى تتطلب التوجه لبضعة أشهر إلى مصر، التى سأسافر إليها بعد غد. سوف أسافر عبر إيطاليا واليونان. أثناء الطريق سأكتب إليك...

ف. سولوفيوف

برما ٦ من نوفمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

... كما تقدمت لاحقًا نحو الجنوب، شعرت بتحسن فى صحتى. اجتزت فرنسا وشمال إيطاليا دون توقف.... أحمل معى رسالة إلى وزير داخلية مصر وإلى مدير المسارح، وإلى القنصل الروسى ليكس، أى إلى زوجته...

القاهرة ١٢ من نوفمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

بعد أن اجتزت فرنسا وإيطاليا دون توقف، استقلّيت فبرنديزى (باخرة إنجليزية) أوصلتنى فى ظرف ثلاثة أيام دون التعريج على أى مرفأ إلى الإسكندرية صباح أمس. بعد مشاهدتى المدينة هنا خلال بضع ساعات انطلقت بسكة الحديد إلى القاهرة، التى وصلتها فى مساء اليوم نفسه...

سأتوجه الآن إلى القنصل الروسى، الذى ينبغى له أن يلقننى كيف يجب التعامل مع السادة الوجهاء المحليين الذين توجد معى رسائل الى اثنين منهم. الإسكندرية أعجبتنى كثيرًا. أما القاهرة فلم أتجول فيها بعد. نزلت فى فندق أوروبى تتوفر فيه جميع أسباب الراحة، وليس مرتفع الثمن مازالت توجد لدىّ نقود.

القاهرة، ١٨ من نوفمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

علمت أمس أنه فى الوقت، الذى بعثت فيه برسالتى الأخيرة، سُرق البريد فى الإسكندرية، وقد تكون رسالتى أيضًا ضاعت لدى ذلك؛ لذا أكتب لك رسالة أخرى بسرعة كيلا ينشغل بالك.

إننى أعيش فى القاهرة منذ أسبوع، يستحيل على المرء إيجاد مكان أفضل من هذا لقضاء فصل الشتاء، فالطقس هنا كما فى شهر مايو عندنا؛ وطوال فصل الشتاء تحدث ٣ أو ٤ أيام ممطرة؛ المناخ - كما قرأت - مفيد جدًا ضد أمراض المعدة والرئتين والاختلال العصبى.

المعيشة هنا أغلى مما فى لندن، ولكن إذا تلقيت نقودًا من الوزارة عما قريب فإنى آمل بأن أدبر أمورى بدون معونات.

لقد شاهدت هنا جميع الأماكن المشهورة تقريبًا، وتسلقت هرم خوفو (بعلو مائة ساجين(*) ونزلت إلى المدافن تحت الأرض؛ علما بأنه كان ينبغى التقدم زحفا بضع عشرات من الساجينات، وسط الظلام الدامس، وسبحت فى النيل، وشاهدت أبا الهول الحقيقى، إن هذا كله يقع على بعد ١٠ فرستات (*) من القاهرة على طريق ممتازة. فى القاهرة نفسها نزلت إلى قاع بئر يوسف، التى يبلغ عمقها حوالى ١٠٠ ساجين، وشاهدت الجوامع الرئيسية ودار الآثار المصرية الرائعة، إلخ..

طوال هذا الوقت كان القنصل الروسى ليكس فى الإسكندرية؛ ولذا لم أتعرف على أحد بعد سوى الجنرال المشهور فادييف[٥٠] الذى ينزل فى الفندق نفسه معى. البريد بين القاهرة وموسكو يستغرق، على حد علمى حوالى عشرين يوما؛ ولذا فسوف أكتب لك دون انتظار جواب منك.

سوف أبقى هنا ريثما أتعلم اللغة العربية، أى حوالى، ٤ أو ٥ أشهر على الأرجح؛ ومن ثَمَّ قد أعود مباشرة الى روسيا؛ لأنه ليس لدىّ ما أفعله بتاتا فى أوروبا الغربية.

القاهرة/ ٢٥ من نوفمبر ١٨٧٥م

(*) الساجين يعادل مترًا و ١٣ سم - المترجم.

(*) الفرستا تعادل ١٠٦٠ مترا - المترجم.

والدتى العزيزة

أتوجه الآن إلى الصحراء، بعيدا عن الأماكن الرائعة هنا.

عندما ستستلمين هذه الرسالة، سأكون فى ثيبية على بعد ٢٠٠ فيرستا من هنا، فى مكان موحش، وجاهل ليس فيه بريد إلى ومن أية دولة كانت، ولا يمكن الوصول إليه إلا سيرًا على الأقدام.

سأبقى هنا حوالى الشهر، ولدى عودتى سأشعر بحاجة ماسة إلى ما يسمى بالنقود؛ ولذا، فإذا لم أستطع - حتى ذلك الوقت، حتى عيد الميلاد حسب التقويم عندكم - الحصول على نقود من الوزارة .... فأرسلى لى حوالى ٢٠٠ روبل.

(إلى نوفيكوفا) [٥١]

٢٥ من نوفمبر ١٨٧٥ (القاهرة)

أتوجه إلى صحراء ثيبية لقضاء ستة أسابيع. أعيش هنا منذ أسبوعين، وشاهدت كل ما يمكن مشاهدته، ولكننى لم أفقه شيئا مفيدا لى. إلا أننى، فى المقابل، وجدت الصيف فى شهر نوفمبر، وصحتى على أفضل ما يرام. فى فبراير أو مارس سأتوجه إلى الهند - إن شاء الله - اكتبى لى، من فضلك، إلى القاهرة على عنوان ليكسا فهذا أصوب. لم أر زوجته بعد؛ لأنها موجودة فى باليرمو. تعرفت على البعض ومن بينهم نوبار باشا، بسمارك الجالية الأرمنية هنا. تحية لك من أبى الهول و «سائر العجائب».

القاهرة/ ٢٧ من نوفمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

الرحلة إلى ثيبية التى كتبت عنها فى رسالتى الماضية تبدت مستحيلة. فبعد ابتعادى حوالى ٢٠ فيرستا عن القاهرة كاد يقتلنى البدو الذين ظنونى إبليسًا أثناء الليل واضطررت للمبيت فى العراء إلخ وبسبب ذلك عدت أدراجى.

إذا كان يستحيل الاستعجال فى إرسال نقود من الوزارة فأرجو والدى إرسال ٢٠٠ روبل بأسرع ما يمكن. فابتداء من الأسبوع القادم، سأصبح مضطرًا للعيش بالدَّين فى الفندق، ولا وجود لشقق رخيصة فى القاهرة.

لقد تعرفت على البعض هنا وزرت وزير الخارجية - إنه شخص أرمنى داهية ولكنه غير شيق بالنسبة لى.

القاهرة/ ٢٨ من نوفمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

الآن تلقيت أول رسالة منك. أكتب لك الجواب على قصاصات؛ لأنه ليس لدىّ ما أشترى به ورقًا. أنا فى تمام الصحة.

والعافية ولا يزال الوقت هنا صيفًا.

منذ أيام حدثت عاصفة رعدية مع هطول أمطار غزيرة الأمر الذى يسبق وقوع أحداث سياسية خطيرة؛ لأن الأمطار الغزيزة تحدث هنا مرة كل خمسين عاما. بالمناسبة لا شىء جديد حتى الآن سوى الحرب السخيفة جدًا ضد الأحباش. أصيب نائب السلطان بإسهال إلا أنه شفى منه.

قولى لوالدى إنه لا ينبغى للمسألة الشرقية أن تنشأ قبل عام ١٨٧٧ أما إذا نشأت مع ذلك فإن أخبث الناس وجميع الأوروبيين سوى الإنجليز على كل حال الموجودين فى مصر سيكونون فى مأمن.

القاهرة / ١٩ من ديسمبر ١٨٧٥

(والدتى العزيزة)

... الحادثة التى وقعت لى مع العرب سلّتنى أكثر مما أفزعتنى. سأخبرك بذلك لدى لقائنا. أنا فى صحة تامة ولكننى أشعر بالملل وذلك بين أمور أخرى؛ لأن الشىء الذى سافرت إلى مصر من أجله تبدّى إيجاده مستحيلا...

(والدى العزيز)

بوسعى أن أخبرك بنبأ الساعة (ولكن أخاف أنه لن يكون خبرًا جديدًا عندما ستصلك هذه الرسالة): اللجنة المالية الإنجليزية التى جاءت لأجل استملاك مصر تلقت صفعة حادة من الخديوى وانطلقت إلى مصر العليا بخفّى حنين ومن

ثم عادت أدراجها الى بلادها أما القنصل الإنجليزى فقد اضطر إلى أن يعلن أن ذلك كله كان مجرد سوء تفاهم.

(من سولوفيوف إلى تسيرتيليف) (٥٢)

القاهرة / ٨ من يناير ١٨٧٦م

... عزيزى دميترى نيقولايفيتش... ينبغى عليك المجىء من كل بد إلى مصر. سأبقى أنا هنا حتى شهر مارس إن هذه الرحلة سترفه عن نفسك. فهذا البلد أصيل للغاية والمناخ رائع ناهيك عما ستثيره أنت من متعة فى نفسى... اكتب لى فى الحال هما إذا كنت تستطيع المجىء. لدىّ بعض الأحاديث التى أود أن أقصها عليك ولكننى أرجى ذلك إلى حين لقائنا؛ كيلا أؤخر الرسالة.

انزل فى فندق «آبات» عندما سآتى إلى هنا..

القاهرة / ٣٠ من يناير ١٨٧٦

(والدتى العزيزة)

تلقيت رسالتين منك دفعة واحدة ونقودًا أيضًا؛ أشكرك على هذا وذاك. لا أدرى متى سأغادر مصر. الآن يعيش سوية معى هنا الصديق تسيرتيليف. وثمة أشخاص روس آخرون. وعلى العموم فإن العيش فى القاهرة أفضل مما فى أى مكان خارج الوطن؛ ولذا فلست على عجلة من أمرى فى السفر من هنا...

القاهرة / ٤ من مارس ١٨٧٦

(والدتى العزيزة)

أسارع للإجابة على رسالتك المؤرخة فى ٣ من فبراير. آمل بأنك استلمت رسالة أخرى بعثت بها منذ أسبوعين. أنا فى صحة تامة ولم أمرض أبدًا. انتقلت من الفندق إلى شقة ظننا منى بأنها ستكون أرخص ولكن ذلك كان بالمناسبة من نسج الخيال. ولم ألق هنا أى غذاء روحى؛ ولذا سوف أغادر بعد ٨ أيام إلى إيطاليا مع كالاتشكوف (ابن المدير أرخيبوف) الذى عاش هنا طوال الوقت. تسيرتيليف سيغادر قبلنا.

فى إيطاليا سأقيم لمدة شهر فى سورينتو حيث سأعمل فى سكينة الانفراد على إتمام كتابة مؤلف ذى محتوى صوفى ـ لاهوتى ـ فلسفى شعوذى ـ سياسى وشكل ديالكتيكى؛ ومن ثَمَّ سأتوجه إلى باريس حيث سأدرس قليلاً فى المكتبة الوطنية لإراحة ضميرى وأعود فى يوليو (تموز) عبر كييف إلى موسكو بعد التعريج على لندن لبضعة أيام.

القاهرة / ١٤ من إبريل ١٨٩٨

(رسالة سولوفيوف إلى ستاسيوليفيتش[*] (٥٣)

«... فى مصر وجدنا الهناء والغبطة: حقول القمح الخريفى الجاهز للحصاد (كما عندنا فى أواخر يوليو) بينما حقول القمح الربيعى تكتسى بالخضرة الوفيرة الرائعة. كاد القيظ اللافح يبدأ أمام أعيننا ولكننا جلبنا معنا الريح الشمالية والبرودة المرطبة. بفضل الإنجليز أصبحت مصر معمّرة وهنيئة. وحتى إن القطارات تسير وفق جداول المواعيد وليس بصورة اعتباطية كما كان الحال لدى زيارتى الأولى منذ ٢٢ سنة !!

بعد قضاء ساعة ونصف فى الحمام الرائع وثلاث ساعات فى دار الآثار المصرية الأكثر روعة أشعر نفسى شابا وملكيصادقا(٥٤) لعوبا ...».

أشعار سولوفيوف

ظهرت ملكتى أمامى اليوم

موشحة بثوب لازوردى

فخفق قلبى بانشراح لذيذ

وفى أشعة الشمس البازغة

أضيئت روحى بشعاع رقيق

وفى البعيد يا عزيزتى كان يتصاعد دخان اللهيب المتوهج لنار الأرض.

أواخر نوفمبر ١٨٧٥م

القاهرة

فلاديمير سولوفيوف. «شمس الحب وحدها ثابتة فى استقرارها...».

قصائد. نثر. رسائل. ذكريات المعاصرين. موسكو ص ٢٢ ـ ٢٣).

لدى ملكتى قصر رائع

مستند إلى سبعة أعمدة ذهب

لدى ملكتى تاج سباعى الأضلاع

مرصع بأحجار كريمة لا تحصى.

وفى الحديقة الخضراء لدى ملكتى

ازدهر جمال الورد والسوسن

وفى الموجة الشفافة أرى الجدول الفضى

يصطاد لمعان جدائلك وجبينك.

ولكن الملكة لا تسمع همس الجدول

ولا تلقى نظرة على الأزهار:

فالكآبة تغشى نور عينيها اللازورديتين وخيالها مفعم بالأسى.

إنها ترى: فى البعيد، فى مكان مظلم

وسط ضباب الزمهرير والعواصف الثلجية

فى معركة منفردة ضد قوة الظلام الشريرة

يهلك صديقها الذى هجرته.

وإذا بها ترمى تاجها المرصع بالماس

وتترك مخدعها الذهبى

وبيدها المباركة تدق وتدق

باب صديق غادر ـ دخيل غير منتظر.

وإذا بالربيع الفتى، الذى يلى الشتاء الحالك،

يشرق بكامل سطوعه وينحنى فوقه،

ويكسوه مفعمًا بدلال رقيق، بحجابه

المتألق والمشرق

فُهزمت قوى الشر المظلمة،

واحترق هو بكليته كلهيب وهّاج

وبحب أبدى فى عينيها اللازورديتين

قالت لصديقها بصوت خافت:

«إننى أعلم أن عزيزتك ليست أصدق من موجات البحر:

لقد أقسمت لى بالحفاظ علي الأمانة،

فحنثت بالقسم ولكن هل كان يمكن

أن تغيّر فؤادى بخيانتك وغدرك؟»

(القاهرة بين أواخر نوفمبر ١٨٧٥ و ٦ من مارس ١٨٧٦)

قريبا بعيدا لا هنا ولا هناك،

فى ملكوت الأخيلة الصوفية،

فى عالم لا تراه الأعين الفانية،

فى عالم بدون ضحك ودموع

هناك عرفتك لأول مرة

يا آلهتى فى الليل المغيّم

كنت طفلا غريبًا آنذاك،

وكنت أرى أحلامًا غريبة

وظهرت أنت فى هيئة غريبة علىّ،

وكان صوتك يدوى بإبهام،

وظللت أراك مدة طويلة

كائنا مبهما لحلم طفولى.

والآن تظهرين لى من جديد

بلطف حب غير منتظر

وأراك الآن لا فى الحلم،

وكلماتك واضحة لى كل الوضوح.

* * *

وإذا بى وقد صُعقتُ بهيدر كلمات غامضة

فى عالم غريب تمامًا

أسمع فى كلمات تحيتك

رنين كلمة وطنى العزيز.

* * *

صوت الوطن فى كلمات سحرية،

فى نور عيون لازوردية،

ويريق الوطن فى أشعة أثيرية

فى ذهب الجدائل الرائعة.

* * *

إن كل ما يحيا به قلبى وعقلى

وكل ما يختلج فى صدرى

وكل قوى الشعور والرغبات والأفكار

قد وضعتها بين يديك.

والـ «أنا» البارد المستتد العابس

يرتجف وقد أحس بهلاكه

وما أن لمحكِ من بعيد

حتى هدأ وشحب وهرب.

* * *

فيهلك الهارب المتعجرف؛

فأنا، فى عبودتى الحرة وموتى الحى،

مذبح وقربان وكاهن،

وفى عذاب الغبطة واقف أمامك.

(القاهرة بين أواخر نوفمبر ١٨٧٥ و ٦ من مارس ١٨٧٦)

(ثلاثة مواعيد)

(موسكو ـ لندن ـ مصر. أعوام ١٨٦٢ ـ ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦)

(قصيدة)

إذ أحتفل مسبقًا بالظفر على الموت

وأحطم بالحب أغلال الأزمنة،

لا أتلفظ باسمك يا صديقتى المخلصة

ولكنك تشعرين بالنغم المختلج...

وإذ لم أصدّق العالم الخادع

لمستُ تحت اللحاء السميك للمادة

الرداء الأرجوانى الأبدى

وأدركت بهاء الألوهة...

* * *

أفلم تلقى نظرة حية ثلاث مرات.

لا بحركة خيالية، كلا !.

بمثابة الإنذار أم العون أم المكافأة

وكانت صورتك جوابًا على نداء روحي.

* * *

وفى المرة الأولى - يا لبعد أوانها -

ولقد مرت عليها ست وثلاثون سنة،

أحست الروح الطفولية فجأة

حنين الحب مع قلق الأحلام المبهمة

عمرى تسع سنوات، وهى... عمرها أيضًا تسع

«كان يوم ربيع فى موسكو»، هكذا قال فيت.

ويُحت أنا بحبى. وسلد الصمت. آه يا إلهى !

ثمة منافس. ولسوف يرد علىّ.

مبارزة مبارزة! قداس على صعود الروح.

* * *

النفّس تفور فى تيار الآلام الملتهبة.

ها هى الهموم والشواغل الدينية... فلنؤجلها...

إذ انداح الصوت وتوقف واختنق على شفتىّ.

* * *

المذبح مفتوح... ولكن أين القس والشماس ؟

وأين جمهور الناس المصلّين ؟

وتيار الأهواء اختفى فجأة ودون ما أثر.

واللازوردية فى كل مكان، واللازوردية فى نفسى.

* * *

كنتِ أنت موشحة بلازوردية ذهبية

وفى يدك زهرة من أرجاء نائية،

تقفين وعلى ثغرك ابتسامة مشعة،

فأومأتِ لى واختفيتِ فى الضباب.

* * *

وصار الحب الطفولى غريبًا علىّ،

وروحى موصدة أمام الهموم الدنيوية ...

وكانت الخادمة الألمانية، تكرر لى بكآبة ...

«آه يا فولوديا إنها غبية للغاية !».

(٢)

ومرت سنوات، وصرت أستاذًا مساعدًا وماجستيرًا

واندفعت إلى بلدان غريبة لأول مرة.

برلين هنوفر، كولونيا - إنها كانت تلوح فجأة

بحركة سريعة وتختفى عن الأنظار.

* * *

وكان موئل حلمى لا مركز الدنيا باريس

ولا الإقليم الإسبانى، ولا البريق اللامع

للزرقشة الشرقية بل المتحف البريطانى

وإذا به لم يخدع خيالى وأملى.

* * *

هل يا تُرى أنساك يا نصف العام الهنى؟

فلا ملامح الجمال الخاطف العابر

ولا عيش الناس ولا الأهواء ولا الطبيعة.

فأنت وحدك ملكة روحى كلها، كلها.

فلتعج هناك آلاف مؤلفة من البشر

وسط هدير آلات تنفث نارًا

ولتشمخ عمارات عملاقة جافية .

فأنا هنا لوحدى، أيها الصمت المقدس.

* * *

أجل بالطبع مثل eumgzono salis (*)

كنت وحيدًا، ولكن لست نافرا من الناس؛

وفى عزلتى كنت أصادف أناسا،

فأى منهم أذكر وأسرد الآن ؟

أسفًا إننى لن أقدر إحاطة أسمائهم

لا بسجعى ولا بكلمات الغير ...

فأذكر اثنين . ثلاثة عباقرة بريطانيين

واثنين أو ثلاثة أساتذة موسكوفيين.

* * *

ومع ذلك فأنا وحيد فى قاعة المطالعة ؛

وصدقوا أو لا تصدقوا . والله يعلم .

إن قوى غامضة علىّ اختارت وانتقت

كل ما أستطيع مطالعته عنها .

* * *

أماعندما كانت الأهواء الآثمة، توحى لى

بأخذ وقراءة كتاب «من موضوع آخر»

(*) من اللاتينية : حبة ملح صغيرة .

فقد كانت تحدث قصص اضطر معها

للمغادرة بحيرة وارتباك إلى البيت.

* * *

وذات مرة ـ وكان ذلك قبيل الخريف ـ

قلت لها: «أيها الريعان الإلهى !

أنت هنا، إننى أشعر بذلك فلماذا

لم تظهرى لى منذ أيام الطفولة؟».

* * *

وما أن فكرت بهذه الكلمة

حتى امتلأ كل شىء بلازوردية ذهبية

وتلألأت هى أمامى من جديد ـ

وجهها فقط، وجهها فقط ولا غير.

* * *

وصارت هذه الهنيهة سعادة مديدة

ومن جديد روحى موصدة بوجه الدنياويات،

وإذا كان الكلام يصادف سمعا «جادا»،

فلأنه كان غير مفهوم وسخيفا.

(٣)

قلت لها : «لقد بان وجهك

ولكننى أريد رؤية جسدك كله،

وما بخلتِ به على الطفل

لا يجوز أن تمنعيه عن الفتى!».

* * *

«كُنْ فى مصر!» ـ دوّى صوت باطنى.

إلى باريس! ـ وإلى الجنوب يحملنى البخار.

وحتى أن الشعور لم يتنازع مع العقل:

فقد صمت العقل كالأبله.

* * *

إلى ليون وتورين وبياتشنتسا وأنكونا،

إلى فيريمو وبارى وبرنديزى ـ ها هى

فى أحضان البحر المختلج الأزرق

تسرع بى وتنقلنى باخرة بريطانية.

وفى القاهرة قدم لى سلفة ومأوى

فندق «آبّات»، إنه قد زال الآن مع الأسف !

إنه مريح متواضع والأفضل فى كل العالم...

إليه كان ينزل روس، وحتى من موسكو.

* * *

وكان الجنرال ـ من الغرفة العاشرة ـ يسلّى الجميع

بتذكّرة العهد القفقاسى الغابر....

فذكر اسمه ليس إثما ـ إذ مات من زمان،

ولست أسيء، الظن به فليكن عليه الحنان.

* * *

إن روستيسلاف فادييف ذاك كان معروفا

كان عسكريًا متقاعدًا، ويجيد التأليف

وإذا نعتناه ديكًا أو مجمعًا كونيًا ـ

فقد تكمن فيه وفرة من الثروات الخفية.

* * *

مرتين فى اليوم كنا نلتقى عند مائدة الطعام؛

وكان هو يتحدث بمرح وبكثرة كثيرة

وكان حاضر البديهة فى الفكاهة الحادة

ويتفلسف قدر ما تسمح له الطاقة.

فى غضون ذلك كنت أنتظر موعدًا منشودًا

وذات مرة فى وقت هادئ من الليل،

سمعت همسًا لحفيف النسيم العليل :

«أنا فى الصحراء ـ أذهب إلى هناك بحثًا عنى».

* * *

يجب السير مشيا (فمن ينقل الشبان

من لندن إلى الصحراء بالمجان

إذ أن حبيبى فارغ وليس فيه ولا مليم

وأعيش بالسلف منذ أيام عديدة).

* * *

لا فرق إلى أين، بدون نقود، بدون مؤن،

وإذا بى ذات يوم انطلق فى السير

كالعم فلاس الذى كتب عنه نيكراسوف.

(ومهما يكن من أمر فقد وجدت القابية).

* * *

وضحكتِ أنت حقا وقد ظهرتُ أنا

وسط الصحراء فى قبعة عالية ومعطف،

فظنونى شيطانًا إذ ارتجف البدوى البدين

بسبب ما أثرته فيه من خوف وذعر

وجراء ذلك كدتُ أُقتل وسط الضجيج،

وتشاور الشيوخ بالعربية من قبيلتين

بصدد ما ينبغى أن يفعلوه لى

وأوثقوا يدىّ كالعبد، وبلا كلام زائد

* * *

ساقونى إلى أبعد وبحركة نبيلة

وبكراهة فكوا يدىّ وانطلقوا إلى سبيلهم.

ها أنا أضحك معك: فالآلهة والناس على السواء

يضحكون المصائب فور اجتيازها.

* * *

فى غضون ذلك حل الليل الصامت

على الأرض مباشرة، بدون موارية.

ومن حولى لا أشعر إلا بالسكون،

بل وأرى الديجور وسط أضواء النجوم.

* * *

وإذ استلقيت على الأرض صرت أبصر وأسمع ...

وفجأة عوى ابن آوى عواء دميما جدا؛

لقد كان حقًا يأكلنى فى أمانيه

ولكننى لم أرفع حتى عصا عليه.

ابن آوى هذا ليس بمصيبة! أما البرد فرهيب..

حتمًا إن الحرارة صفر، بينما النهار كان قائظًا..

إن النجوم تتألق ببريق عديم الشفقة؛

والبريق والبرد معاديًا للنوم عداء.

* * *

وبقيتُ طويلاً مستلقيًا فى نعاس رهيب،

وها النسيم يهب: «نم يا صديقى المسكين!».

وغفوت: وعندما استيقظت برفق

كانت الأرض تفوح بالورد والسماء دائرية.

* * *

وفى رداء أرجوانى سماوى التلألؤ

كنتِ تنتظرين بعينين مفعمتين

بنار لازوردية كأول بهاء وضياء

كيوم خلق الدنيا والمعمورة.

* * *

ما هو موجود وما كان وما سيبقى إلى الأبد .

كل ذلك حَضَنَتّه هنا نظرة ثابتة واحدة ...

وتتوشح تحتى بالزرقة البحار والأنهار

والغابة البعيدة وقمم الجبال المثلجة.

* * *

كل شىء رأيته عدا شىء واحد فقط .

هيئة واحدة فقط للجمال النسائى ...

وكان قياسها يضم ما لا قياس له .

فأمامى وفى ذاتى كنت أنتِ وحدك.

* * *

أيتها المشعّة! أنا لم أُخدع بك:

لقد رأيتك بكليتك فى الصحراء ...

ففى صدرى لن تذبل تلك الورود

إلى أى ما كانت تنطلق بى موجة الحياة.

* * *

لحظة واحدة فقط ! واختفت الرؤيا .

وصعد قرص الشمس إلى السماء.

وفى الصحراء صمت. وكانت الروح تصلى،

ولم يكن يهدأ فيها الرنين المبشر بالخير

* * *

تنشَّطّ! ولكننى لم آكل منذ يومين،

وبدأ نظرى الأسمى يخفت، ويتضاءل.

واسفاه ! فمهما تكن رهيف الحساسية

فإن الجوع كما يقال لا يرحمك.

وتابعتُ طريقى إلى مغرب الشمس نحو النيل

وعند المساء وصلت إلى البيت فى القاهرة.

وكان صدرى يحتفظ بآثار الابتسامة الوردية،

وعلى حذائى يتراءى كثير من الثقوب.

* * *

كان كل شىء يبدو من الخارج سخيفا

(رويتُ الوقائع وأخفيت الرؤيا).

وفى السكوت راح الجنرال، وهو يأكل الحساء،

يقول بوقار محدقًا نظره فىّ :

* * *

«إن العقل، طبعًا، يمنح الحق فى اقتراف الحماقة،

ولكن من الأفضل عدم سوء استعماله :

فالبلاهة البشرية ليست عاملة حاذقة

فى التميز بدقة بين أنواع الجنون.

* * *

ولذا فإذا شهدوا بكم سوءا

بأنكم مخبولون أو حمقى

فلا تحدثوا من الآن فصاعدا

عن هذا الحدث المخجل لأحد.

* * *

وتمادى فى التنكيت، وقد راح

ينداح أمامى ضباب أزرق

وإلى البعيد كان محيط الحياة

يذهب مهزومًا بالجمال السحرى.

* * *

لا أزال أسيرا للعالم الممل

ولكننى رأيتُ تحت اللحاء السميك للمادة

الرداء الأرجوانى الأبدى تمامًا

وأحسست ببهاء الألوهة السامية.

* * *

وإذ أحس مسبقًا بظفرى على الموت

وقهرت بخيالى أغلال الأزمنة

فلن أنطق باسمك يا صديقتى الأبدية،

فاعذرينى على نغمى المرتجف !

* * *

قرية بوستينكا، ٢٦ ـ ٢٩ من سبتمبر ١٨٩٨.

(إلى صديق أيام الشباب)

إلى الأمير تسيرتيليف

أنا عدو لهذه الأحاديث

الذكية المنمقة الضجّاجة

وللجدالات الصاخبة

العقيمة واللامتناهية ...

* * *

أتَذْكرّ ، كما كان يحدث مرارًا

تلك الليالى البعيدة

عندما كان الفجر يستقبلنا

بهدوء من الشرق.

* * *

ومن الإيماءات المقتضبة

كان السر المميت

ينهض بصميت

مخيفا عمق الحياة.

* * *

وما لم نروه حتى النهاية

فى ذلك الزمن الماضى

قد سجله الخلود الأبدى

فى النقوش المعتمة.

* * *

أواخر ديسمبر ١٨٩٦

* * *

(دلتا النيل)

حقول ذهبية

زمرّدية سوداء التربة ...

فلستِ بالبخيلة أنت،

أيتها الأرض الجهيدة،

الصامتة !

هذه الأرض المعطاء.

كم من القرون الغافية.

استقلبتْ طائعةً،

البذور والموتى.

* * *

ولكن ليس كل ما تبتلعينه

فى أحشائك تجليبنه كل سنة إلى سطح الأرض :

إن كل ما عوّذه الموت الشائخ

ينتظره لنفسه فى الربيع.

* * *

فليست ايسيدا المثلثة التاج

ستجلب لها الربيع

بل «عذراء البوابات البهيجة» (*)،

العذرية، الأبدية ستجلبه.

مصر، ١٤ من إبريل ١٨٩٨

(شاليابين(٥٥) فى مصر (عام ١٩٠٣)

(مقتطفات من كتاب سوكولوف: رحلة شاليابين إلى أفريقيا. موسكو، ١٩١٤).

القطار الإكسبريس من الإسكندرية إلى القاهرة يسير بسرعة فائقة عجيبة، ويتوقف فى ثلاث محطات فقط... وها هى، أخيرًا، القاهرة عاصمة مصر. وقادنا الدليل وأشار علينا بالنزول فى أوتيل «فيلا فيكتوريا» الإيطالى فى القاهرة، وعلمنا أن فى جميع الأوتيلات الإنجليزية فرض الإنجليز المفرطون فى التأدب قواعد سلوك خاصة. فيجب على جميع الرجال مثلاً لدى دخول قاعة الطعام أن يكونوا مرتدين ثوبًا رسميًا والنساء ثوبًا أبيض (كالمرضى). أما فى الأوتيل الإيطالى فالأمر أكثر بساطة، وكانوا يأخذون منا ثمانية روبلات فى اليوم للشخص الواحد على الوجبة الكاملة: فى الصباح قهوة، وفى الساعة الواحدة فطور، وفى الثامنة غداء. وليست ثمة أية قواعد للسلوك.

* * *

فى اليوم التالى، عند حوالى الساعة العاشرة صباحًا، توجهنا للاطلاع على المدينة وبالدرجة الرئيسية على حياتها العادية فى الشوارع. وفى المساء حضرنا حفلة المسرح الخديوى (المسرح الرئيسى فى القاهرة) وهو جميل جدًا من الخارج

(*) «عذراء البوابات البهيجة» مصطلح معرفى كان يعنى فى عرف سولوفيوف المعني نفسه الذى تعنيه الأنوثة الأبدية.

ومـتـوسط الحـال فى الداخل. وكـان يجـرى أداء أوبريت إنجليـزية بدون مـعنى، وبدون موسيقى من جانب مغنين ضعيفى الصوت ومغنيات قبيحات.

جمهور من الناس، وكثرة من المجوهرات والأحجار الكريمة والضباط الإنجليز فى بزات فريدة وعدد كبير من الوطاويط المتطايرة فى قاعة المشاهدة!

وقال شـاليابين مازحًا: ربما قـد يدعونى أنا أيضًا فى يوم ما للغناء فى هذا المسرح...

* * *

فى اليوم التالى شاهد شاليابين «دار الآثار المصرية»... وكانت المومياءات أكثر ما أثار اهتمامه، وتأمل فيها مدة طويلة وباهتمام زائد.

وقـال: إنه لأمـر مـثيـر للاهتـمـام! فـالمرء ينظر ولا يصـدّق أن ذلك هو جثث أشخاص توفوا منذ بضعة آلاف من السنين! إن هؤلاء الأشخاص حافظوا على هيئتهم كثيرًا؛ بحيث إننى أستطيع، بدون خطأ تقريبًا تحديد طبع كل واحد منهم ومن مشاهدة المتحف وآثاره القديمة جدًا استنتج شاليابين أن شتى أنواع الفنون لدى المصريين كانت مزدهرة إلى أعلى درجة.

وقـال: فى رأيى أن الإغـريق كـانوا لحـد مـا فى فنهم مـجـرد مـقـتـبـسـين من المصريين ومواصلين لهم. وأعتقد أنهم «خطفوا» الدين أيضًا من المصريين، أما نحن فمن أولئك بالطبع! أترون المومياءات، التى كانوا يعلقون على أعناقها علامة الصليب! وهاكم ما كُتب على الناووس. وقد ترجم ذلك بالروسية فى «الدليل» ما يلى: «أنا مـتعلق بإله الحب! لقـد قـدمتُ الخبـز للجـائع، والماء للعطشـان، والثياب للعـريان، والمأوى للجـمـهـور». أفليس ذلك قـولاً مـأثورًا من أقـوال الإنجيل؟ مـا هو رأيكم؟ وهاكم رءوسًا بشرية بأجنحة طيور! أفلا يذكركم ذلك بالملائكة المسيحيين؟

وهاكم أيضًا واقعًا مثيرًا للفضول بصدد الثور أبيس: «أُمّ أبيس بقيت عذراء حتى بعد ولادة الابن. الآلـة «بتا» - الحكمـة الإلهية - اتخذ هيئة نار سماوية ولقّح

بقرة». أجل، لقد كان ذلك منذ بضعة آلاف من السنين! وهكذا يتبين أنه لا جديد تحت الشمس !..

* * *

فى اليوم الثالث شاهدنا حديقة الحيوانات، حيث حشد كل عالم النبات والحيوان لأفريقيا الاستوائية. وفى الحديقة برك شاسعة يعيش فيها عدد كبير من الطيور.

- إن أكثر ما أعجبنى هو هذا الطير، - قال شاليابين مشيرًا إلى طائر (أبوسعن) واقف قرب الضفة. - إنه لشبيه جدا بمستشار سرى فعلى! إنه شبيه بسناتور ...

لدى العودة إلى الأوتيل من الحديقة صادفنا فى الطريق مناورات الخيالة الإنجليز. إن بزة الضباط الإنجليز فردية فى نوعها: بنطلونات بيضاء من قماش البيكه، وسترة قصيرة مفتوحة من الأمام بدون صدرية، وحول الخصر حزام صوف أحمر اللون، وعلى الرأس شىء ما يشبه قبعة الطلاب الألمان. ومنظر الجميع متشامخ وعلى درجة عالية من العجرفة.

* * *

ذات مرة مساء أو الأصح ليلاً، كنت وشاليابين جالسين معًا فى مقهى، مبنى على قنطرة على النيل. كان القمر مضيئًا والنيل يدفع بأمواجه الشفافة إلى البحر الأبيض المتوسط. وكان الصمت مخيّما وشاليابين جالسًا مستغرقًا فى التفكير، وبعد صمت طويل سألنى:

- هل فكرت فى يوم من الأيام بأنه سيتسنى لك أن تجلس، وتحتسى القهوة على شاطئ النيل؟

- ربما أنك أنت فكرت بذلك، أما أنا فلا. إننى أستعيد الآن الماضى فى ذهنى. أتذكّر قازان أتذكر الأوبريت... أجل إنه يحدث لى الآن بالفعل شىء ما شبيه

بحكاية من حكايات «ألف ليلة وليلة». موسكو... روسيا... النجاح .. إيطاليا... أوروبا... أفريقيا... إن ذلك كله غريب بعض الشيء!.. فلم أفكر بذلك أبدًا ولم أحلم ولم أتوقع... إنه لشبيه بالحلم... بالكابوس! لنذهب إلى الفراش وغدا صباحًا نتوجه إلى الأهرام!..

* * *

لأول مرة سافرتُ وشاليابين نهارًا إلى الأهرام. توجد هذه الأهرام تحت تصرف بدو الجيزة، ولذا يلزم لأجل الصعود إلى الأهرام أخذ بطاقة لدى شيخ هذه القرية. سعر البطاقة عشرة قروش صاغ (روبل واحد). على مقربة من الأهرام يطوّق السائحين فورًا جمهور من العرب الملحاحين والطماعين للغاية الذين يعرضون خدماتهم لمساعدة السائح فى الصعود إلى الهرم بواسطة مناشف مربوطة تحت إبطهم. فرفض شاليابين هذه الخدمات وأراد تسلق هرم خوفو بدون مساعدة الغير إلا أنه، وهو شخص عصبى بلاشك شعر بدوخان شديد بعد أن تسلق بضع درجات. واضطر للنزول إلى تحت وإذا بأحد الحاضرين يقول بلهجة لاذعة: «لقد صعد هذا الشخص إلى ارتفاع يستحيل بلوغه (يقصد: فى عالم الفن)، ولكنه لم يستطع تحمل ارتفاع كهذا». فاعتبر شاليابين ذلك، على ما يبدو تحرشًا به، وقرر الصعود إلى قمة الهرم مهما كلف الأمر وصعد إليها أخيرًا. كان ذلك أثناء النهار؛ غير أن نفس هذه الأهرام وأبا الهول ذاك أثارت فى نفس شاليابين انطباعًا شديدًا جدًا أثناء الليل.

فى إحدى الليالى قصدنا معا الأهرام وجلسنا على حافة إحدى درجات هرم خوفو. كان يسود صمت عميق لدرجة أننا أخذنا نسمع طنينا فى الآذان. وخيل لنا أنه صمت القبور. أجل لنفرض أننا كنا موجودين وسط القبور. وحولنا آثار عالم ميت ولذا كنا نحاول على غير إرادة منا، التحدث بصوت خافت وقليلاً جدًا وكنا نحاول استشفاف أحاسيسنا وكل ما كان يحيط بنا فى هذه اللحظة لم يكن شبيها أبدًا بما شاهدناه أثناء النهار.

لقد كان كل شىء رائعًا جدًا وغريبًا جًدا فى عظمته وسط هذا الصمت الواجم؛ لدرجة أن فكرة الخوف كانت تبدو تافهة جدًا بتفاهة شخص ضائع وسط هذه العمالقة، وطلع القمر: قمر عجيب، مصرى. إن ضوءه ساطع ورشيق جدًا لدرجة أنه يتغلغل إلى روح الإنسان ويملؤها باسترخاء لذيذ ما، واقتربنا من أبى الهول. وقال شاليابين: - انظر إنه يعبر عن شىء ما فى صمته الشديد ويتأمل فى أشياء عظيمة ولغزية!

فى هذه اللحظة بالذات خرج القمر من وراء غيمة وأضاء أبا الهول. فاصطبغ رأسه باللون الأخضر الغامق للبرونز القديم واتخذ وجهه هيئة بشرية وكأنه أفاق لتوه من النوم وابتسم للقمر. وشاليابين أيضًا تغير كليا.

- اسمع ! - قال: باندفاع إن معجزة ما تحدث الآن أمام عينىّ! فبين أبى الهول والقمر تنشأ علاقة غامضة ما، لقد بدأ يخيل لى أننى أعيش فى مصر القديمة. فيها هناك أيسيدا فى السماء، وها هنا أبو الهول يهمس لها بشىء ما وها الآن يظهر من وراء الأهرام موكب ما فى ألبسة بيضاء، ويبدأ القيام بطقس مبهم ما. إن نفسى تُفهم الآن حتمًا بقلق خرافى ما. ويبدو لى أبوالهول حيًا جدًا؛ لدرجة أننى لا أستطيع إقناع نفسى بأن ذلك مجرد وهم لا أستطيع صرف نظرى عن هذا الوجه المصوب دائمًا نحو القمر ويبتسم له دائمًا. إن هذا الوجه هو الآن وجه بشرى تماما يعكس الأفكار والمشاعر!..

لقد كنت امتّع النظر لا بالوضع المحيط بى، بقدر ما كنت أمتّعه بوجه شاليابين المشع بالإلهام فهو وأبوالهول كانا فى هذا الوقت كما خيل لى، يتبدلان بصورة مماثلة.

- فى الحقيقة استطرد شاليابين قائلاً - ما الذى لم يره أبوالهول هذا، فقد كان يشمخ فوق الصحراء، عندما كان يجرى بناء هذه الأهرام وربما أن خوفو ذاك نفسه كان يحتمى فى ظله من أشعة الشمس اللافحة.

ومن أمامه مر موسى وقمبيز(٥٦) والإسكندر وبطليموس، ويوليوس قيصر ومرقس أنطونيوس وكليوباترة والعذراء البتول، ورأى هالة حريق الإسكندرية ولودفيك القديس ونابليون .

إن ذلك كله مر أمام عينيه وفي ذلك الزمن كان يبتسم للقمر تمامًا، كما يبتسم له الآن! وذلك كله طوته صفحة القرون، بينما هو لا يزال واقفًا الآن أيضا؛ واقف منذ عدة قرون، وهو أمر لم يعد يشبه تقريبًا ما تصنعه الأيدى البشرية ويوجد فيه شيء ما من الخلق الأولى، فقد صُنع من نفس تلك المادة المصنوع منها القمر الذى يتحادث معه فى الليالى المقمرة!.

كانت الصحراء كلها مفروشة بضوء فضى. واتشحت الرمال بلون أخضر فاتح وفى البعيد كانت تتألق الأهرام، وخلفها كانت تنداح رحاب مقفرة لا نهاية لها.

ـ كل شيء هنا متناسق. قال شاليابين بإعجاب. عظمة سحر وحشة وقبور ضخمة، ولا شيء سواها من حولها... صحراء فقط بلا نهاية مضاءة ببريق سحرى ولكنه كئيب للغاية. ولكن هذه الكآبة تمثل سمفونية عظيمة ومتقنة للغاية!..

ـ إذن، قلت فى نفسى، لقد بدأ الحديث عن الموسيقى..

ـ الألحان الأساسية لهذه السمفونية هى: الأهرام أبوالهول القمر والصحراء. إن هذه السمفونية تخضع روح الإنسان وتهدهدها حتى تتيمها. أجل! ينبغى المجيء إلى مصر وذلك على الأقل لأجل الارتواء، ولو مرة واحدة فى الحياة من هذه السمفونية.

كان الوقت لا يزال بعيدًا حتى بزوغ الفجر ولكن الليل قد أخذ يلملم أسداله. وفى خيام البدو المضروبة فى عمق الصحراء انطلق صياح ديك. وفجأة بدأ الرمل يصر وسمعت أصوات وبعد مرور برهة ظهر على كثيب رملى خلف أبى الهول شبح بعير ووراءه بدويان مرتديان عباءتين بيضاويتين طويلتين. هذا البعير التوراتى وهذان الشخصان الذين بدوا كأشباح كانوا الألحان الختامية لسمفونيتنا الليلية.

* * *

فى اليوم التالى مساء بعد تلك «السمفونية»

ولجت وشاليابين واحدًا من أفضل المقاهى العربية، الذى ترقص فيه أفضل راقصات القاهرة. إنه عبارة عن قاعة رحبة ومستطيلة، مرصوفة كلها بطاولات من الرخام، والجدران مزينة بصور خديوى مصر (عباس حلمى الثانى) والملكة فيكتوريا، وفى أحد طرفى القاعة مسرح مكشوف مرتب على الطريقة الشرقية.

وصلنا إلى المقهى فى وقت مبكر جدًا، وجلسنا إلى طاولة، وطلبنا شراب الليمون. أثار ظهورنا - على ما يبدو - انتباه جمهور من المصريين فقط كان موجودًا هنا ولكنه أثار انطباعًا أشد فى نفس راقصتين، إذ إنه ما كدنا نأخذ كباية الشراب حتى نزلت اثنتان من الراقصات الجالسات على المسرح إلى القاعة، وجلستا إلى طاولتنا بدون تكلف وربتتا على كتفينا مسبقًا. كانتا امرأتين فى ريعان الصبا، مرتديتين ألبسه من كافة الألوان، ومزدانتين بعدد كبير من الحلى المعدنية وذاتى أسنان بيضاء ناصعة كالعاج وعيون براقة سوداء، وأنفين أفطسين، وشفاه غليظة؛ وبما أنه لم يكن من اللائق لزوم الصمت فقد أخذ شاليابين يتكلم معهما بالفرنسية فتجيبان بالعربية، ويتكلم بالإيطالية فتجيبان بالعربية، وتكلمت أنا بالألمانية فأجبتا بالعربية... وأخيرا تفوه شاليابين بالعربية: «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله !..» فصعقت المرأتان، وانفجرتا ضاحكتين، وأخذتا ترددان مشيرتين إليه بالاصابع: - لا إله ! لا إله! - وربتتا على كتفه.

فى هذا الوقت اقترب من طاولتنا زنجى (نادل) وقدم لشاليابين ورقة مكتوب عليها: «حضرة الفنان العظيم فيودور ايفانوفيتش! هل من مانع لديكم فى أن يأتى إليكم شخصان روسيان من موسكو ويجلسا إلى طاولتكم».

فطلب شاليابين دعوتهما. وجاء شابان، أحدهما من مواليد القاهرة، عربى، تخرج فى الأكاديمية الدينية فى موسكو ويدعى (س)؛ والآخر تاجر موسكوفى يدعى (ز) وقد تزوج س. من شقيقة (ز)، وثلاثتهم يقومون بنزهة العرس إلى وطن س. وكلا الشابين كانا مسرورين جدًا وسعيدين بالتعرف على شاليابين وانهالا عليه بآيات التكريم والتبجيل.

ـ بالمناسبة، أيها السيد شاليابين، ـ قال س، ـ باستطاعتى أن أكون مفيدًا لكم كترجمان عربى. فأنتم على الأرجح، لاتفهمون شيئًا مما يغنى، ويقال على المسرح؟ ـ هذا أمر بديهى!

وجه (س) بضع كلمات بالعربية «ساخنة» على ما يبدو، إلى الامرأتين، فغادرتا على الفور . وبدأت الموسيقى والرقص. فى البدء أخذنا نصاب من الموسيقى بالحر والبرد، وخيل وكأنهم يقرعون رأسنا بشىء ما بكل قوة، ومن ثم اعتدنا. ولكن... الرقصات؟ إن الرقصات هى «لحن الحب الظاهر»، إذا اكتفينا بوصفها بعبارة واحدة دون الاسترسال فى التفاصيل. وكان شاليابين طوال الوقت يصفق ويهتف بالعربية (بتلقين من س):

ـ كويس عال!

ـ أنا بحبك!

علمًا بأنه كان يضع يديه على الطريقة الشرقية: فى البدء على الجبين، ومن ثم على الصدر...

عند انتهاء البرنامج دعا شاليابين بعض «الممثلات» إلى طاولته، وطلب لهن عشاء، وتحدث معهن مدة طويلة بواسطة الترجمان عن الموسيقى الشرقية والفن الشرقى. وأثار شاليابين إعجاب الراقصات.

فقد فهمن من أحاديث الترجمان أنهن يتحدثن مع فنان ومغن مشهور لا فى روسيا وحسب، بل فى العالم أيضًا، وأعربن بالإشارات عن الاستحسان والاحترام لنبوغه، وطلبن منه بكل إلحاح أن يغنى شيئًا ما، ولكن شاليابين رفض بحجة إصابته بمرض فى الحنجرة. فأعربت الراقصات عن أسفهن الشديد لذلك. وكان الوقت متأخرًا جدًا، فغادرنا إلى الأوتيل...

فى الوقت التالى من وجوده فى أفريقيا شاهد شاليابين كل معالم القاهرة، وبعد اطلاعه بالتفصيل على أخلاق وعادات السكان المحليين قام بجولات فى

ضواحيها، فزار الجزيرة، ومزرعة النعامات، ومعمل سكر غير بعيد عن القاهرة، وسافر عدة مرات إلى منتجع حلوان (واحة اصطناعية)، وإلى الأقصر، وحتى إنه وصل (فى أعالى النيل) إلى أسوان حيث توجد أشهر منشأة فى العالم من حيث التكنيك ـ سد أسوان.

فى حلوان ـ للاستجمام والمعالجة

وصلنا إلى حلوان، وهى بلدة غير كبيرة، على بعد عشرين فرستا عن القاهرة، وواقعة فى الصحراء فى واحة اصطناعية وبنتها الحكومة المصرية منذ زمن بعيد نسبيًا، ويقطنها حاليًا ثمانية آلاف شخص، ماعدا الأجانب ـ المرضى والسائحين، الذين يعيشون هنا مؤقتًا، أثناء فصل الشتاء، ويتزايد عددهم عامًا إثر عام.

إن ينابيع حلوان الكبريتية، والمالحة كانت معروفة منذ أقدم العصور، ولكنها لم تتحول إلى منتجع حسن البناء إلا على عهد الخديوى توفيق، الذى أحبه كثيرًا وبنى فيه قصرًا، وحذا حذوه كثير من النبلاء والوجهاء، والآن تعتبر حلوان أفضل منتجع للمصابين بأمراض الكلى، وكذلك بأمراض الصدر فى مرحلتها الأولية.

وكثير منهم مصابون بالروماتزم والنقرس والغدب (تدرن العقد اللمفاوية العنقية) ولكن حلوان تعتبر محطة مناخية رائعة بالنسبة للأشخاص الأصحاء أيضا، الذين يرغبون فى تحاشى الشتاء الأوروبى المتقلب والقاسى، فالهواء الجاف والمدهش النقاوة، وانعدام الأمطار، والشمس الدائمة، والحرارة المعتدلة ـ فى الشهر الأكثر برودة، شهر يناير (كانون الثانى)، يكون متوسط درجة الحرارة ١٢ درجة مئوية، علمًا بأن الطقس حار دائمًا فى النهار تحت الشمس ـ إن ذلك كله مجتمعا يشكل وحدة لظروف مناخية ملائمة جدًا، لا يوجد مثيل لها فى أى مكان آخر على الكرة الارضية.

ينبغى أن أضيف إلى ذلك وجود أسباب راحة يقدرها الإنسان المثقف تقديرًا رفيعًا، وتنعدم ـ مع الأسف! ـ فى منتجعات بلادنا، وثمة كثير من الفنادق الحسنة، وبينها بضعة فنادق من الدرجة الأولى، وعدد كبير من البانسيونات الجيدة،

بحيث يمكن للمرء أن يؤكد دون مبالغة أن ثلث حلوان كلها يتألف من الفنادق والبانسيونات والشقق الخاصة؛ لأجل القادمين إلى هنا، إنها بلدة بيضاء ونظيفة وشوارعها عريضة نسبيًا مضاءة بالكهرباء، ومخططة تخطيطًا صحيحًا، بحيث يمكن للمرء أن يظن لولا السطوح المستوية، بل وأشجار النخيل الجميلة والسكان المحليين الذين يصادفهم فى الشوارع، أنه موجود لا فى مصر ولا وسط الصحراء العربية بل فى مكان ما من أوروبا ، لأن فى البلدة نفسها قليل مما ذى طابع شرقى.

أما بالنسبة للتسليات فالأمر سيئ. لنفرض أنه يوجد كازينو، ولكنه لايعبأ به كثيرًا وقلما من يرتاده. وفيه تعمل، بالإضافة إلى آلة العرض السينمائى، فرق متجولة قليلة الأهمية. وفى أيام الأحد تعزف فى باحته أوركسترا لا يمتاز عزفها بأداء فنى يذكر. والتسليات الرياضية ليست كثيرة هى الأخرى: ميدان لسباق الخيل، تجرى فيه كل يوم أحد حفلات سباق اعتيادية، وهنا أيضا مرمى صيد والمساحة الشاسعة خلف أوتيل «توفيق بالاس» يشغلها ميدان حسن التجهيز للعبة الجولف التى يعشقها الإنجليز. وهذا كل ما فى الأمر، بل وهذا كاف فى الواقع؛ لأن المسافة حتى القاهرة تستغرق ٣٥ دقيقة سفر، والقطارات تسير كل نصف ساعة، وأما هناك فالتسليات لا عد لها ولا حصر.

نزلنا فى بانسيون «فيلا فاندا» الروسى ـ البولونى. وهو ليس فخما، ولكنه يحتوى على قدر كافٍ من أسباب الراحة، أكثرية الخدم فيه بولونيون يتكلمون بالروسية. الطاهى أوكرانى، وهو يحضر طعامًا لذيذًا جدًا، وصاحبة البانسيون كثيرة العناية والاهتمام. وكان أمرا مستحبًا لنا أن نشعر أنفسنا ونحن موجودون بعيدًا فى الغربة، فى وضع اليف شبه منزلى...

٢٥ من فبراير (١٠ من مارس)

إن هذا اليوم الأول لعيد اعتراف الصيام الكبير قضيناه، كما يلزم، حسب قواعد الصيام، ومن الزوجين اللطيفين (ت). العائشين فى البانسيون ، تلقينا

دعـوة إلى أكل الفطائر، ومن القـاهرة وصل وكـيلنا الدبلومـاسى (س)، ومن الإسكندرية صديقى القديم مواطنى أ. س، فالأول لم يكن غريبًا عن عالم الأدب. فإن روايته التاريخية «سكليرينا» ـ وهى نبذة شعرية خالية عن الأخلاق الشرقية ـ نالت فى حينها استحسان القراء والنقاد (٥٧). والثانى يشغل منذ عدة سنوات منصب عضو المحكمة الدولية فى الإسكندرية، تناولنا الفطور بصورة منفردة فى قاعة الاستقبال الصغيرة، فالكافيار والسلمون والباليق والفودكا الروسية، التى وصلتنا من أوديسا، والفطائر التى حضرها طاهينا سيرغى بصورة رائعة، حولت مطعمنا الارتجالى إلى بقعة من روسيا تذكر بقوة بالوطن البعيد.

بعد الفطور غادر وكيلنا، وتوجهنا، نحن الباقون ، لشرب الشاى فى مصح «الحياة». إنه مبنى ضخم، ذو حدائق رائعة، ومدرجات تعزف عليها الموسيقى أثناء شرب الشاى. ومن المدرجات المكشوفة ينداح منظر رحب، وإلى هنا يسافر الناس؛ لكى يستمعوا إلى عزف أوركسترا جيدة والتمتع بمنظر غروب الشمس وأثناء «شاى الساعة الخامسة» يحتشد جمهور كبير.

عدنا إلى البانسيون بعد أن رافقنا أ. س. إلى القطار، وفى المساء توجهنا إلى الكازينو لحضور حفلة غنائية خيرية أقيمت برعاية القنصلية النمساوية لمساعدة أيتام حلوان...

(فونفيزين. سبعة أشهر فى مصر وفلسطين. مقالات وانطباعات سان بطرسبورغ، ١٩١٠. ص ٦٢ ـ ٦٣، ١٣١ ـ ١٣٢)

ليسيا أوكراينكا (٥٨) فى مصر

فى شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٠٩ من انطلقت أسرتنا كلها فى رحلة بعيدة ـ إلى مصر إلى محطة حلوان المناخية، هذا المنتجع الواقع على بعد عشرين كيلومترا جنوبى القاهرة فى وادى النيل.

لقد قررنا القيام بهذه الرحلة بناء على نصيحة الأطباء، وبسبب إصابة شقيقى الأكبر دميترى بمرض نقلنا الوالد إلى هناك وأنزلنا فى مصح «أوتيل فيلا كونتيننتال» الذى كان يديره طبيب من روسيا.

فى ذلك الحين كانت حلوان بلدة صغيرة محاطة بالرمال، قائمة بالقرب من سفح سلسلة غير مرتفعة من جبال الحجر الجيرى تحمل اسم المقطم، السكان الأساسيون للبلدة - عرب محليون - كانوا يتعاطون، جزئيًا، فلاحة الأرض، وجزئيًا الحرف الصغيرة وبيع مصنوعاتهم، كان السواد الأعظم من هؤلاء السكان يعيشون فى أحضان الفقر، وفى ظروف غير صحية ألبتة. وكثيرون من السكان، ولاسيما الأطفال، كانوا يعانون من الرمد، والجزء الأقل بما لايقاس من السكان - العرب الميسورون - كانوا يملكون فى حلوان بيوتا حسنة، مبنية بطراز عربى - أوروبى مختلط، ولكن فى كل بيت عدة نوافذ مسيجة، من كل بد، بشعريات خشبية مزخرفة أو بحصائر نافذة. إنها نوافذ تلك الغرف، التى كان يسكنها الحريم...

فى أحد بيوت (بيه غنى) كان يوجد أوتيل «كونتيننتال» الذى اخترناه للنزول فيه، فصاحب الفيلا، وهو طبيب، كان يستأجرها من مالكها. وفى حلوان كانت توجد عدة مشاف من هذا النوع قلما تشبه مصحاتنا الحديثة فى القرم. إننى أتذكر مصح «الحياة» الذى كان يديره أيضًا طبيب من روسيا. وعلى إفريز المبنى العالى لهذا المصح، كانت تظهر للأنظار يافطة كبيرة يمكن رؤيتها من جميع أنحاء حلوان تقريبًا. وقد كتب على اليافطة بأحرف كبير بالروسية: «مصح «الحياة». وفيما بعد علمنا سبب هذا الإعلان، فقد كانت المصحات الروسية ذائعة الصيت أبناء جميع القوميات، وحتى وسط الإنجليز، الذين كانوا يهربون إلى هنا من الإفراط فى التأدب عندهم، ومن العادة الإلزامية لتغيير اللباس ثلاث مرات فى اليوم، فى زمن ما عاش بضعة إنجليز فى «كونتيننتال» أيضا، فقد كانوا يشعرون بأنفسهم طليقى الأيدى، وبلا تكلف ويتصرفون فى كل شىء «على طريقتنا» إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من عادة واحدة، فلدى جلوسهم فى كرسى بعد تناول الغداء فى قاعة الاستراحة كانوا يضعون أمام كراسيهم أول طربيزة أو طاولة صغيرة يصادفونها ويلقون عليها أرجلهم الممدودة.

فى «كونتيننتال» كنا بين أوائل النزلاء فى ذلك الموسم ، الذى بدأ فى أواسط نوفمبر.

بعد سفر الوالد أعلنت الوالدة لى ولشقيقى أنه يجب علينا، بوصفنا تلميذين، مواصلة دروسنا، كيلا نتخلف عن زملائنا فى الصف. وكان يوجد بين أمتعتنا صندوق ثقيل جدا، تقبع فيه جميع كتبنا ودفاترنا وبعد إعلان الوالدة هذا جرى فتح هذا الصندوق، وصففنا الكتب على طاولتين مخصصين للدروس.

من السهل على المرء، بالطبع، أن يتصور أنه لم يكن أمرًا هينًا على صبى فى الرابعة عشرة والسادسة عشرة من العمر، وفى جو جديد تمامًا ومثير للاهتمام الجلوس مطولاً أمام الكتب عندما تتألق خلف النوافذ شمس أفريقية شتائية دافئة، وعندما يتراءى من شرفتنا هرم مدرج ضخم فى الجهة الأخرى من النيل، بل والمعيشة نفسها فى المصح كانت تدفع إلى التكاسل، وسرعان ما فهمت والدتنا هذا كله وقررت أنه يجب علينا تعاطى الدروس مع معلم خصوصى، ولاسيما أنا، لأن اللغات الأجنبية لم تكن تسير على ما يرام لدى، وأقول بالمناسبة إن والدتى نفسها كانت تحمل شهادة معلمة منزلية وتجيد اللغات: الألمانية والإيطالية والأسبانية أما الفرنسية فقد كانت لغتها الأم، ولكنها قررت أنه يكون من الأفضل أن يعلمنا شخص غريب. ولكن أين وكيف يمكن إيجاد معلم خصوصى روسى جيد فى حلوان؟

وأتت لنجدتنا زوجة الدكتور رابينوفيتش، صاحب المصح، التى زارتها امرأة من روسيا تنوى النزول فى «كونتيننتال» فى حال افتتاحه وهى، إلى حين ذلك، تعيش فى شقة خاصة، ورجتها هذه المرأة أن تأخذها فى الحسبان إذا طلب أحد من الروس معلمًا للغات الأجنبية.

فى اليوم التالى توجهنا مع الوالدة إلى العنوان المذكور. ولكن الموقع لم يكن بعيدًا. وكنت أنا فى مزاج عاطل جدا. فقد كانت مخيلتى ترسم لى معلمة شريرة، شكسة، ترتدى نظارة وذات عينين قاسيتين وصوت مبحوح.

ووصلنا، وطرقنا الباب ودخلنا بعد سماعنا بالروسية كلمة: «ادخلوا». ونهضت لاستقبالنا امرأة متوسطة السن، نحيلة فى ثوب أسود متواضع على إحدى يديها

قفاز بدون أصابع فابتسمت مرحبة وتقدمت للقائنا وهى تعرج عرجًا خفيفًا فألقيت أنا نظرة فاحصة على وجهها وابتسامتها الترحيبية، وعلى عينيها الطيبتين الكئيبتين قليلاً وأحسست بالخجل من أفكارى الأخيرة عن معلمتى القادمة.

دعتنا إلى الجلوس وبما أن فى الغرفة قليلاً من الكراسى فقد جلست هى نفسها على السرير بعد أن علمت مسبقًا عن هدف زيارتنا، وكما هو مُتبع فى أول تعارف فقد أعلنت اسمها الكامل: لاريسا بتروفنا كفيتكا...

بعد عدة أيام انتقلت لاريسا بتروفنا إلى «كونتيننتال». كنا نشغل غرفتين صغيرتين فى الطابق الثانى أما هى فغرفة واحدة ولكنها أكبر فى الطابق الأول فبسبب رجلها المريضة كان يصعب عليها السير على السلّم.

تم انتقال لاريسا بتروفنا بسرعة كبيرة وبدون عناء يذكر، فجميع أشيائها وكان عددها قليلاً جدًا نقلتها مع شقيقى وصبيين عربيين. سعيد ومحمد. وقد أوصانا بهما ابن الطبيب رابينوفيتش ونلّى،، الذى كان يتعلم فى إحدى المدارس الألمانية بالقاهرة.

من هما هذان الصبيان الفتيان فى الرابعة عشرة والخامسة عشرة من العمر، سعيد ومحمد؟ لقد كانا، بكل معنى الكلمة من أولاد الشارع أولاد فقراء وسخين ممزقى الثياب نصف جائعين ولكنهما كانا دائما مبتهجين، خاليين من الهموم، ومفعمين بالحيوية والحماسة. لم يتسنّ لى التعرف على أولاد عرب آخرين عن كثب كما تعرفت على سعيد ومحمد. لقد كانا صبيين شريفين ونبيلين للغاية ولم تكن لدى أى واحد من نزلاء «كونتيننتال» فى يوم من الأيام مسوغات للشك فيهما بأى أمر سيىء كان يمكن أن يدفعهما إليه الفقر والجوع وكان سعيد يعجبنا بشكل خاص. لقد كان قبيح الوجه ومسترخى الأذنين وذا أنف عريض وشفتين بارزتين كبيرتين وقوام أخرق ويدين قصيرتين، ورجلين شبه عوجيين. ولكنه كان صبيا طيب القلب ورهيف الإحساس وشديد الحياء على طريقته فعندما كانوا يدفعون له لقاء خدمة ما كان يمد يده بارتباك لأخذ بضعة قروش.

وهكذا كان الحال فى هذه المرة عندما حاولت لاريسا بتروفنا إعطاءه بعض النقود فقد رفض استلامها بكل عناد وصدق بينما كان هو نفسه يعيش فقط من أجور عرضية كهذه، إلا أنه كان يكسب شيئًا ما بطريقة أخرى أيضًا : (مسح الأحذية).

أما زميله محمد فقد كان خلافاً له رائع الجمال. وعندما رأيناه عاريًا أثناء السياحة فى النيل، قال الجميع بكل إعجاب إنه تمثال برونزى لإله من العصور القديمة؛ غير أن محبة الجميع كانت مع ذلك، إلى جانب سعيد غير الجميل كان محمد مكارًا بعض الشىء رغم أن أحدًا لم يلاحظ أفعالاً سيئة من جانبه، وكان يأخذ البقشيش بصورة أجرأ من سعيد، وكان كلاهما مهذبين جدًا، وحسب وقت اليوم كانا يلقيان علينا معشر الأجانب التحية لدى لقائنا بالكلمات التالية: «صباح الخير» «مساء الخير»... وعند نهاية وجودنا فى حلوان تعلم كلا الصبيين بضع كلمات بالروسية. وتعلمت أنا وشقيقى منهما اللغة العربية.

كانت لاريسا بتروفنا تشاطر الجميع محبتهم لسعيد وتساعده فى تعلم اللغة الروسية. وأبدى الصبيان، من جهتهما، محبة خاصة بتروفنا ووالدتى، كانا يدعوان لأريسا بتروفنا باسمها، أما والدتى فيدعوانها «أم ميتيا» أو «أم كوليا»...

ذات مرة كنا ندرس فى الحديقة بعد الظهر فى الجهة الغربية للبيت فى ظل جدار عالٍ يحيط بعزبتنا. وإذ ألقيتُ نظرة عرضية إلى السماء أصبت بدهشة شديدة من تلاوينها ففى أحد أماكنها كانت السماء أرجوانية وفى أماكن أخرى حمراء كالدم وحمراء بنفسجية، وبرتقالية وذهبية متّقدة. فهتفت من فرط التعجب. واهتمت لاريسا بتروفنا أيضًا بالأمر، وطلبت منى مساعدتها فى النهوض من الكرسى، وقالت: «إن هذا التألق فى الألوان يسترعى اهتمامى» وبقينا مدة طويلة نمتع الطرف بهذه اللوحة غير المألوفة ولكن ذلك لم يكن غروبا فالشمس كانت لا تزال عالية جدا... وأصبنا بالدهشة من ماهية هذه الظاهرة التى تحدث فى الطبيعة ولكن فى هذه اللحظة ركض إلينا الزنجى على، الذى

كان يعمل كناسا فى «كونتيننتال» برفقة سعيد ومحمد، وكان يردد «ريح الخماسين، ريح الخماسين»، ويدعونا بالإشارات، وبكلمات روسية مكسّرة إلى دخول البيت بسرعة وكان سعيد ومحمد يحاولان تفسير كلماته.

وكنا قد علمنا من السكان المحليين أن «الخماسين» هى رياح تهب من الصحراء، وتحمل غبارًا رمليًا دقيقًا جدًا، وأن هذا الغبار الصوانى إذ يرتفع إلى فوق ويصادف أشعة الشمس، هو الذى يثير تلك التلاوين الزاهية التى شاهدناها....

وقد أعطت ليسيا أوكراينكا فى رسالتها إلى الوالدة بتاريخ ٢٨ من مارس (١١ من إبريل) ١٩١٠م وصفًا لهذا «الشيطان الأمغر للخماسين الحانق الذى حوّل العالم إلى كابوس أصفر» أما قصيدة «الخماسين» من سلسلة «الربيع فى مصر» فيعود تاريخها الخامس من إبريل. وفى اليوم نفسه كتبت قصيدة أخرى من سلسلة «تنفس الصحراء» حيث يدور الحديث أيضًا عن الخماسين»...

سافرنا إلى القاهرة مع لاريسا بتروفنا عدة مرات. وفى كل مرة كنا نصادف فى ميدان محطة باب اللوق الذى كان يصل إليه القطار القادم من حلوان وكذلك فى أحد ميادين القاهرة الرئيسية (العتبة الخضراء) حيث تلتقى بضعة خطوط للترام ويسود الضجيج وتدوى أجراس الترام، كنا نصادف نفس باعة الماء البارد الذين نظمت عنهم ليسيا أوكراينكا قصيدة «الهِبَة السرية»:

فى لباس أحمر يسير السقّاء وكأنه يمزج. يخشخش بالماء الصافى ويعرض الشرب على الراغبين، ويصب ماء باردًا لذيذًا من إناء كبير ويبتسم مطيبًا إياه بنكتة آخذًا الفلوس...

* * *

فى أحد الأعياد القومية العربية وجدنا أنفسنا من جديد مع لاريسا بتروفنا فى القاهرة وفى الأحياء العربية كانت تسود حركة ناشطة بل واضطراب أيضًا. وقالت لاريسا بتروفنا إن هذا العيد يثير حتمًا فى نفوس العرب الشعور بالكرامة القومية ويولّد أفكار التحرر.

وكان الإنجليز يحسبون الحساب لهذه الاعتبارات فلم يعرقلوا الاحتفال بالعيد ولم يمنعوا المهرجانات الشعبية ولكن فصائل من العساكر الإنجليز كانت فى هذه الأيام تجوب الكثير من شوارع القاهرة لا وسط المدينة وحسب بل وفى أطرافها. كان العساكر بدون بنادق وكانوا يؤدون لحنًا عسكريًا ما بتصفير حاد وفى الشوارع المركزية كانت تصاحبهم أوركسترا؛ وكانت تنبعث رعشة فى الأبدان من هؤلاء العساكر وهذين الصفير والموسيقى. وكانوا يحملون فى أيديهم عصيًا صغيرة، ترمز إلى البنادق وحرابًا وسيوفًا... وكان عابرو السبيل يفسحون لهم الطريق والجمهور يتبدد وينقطع المزاح والضحك. ومؤقتا حلت «عفرة» ـ صمت قائظ مرهق كتبت عنه ليسيا أوكراينكا بسخط فى قصيدة «عفرة».

ولكن هذا الهدوء كان ظاهريًا ومؤقتًا فقط. وسرعان ما تجدد ضجيج الاحتفال بالعيد وكأنه يبشر بالانبعاث والحرية القريبين للشعوب العربية...

يستحيل القول إن نزلاء «كونتيننتال» فى هذا الفصل كانوا شقين. فأكثريتهم كانوا برجوازيين نموذجيين وأصحاب معامل وتجار متوسطين وموظفين، وكان قليلاً جدًا عدد المثقفين الحقيقيين وأصحاب ما يسمى «المهن الحرة». وأكثرية الأجانب كانوا من روسيا، ولكن كان ثمة أيضًا كما أسلفت، فرنسيون وألمان وإنجليز وسويديون.

فممثلو الوجهاء «والطبقة الراقية» الذين يقصدون حلوان كانوا يتجاهلون أوتيلات مثل أوتيلنا «كونتيننتال» ومصح «الحياة». فإن جميع «الارستقراطيين» كانوا ينزلون فى أوتيل «الحياة» الإنجليزى الواقع فى الطرف الآخر من حلوان والمنغرز بمبانيه فى منحدرات المقطّم.

كانت المعيشة فى أوتيل «الحياة» الإنجليزى أكثر مللاً ورتابة مما فى بانسيوننا لأن كل شىء كان خاضعا لقواعد السلوك الإنجليزية. بينما كانت الحياة فى «كونتيننتال» تسير بحرية أكثر وبدون تكلف كما فى المنزل؛ ولذا فليس من العجب أن الروس كانوا يأتون مرارا من مصح «الحياة» إلينا لزيارتنا فى الأماسى.

كانت لاريسا بتروفنا تحب المكوث لوحدها فى غرفتها عند المساء وكانت أحيانا تدعو والدتى أو شخصًا ما آخر من أقرب معارفها؛ ولكنها كانت على العموم تحب العِشرة...

أحيانا كان يزور لاريسا بتروفنا مهاجرون سياسيون من روسيا. وقد اتفق لى غير مرة أن شاهدت عندها أشخاصًا فى قمصان روسية نموذجية وأحيانًا ومطرّزة بتخريم روسى، أو أوكرانى، وفى جزمات، وفى قبعات من القش ذات حواف عريضة... وذات مرة زار لاريسا بتروفنا شخص متقدم جدا فى السن. كان يتكلم بالأوكرانية بطلاقة وأشركانى أيضا فى الحديث، وإذ جلست فى مكان أقرب شاهدت فى يدى لاريسا بتروفنا رزمة كبيرة من الرسائل وطرح هذا الشخص عدة أسئلة على وعما إذا كان يعجبنى العيش هنا؟، وروى لنا أنه تسلق مؤخرًا إلى هرم خوفو لوحده بدون دليل، وأنه عندما وصل إلى القمة أراد إنشاد أغنية أوكرانية و«لكن أنفاسه انحبست». لقد أحسست بأن هذا الشخص المرتدى لسبب ما سترة ذات تفصيل ألمانى هو وطنى كبير لأوكرانيا وأنه مكتئب؛ لأنه لا يستطيع العودة إلى الوطن، وأنه يحنى رأسه إجلالا أمام الموهبة الشعرية لليسيا أوكراينكا وكلمتها العزيزة المثيرة للشعور...

ميكولا أوخريمنكو

(تحت سماء مصر. ذكرياتى عن لاريسا بتروفنا كفيتكا. ليسيا اوكراينكا فى ذكريات معاصريها. مترجم عن الأوكرانية. موسكو ١٩٧١، ص ٢٦٨ ـ ٢٩٦).

(من رسالة ليسيا أوكراينكا إلى والدتها كوساتش) ٣/٢٨ (٤/١١) ١٩١٠ (مصر حلوان فيلا «كونتيننتال».

... سأتحدث الآن عن موضوع آخر ليس على الإطلاق أكثر مدعاة للسرور: عن صحتى. فلا شىء يجديها على ما يبدو. وقد يكون من العبث أننى تجرأت على حقن نفسى بدواء التوبيركولين (مستحضر «إيندوتين») وها قد مر شهران على البدء بهذه الحقن وبقيت درجة الحرارة طبيعية ١٩ يومًا فقط، وفيما عدا

ذلك كانت تحدث «ردة فعل» طوال الوقت، بل وإضافة إلى ذلك كادت رجلى أيضًا تتأثر تأثيرًا مضرا (١) ... ولكنها قد اعتادت الآن التوبيركولين أو لربما شفتها ريح الخماسين والحمّامات الكبريتية ولكننى قد ثُبت إلى رشدى، فلم تعد تضايقنى لا فى النوم ولا فى المشى رغم أنها تتبىء عن نفسها من حين إلى آخر الأرجح أن ريح الخماسين وهذا الكبريت ساعدانى؛ لأننا توقفنا مؤقتًا عن حقن التوربيركولين وعكفنا على معالجة الرجل، وبدأنا نجرب «الحمّام الشمسى» ولكن حدث أمر غريب إذ ارتفعت درجة حرارتى إلى ٣٨ درجة مئوية، ونبضى إلى ١١٥ نبضة ولحد الآن يخاف طبيبى تكرار هذه التجربة... وإذا لم يُظهر التحليل تحسنا جديا فى الكلى فلتحلّ اللعنة على هذا الإيندوتين إلى أبد الآبدين؛ ورغم أن الطبيب يقول: إنه ينبغى تكرار هذه «العلاجات» من وقت لآخر على مدى سنتين فقد عُفت ذلك وكفى.

... فى الأيام الأخيرة، انتعشت بعض الشىء وتحت تأثير الخماسين تمكنت من الكتابة بمواضيع مصرية فقط: «ريح الخماسين» «نفس الصحراء» «عفرة» (هكذا سميت الأشعار). آه لو رأيت شيطان الخماسين الأمغر هذا كيف يحوّل العالم إلى كابوس أصفر! إنه بالفعل الروح الشريرة تيفون !.. وفيما بعد فقط تحل «ريح الخماسين الهادئة» بدون رمل وأحجار طائرة فى الهواء، ولكن بتلوين أصفر ودرجة حرارة ٣٠ درجة فرنهايتية «فى الظل»، ومن ثم حل «تنفس الصحراء» بنفس درجة الحرارة ولكن بدون تلوين أصفر وبعده حلت «العفرة» - الصمت المطبق مع سماء مبيضة من القيظ (درجة الحرارة تبقى عينها)، وأخيرًا ريح شمالية وأمطار أما الآن فدرجة الحرارة عندنا معتدلة، ونحن نستمع بها، بينما سادت من قبل «ليال مصرية» كادت تجنّننا. وأصبحت حلوان نصف خالية بسبب الهروب الجماعى الجزع للسائحين. ولكننى أحس بالارتياح؛ لأننى كنت أريد معرفة ما تعنيه أفريقيا الحقيقة. والآن أصبحت أعرف ذلك. ولكن كفى. أتمنى لك الصحة يا أماه. قبّلى عنى من لديك من ذوينا. قبلاتى لك.

ابنتك ليسيا (ليسيا أوكراينكا. مجموعة مؤلفات. المجلد ٤. قصص مقالات رسائل. موسكو ١٩٥٧ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨).

(سلسلة أشعار ليسيا أوكراينكا «الربيع فى مصر».

(ريح الخماسين)

فى الصحراء المغراء عصفت ريح الخماسين

إنها تندفع فى الفضاء بشغف شديد وهى تمس الرمال بجناحها الجاف وتحرقها بزفيرها الملتهب.

إن ذلك لشبيه بعرس صاخب !

الرمل يغنى وكأنه ينفخ فى مزمار

منتهكًا الجمود الثقيل وتردد الحصى النغم كما لو أنها تقرع الدفوف.

فمن ذا الذى هناك فى الديجور الأصفر الدامس انبرى لإقامة احتفال على شرف الخماسين؟

ومَن الذى يرفرف بحواجب مثقوبة

محوّمًا بسرعة شديدة فى رقصة سهلة؟..

إن الراقصات اللطيفات الساحرات هى البنات الهوائيات للصحراء الواجمة !

«احجبى عينيك وإلا فسأطمرك بالعفار !»

وإذ الخماسين تغطى الراقصات

بمعطفها عن نظرى بغيرة شديدة.

ولن يتجاسر أحد على رؤيتهن.

وانحنى عربى إلى الأرض وسط الصحراء

كما فى ساعة الصلاة. «صل! صل»!

أنا الرب القديم، أنا إلهك بيت الجبار

أنا الذى مزقت أوزيريس إربا

ونثرت أجزاء جسده في أرجاء الصحراء،

آه، كم ناحت إيسيدا آنذاك....».

وإذا تذكرت الخماسين الماضى اغتبطت،

وانزاحت الصحراء من مكانها

واندفعت إلى السماء. وفى السماء الصفراء

أظلمت الشمس - عين أوزيريس ذاته

وخُيل لى أن العالم كله أصيب بالعمى...

٥/٤/١٩١٠، حلوان

نفس الصحراء

الصحراء تتنفس تنفسًا رتيبًا

والرمل مستلق، هادئ، ذهبى،

ولكن كل تلة وكل كثيب

وكل شىء يتذكر الخماسين هنا.

* * *

الفلاح الكادح يشيد بنايه،

فهنا سيجد حشد الأجانب العابرين

فندقًا وحديقة أثيثة.

الفلاح جبار فكل شىء من صنع يديه.

* * *

ثمة مصيبة واحدة - الواحات فى الصحراء

ليست لأجله... وها هو ينقش زخارف

تحت السطح ... والقماش يتماوج على جسمه،

والريح الحارة تنزلق على الا حة،

* * *

وتجفف العرق... وتنطلق بعيدًا إلى السهل...

تنطلق من جديد ومن جديد.... إن الصحراء تتنفس.

١٩١٠/٤/٥ حلوان

(عفرة)

صمت وسكينة. يخيّل أن الجو ماء راكد.

وجمدت أشجار الموز، فلا ورقة عليها ترتجف.

وحتى أشجار السنط ترزح فى استرخاء حار.

إنها تحلم وكأنها تحلم بدون حلم ...

(فمن أين إذن القعقعة والصفير؟

يُسمع قرع طبل ويصدح صوت بوق !

فيا هؤلاء انكتموا واخرسوا !

فلمن تلزم هذه الأغنية وما جدواها؟

فالإنجليز لا يأبهون بذلك ! إنهم يسيرون ويصخبون، وبمحاذاة النيل يمشون بتوعّد لكى يهتز البلد كله.

وما أن عبروا حتى خيم السكون وراءهم

وكأن ستارًا هائلاً، ثقيلاً، أصم هبط.

وطأطأت النخلات أغصانها الجافة بكآبة،

وكأن الرب نفسه سحق هذه الأغصان بيده.

(السماء تبيضّ من القيظ وتشيب.

فالنهار احترق كله فى صمت مشبع بالنار.

والليل شاحب؛ والظلمة أصيبت بالحيرة، ولا تجرؤ على الهبوط إلى السكينة اللاذعة.

ولا نجمة واحدة تلمع فى قبة السماء.

وبدا وكأن العالم ميت بلا نَفَس.

والطير لن يستجيب لنداء قبل النوم.

وفى كل مكان خطاطيف ترفرف لوحدها بدون ضجيج، وكأن الشرق يدعو إلى الاعتراف بالصمت والتسليم به.

إنها تصاعف الصمت بأجنحتها المخملية الهادئة.

(١٩١٠/٤/٦

(حلم)

الشمس تدفئ... هل هذه مصر؟

إنها مصر... خيمة زرقاء

لسماء عالية مليئة بالضياء.

يا له من علو! رحابة وغبطة.

(إنها مصر ...

* * *

يا للطف الهادئ... هل هذه أنت يا أوكرانيا؟

أجل أوكرانيا، إنها أوكرانيتى...

بيت فلاح وبستان ومروج خضراء،

وخلف جورة تمتد بركة بعيدًا .. بعيدًا

ها هى أوكرانيا ...

كفى تشردًا ... كفى توهانا ...

فالحياة ستغدو مشرقة... ويا موطنى العزيز

سوف تتخلص سوية من الآلام.

السماء لا تبكى، والناس لا يعبسون.

وحبذا النوم ورؤية هذا الحلم دائمًا...

فسوف تغدو الحياة مشرقة....

(١٩١٠/٤/٧ حلوان

(ليلة عاصفة)

ليلة دامسة الظلام وبعيدة الغور

(أعرف عيونًا نسائية كهذه)

والريح نشرت جناحيها العابثين.

إنها تندفع مسرعة، تركض من بعيد.

* * *

إن ريحى الشمالية هبت،

وأصبحت حارة كابنة الصحراء.

ريح الخماسين المشبوبة والجامحة.

فهل من زمان فارقت الشمال المسكين ؟

فهناك، حيث ينتهى الشتاء

وبياض الثلج كالثوب المبلل،

نعقتْ فى الغابات الكثيفة مثل البوم

وتسربتْ إلى البيوت مثل البرد.

ربما أنها أصيبت بولع

بالصحراء الذهبية، كما بصديقة

وهى تندفع ملفوحة باللهب

وكأنها ولدت فى الهبوب القائظ؟

وكأنها رمت رمادًا إلى نافذتى

وهى تتنزه فى غرفتى المظلمة

وتخشخش بالرمل وتطير خارجًا.

طيرى متى شئت، فالأمر سيان لى.

* * *

لقد أصبحت غريبة علىّ

ولم تجلبى لى أية بشارة

* * *

من بلادى الحميمة البعيدة

سوى أغانى حبك للصحراء.

٩/٤/١٩١٠ حلوان

(بشارة من الشمال)

ليس عبثًا أن هبت إلينا

ريح بلادى... وكل شىء أمامى،

خلف الغشاوة الضبابية،

وأخذت تتساقط قطرات المطر.

* * *

واندفع النسيم الطليق إلى

مسكنى ـ فهل فقدت إذن،

يا صديقى حميّتك الأخيرة؟

وهل أنك فترت أيها المقدام؟..

أم أنك أعجبت الصحراء،

أم تذكرت حبيبتك.

صديقتك فى بلاد الشمال.

أو إنك أجهشت بالبكاء فى الغربة؟

وتجيب الريح بحفيف الأوراق:

«من بلدك الحميم المسكين

أسرعتُ إلى هنا بهذه الدموع.

فأنت نفسك طلبت بشارة!»

١٠/٤/١٩١٠، حلوان

مترجمة إلى الروسية من الأوكرانية

ليسيا أوكرانيكا ـ مجموعة مؤلفات فى أربعة مجلدات ـ المجلد الأول ـ موسكو، ١٩٠٦ ص ٣٢٢ـ ٣٢٧).

تعليقات وملاحظات

تقارير إلى صاحب الجلالة :

١ ـ تحتوى التقارير إلى صاحب الجلالة على واحد من أثمن ملفات أرشيف سياسة روسيا الخارجية «تقارير وزارة الخارجية» عن أعوام ١٨٥٩ ـ ١٩٠٦. لم نجد فى أى زمن بعد الفترة المذكورة تقارير إلى صاحب الجلالة لا فى الملف الآنف الذكر، ولا فى أى ملف آخر موجود فى أرشيف سياسة روسيا الخارجية.

لكى يكوّن القارئ فكرة عن تقرير وزارة الخارجية ومكان مصر فى هذا التقرير المرفوع إلى صاحب الجلالة نورد فيما يلى بنية هذه الوثيقة الرسمية ولو عن عام ١٨٩٥.

يتألف التقرير من ستة أجزاء.

فى الجزء الأول ورد وصف مقتضب للأحداث السياسية، بالدرجة الأولى، فى بلدان أوروبا وأميركا الشمالية وأميركا اللاتينية، وعرض بهذا الشكل أو ذاك موقف الحكومة الإمبراطورية الروسية حيال هذه الأحداث. تم تناول الدول حسب الترتيب التالى: ألمانيا، النمسا=المجر، إنجلترا، فرنسا، بلجيكا هولندا، إيطاليا، كوريا، الرومانية، إسبانيا، البرتغال، السويد والنرويج الدانمرك

سويسرا، البرازيل المكسيك الولايات المتحدة لأميركا الشمالية وبعد ذلك تأتى الخاتمة.

الجزء الثانى: يدعى «تقرير خاص بالدائرة الآسيوية» ويتضمن:

١ ـ رومانيا

٢ ـ صيربيا

٣ ـ تشــيرنوغوريا

٤ ـ بوســنيا وهيرتسيفوفينا

٥ ـ بلغاريا

٦ ـ مقدونيا

٧ ـ كانديا

٨ ـ سوريا

٩ ـ الشؤون الكنيسية

(أ) بطريركية أورشليم

(ب) البطريركية الكونية (جـ) بطريركية أنطاكية

(جـ) تشيترال،

(د) الكنيسة البلغارية

١٠ ـ مصر

١١ ـ الشؤون الأرمنية،

١٢ ـ آسيا الوسطى

(أ) بخارى،

(ب) بامير

(د) أفغانستان

١٣ إيران

١٤ ـ الشرق الأقصى.

الجزء الثالث ـ «تقرير خاص بدائرة العلاقات الداخلية» يتضمن:

١ ـ الشمال

٢ ـ شؤون الحدود

٣ ـ حركة النزوح (الهجرة إلى الخارج)

٤ ـ الشؤون الصحية

٥ ـ المعاهدات الدولية

٦ ـ مطبوعات دائرة العلاقات الداخلية.

الجزء الرابع: يتضمن تقرير خاص بدائرة الملاك والشؤون الاقتصادية؛ والجزء الخامس يتضمن «تقرير خاص بأرشيف الدولة الرئيسى وأرشيف سان بطرسبورغ الرئيسى»؛ والجزء السادس يتضمن «تقرير أرشيف موسكو الرئيسى لوزارة الخارجية».

طبيعى أن بنية التقرير إلى صاحب الجلالة كانت انعكاسًا دقيقًا للاتجاهات الأساسية للسياسية الخارجية للحكومة الروسية خلال العام المعنى. ولأسباب لا نعلمها لا توجد تقارير لوزارة الخارجية عن بعض أعوام المرحلة المعنية لأعوام ١٨٥٨ ـ ١٩٠٦. ٢ ـ الكونت نيقولاى بافلوفيتش أغناتييف ـ المبعوث فوق العادة لروسيا لدى الباب العالى العثمانى فى أعوام ١٨٦٤ ـ ١٨٧٧ حل محله فى عامى ١٨٧٨ ـ ١٨٧٩ الأمير لوبانوف روستوفسكى، ومن عام ١٨٧٩ إلى عام ١٨٨١ نوفيكوف. فى أعوام ١٨٨٢ ـ ١٨٩٧ كان نيليدوف سفيرا فوق العادة ومطلق الصلاحية لروسيا فى تركيا ومن عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٨ زينوفييف.

٣ ـ المستشار الوزارى إيفان ألكسندروفيتش ليكس ـ قنصل روسيا العام فى مصر من عام ١٨٦٧ إلى عام ١٨٨٢ ـ وقبله منذ عام ١٨٦٢ على أقل تقدير كان إلكسى يفيموفيتش لاغوفسكى قنصلاً عامًا لروسيا فى مصر. ومن عام ١٨٨٣ إلى عام ١٨٨٦ كان خيتروفو وكيلا دبلوماسيًا وقنصلاً عامًا لروسيا فى مصر. ومن عام ١٨٨٧ إلى عام ١٩٠٢ كان وكيلاً دبلوماسيًا وقنصلاً عامًا المستشار السرى الفعلى ألكسندر إيفانوفيتش كوياندر، وفى أعوام ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ كان مستشار الدولة الفعلى بيوتر فاسيلييفيتش مكسيموف وابتداء من إبريل ١٩٠٥م كان رئيس الديوان، ومن ثم مستشار الدولة الفعلى ألكسى إلكسندروفيتش سميرنوف الذى مثّل مصالح روسيا القيصرية حتى وفاته عام ١٩٢٤ (لم يعترف بثورة أكتوبر والسلطة السوفييتية). المعطيات بصدد الملاحظتين ٢ و٣ مأخوذة من الحوليات الدبلوماسية للأعوام المطابقة.

البنية العامة للتمثيل الدبلوماسى لروسيا فى مصر وقوامه كانا، فى عام ١٩٠١ مثلاً، على النحو التالى: الوكالة والقنصلية العامة كانتا موجودتين فى القاهرة، فى شارع عماد الدين (الإسماعيلية)، رقم ١٦. الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام المستشار السرى الفعلى كوياندر. السكرتير مستشار البلاط أركادى نيقولايفيتش برونيفسكى. الدبلوماسى، الملحق بالوكيل الدبلوماسى المستشار الوزارى غيورغى فاسيلييفتش أبيغ.

نيابة القنصلية فى القاهرة كانت تقع فى شارع المغربى (الإسماعيلية)، رقم ٢. وكان نائبًا للقنصل المعاون الوزارى الكسى فيودوروفيتش شيبونين. والترجمان قسطنطين جوزف.

القنصلية فى الإسكندرية كانت تقع فى شارع الرشيد، رقم ٦٨. وكان نائبًا للقنصل مستشار الدولة ألكسندر فيودوروفيتش إيفانوف. والسكرتير الأمين الوزارى الكسى الكسندروفيتش بازيليفسكى. والترجمان زكى فرعون.

القنصل فى بورسعيد هنريخ برون. نائب القنصل فى السويس نيكولاس كوستا. نائب القنصل فى دمياط سلام رزوق. عميد نيابة القنصلية فى المنصورة عزيز جريس. عميد نيابة القنصلية فى الإسماعيلية ماتكوفيتش. عميد وكالة القنصلية فى الزقازيق بازانيلا. الوكيل القنصلى فى طنطا إسكندر عوض الله. الوكيل النصلى فى أسيوط إيليا بيشاى، والوكلاء القنصليون فى جرجا سرجيوس بطرس، وفى قنا بقتر بشارة وفى إسنا ستفانوس، وفى الأقصر السعيد عيّاد، وفى سوهاج جرجس بيه بطرس وعميد الوكالة القنصلية فى بنى سويف عازر روفائيل، وعميد الوكالة القنصلية فى المنيا بشرى حنا (الدليل المصرى الإدارى والتجارى لعام ١٩٠٢، الإسكندرية ١٩٠١؛ الحولية الدبلوماسية للإمبراطورية الروسية لعام ١٩٠١. سان بطرسبورغ).

٤ ـ من دواعى الأسف أن عدم وجود تقريرين إلى صاحب الجلالة عن عامى ١٨٨٢ و١٨٨٣ لا يتيح متابعة سياسية الحكومة الإمبراطورية فى هذه الفترة الهامة للغاية من حياة الشعب المصرى وفق هاتين الوثيقتين بالذات. عن هذا النقص نعوض لاحقًا، إلى حد معين، ببلاغات العقيد سولوغوب الذى أوفدته الأركان العامة الروسية إلى مصر أثناء التدخل البريطانى.

٥ ـ المقصود هنا زيارة مصر فى نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٨٩٠ من جانب نجلى القيصر ألكسندر الثالث: صاحبى السمو الإمبراطورى وريث العرش نيقولاى ألكسندروفيتش (القيصر نيقولاى الثانى اعتبارا من عام ١٨٩٤) وشقيقه الأمير الأكبر الأعظم الجليل غيورغى ألكسندروفيتش. وفى ٩ من نوفمبر وصلا إلى بورسعيد على متن الفرقاطة «ذكرى آزوف»، وتابعا طريقهما من ثم عبر قناة السويس حتى الإسماعيلية، ومنها وصلا إلى القاهرة. استقبلهما الخديوى والحكومة استقبالاً مهيبًا. تعرفا على القاهرة حتى ١٤ نوفمبر، وبعد ذلك قاما بجولة إلى مصر العليا حسب خط المعتاد: القاهرة ـ الأقصر ـ أسوان ـ القاهرة، وفى ٢٧ نوفمبر جرت حفلات توديع فاخرة لصاحبى السمو الجليلين اللذين سافرا إلى السويس بالقطار (أرشيف سياسة روسيا الخارجية. الأرشيف السياسى، المستند ٨٢٨ عام ١٨٩٠، ص ١٣٩ ـ ١٤٢).

بالمناسبة أمضى بضعة أشهر من فصل الشتاء لعام ١٨٩٩/١٨٩٠ بصورة متنكرة فى مصر صاحب السمو الإمبراطورى الأمير الأعظم بيوتر نيقولايفيتش مع صاحبة السمو الجليل عقيلته ميليتسيا نيقولايفنا. بناء على نصيحة الأطباء أمضى الأمير الأعظم أشهر الشتاء فى مصر العليا - فى الأقصر وسافر إلى أسوان، وبعدها جاء إلى القاهرة حيث قضى أسبوعين آخرين نزولا على إلحاح الطبيب؛ وإذ حافظ على التنكر الصارم لم يقم بزيارة وداعية للخديوى إلا قبل موعد السفر مباشرة. يشير المصدر الدبلوماسى إلى أن «الإقامة فى مصر مارست تأثيرًا طيبًا للغاية على صحة صاحب السمو الجليل المريض». (أرشيف سياسة روسيا الخارجية. الأرشيف السياسى، المستند ٨٢٨، عام ١٨٩٠ ص ٢٥ - ٢٥ ظهر). إن أمثال هذه الرحلات من جانب أفراد السلالة القيصرية للراحة والاستشفاء إلى مصر كانت دائمة. ففى عام ١٨٨٨ زار مصر شقيقًا السيد الإمبراطور ألكسندر الثالث (المرجع السابق، ص ١٥١ ظهر). وكانت ثمة، بالطبع، زيارات جوابية. ففى عام ١٨٨٨ نفسه، ونزولا على إلحاح والده، قام الخديوى عباس حلمى الثانى، وهو فتى فى الخامسة عشرة من عمره، مع شقيقه محمد على بجولة فى ربوع روسيا، وقد نوه بعد الزيارة بأنه «لن ينسى أبدًا العناية اللطيفة السامية التى أولاه إياها السيد الإمبراطور ألكسندر الثالث وأنه سوف يعتبر نفسه دائمًا عاجزًا عن وفاء دين اللطف الذى أسبغوه عليه فى ذلك الحين» (أرشيف سياسة روسيا الخارجية. القنصلية العامة فى مصر المستند ٢٨٥، أعوام ١٨٩٦ - ١٩٠١، القنصلية العامة فى مصر، المستند ٢٨٥ أعوام ١٨٩٦ - ١٩٠١ ص ١٩٦ - ١٩٦ ظهر). وصيف عام ١٩٠٠ زار عباس حلمى الثانى مدينة أوديسا (المرجع السابق، ص ٩٣). وفى أواخر شهر مايو (أيار) ١٩٠٢ وبموجب الإرادة الإمبراطورية السامية، قام الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام كوياندر، فى جو احتفالى بتقليد الخديوى عباس حلمى وسام القديس ألكسندر نيفسكى المرصع بالماسات (المرجع السابق، ص ٢٤٦).

صيف عام ١٩٠٩، وفى طريقه فى رحلة إلى اليابان،

اجتاز الأمير محمد على شقيق الخديوى، روسيا كلها ووصل إلى الشرق الأقصى على خط سكك حديد سيبيريا. وصيف عام ١٩١٠ قام كذلك بجولة إلى آسيا الوسطى والقفقاس (المرجع السابق، المستند ١٥٤، عاما ١٩١٠ ـ ١٩١١، ص٢٢ ـ ٢٣ ظهر). وفى أواخر القرن التاسع عشر ـ أوائل القرن العشرين من جهة أخرى، وفى كل عام تقريبًا كان يقوم بزيارة لمصر أحد ما من أفراد أسرة رومانوف المالكة الكثيرى العدد. وبإيجاز، يمكن القول أن الزيارات المتبادلة غير الرسمية، أو إن صح القول شبه الرسمية (لأن وضع الولاية التركية لم يكن يسمح آنذاك بأكثر من ذلك مع الأسف): رحلات أفراد السلالتين الحاكمتين فى بلدينا ـ أسرة رومانوف وأسرة محمد على ـ كانت جزءًا ثابتًا للعلاقات الروسية ـ المصرية فى النصف الثانى من القرن الـ١٩ وأوائل القرن الـ٢٠.

٦ ـ من سبتمبر (أيلول) ١٨٩٣ إلى فبراير (شباط) ١٨٩٤ كان يترأس وزارة الداخلية ماهر باشا رجل الدولة المصرى ذو الميول الوطنية، وأحد الذين تعرضوا، بسبب موقفهم الراسخ المناهض للسياسة البريطانية، لتهجمات لا نهاية لها وضغوط دائمة من جانب سلطات الاحتلال. لهذا بالذات فإنه أحيل إلى منصب محافظ فى بورسعيد بناء على إلحاح اللورد كرومر الذى اتهم ماهر باشا بأنه كان يحرض الخديوى عباس حلمى الثانى على الإنجليز. وكان هذا، بدوره، يعقد آمالاً كبيرة فى مواجهته للإنجليز على ماهر باشا.

٧ ـ قدّر الدبلوماسى الروسى تقديرًا صريحًا للغاية ردة الفعل فى مصر على هزيمة روسيا فى الحرب الروسية ـ اليابانية. وفى رأينا أنه لا ينبغى أن يكون هنا تعليق وحيد المدلول. فإن هزيمة روسيا قوبلت هنا، فعلاً بالسرور، ولكن لا كهزيمة بلد ينهج سياسة معادية للإسلام (رغم أن النهج السياسى الداخلى للقيصرية كان معاديًا للمصالح القومية لشعوب عديدة كانت تقطن الإمبراطورية بما فيها الشعب الروسى نفسه أيضًا)، بل كهزيمة دولة عظمى تغلب عليها بلد آسيوى. وهذه المشاعر يمكن فهمها أيضًا لأن دولة عظمى مماثلة كانت تضطهد مصر. لقد كانت مشاعر الشعب المصرى إلى جانب اليابان. غير أن خطأ

القوميين المصريين كان يكمن فى أنه كان ينبغى عليهم أن ينظروا إلى الحرب بين روسيا واليابان، على وجه الدقة، نظرتهم إلى صدام بين دولتين إمبرياليتين تتصارعان فى سبيل إعادة اقتسام الشرق الأقصى إلى مناطق نفوذ، وإنه تغلب فى هذا الصراع وحش إمبريالى فتى وقوى العزيمة حطم النظام القيصرى المهترئ الذى لم يكن يبقى له من العمر سوى ١٣ سنة.

٨ ـ التقارير الموجهة إلى صاحب الجلالة، التى انتهت بعام ١٩٠٦ ضمنًا كان يمكن ردفها، بالنسبة للأعوام اللاحقة، ببلاغات دبلوماسية من ملفات: «القنصلية العامة فى مصر» و«الأرشيف السياسى» و«السفارة فى القسطنطينية» و«ديوان وزارة الخارجية» إلخ.. ولكننا لم نقدم على ذلك نظرًا للانتفاء الذاتى المحتمل من جانبنا لهذه البلاغات، هذا الانتفاء الذى كان ينبغى علينا أن نقوم به من عدد وحجم هائلين لبلاغات الدبلوماسيين الروس فى مصر.

٩ ـ هنا أيضًا كما يبدو، أخطأ الدبلوماسى الروسى بعض الشىء فى تقدير الأحداث اللاحقة. فإن حقد المصريين ـ فى الأساس ـ كان موجهًا لا ضد المسيحيين بل ضد المستعمرين الذين يتصرفون ويتسلطون بعنف ودون منازع فى بلد غير بلدهم، وكذلك فى الوقت نفسه ضد جميع الأجانب الذين يؤيدونهم. فى هذه الحالة سار المبعوث الروسى فى مصر ألكسى سميرنوف (وعلى أساس رسائله المستعجلة الدبلوماسية بالذات كانت تجرى، بالدرجة الأولى، صياغة القسم المكرس لمصر من التقرير الموجه إلى صاحب الجلالة) فى ركاب التفسيرات البريطانية لأحداث دنشواى. علمًا بأن الوقائع نفسها قدمها بصورة خاطئة. ناهيك عن أن «قضية دنشواى» سبقها بضع دعاوى دنشوانية «صغيرة» على امتداد أعوام ١٨٨٣ ـ ١٩٠٦ بالسيناريو نفسه تقريبًا. لذا ينبغى أن يدور الحديث لا عن تعصب المسلمين الدينى وحقدهم على المسيحيين بل عن ردة الفعل الطبيعية للفلاحين المصريين الذين كان صيد الإنجليز (بل وأجانب آخرين أيضًا) للحمام القروى يشكل بالنسبة لهم خطرًا مباشرًا على حياتهم.

١٠ - التدخل الإنجليزى فى مصر واحتلالها فى أعقاب ذلك أعاقا إليكس فى وضع هذا التقرير، ولذا فإن التقرير الذى وعد به عن عام ١٨٨٢ لم يظهر. وتعوّض عنه بدرجة معينة بلاغات العقيد سولوغوب المثيرة للاهتمام.

مأمورية العقيد سولوغوب إلى مصر

١١ - النصف امبريال - عملة ذهبية روسية قيمتها عشرة روبلات فضة وبضعة كوبيكات حسب السعر الجارى.

١٢ - استباقًا للأحداث نشير إلى أن الإنجليز رفضوا السماح للعقيد سولوغوب بدخول موقع الجيش العامل كمراقب عسكرى رغم أنه كان أثناء مأموريته يضطلع بواجبات للقنصل العام الروسى بدلاً من إيفان ليكس الذى سافر فى إجازة. نشير بصورة عابرة إلى أننا لم نورد فى الكتاب جميع بلاغات سولوغوب نظرًا لحجمها الكبير. وبلغ مجمل ما أرسله من مصر ١٠ بلاغات.

١٣ - إحدى السفن الروسية التى كانت مهمتها الرئيسية إجلاء الرعايا الروس.

١٤ - السفينة الشراعية بمحرك «زابياكا» - إحدى السفينتين الحربيتين الروسيتين اللتين كانتا موجودتين عند شواطئ مصر أثناء العمليات الحربية لفيلق التجريدة الإنجليزى.

١٥ - فى ٢٠ من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٨٢ سلّم العقيد سولوغوب إدارة الوكالة الدبلوماسية الروسية إلى ليكس الذى ارتحل من الإسكندرية فى ٣ من ديسمبر (كانون الأول) ووصل بعد خمسة أيام إلى القسطنطينية.

نشاط المهاجرين السياسيين الروس فى مصر

١٦ - إن هذا المستند من «الأرشيف السياسى» (رقم ٢٤٠٧)، شأنه شأن ما يتبعه من مواد أرشيف الدولة المركزى لثورة أكتوبر والأرشيف الحزبى المركزى، مرتبط بأهم أحداث روسيا ما قبل الثورة التى تتعلق بنشاط لينين الخاص بإنشاء

الحزب البلشفى. ربما أن ليس كل القراء على علم بأنه كانت لمصر، عند ظهور هذا الحزب الثورى، صلة مباشرة تمامًا بذلك. لنتوقف عند هذا الموضوع بمزيد من التفصيل.

كان لينين، لدى طرحه مهمة إنشاء حزب من طراز جديد قادر على ترؤس النضال الثورى فى روسيا، يرتأى فى ظروف الملاحقات الدائمة والترصد المتواصل على الاشتراكيين ـ الديمقراطيين من جانب البوليس السرى القيصرى إصدار جريدة لعموم روسيا فى الخارج. وكان ينبغى على هذه الجريدة أن توحد مجموعات الثوريين المبعثرة داخل البلاد، وتصوغ البرنامج وتحضر مؤتمر الحزب. وفى يناير (كانون الثانى) ١٩٠١ صدر فى ليبزيغ العدد الأول من جريدة «ايسكرا» «الشرارة» التى كان يترتب عليها أداء هذه الرسالة.

وبرزت بشكل حاد مسألة إيصال هذه الجريدة إلى روسيا، وكذلك مؤلفات لينين وسائر الاشتراكيين ـ الديمقراطيين من اتجاه «ايسكرا» الذين كانوا موجودين فى المهجر. فى البدء كانت هذه المطبوعات السرية ترسل عبر الحدود إلى روسيا فى حقائب ذات جدران وقاع مزدوجة بواسطة أربعة طرق أساسية: طريق غاليسيا (عبر بلغاريا ورومانيا)، طريق بروسيا(مع التعريج على فيلنيوس)، طريق إيران (فيينا ـ تبريز ـ باكو) طريق مرسليا (على متن بواخر فرنسية من مرسيليا إلى باطوم) وحتى عام ١٩٠٢ تم إيصال حوالى ١٢٠ بودا (البود يعادل ١٦,٣٨ كيلوغرامًا) من المطبوعات السرية إلى روسيا. غير أن طريقة الإيصال هذه للمطبوعات الثورية لم تكن تلبى إطلاقًا الطلب عليها فى روسيا. وصيف عام ١٩٠١ ظهرت مطبعتان سريتان فى كيشينيوف وباكو. وشيئًا فشيئًا أخذ يتكون حزب ثورى على قاعدة جريدة «ايسكرا». وانتقل رجال التحرى القيصريون إلى الهجوم. فاجتاحوا اللجان الاشتراكية ـ الديمقراطية، واعتقلوا كثيرين من الثوريين، وقضوا على كثير من نقاط إعادة إرسال «ايسكرا» الواقعة على الحدود والتى كان يجرى عبرها إيصال هذه الجريدة إلى داخل حدود الامبراطورية. وحدثت إخفاقات فى كل مكان تقريبًا. وأخذ رجل التحرى المعروف زوباتوف

يفرك يديه فرحًا: لقد خيل أن القمع كان تامًا. ولكن رجال التحرى القيصريين أخطأوا. فمنذ أواخر يناير (كانون الثانى) ١٩٠٢، فى عز عمليات التنكيل، عقد فى سامارا مؤتمر ممثلى «ايسكرا» فى روسيا الذى صاغ المهمة القريبة القادمة: إعادة تنظيم اللجان الاشتراكية - الديمقراطية المقموعة وتوحيدها مع اللجان التى بقيت سالمة ومواصلة النضال فى سبيل إنشاء حزب قوى. وأخذت تتزايد الحاجة إلى مطبوعات ثورية. ولذا باشرت هيئة تحرير «ايسكرا»، إلى جانب استعادة القنوات السابقة لإرسال هذه الجريدة فى إقامة طرق مواصلات جديدة، بأن وسعت إلى حد كبير جغرافيا إيصال المطبوعات السرية بحيث أنها امتدت من منطقة التوندرا فى القطب الشمالى إلى القارة الإفريقية. وتلقت مجموعة «ايسكرا» فى خيرسون البودات الثلاثة الأولى من المطبوعات السرية عبر مدينة الإسكندرية المصرية، بعد أن نظمت طريقها لإيصال «ايسكرا» على أرض مصر، إن الطريق المصرى لايصال (ايسكرا) قد عمل بصورة ناجحة تمامًا حتى خريف عام ١٩٠٢. ورغم فشله فى شهر سبتمبر (أيلول) عاد الاشتراكيون - الديمقراطيون الروس عدة مرات إلى فكرة استخدامه للأغراض السابقة.

غير أن الترصد والتجسس البوليسيين الشديدين أرغمًا هيئة تحرير «ايسكرا» على التخلى عن «الطريق المصرى» (من بين الذين تحدثوا عن ذلك تريتياكوف - فيريسودسكى الذى وصل فى مارس (آذار) ١٩٠٣ إلى جنيف التى كانت توجد فيها هيئة تحرير «ايسكرا» فى ذلك الزمن). ولكن «الطريق المصرى» رغم عمره القصير الأمد، يحتل مكانًا هامًا فى «البريد الاشتراكى» الروسى. فبمساعدة «الطريق المصرى» نقل إلى الإسكندرية، فى إحدى أصعب الفترات حوالى، حوالى ١٥ بودا من مطبوعات «ايسكرا» التى وصل قسم كبير منها إلى روسيا. كانت المطبوعات السرية، التى أوصلت بـ «الطريق المصرى»، تحتوى رغم مقدارها غير الكبير نسبيًا على مطبوعات آنية بالنسبة لعصرها: جريدة «ايسكرا»، المجلة النظرية «زاريا» «الفجر»، مؤلف لينين «ما العمل؟». وكانت الاشتراكية - الديمقراطية الروسية بحاجة ماسة إلى هذه المطبوعات وغيرها

عشية المؤتمر الثانى التاريخى الأهمية لحزب العمال الاشتراكى ـ الديمقراطى فى روسيا.

١٧ ـ إن فيريسوديسكى وتريتياكوف هما، بالفعل شخص واحد؛ ولقد كان ذلك من باب التمويه.

١٨ ـ رسالة هيئة تحرير «ايسكرا» هذه المرسلة إلى روسيا فضّها رجال التحرى واطلعوا عليها.

١٩ ـ قبل عملية التفتيش مباشرة تمكن المسؤولون من نقل المطبوعات السرية وإحراقها.

٢٠ ـ توجد فى حوزتنا واحدة من رسالتين معروفتين لدينا أرسلتهما كروبسكايا (زوجة لينين)، سكرتيرة هيئة تحرير «ايسكرا»، إلى مصر، وفقد أيضًا الجوابان على هاتين الرسالتين. علمًا بأن الجزء الثانى من رسالة كروبسكايا هذه ينشر لأول مرة.

٢١ ـ هنا وقع خطأ. ينبغى قراءة: فيريسودسكى. وكما نرى فإن المرسلة نفسها ـ هيئة تحرير «ايسكرا» ـ لم تستطع فهم التمويه الجارى من جانب البحّارة.

٢٢ ـ هذا الموضوع من حياة المهاجرين السياسيين الروس على أرض مصر مكرس للأحداث المتعلقة بالثورة الروسية الأولى أعوام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧. المقصود هنا اللجوء السياسى لبحارة الأسطول التجارى الروسى (وليس بحارة من الطراد «بوتيومكين» كما ورد فى بعض المطبوعات المصرية) الذين شاركوا بنشاط فى اضطرابات طواقم البواخر فى أوديسا عام ١٩٠٦. إلا أنه لم تتسن لهم الاستفادة من اللجوء السياسى على أرض مصر المضيافة، وذلك بسبب الموقف الصارم من جانب السلطات الدبلوماسية الروسية فى مصر. زد على ذلك أنها اتهمت الثوريين بمحاولة تفجير باخرة روسية رغم أنه لم تكن ثمة أدلة كافية على هذا الاتهام. أما الباقى فيفهمه القارئ من البلاغات المنشورة.

٢٣ ـ لم نعمد قصدًا إلى حذف بعض التعابير، وذلك بغية الحفاظ على أسلوب وموقف الممثلين الدبلوماسيين للاستبداد الروسى فى الخارج، وكذلك إجراءاتهم القاسية ضد الثوريين التى اكتسبت مسحة معادية للسامية واضحة المعالم حاولت السلطات الروسية بمساعدتها (سواء فى روسيا أم فى الخارج) قمع الحـ ـ التحررية فى روسيا.

٢٤ ـ يقصد سميرنوف بمصطلح «العمال التقنيين» الإخصائيين التقنيين الجدد العمال فى الفروع العصرية للإنتاج.

٢٥ ـ كان العمال الأجانب فى وقت أبكر بينما هنا «الفئات الدنيا من السكان» يقفون مع ذلك لا ضد روسيا بل ضد الطغاة الذين كانوا ينظمون ملاحقات حقيقية بحق الثوريين الروس حينما كان بهذا الصدد على الأرجح، يمكن التحدث عن شعور التضمن إن لم يكن الطبقى فالإنسانى البحت من جانب أبناء الفئات الفقيرة من السكان المحليين أم الأجانب على السواء.

٢٦ ـ بهذا البلاغ نفتتح صفحة جديدة من نشاط المهاجرين السياسيين الروس فى مصر عامى ١٩١٢ ـ ١٩١٣. لقد اُتهم المهاجر السياسى الروسى المعتقل ميخائيل أوداموفيتش بأنه كان يرأس «المركز فى الخارج»، ويصدر فى الإسكندرية المجلة السرية «موررياك» («البحّار»)، ويقوم مع رفاقه بدعاية ثورية وسط طواقم السفن الروسية فى ميناء الإسكندرية.

كان أداموفيتش ثوريًا محترفًا واشترك فى الثورة الروسية الأولى، وقاد اضطرابات عمال السفن فى اوديسا عام ١٩٠٦. كانت إحدى خدماته الرئيسية إصدار «مجلة موررياك» بادئ الأمر فى القسطنطينية عام ١٩١١، وابتداء من أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٢ فى الإسكندرية. لم تكن «موررياك» مجلة ثورية بحتة فقد كان هدفها الرئيسى إنشاء نقابة لبحارة البواخر التجارية فى البحر الأسود. إلا أن هيئة تحريرها كانت تضم قوى كبيرة وتقيم صلات وثيقة مع حزب العمال الاشتراكى = الديمقراطى فى روسيا.

فى ظرف أسبوع،، من ١٤ إلى ٢١ من فبراير (شباط) ١٩١٣، عقد فى الإسكندرية مؤتمر سرى للمنظمات المهنية البحرية لطواقم البواخر الروسية شارك فى عمله ممثلو بحارة بحر البلطيق وبحر قزوين والبحر الأسود الذين كانوا يمثلون ٦ آلاف عضو فى النقابة. كان «المركز فى الخارج» وهيئة تحرير مجلة «مورياك» يقومان عبر الإسكندرية بإيصال جريدة «برافدا» («الحقيقة») البلشفية إلى روسيا. بالمناسبة أثناء تفتيش بيت أداموفيتش عثر على رسالة من جريدة «برافدا». كان الثوريون يقومون بعمل توضيحى وسط البحارة الحربيين لثلاث سفن تزور ميناء الإسكندرية، بينها السفينة الحربية «أوليغ» التى ألقى القبض على أحد المحرضين على متنها.

المسائل المرتبطة باعتقال أداموفيتش نوقشت فى جلسة مجلس وزراء روسيا ورفعت إلى القيصر. ويرى القارئ أى صدى عالمى أحدثه اعتقال هذا الثورى، وكذلك ردة الفعل عليه فى مصر نفسها.

أعلن رئيس جندرمة أوديسا العقيد زافارزين فى فبراير (شباط) ١٩١٣ أن نشاط المنظمات الثورية البحرية فى القسطنطينية والإسكندرية اتخذ «طابعا مهددًا». وتسنى لرجال تحرى أوديسا ادخال عميل لهم إلى «المركز فى الخارج». ولم يتخلف عنهم الوكيل الدبلوماسى الروسى فى مصر سميرنوف. وجرت مناقشة إجراءات مكافحة مجلة «موريـاك» فى اجتماع خاص لمجلس وزراء روسيا بمشاركة رئيس الوزراء كوكوفتسيف ووزير العدل شيغلوف ووزير الداخلية ماكلاكوف. ورفعوا تقريرًا إلى القيصر طلبوا فيه السماح باعتقال «الثورى أداموفيتش القاطن فى الإسكندرية». وبمساعدة البوليس المصرى والمشاركة المباشرة من جانب المبعوث سميرنوف تم اعتقال أداموفيتش. لقد كان ذلك حسب أقوال الثوريين الروس «عملية قمع إسكندرية» قام بها «أذناب القيصر الروسى» وهم يقصدون ضمنهم أيضا الممثل البريطانى فى مصر كيتشنر.

أبدت الصحافة المصرية المحلية والمصريون تعاطفهم مع الموقوفين واتخذت ٨٠ نقابة فى إنجلترا قرار احتجاج. وأشار كاير هاردى المعروف بصلاته مع

محمد فريد،، فى استجوابه إلى مجلس الوزراء البريطانى إلى أن أداموفيتش كان يعمل لاستمالة البحارة إلى النقابة وليس فى ذلك ما يستحق اللوم لأنه عمل اعتيادى للنشطاء النقابيين فى الموانئ.

فى ٦ من يونيو (حزيران) ١٩١٣ قام أداموفيتش بمحاولة للفرار من سجن الحضرة فى الإسكندرية. ففى الموعد المتفق عليه وأثناء النزهة اختار أداموفيتش لحظة معينة وتسلق حائط السجن وقفز إلى تحت حيث كانت تنتظره دراجة هوائية. ولدى السقوط أصيب برضوض شديدة فى رجله فقبض عليه الحارس الذى عبر عن عطفه له عندما علم أنه معتقل سياسى بل لا جنائى عموما.

بحذر فائق خوفًا من الهجوم بهدف انتزاع الموقوفين قام رجال الجندرمة بنقلهم إلى أوديسا فى صناديق خشبية كبيرة لعنابر السفينة «الاميرال كورنيلوف» كما قالت بعض المعلومات. بقى المعتقلون ١١ شهرًا فى سجن أوديسا بانتظار المحاكمة. وكانت تنتظرهم مدد طويلة «جزاء الاشتراك فى تآمر سرى بهدف الإطاحة بنظام الدولة والنظام الاجتماعى فى روسيا» وقد أحيل إلى المحاكمة بالإجمال ٧٠ شخصًا وحرر ٩٨ مجلدًا من مواد التحقيق.

وعقدت المحاكمة فى ٢ ـ ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٤ بعد بدء الحرب العالمية الأولى. وبموجب قرار المحكمة قضى على ١٤ شخصًا بمن فيهم أداموفيتش، بالنفى إلى سيبيريا مدى الحياة، وحكم على اثنين بالأشغال الشاقة.

بعد اعتقال أداموفيتش أثبت البوليس أن نشاط الثوريين وسط البحارة مازال مستمرًا بما فى ذلك مصر أيضا. وفى مايو (أيار) ١٩١٤ وجهت دائرة البوليس كتابًا إلى وزارة خارجية روسيا طلبت فيه اعتقال القائد الجديد لبحارة البحر الأسود ـ كلوتشكو ـ فى القسطنطينية أو الإسكندرية. غير أنه لم يتسنّ للدبلوماسيين القيصريين العثور على أخلاف أداموفيتش: باستريتشيف وتوروسوف وكلوتشكو و «مانيا» (اسم مستعار) فى الإسكندرية.

٢٧ ـ هذه الوثيقة والوثائق اللاحقة تتحدث عن ثورة فبراير (شباط) ١٩١٧ التى أسفرت عن الإطاحة بالنظام القيصرى واستلام السلطة من جانب حكومة

مؤقتة برئاسة كيرينسكى. فى هذه الوثائق يدور الحديث أساسا عن ردة فعل الجالية الروسية على هذا الحدث الكبير فى روسيا.

٢٨ ـ خمس وثائق، بما فيها هذا البلاغ للقنصل الروسى فى الإسكندرية متعلقة مباشرة بثورة أكتوبر المقبلة فى روسيا.

فى ٣ يناير (كانون الثانى) ١٩١٧ اصطدمت السفينة الحربية الروسية «بيريسفيت» بلغم وغرقت لدى خروجها من قناة السويس عند بورسعيد. ومن جراء الانفجار هلك ٨٠ شخصا، وجرح ١٤٠ وبقى سالما ٧٢٠ بحارا. البحارة الذين تم إنقاذهم اسكنوا فى مخيم أقيم قرب بورسعيد أما الجرحى فقد نقلوه إلى مستشفى عسكرى إنجليزى. وفى ٢٨ مارس (آذار) ١٩١٧ تم إرسال قسم كبير من الطاقم إلى فرنسا بسبب «وضع الحياة غير الطبيعى والنقص فى البزات». وصيف عام ١٩١٧ عينت الأركان العامة البحرية لجنة لاستيضاح أسباب غرق السفينة «بيريسفيت» وتنظيم عملية رفعها إلى سطح المياه والاطلاع على الأعطال. ومن أجل هذه الغاية أوفد إلى بورسعيد الوكيل البحرى الروسى فى اليونان الملازم أول ماكالينسكى واثنان من بحارة السفينة «بيريسفيت» من فرنسا. أما ما حدث لاحقا فيتضح من الوثائق الواردة أدناه.

صفحات مجهولة من التاريخ المبكر للطبقة العاملة المصرية.

٢٩ ـ لم نعثر لا فى الصحافة المصرية ولا فى أية مصادر أخرى على وقائع عن هذا الاضراب، إلا أننا نعتقد أنه جرى فى زمن لا يتعدى الأول من شهر يوليو (تموز) ١٨٨٩، أى بعد تنحية إبراهيم توفيق باشا من منصب الحاكم العام لقناة السويس.

٣٠ ـ على وجه التدقيق حدث الإضراب الأول عام ١٨٨٢. اشترك فيه حمالو بورسعيد. للمزيد من التفاصيل راجعوا حولية «نحن والعرب»، موسكو عام١٩٩٠ (باللغة العربية). فى الفترة الزمنية الواقعة بين عام ١٨٨٢ وعام ١٨٩٤ وقعت فى مصر عدة اضطرابات أخرى: لعمال لف السجاير والحمّالين وغيرهم. عن

اضرابات ١٨٩٤ راجعوا مقالة غورياتشكين «صفحات مجهولة فى تاريخ مصر» حولية «نحن والعرب» موسكو عام ١٩٩١ (باللغة العربية).

٣١ ـ «سفن المرابطة» سفن حربية لكبرى الدول العالمية كانت «تناوب» فى هذه النقطة الاستراتيجية أو تلك من الكرة الإرضية بما ذلك فى البحر الأبيض المتوسط أيضًا.

٣٢ ـ أجرى ماهر باشا تحقيقًا خاصًا فى اغتيال ليماسون اتضح أثناءه أنه ليس لأحد من المضربين ضلع فى ذلك.

العلاقات التجارية بين روسيا ومصر

٣٣ ـ سوف نتحدث عن كوفاليفكس بمزيد من التفصيل فيما بعد، فى ذلك القسم من الكتاب الذى سيدور الحديث فيه عن العلاقات العلمية والثقافية بين روسيا ومصر.

٣٤ ـ نود لفت انتباه القارئ إلى موقف أوساط التجار ورجال الأعمال فى أوديسا الذى كان يعكس إلى حد كبير، أمزجة التجار الروس فى ذلك الزمن. فإن فئة رجال الأعمال البرجوازيين فى روسيا، الضعيفة أصلا، كانت ترفض رفضًا قاطعًا إقامة علاقات تجارية ثابتة مع بلدان الشرق. وبالمناسبة نقول إن أوساط رجال الأعمال فى أوديسا رفضت الاشتراك فى الشركة المساهمة لقناة السويس رغم قيام فرديناند دى ليسّيبس شخصيًا بزيارة هذه المدينة ورغم تحريضه الشديد لصالح مشروعه.

فى هذا تتجلى، فى نظرنا إحدى الخصائص الرئيسية لمنشأ البرجوازية الروسية الأمر الذى عين مسبقا، فى آخر المطاف، مصيرها التاريخى. ولكن بعد مرور ١٥ ـ ٢٠ سنة آخذ سلوك رجال الأعمال الروس ولاسيما العاملين فى جنوب روسيا، يتغير تغيرًا حادًا وهم ينظرون إلى اندفاع شركات الغرب الرأسمالية نحو الشرق. راجعوا بهذا الصدد الوثائق اللاحقة فى هذا القسم.

٣٥ ـ إحدى أكبر الشركات المساهمة فى روسيا ـ الشركة الروسية للملاحة والتجارة ـ تأسست بعد حرب القرم مباشرة تقريبًا، فى عام ١٨٥٦، بمكتبتين لها فى أوديسا وبطرسبورغ. كانت هذه الشركة تملك رأسمالاً كبيرًا وشبكة واسعة من سكك الحديد. وفيما بعد ـ وهذا ما سيراه القارئ أيضًا ـ اضطلعت هذه الشركة بدور كبير فى إقامة علاقات تجارية واقتصادية بين روسيا وبلدان الشرق بما فيها مصر. ويدل على ذلك بين أمور أخرى، وجود خطين للاتصال السريع مع مصر. راجعوا أدناه بعض مواد النظام الداخلى لهذه الشركة.

٣٦ ـ الماعون بارجة مكشوفة تنتقل من ضفة إلى أخرى ومن باخرة إلى الضفة ذهابًا وايابًا.

٣٧ ـ ابتداء من هذا البلاغ للقنصل الروسى فى الإسكندرية إيفانوف نورد ١٠ وثائق أرشيفية غير كبيرة حول العلاقات التجارية بين روسيا ومصر نشرها ليباتوف وسولوفيوف فى المجلة الموسكوفية «الأرشيف التاريخى» العدد ٢ عام ١٩٥٩ ص ١٣٦ ـ ١٤٧ (باللغة الروسية).

٣٨ ـ أوفر عرض للعلاقات التجارية والاقتصادية بين روسيا ومصر قبل الحرب العالمية الأولى يوجد فى تقرير البعثة التى زارت الشرق الأدنى عام ١٩١٢ والمعنون: «وزارة التجارة والصناعة. الشرق الأدنى كسوق لتصريف البضائع الروسية. تقرير عن نشاط البعثة التى نظمتها عام ١٩١٢ وزارة التجارة والصناعة لدراسة أسواق الشرق الأدنى». سان بطرسبورغ، ١٩١٣).

٣٩ ـ من دواعى الأسف أن الحرب العالمية الأولى ومن ثم الأحداث المرتبطة بثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى، أوقفت لزمن التطور المتصاعد للعلاقات التجارية والاقتصادية بين روسيا ومصر رغم أنها لم تقض عليها بشكل كامل.

التعاون العلمى والثقافى بين روسيا ومصر

٤٠ ـ ولد يغور بتروفيتش كوفاليفكسى عام ١٨٠٩ فى أوكرانيا من أسرة فقيرة كثيرة الأولاد. فى عام ١٨٢٥ التحق كوفاليفسكى بقسم العلوم الأخلاقية

السياسية لجامعة خاركوف، ولدى انتهائها عُيّن فى دائرة شؤون التعدين والأملاح فى بطرسبورغ. وإذ لم يرغب فى العمل كموظف توجه كوفاليفكس عام ١٨٣٠ إلى ألطاى. لدى وصوله إلى برناؤول عُيّن مساعدًا لمراقب شؤون المدير العام لمصانع كوليفانو = فوسكريسينسك المعروفة آنذاك. غالبًا ما كان يسافر مع فرق تنقيب بحثًا عن الذهب، وسرعان ما أصبح هو نفسه يترأس بعثات كهذه. وفى ألطاى اكتسب أول خبرة فى التنقيب عن الذهب استفاد منها فيما بعد فى الأورال وسيبيريا وفى الخارج. وكانت أمرا مميزًا له الطريقة الشاملة فى استخراج الذهب: فقد كان يتناول جيولوجيا مكامن الذهب سوية مع الخصائص الجغرافية للمكان المعنى ومسائل اقتصاد إستخراج الذهب.

فى إبريل (نسيان) ١٨٣٥ نقل كوفالفيكس إلى الأورال ليحتل منصب كبير نظراء مناجم الذهب فى بيريوزوفسك. وفى الأول من يناير (كانون الثانى) ١٨٣٧ أُرسل كوفاليفسكى الى بطريورغ لمرافقة قافلة الذهب» ولم يعد إلى الأورال إلا بعد مرور ٨ سنوات بصحبة المهندسين المصريين داشورى وعلى محمد اللذين أجرى معهما، من أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٤٥ إلى مايو (أيار) ١٨٤٦ دروسا تطبيقية وجولات فى أرجاء الأورال. وفى إبريل (نيسان) ١٨٤٦ عُيّن مساعدًا لرئيس شؤون التعدين فى منطقة زلاتوأوست ومديرًا لمعمل الأسلحة.

غالبًا ما كان يجرى إيفان كوفاليفكسى إلى الخارج، بوصفه إخصائيا جيدًا بغية تقديم المساعدات فى التنقيب عن الذهب. ففى عام ١٨٣٨ كان فى تشيرنوغوريا التى زارها ثلاث مرات أخرى خلال أعوام ١٨٥١ ـ ١٨٥٥. وفى عام ١٨٣٨ نفسه زار بخارى بدعوى من أميرها لغرض مماثل. وفى مطلع عام ١٨٤١ عين موظفًا للمهام الخاصة لدى القائد الأعلى لفيلق مهندسى التعدين. وفى أواخر عام ١٨٤١ ـ أوائل عام ١٨٤٢ كتب القسم الأول من مذكرات «متجول فى البر والبحار» الذى صدر عام ١٨٤٣.

صيف عام ١٨٥١ أرسلته الحكومة لعقد اتفاق تجارى مع الصين. وفى طريقه إلى هناك درس المناطق المستقصاة قليلاً فى كازاخستان وآسيا الوسطى. كما زار

كوفاليفسكى شمال الهند وأفغانستان . ووصف أفغانستان وكشمير والبنجاب فى القسم الثانى من كتاب «متجول فى البر والبحار» الذى صدر فى عام ١٨٤٥ وفى عامى ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ نقب عن الذهب فى جبال الكاريات وفى اعقاب ذلك ظهر القسم الثالث من كتاب «متجول فى البروالبحار». ومأموريته إلى البلقان والدانواب الأسفل تحدث عنها فى القسم الرابع من كتاب «متجول فى البر والبحار» الذى صدر عام ١٨٤٩ بعد عودته من أفريقيا.

إن التاريخ السابق لهذه الرحلة، التى تهمنا بشكل خاص، هو الآتى: فى عام ١٨٢٠ بدأ محمد على غزو السودان حيث كان يجتذبه إضافة إلى أمور أخرى، ذهب فازوغلى فى جنوب سنّار. وكان يرافق القوات المصرية الفرنسى كالييه الذى لم يستطع، بعد اكتشافه رواسب غير كبيرة حاوية ذهبًا، تدبير عملية غسل الذهب. وفى الحال أرسل محمد على إلى مناطق مختلفة من شرق أفريقيا مجموعات من الباحثين عن الذهب وعلى رأسها باحثون مشهورون عن الكنوز من أوروبا الغربية، هم: روسيغير، بوريانى، لوفيفر، لامبرت. بعد عثورهم على رمال حاوية ذهبًا لم يستطيعوا بلوغ طريقة موحدة لاستخراج الذهب. بعد هذا طلب محمد على المساعدة من الحكومة الروسية. وآنذاك بالذات جاء إلى روسيا المهندسان المصريان الآنفا الذكر.

بعد عودتهما إلى الوطن مباشرة أرسل على محمد وداشورى فى بعثة إلى شرق السودان. وفى أواخر عام ١٨٤٦ ـ أوائل عام ١٨٤٧ بحثًا عن الذهب فى خمس نقاط من النوبة، وفى منطقة شيبونة. وفى مارس ـ إبريل (آذار ـ نيسان) ١٨٤٧ عملاً فى فازوغلى.

كان كوفاليفسكى قد طلب من سينيافين عام ١٨٤٣ إرساله إلى هذه المنطقة. فبالإضافة إلى اهتمامه المفهوم بالمناطق التى لم يرها بعد من مناطق الكرة الأرضية كانت تجتذبه إلى هذا الجزء من أفريقيا مجرد الرغبة فى مساعدة تلميذيه السابقين على محمد وداشورى. وكرر طلبه عام ١٨٤٦ . فرفض مجددا.

تسنى لكوفاليفسكى القيام برحلة إلى أفريقيا بعد طلب حاكم مصر. وبتكليف من أركان مهندسى التعدين وضع أكاديميون معروفون إرشادات لأجل كوفاليفسكى بصدد دراسة جيولوجيا أفريقيا ومناخها، وبشأن استحصال مجموعات عينات جيولوجية ومخطوطات قديمة، وطلب المستشرق الأكاديمى فرين من كوفاليفسكى أن يجلب لأكاديمية العلوم نقودًا عربية قديمة، ونقودا من عصر الوهابين، وأوانى زجاجية عربية قديمة، وأوراق بردى مصرية قديمة ورسومًا من النقوش العربية القديمة وغيرها، ونسخًا عن فهارس شتى المكتبات الشرقية، ومخطوطات عربية وتركية وإيرانية، إلخ... وأرسلوا معه الإخصائى فى العلوم الطبيعية تسينكوفسكى.

طبقًا لتعليمات أركان مهندسى التعدين كان كوفاليفسكى، وهو مازال فى زلاتوأوست، قد اختار فى عداد البعثة معلم تعدين وغاسل رمال، وهما «الأفضلان من حيث مؤهلاتهما، ومعرفتهما للأعمال، وسلوكهما، وقدرتهما الجسدية، ومن حيث العزوبة وقلة أفراد العائلة على الغالب».

بعد الوصول إلى الإسكندرية فى ديسمبر (كانون الأول) ١٨٤٧ انطلقت إلى أعالى النيل، فى ٢٠ يناير (كانون الثانى) ١٨٤٨، بعثة كوفاليفسكى وفى عدادها عالم النبات تسينكوفسكى، وطبيب، والرسام والمعمارى الفرنسى تريمو، ومعلم التعدين بورودين، وغاسل الرمال فومين، وضباط مصريون. خلف أسوان عند كوروسكو،، حيث ينعطف النيل بصورة حادة نحو الغرب فى شكل قوس كبير اتجهت المجموعة برا فى خط مستقيم عبر صحراء النوبة. وبعد اجتياز طريق شاق طوال عشرة أيام بلغوا النيل واستقلوا قاربًا من جديد ووصلوا إلى الخرطوم.

من سنّار حتى بلدة روسيروس عاصمة فازوغلى سافر الرحالة طوال أسبوعين فى قارب عبر النيل الأزرق. ومن روسيروس وصلوا على ظهر الجمال إلى قرية تومات الواقعة على الرافد الأيسر للنيل الأزرق. وفى المجرى الجاف لتومات وصلوا إلى كسّان الواقعة على الحدود بين السودان والحبشة. وفى كسّان

كان يوجد معسكر مصرى لتأمين سلامة الأعمال لدى البحث عن الذهب واستخراجه.

وهنا فى كسّان التقى كوفاليفسكى تلميذيه داشورى وعلى اللذين لم يستطيعا بعد تنقيبهما الناجح عن الذهب، تنظيم غسل الرمال الحاوية له. بعد تجهيز آلة غسل اكتشف كوفاليفكس عدة رواسب حاوية ذهبًا. ووضع تصميم بناء معمل وباشر بتشييده. وتوجه إلى منبع تومات برفقة على وفومين وبمصاحبة فصيل عسكرى بعد أن ترك داشورى بورودين والعمال الآتين من القاهرة فى كسّان للإشراف على التشييد. وإذ وصل إلى ٨ درجات من خط العرض الشمالى واكتشف من جديد رواسب حاوية ذهبا صالحة للاستثمار الصناعى عاد أدراجه. لدى عودته إلى كسّان أكمل بناء المعمل وشغّله بحضور الحاكم العام للسودان.

أثناء التجوال فى أنحاء تومات أجرى كوفاليفسكى معاينات علمية ودرس حياة ومعيشة سكان جنوب شرقى السودان وجنوب غربى الحبشة. وانقطعت هذه الأبحاث من جراء إصابته فجأة بمرض الحمى. وفى ١٦ إبريل (نيسان) ١٨٤٨ كتب من كسّان إلى أركان مهندسى التعدين: «... لقد تغلغلت إلى أبعد من الجميع داخل أفريقيا من هذه الجهة ولكن الأعمال المتواصلة أضنتنى وأصبت بمرض الحمّى، وهو مرض خطر جدًا هنا...». وأرسل كوفاليفسكى كافة مجموعاته من العينات وبعد أن تعافى قليلا انطلق فى طريق العودة. وكان فى وداعه جميع أهالى كسان، وبعد بضعة أيام وصل الرحالة إلى روسيروس. وهنا انفصل تسينكوفسكى عن أفراد البعثة.

تابع كوفاليفسكى طريقه إلى الأسفل عبر نهر النيل. ولكن سرعان ما أصيب جميع مرافقيه تقريبا بالحمّ الاستوائية. وإلى الأسفل من الخرطوم كانت جنادل النيل تعوق السفر فى النهر. وكانوا ينقلون كوفاليفسكى الشديد المرض إما على الحمالات وإما على متن زورق.

أخيرًا، بلغ الرحالة أسوان حيث كانت تنتظرهم باخرة أرسلها محمد على. وفى ١١ يوليو (تموز) ١٨٤٨ وصل كوفاليفسكى إلى الإسكندرية. فى هذا الحين

كان محمد على مصابا بمرض شديد ولذا فقد استقبل كوفاليفسكى إبراهيم باشا. من الإسكندرية توجه كوفاليفسكى على متن باخرة قدمها له إبراهيم باشا إلى القدس ومنها إلى سوريا. ومن ثم وصل إلى بطرسبورغ فى ٣١ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٤٨ عن طريق إيطاليا.

فى التقرير الرسمى بشأن حصيلة البعثة كتب كوفاليفسكى:

«لم يوقفنى فى الطريق لا الخطر ولا الحرمانات ولا حتى المرض. وإذ كنت أعلم أن اهتمام دنيا العلماء كان دائمًا منصبًا على البعثة الموكلة إلىّ فقد سعيت جهدى للحفاظ على كرامة الروسى وتبرير خيار قيادتى. وأتجرأ بأن أسرد هنا نتائج بعثتى ... تم اكتشاف ثلاثة رواسب حاوية ذهبًا وإنشاء معمل لغسل الذهب أسند تسيير أعماله إلى أشخاص محليين تلقنوا القيام بعمل من هذا النوع؛ تدليلا على ذلك فإن الذهب الذى تم استخراجه بحضورى فى المعمل سلمته إلى حاكم مصر. لأجل الجغرافيا تم الحصول على معلومات وفيرة عن بلد الزنوج الممتد على مسافات ضخمة من منابع النيل الأزرق حتى النيل الأبيض والذى لم يتغلغل إليه حتى الآن أى أوروبى رغم جميع جهود الجمعية الجغرافية فى لندن. وتم قياس الضغط الجوى لكثير من المرتفعات وتحديد خطوط عرض نقاط كثيرة بواسطة آلة السدس. وجرى وضع خريطة لأراضٍ غير معروفة حتى الآن وتم جمع مجموعات عينات خاصة بالكثير من فروع العلوم الطبيعية وأخيرا، ورغم جميع تخوفات الحاكم العام لشرق السودان الذى عهد إلىّ بفصيلة، برهنتُ بتغلغلى مع أفرادها بعيدًا فى أعماق أفريقيا على أية أخطار وحرمانات يمكن أن يتغلب عليها عساكر إبراهيم باشا الذى أبدى سرورا بالغا بذلك..».

وعرض كوفالفسكى، فى «وصف الحالة السياسية والتجارية الراهنة للحبشة والسودان» الذى قدمه، تاريخ تغلغل المستعمرين الفرنسيين والانجليز والألمان إلى الحبشة وما تتسم به من أهمية بالنسبة لروسيا إقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع بلدان أفريقيا. وأورد قائمة بسلع الاستيراد والتصدير واقترح تنظيم

رحلات للبواخر على خط اوديسا - القسطنطينية - الإسكندرية بمشاركة الحكومة. على الرغم من أن التجار، كما أسلفنا لم يستحسنوا هذه الفكرة (قلة اطلاعهم على أفريقيا وحاجاتها ولهذا السبب لم يرفعوا على توظيف رساميلهم فى «شؤون جديدة») فإن اقتراح كوفاليفسكى تم إنجازه فى جوهر الأمر، بعد حرب القرم مباشرة التى عجلت فى تحقيق هذا المشروع فى شكل تأسيس الشركة الروسية للملاحة والتجارة.

فى ٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) ١٨٤٨ وبموجب أمر صادر عن أركان مهندسى التعدين جرى تقليد كوفاليفسكى وسام القديسة آنّا من الدرجة الثانية «لقاء أداء تكليف خاص فى الخارج أسند إليه». وفى معرض تهنئة كوفاليفسكى بالوسام كتب فوك يقول إنه «من أجل نيل مكافأة كهذه لم يكن الأمر يتطلب، على ما يبدو السفر إلى مكان بعيد بهذا القدر». ويلاحظ القارئ أن القيصر لم يعط إذنا بمنحه رتبة استثنائية رتبة عقيد. والسبب الرئيسى لذلك هو حرية تفكير كوفاليفسكى وذوده عن آرائه المستقلة وأحيانا الانتقاد الصريح أيضا للآراء الاستبدادية المحيطة به وتعاطفه مع الثورة الفرنسية ومع ممثلى تيارات تقدمية أخرى فى الخارج وفى روسيا.

منح حاكم مصر إبراهيم باشا كوفاليفسكى نيشان الافتخار وهو عبارة عن ميدالية ذهبية ذات رسم ألماسى لطفراء السلطان وهلال ونجمة.

المكافآت لم تبعث السرور فى نفس كوفاليفسكى الذى سرعان ما علم أن القضية ،التى وهبها هذا القدر من الطاقات والصحة لم تحظ بالتطور. ففى ٢٤ من أكتوبر ١٨٤٨ كتب فوك إلى كوفاليفسكى: «فى البدء أبدى الباشا الجديد تحمسًا شديدًا لصناعة استخراج الذهب وطلب معلومات وأرسل إرشادات وعمالاً. أما الآن وقد أصيبَ بمرض، فإنهار كل شىء، وأنا أتخوف كثيرًا من أن كل جهودكم ومساعيكم وأعمالكم ستذهب أدراج الرياح....».

يبدو أن هذه الحالة أدت إلى جعل كوفاليفسكى يؤلف كتاب «رحلة إلى أفريقيا الداخلية» بحمية. ففى مهلة قصيرة للغاية كتب ٢٠ ملزمة. وحظى هذا

الكتاب بتقريظات جيدة من جانب نيكراسوف وتشيرنيشيفسكى وغيرهما من الأدباء الشخصيات الاجتماعية. لقد كان هذا الكتاب موجهًا ضد العنصرية. وعن حب كوفاليفسكى للحرية بات معلومًا لدى القيصر نيقولاى الأول الذى أمر بأن يوجّه باسمه إلى كوفاليفسكى «أشد التوبيخ جزاء تصرفاته الطائشة والوقحة، وبأن يحبس ثمانية أيام، ويوضع من ثم تحت الرقابة الشديدة». لم يجر تنفيذ أمر لقيصر لأن كوفاليفسكى كان، فى ذلك الوقت، عند الحدود الصينية، أما لدى عودته من هذه المأمورية الشاقة للغاية فلم يعد من اللائق تنفيذه.

فى الأعوام التالية نفذ كوفاليفسكى تكليفات مسؤولة فى منغوليا والصين؛ وشارك بنشاط فى عمل الجمعية الجغرافية الروسية.

كان النشاط الأدبى لكوفاليفسكى مثمرًا، إذ إنه ألف عددًا كبيرًا من الكتب. وإبان حرب القرم تعرف على ليف تولستوى وتراسل معه ومع نيكراسوف وتورغينيف. وعمل مديرًا للدائرة الآسيوية التابعة لوزارة الخارجية، واستقال منها عام ١٨٦١. وكان طوال عدة عوامل متواصلة رئيسًا لجمعية مساعدة الأدباء والعلماء المعوزين. فى عام ١٨٦٧ انتخب كوفاليفسكى للمرة السادسة رئيسا لصندوق روسيا الأدبى، وبقى فى هذا المنصب حتى آخر أيام حياته.

توفى يفور بتروفيتش كوفاليفسكى فى ٢٠ سبتمبر (أيلول) ١٨٦٨، ودفن فى كنيسة غوليتسين التابعة لدير سيرغييف (على بعد ١٩ كيلومترًا من بطرسبورغ قرب الساحل الجنوبى لخيلج فنلندة).

٤١ ـ وأشهر (*wasch werd*) آلة غسل فى شكل طاولة منحنية لأجل تركيز الرواسب الحاوية ذهبًا. يكمن مبدأ التركيز بواسطة الواشهرد فى فرز المادة الأولية إلى المركز الثقيل فى الطبقة السفلى والعناصر الخفيفة فى الطبقة العليا.

٤٢ ـ معلومة لدينا رسالتان بعث بهما وإلى حاكم مصر إلى مستشار الدولة نيسيلروديه. أوردنا إحداهما فى نصها الأصلى باللغة التركية القديمة بشكل

ملحق مصورّ، والثانية أوردناها مترجمة من اللغة التركية القديمة إلى اللغة الروسية.

٤٣ ـ ليف سيميونوفيتش تسينكوفسكى، إخصائى روسى شهير فى العلوم الطبيعية (١٨٢٢ ـ ١٨٨٧)، فى عام ١٨٤٤ تخرج من كلية العلوم الطبيعية فى جامعة سان بطرسبورغ حيث درس علم النبات. أبقى لدى الجامعة، وبعد مرور عامين نال درجة ماجستير إثر مناقشته أطروحة علمية بعنوان «بضعة وقائع من تاريخ تطور النباتات الصنوبرية». بعد مرور عام تلقى مأمورية وسافر مع المقدم كوفاليفسكى إلى شمال شرقى السودان. جرى تحضير مأمورية تسينكوفسكى بعناية فائقة. فقد وضع له الأكاديمى بير تعليمات لمعاينة الشعوب الإفريقية. ووضع الأكاديمى ماير إرشادات لدراسة النباتات وجمع عينات منها. استغرقت الرحلة عامين.

فى ملاحظتنا الخاصة بكوفاليفسكى أشرنا إلى أن تسينكوفسكى افترق عنه فى طريق العودة عند قرية روسيروس، وذلك رغبة منه فى مواصلة أبحاثه فى أفريقيا. وبعد وقت قليل أصيب هو أيضا بمرض الحمّى. إلا أنه بقى، رغم ذلك، ثلاثة أشهر فى السودان بغية إجراء معاينات إضافية على عالمى النبات والحيوان أثناء موسم الأمطار الاستوائية. وكان تسينكوفسكى يريد الرحيل من الخرطوم إلى منابع النيل الأبيض إذ إنه كان يعتقد أن المهندسين الفرنسيين أرنو وساباتييه، اللذين وصلا عبر النيل الأبيض إلى ٤ درجات خط العرض الشمالى، قاما بأبحاث لم تكن تتجاوب، فى رأيه، مع «مقتضيات العلم»، وذلك بسبب أن المعاينات الفلكية التى قاما بها لم تكن دقيقة.

وطلب تسينكوفسكى من الجمعية الجغرافية وأكاديمية العلوم تمديد إقامته فى أفريقيا سنة أخرى. إلا أنه لم يتسنّ لتسينكوفسكى، مع الأسف، تحقيق خطته الشيقة لدراسة أفريقيا. وعلاوة على ذلك تلف جزء من مجموعاته أثناء عبوره النيل الأزرق. وكتب تسينكوفسكى فى تقريره عن الرحلة أن المرض أجبره على «التخلى عن محاولة التغلغل الى أبعد فى قلب أفريقيا»، وعلى العودة إلى

القاهرة. غير أن أعمال تسينكوفسكى لم تذهب سدى: فعلى الرغم من المرض نفذ التكليفات التى أسندت إليه، وأغنى متحف الحيوانات ومتحف النباتات التابعين لأكاديمية العلوم «بمجموعات كبيرة كفاية».

بعد مرور عام على عودته من أفريقيا ناقش تسينكوفسكى بشكل رائع أطروحته لنيل لقب دكتور فى علم النبات وكان يعمل رئيسًا لكرسى علم النبات فى جامعة بطرسبورغ. وفيما بعد علّم فى جامعة خاركوف. الاتجاهان الأساسيان لنشاطه العلمى كانا علم الجراثيم والكائنات الحية الدقيقة؛ وهو صاحب عدد كبير من المؤلفات العلمية.

٤٤ - الـ ٩٦ زولوتنيك تعادل جنيهًا واحدًا.

٤٥ - النسخ عن مذكرات كوفاليفسكى هذه موجودة فى أرشيف سياسة روسيا الخارجية.

٤٦ - إن واضع الكتاب، إذ يختتم نشر مواد الأرشيفات المتعلقة بالتعاون العلمى والثقافى بين روسيا ومصر فى أواسط القرن التاسع عشر بوثائق عن مأمورية حامل شهادة البكالوريوس نيقولاى أيلمينسكى إلى المشرق العربى، يُقدم بإدراك تام على الانقاطع لمدة طويلة عن تقديم مواد بداية حتى القرن العشرين للأسباب التالية: أولاً، إن الوفرة الهائلة من الوثائق الموجودة فى الأرشيف عن العلاقات العلمية والثقافية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر تفترض، بلا شك، تخصيص مكان فى الكتاب أكبر بكثير مما هو موجود فى حوزتنا. ثانيًا، إننا ميالون - بغية دراسة مواد الأرشيفات بتعميق وشمولية أكبر، كما فعلنا بالنسبة لكوفاليفسكى والمهندسين المصريين على محمد وداشورى - إلى إهمال السرد البسيط لأكبر عدد ممكن من أمثلة التعاون العلمى والثقافى.

٤٧ - الوثائق الأرشيفية غير الكبيرة الواردة أدناه، وعددها ٢٤ وثيقة، واستقيناها من مجلة «الأرشيف التاريخى». موسكو، ١٩٥٩، العدد الأول، ص ١٤٣ - ١٥٤ (باللغة الروسية). وضعها ليباتوف وسولوفيوف.

شخصيات الثقافة الروسية ومصر

٤٨ - نعتقد أنه ليس ثمة من حاجة لتعريف الجمهور الواسع من القراء العرب على الكاتب الإنسانى الروسى الكبير ليف تولستوى. ففى العالم العربى مطلعون

جيدًا على هذه الشخصية الفذة للحركة الاجتماعية الروسية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ـ أوائل القرن العشرين. فى هذه الحالة يهمنا تراسله القصير الأمد، مع الأسف، مع الشخصية الاجتماعية البارزة مفتى مصر الأكبر محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) الذى لعب دورًا هامًا فى حياة العرب السياسية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ـ أوائل القرن العشرين. إن محمد عبده، الذى كان فى الماضى مشاركاً نشيطًا فى الحركة الاجتماعية المعادية لبريطانيا والخطيب اللامع والكاتب الاجتماعى، قد ترأس فيما بعد فى المشرق العربى ما يسمى التيار التحديثى المرتبط بإصلاح الإسلام. وقدر محمد عبده تقديرًا رفيعا، فى الرسالة التى بعث بها إلى ليف تولستوى فى ياسنايا بوليانا بمحافظة تولا ربيع عام ١٩٠٤ بواسطة المستشرق الإنجليزى سيدنى كوكريلّ، مذهب ليف تولتسوى وتأثير آرائه «على العقلاء» و «على الذين اهتدوا بالفطرة التى فطر الناس عليها» و«على الذين انحرفوا عن سنة الفطرة» و «على الأغنياء والفقراء» إلخ.. وأعلن مفتى مصر فى ختام رسالته أن حكم الكنيسة على تولستوى بالحرمان منها (وهذا بالذات كان السبب الرئيسى للتراسل) ليس سوى اعتراف منها بأنه «ليس من القوم الضالين». ويمكن للقارئ، بالمناسبة، أن يحكم على كل ذلك بنفسه.

أجاب ليف تولستوى على هذه الرسالة برسالة مطولة فى ١٣ مايو (أيار) ١٩٠٤ عرض فيها جوهر معتقداته الفكرية والأخلاقية. فقد أثار السرور فى نفسه التراسل مع الشخصية المتنورة للشرق العربى الذى كان يدين، فى رأيه، بنفس تلك المثل العليا الإنسانية الأخلاقية التى يدين بها هو نفسه. وطلب تولستوى من محمد عبده أن يكتب له عن الحركة البابية (*) فى أوساط العرب التى كانت تثير اهتمامه للغاية.

(*) نسبة إلى باب بهاء الله الذى انشأ مذهبه الدينى فى إيران فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر. المترجم.

ولكنه لم يتلق جوابًا. وبدلاً من ذلك أخبره صديقه القديم سيدنى كوكريلّ أن مفتى مصر الأكبر-محمد عبده توفى بصورة مفاجئة. هكذا انقطع هذا التراسل الشيق الذى ترك للباحثين والقراء مادة للتفكير بالمصائر المشتركة لشعوب مختلفة.

٤٩ ـ فقط بعد مرور بضع سنوات، وبفضل البيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى، أخذت تنشر المؤلفات الممنوعة سابقًا للشاعر والناقد والكاتب الاجتماعى والفيلسوف فلاديمير سيرغييفيتش سولوفيوف (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠) ابن المؤرخ الروسى المعروف صاحب كتاب «تاريخ روسيا منذ أقدم الأزمنة» فى عدة مجلدات.

امتاز فلاديمير سولوفيوف، منذ ريعان الصبا، بالقيام بأبحاث نشيطة فى مسائل العقائد الأساسية. فى أعوام ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣ تعلم فى جامعة موسكو، فى كلية الفيزياء والرياضيات بادئ الأمر، ومن ثم فى كلية التاريخ وعلم اللغة والأدب، وبعد انتهائها قدم امتحانات بصورة باهرة لنيل درجة مجاز،، عند هذا الزمن كان سولوفيوف قد حدد نهائيًا مهمته فى الحياة: المساعدة بنشاط على تحويل العالم بواسطة الجمع العضوى بين المادى والمثالى.

فى حقيقة الأمر كان كل نشاطه المتعدد الجوانب كرس لتحقيق هذا المأرب، وأن التطور اللاحق لآرائه، وتدقيق هذه الآراء وصقلها، لم تتجاوز إطارات برنامج الحياة الذى وضعه فى سنوات الشباب. وبغية تعميق معارفه فى علم اللاهوت والفلسفة ارتاد المحاضرات فى أكاديمية موسكو الدينية عدة مرات بعد إنهائه الجامعة. وابتداء من إبريل (نيسان) ١٨٧٤ استبقى لدى جامعة موسكو «لأجل التحضير لنيل لقب بروفسور فى كرسى الفلسفة». وأثارت مناقشته فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٤ في جامعة بطرسبورغ أطروحته العلمية لنيل درجة ماجستير بعنوان «أزمة الفلسفة الغربية (ضد أصحاب نظرية الوضعية)»، التى باتت حدثًا هامًا فى الحياة العلمية، أثارت أصداء كثيرة جدًا فى الجرائد

والمجلات وجلبت لسولوفيوف شهرة واسعة، وانتخب وأقر فى منصب رئيس كرسى الفلسفة فى جامعة موسكو. بعد هذا بالذات سافر سولوفيوف إلى مصر. وعلى العموم زار مصر مرتين. ونشير، دونما مبالغة، إلى أن مكوثه القصير الأمد فى بلد واحد فقط من بلدان الشرق مارس تأثيرًا عميقًا على «الطريق الفلسفى المعقد والقلق والمتنوع للغاية» لهذا المفكر.

فى ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٧٥ قام رئيس كرسى الفلسفة لدى كلية التاريخ وعلم اللغة والأدب فى جامعة موسكو سولوفيوف بزيارة مصر لأول مرة، ووصل إليها من لندن بصورة غير متوقعة بالنسبة للكثيرين وله هو نفسه بدرجة ما. لقد كان موجودًا فى إنجلترا منذ ٢١ يونيو (حزيران) ١٨٧٥ فى أول بعثة علمية إلى الخارج كان هدفها الرسمى يكمن فى «دراسة آثار الفلسفة الهندية والغنوسطية والقروسطية فى المتحف البريطانى». وهنا أيضا بحث عن جواب على سؤال هام كان يتسم بأهمية رئيسية فى كل حياة وفكر هذا الفيلسوف. ومن ثم توجه بصورة غير متوقعة إلى مصر. كان أحد الأهداف الرئيسية لسفر سولوفيوف إلى وادى النيل زيارة ثيبية القديمة التى كانت تعتبر أقدم مكان سواء بالنسبة للمصريين أم بالنسبة للعبادات المسيحية فيما بعد، هذا المكان الذى اشتهر بفضل عيشته النسكية الأولية واتسم بأهمية عالمية فى تاريخ المسيحية. إن هذه الأسرار السحرية لقدماء مسيحيين مصر هى التى كانت تجتذب سولوفيوف الذى كان يأمل فى الحصول هنا على الهام جديد ولا مثيل له بالنسبة له. ولكنه لم يصل حتى ثيبيّة، وسيعلم القارئ من أشعاره ورسائله إلى روسيا لماذا لم يحدث ذلك.

ولكن من دواعى العجب أن هنا بالذات، فى الصحراء على مقربة من القاهرة، حدث لفلاديمير سولوفيوف، بعد أن أسره البدو فى ٢٥ ـ ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ما أطلق عليه تسمية الرؤيا، وما سمى فى الأدب، فيما بعد، بالأنوثة الخالدة، ولكن ما كان يبدو له فى شكل شخصى. لقد كانت هذه الرؤيا، حسب قول سولوفيوف فى صورة صوفيا إلهة الحكمة العليا التى حاجج بشأنها غير مرة، قبل ذلك، فى

أبحاثه العلمية المتبحرة وفى ذلك الوقت تقريبا نظم سولوفيوف قصيدة «ملكتى اليوم فى هالة لازوردية بكليتها» المكرسة للحدث الآنف الذكر. وهنا أيضًا فى مصر واصل سولوفيوف تطوير موضوع فى قصائد أخرى، مثلاً «لدى ملكتى قصر شامخ».

وفى حين أن سولوفيوف كتب، وهو ما يزال فى لندن، (فى رسالة إلى صديقه الحميم، شريكه فى الرأى، الشاعر والفيلسوف تسيرتيليف، بتاريخ ٢ نوفمبر ١٨٧٥)، أنه سيغادر إلى مصر، «وربما إلى الهند» وأنه لم يغير هذا القرار حتى «الحادثة مع البدو» لم يرد بعد رؤيا ٢٥ - ٢٧ نوفمبر. لقد أتت زيارته لمصر بثمارها. وهنا بالذات تكشّف السر الذى من أجله سافر سولوفيوف إلى الشرق. وقد أشار عالم اللغة والأدب والفيلسوف الروسى والسوفيتى الكبير لوسيف. وفى معرض دراسته إبداع سولوفيوف بما فى ذلك أيضًا فترة وجوده فى مصر، بقوله: «استنادًا إلى جميع هذه المواد أصبح بإمكاننا منذ الآن كشف ذلك السر الروحى الذى صنعه سولوفيوف نفسه من رحلته إلى لندن ومن قراره المفاجئ بالسفر إلى مصر. إن المسألة تكمن فى أن مفهوم صوفيا استقاه سولوفيوف من الأدب القبّالى الذى سافر هو خصيصًا إلى المتحف البريطانى لدراسته. وتحت تأثير الأدب التيوصوفى الذى درسه قرر التوجه إلى مصر. وفى لندن ومصر، على السواء، استولت عليه حالات انفعالية - تأملية فريدة فى نوعها صوّرت له بالذات صوفيا فى هيئة لازورد كونى لامتناهى ذى وجه نسائى. هذا هو بالذات وذلك السر الذى من أجله قام باول بعثة له إلى الخارج (*).

بالإضافة إلى التعرف على معالم مصر كان سولوفيوف يعمل بهمة شديدة. فبعد حصوله على مواد معينة لمواصلة أبحاثه الإبداعية وتطوير أفكاره مدد إقامته فى مصر. فهنا بالذات بدأ يكتب، حسب أقواله، «مؤلفًا ما ذا محتوى صوفى - فلسفى - شعوذى - سياسى وشكل حوارى». وفى وقت لاحق كان ذلك

(*) لوسيف. الولع بالدياليكتيك. تأملات أدبية لفيلسوف. موسكو، ١٩٩٠، ص ١٤٤.

عبارة عن «بحث غير كبير ذى طابع خشن وغير متقن» فى شكل مخطوطة غير مطبوعة باللغة الفرنسية تحت عنوان «Sophie»(صوفيا).

نشير، دون التعمق فى جوهر هذا البحث والأبحاث القادمة لسولوفيوف عن صوفيا، إلا أن صوفيا هى بالنسبة لسولوفيوف حسب تأكيد لوسيف، «الصورة أو الفكرة الأساسية والمركزية، لمجمل تفلسفه ... فقد كان يتصورها بمثابة تماثل لا ينفصم بين المثالى والمادى، أى بمثابة فكرة متحققة ماديًا أو بمثابة مادة متحولة مثاليًا..وهذا النوع بالذات من الأبحاث، كما هو معلوم، كان يثير اهتمام سولوفيوف فى المتحف البريطانى، وهذا النوع بالذات من التأملات كان يأسر لبه فى مصر».

نضيف أن مبحث «صوفيا» كان، من حيث الشكل، فى هيئة حوار بين صوفيا والفيلسوف.

غادر سولوفيوف مصر فى ١٢ من مارس (آذار) ١٨٧٦ والرحلة الثانية إلى مصر قام بها عام ١٨٩٨. فقد كان البعض يعتقدون أنه توجه إلى هناك «إكرامًا لذكريات أيام الشباب من الرحلة المصرية»، والبعض الآخر يفترضون أنه كانت ثمة أسباب متعلقة بتردى صحة المفكر: فقد كان يعانى من التهاب عصبى وضعف فى القلب وتصلب فى الشرايين.

لا توجد أية معلومات تقريبًا عن زيارة سولوفيوف الثانية لمصر، سوى رسالة واحدة. ومعلوم فقط أنه نظم فى مصر عدة قصائد، إحداها «دلتا النيل» التى نشرناها فى الكتاب.

بعد العودة من مصر أمضى سولوفيوف صيف وخريف عام ١٨٩٨ فى قرية بوستينكا عند أصدقائه من آل خيتروفو حيث سبق أن زارهم مرات عديدة. وسبب ظهوره المتكرر هناك هو صوفيا بتروفنا خيتروفو، ابنة أخت صوفيا أندرييفنا تولستايا زوجة الشاعر الكسى تولستوى الذى كانت عزبته موجودة فى هذه القرية. طلب فلاديمير سولوفيوف عدة مرات من صوفيا بتروفنا أن تتزوج

منه، ولكنها رفضت. وحافظ طوال حياته على تعلقه بها. ويرى لوسيف أن هذا الوضع، وصوفيا خيتروفو شخصيًا بدرجة معينة، يقفان وراء اهتماماته الزائدة بمسائل صوفيا.

هنا، فى بوستينكا، وتحت تأثير الرحلتين إلى مصر نظم سولوفيوف قصيدة «ثلاثة مواعيد» التى كانت بالنسبة له «الأفضل والأهم» بين قصائده. لقد كانت وكأنها حصيلة تأملات «صوفيائية» فى شكل شعرى للفيلسوف الروسى البارز قبل وقت قليل من وفاته. فى هذه القصيدة تتجلى بصورة واضحة جدًا ناحية فضائية بشرية الأصل أخرى لصوفيا. فهى ليست مجرد أنوثة خالدة بل إنها تلك الأنوثة الخالدة المتمثلة بالشكل المماثل، كما يؤكد لوسيف، ك «لازوردية سماوية ومحيًا امرأة محبوبة فى الوقت نفسه... وفى قصيدة «ثلاثة مواعيد» يشعر المؤلف بصوفيا ويتقبلها للمرة الأولى كعاشقة، كصديقة أبدية ككائنة موجودة فى اللانهاية وكهدف للطموح الباطنى الشخصى لفيلسوف شاعر...».

ننوه أيضًا باهتمام سولوفيوف الكبير بالإسلام. فنتيجة لاطلاعه الوثيق على القرآن والدين الإسلامى ألف كتاب «محمد وسيرة حياته وتعليمه الدينى» الذى صدر فى سلسلة «سير حياة مشاهير الناس» فى سان بطرسبورغ عام ١٨٩٦.

٥٠ . يقصد سولوفيوف هنا روستيسلاف فادييف (١٨٦٤ ـ ١٨٨٣)، الجنرال، والكاتب العسكرى، وصاحب كتاب «من نكون» الذى أحدث ضجة فى حينه.

٥١ ـ نوفيكوفا ـ صديقة سولوفيوف، أعطته توصية إلى مصر.

٥٢ ـ قبل تسيرتيليف الدعوة ووصل إلى مصر، ولكن فلاديمير سولوفيوف كان قد أصبح يسكن لا فى فندق «آبات» بل فى منزل عند المصور القاهرى دزيريه (حوفظ، بالمناسبة، على صور فوتوغرافية لسولوفيوف فى القاهرة التقطها له دزيريه). فى المنزل نفسه كانت توجد غرفة فارغة، فى الطابق تحته، نزل فيها تسيرتيليف الذى كتب فى مذكراته أن بضعة الأسابيع التى قضاها فى صحبة سولوفيوف فى القاهرة كانت إحدى أفضل ذكريات أيام شبابه. «كان باب غرفته

يطل مباشرة على سطح المنزل حيث كنت وسولوفيوف نجلس فى الأماسى. بعد مرور زهاء عشرين سنة ظهرت لدى سولوفيوف مجددا، على ما يبدو، الرغبة فى معاودة تلك المشاعر عندما «كانت جديدة علينا جميع انطباعات الكيان». ولهذا بالذات كُرست القصيدة التى نظمها سولوفيوف فى أواخر ديسمبر (كانون الأول) ١٨٩٦ (إلى صديق أيام الشباب»).

٥٣ ـ ستاسيوليفيتش ـ محرر مجلة «بشير أوروبا» الروسية التى كان سولوفيوف ينشر فيها ويتعاون معها.

٥٤ ـ ملكيصادق (ملك سالم أو أورشليم) ـ اسم يتضمن تسمية إله عموم الساميين، معاصر إبراهيم.

٥٥ ـ المغنى الروسى البارز فيودور إيفانوفيتش شاليابين (١٨٧٣ ـ ١٩٣٨) ولد فى قازان، على نهر الفولغا، من أسرة موظف صغير فى مكتب. لم يصبح مغنيًا دفعة واحدة: فقد عمل سكافا، وخراطا، وناسخا، ولع بالمسرح منذ صباه. وابتداء من عام ١٨٩٠ كان عضو كورس فى فرقة أوبرا صغيرة. وفى عام ١٨٩٢ بدأ عمله المسرحى الممتهن فى تبيليسى. وفى عام ١٨٩٦ التحق بمسرح أوبرا مامونتوف الروسى الخاص فى موسكو حيث تفتحت موهبته، كانت تتسم بأهمية خاصة بالنسبة لشاليابين الدروس والصداقة الإبداعية اللاحقة مع الملحن وعازف البيانو الروسى الشهير رحمانينوف. وفى عام ١٩٠١ غنى بنجاح فائق فى مسرح أوبرا «لاسكالا» بميلانو. وسافر مرات كثيرة إلى الخارج. بعد انتصار ثورة أكتوبر شارك فى إنشاء الثقافة الجديدة، وكان حتى مديرا لمسرح للأوبرا والباليه مارييسكى فى لينينغراد عام ١٩١٩. وفى عام ١٩٢٢ سافر إلى الخارج فى جولة فنية ولم يعد. وعاش فى باريس. وحافظ فى إبداعه على الإخلاص لأفضل تقاليد الفن الروسى، وبقى فنانا روسيا حتى آخر أيام حياته. وكتب غوركى: «الاناس من أمثاله إنما يظهرون لكى يذكّرونا جميعًا: أترون كم هو الشعب الروسى قوى وجميل وموهوب! ها هو إنسان من لحم ودم هذا الشعب اجتاز

بقواه مماحكات الحياة ومضايقاتها لكى يقف باعتزاز إلى جانب خيرة أناس العالم، لكى يغنى لجميع الناس عن روسيا ويبرهن للجميع كم هى ـ من الداخل، فى عمقها ـ موهوبة وهائلة وفاتنة. يجب علينا أن نحب روسيا، إنها تستحق ذلك، إنها غنية بقواها العظيمة وجمالها الفاتن. عن هذا بالذات يغنى ساليابين دائمًا، وإكرامًا لهذا بالذات يحيا، ولأجل هذا ينبغى علينا أن ننحنى أمامه شاكرين... إن فيودور أفانوفيتش شاليابين سوف يكون دائمًا كما هو: صيحة ساطعة وهّاجة وبهيجة إلى العالم بأسره: هاك هى الروسيا، وهاك هو شعبها فأفسحوا أمامه الطريق، وامنحوه الحرية!» (من رسالة غوركى إلى بورينين، فى سبتمبر (أيلول) ١٩١١).

إن شاليابين، أحد أعظم ممثلى المدرسة الغنائية الروسية والفنان الأصيل الوطنية، ورفع الفن الموسيقى ـ الدرامى الروسى إلى علو لم يسبق له مثيل. وكان يجمع فى ذاته موهبة المغنى والممثل الدرامى. إن صوت المغنى (المرتفع الحدة) ذا الجرس الفريد فى نوعه من حيث النعومة والجمال، الذى يجمع بين صفاء الرنة والعمق والقوة الشديدة، كان يتيح التعبير عن مجموعة متنوعة من الانفعالات ـ ابتداء من الرقة العاطفية السارة وحتى الحماس التراجيدى والتهكم اللاذع. كان يستهوى شاليابين فى الأوبرا، بالدرجة الأولى، كشف الطابع المتعدد الجوانب لعالم البطل الباطنى وكل مدى تعقده وتناقضاته. وكان أداء هيأتى بوريس غودونوف ومافيستوفيل أعظم إبداع من إبداعات شاليابين. كان شاليابين أعظم مغنى حجرة، ومؤديًا موهوبًا لرومانسات غلينكا، ودارغوميجسكى، وريمسكى ـ كورساكوف، وموسورغسكى، وتشايكوفسكى، وروبينشتاين، وشومان، وشوبرت. كما كان مؤديًا عاطفيًا للأغانى الشعبية الروسية.

مكث فى مصر فى مارس إبريل (آذار ـ نيسان) ١٩٠٣ طلبًا للراحة وبغية التعرف على هذا البلد الغريب البعيد وتكوين انطباعات جديدة. وتتحدث مقاطع من كتاب أحد مرافقى شاليابين عما شاهده وأحس به فى مصر الفنان الروسى الشهير.

٥٦ ـ يبدو أن المقصود هنا هو قمبيز الثانى، ملك الفرس، ابن قورش الثانى. فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد استولى قمبيز الثانى على مصر وقام بحملة على ليبيا والنوبة.

٥٧ ـ المقصود هنا الوكيل الدبلوماسى والقنصل العام الروسى فى مصر سميرنوف. وقد وصل به الأمر فى حينه حتى للتجرؤ على مناقشة الحائز لاحقًا على جائزة نوبل (عام ١٩٣٣) فى مجال الأدب الكاتب الروسى فى المهجر منذ عام ١٩٢٠ إيفان بونين. ولكيلا نبدو متحيزين نورد مقطعًا من رسالة سميرنوف إلى صديق له زار مصر غير مرة للعمل والراحة هو مولتشانوف رئيس الإدارة العامة للشركة الروسية للملاحة والتجارة ورئيس الجمعية المسرحية الروسية. يعود تاريخ رسالة سميرنوف من القاهرة إلى ٢ فبراير (شباط) ١٩١٥.

«... لقد أزمعت منذ زمن بعيد على توجيه رجاء إليكم، عزيزى أناطولى يفغرافوفيتش! ألا تعرفون أحدًا ما يمكن أن يمارس تأثيرًا على هيئة تحرير «نيفا» (*). مرد ذلك إلى أننى أود أن يصدروا مجموعة كاملة لمؤلفاتى كجائزة للمجلة. إن ذاك، بالطبع، لن يصدر فى حلة زاهية، ولكن كمية النسخ ستكون، بالمقابل، كبيرة جدا، والتوزيع واسع النطاق ـ فذلك شهرة كما يقال.

علاوة على ذلك، أنهم يدفعون مبالغ لا بأس بها؛ أما الآن، عندما يمنحون جائزتى مامين ـ سيبيرياك وبونين كمكافأة، فربما أستطيع أنا أيضًا التجرؤ على تقديم ترشيحى. إن ذلك من شأنه، بلاشك، أن يزيد من ذياع صيت اسمى ويسهل فيما بعد الإقدام على إصدار مؤلفات أكثر وزنًا ورونقًا...

من الأشعار والنثر والمقالات الهزلية والنبذ عن انطباعاتى وملاحظاتى من رحلاتى يمكن أن تجتمع لى مواد متنوعة تكفى لـ ٤ ـ ٥ مجلدات. ما رأيكم فى

(*) «نيفا» ـ مجلة أدبية = فنية وعلمية تبسيطية مصورة أسبوعية صدرت في بطرسبورغ من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٨. كانت مخصصة لعدد واسع من القراء. فى أعوام ١٨٩٤ ـ ١٩١٦ صدرت ملاحق أدبية شهرية تضم مجموعات مؤلفات مشاهير الكتاب.

فكرتى؟ اظن فقط أنه ينبغى التعجيل فى ذلك، لأنهم يعتقدون اتفاقًا سلفًا على الأرجح...» (أرشيف الدولة المركزى للتاريخ، لينينغراد، الملف ٦٧٨، الإضبارة ١، المستند ١٣٤٥، أعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٥، ص ٢٠ ـ ٢٠ ظهر).

لا تتوفر لدينا أية معلومات لا عن جواب مولتشانوف إلى سميرنوف، ولا عن بقية مشروع سميرنوف حول إصدار مؤلفاته الأدبية. إن هذا الموضوع، شأنه شأن شخصية آخر سفير روسى فى مصر، يتطلبان بحثا خاصا.

٥٨ ـ الشاعرة الأوكرانية ليسيا أوكراينكا (اسمها الحقيقى لاريسا بتروفنا كفيتكا) ولدت عام ١٨٧١ فى نوفغورود = فولينسكى، وتوفيت عام ١٩١٣، فعاشت ٤٢ سنة فقط. مؤلفة العديد من مجموعات ومسلسلات الأشعار العاطفية والقصائد والمقالات الانتقادية. تأثرت بأفكار الديمقراطيين الثوريين، وبشعر شيفتشينكو. مسرحياتها وقصائدها الدرامية مكتوبة، على الغالب، فى مواضيع تاريخية وميثولوجية ويتخللها حماس ثورى.

لا يمكن للمرء، استنادًا إلى ذكريات معاصرى ليسيا أوكراينكا ولا من مراسلاتها، أن يكوّن تصورًا كاملاً عن روابطها مع الحركة الديمقراطية. الثورية، فوق أنها كانت روابط مموهة. ولا يسعنا سوى الافتراض والتكهن بشأن الكثير من نشاطها الثورى. إلا أنه ليس ثمة من شك فى أن الشاعرة كانت على تخالط وثيق مع الحلقات الماركسية، وكانت على ارتباط مع الشبيبة الاشتراكية = الديمقراطية.

أمضت ليسيا أوكراينكا ثلاثة فصول شتاء متوالية أعوام ١٩١٠ ـ ١٩١٢، بسبب مرضها الشديد، فى حلوان بمصر. ومن خلال موشور المواد المنشورة فى هذا الكتاب ـ رسالتها، أشعارها، ذكرياتها عن إقامتها فى مصر ـ يمكن للمرء أن يحكم على المستوى الرفيع لشعرها، وموقفها من نظام الاحتلال، والأهم: من مصر والمصريين بوصفها ممثلة للحركة الديمقراطية فى روسيا.

الفهرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٤٦٣ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8278 - 8



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١١٠٠ قرش